سلسلة الرسائل الجامعية (٦)

التقوى في القرآن الكريم

دراسة في التفسير الموضوعي

لفضيلة الشيخ

محمد الدبيسي

حفظه الله

دار المحدثين

للبحث العلمي والترجمة والنشر

التقوى
في القرآن الكريم
دراسة في التفسير الموضوعي

هذه رسالة علمية في التفسير الموضوعي
حصل عليها المؤلف بتقدير «ممتاز»

لفضيلة الشيخ

محمد الدبيسي حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م

رقم الإيداع
٢٠٠٨/١٦٢٧٨

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الدبيسي، محمد.
التقوى في القرآن الكريم، دراسة في التفسير الموضوعي/ محمد الدبيسي، ط٢.
القاهرة، دار المحدثين
٢٠٠٨م؛ ٤٩٧ص؛ ٢٤سم.

تدمك ٩٧٨٩٧٧٦٣١٧٠٣١
١- القرآن، تفاسير حديثة.
أ. العنوان

٢٢٧,٦

دار المحدثين للبحث العلمي والترجمة والنشر
الإدارة والمركز الرئيسي: ٧٦أ ش جسر السويس - ميدان الألف مسكن - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٩٣١٠٧٤(٠٠٢٠٢)
رئيس مجلس الإدارة: ٠١٢/٧٧٥٥٩٥١(٠٠٢)
الإدارة والمبيعات: ٠١٢/٥٠٢٧٢١٢(٠٠٢) ٠١٢/٧٠٤٢٥٧٠(٠٠٢)
فرع الأزهر: ٣ش الدرديري من ش البيطار درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
البريد الالكتروني: muhaddethin@yahoo.com

سلسلة الرسائل الجامعية

التقوى في
القرآن الكريم
دراسة في
التفسير الموضوعي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ

إِمَامًا ﴾

صدق الله العظيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

القرآن الكريم كتاب الله تعالى الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولما كان هدف القرآن الأصلي هداية الناس إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم، وجب الإقبال عليه بالفهم والتدبر والتلاوة والحفظ والعلم والعمل والدعوة إليه.

وكان أول ما لفت النظر عند محاولة تدبره أن أول آيات القرآن الكريم في سورة البقرة ذكرت أن هذا القرآن هدى للمتقين، أى أن هدايته خاصة بالمتقين لا غير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ١، ٢]، مع أنه هدى لكل الناس كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولكنها الهداية العامة التي هى الدلالة على الحق وتبيينه. أما الهداية الخاصة فليست إلا للمتقين.وكانت هذه الآية سبب هذا البحث إذ رُكِّزَ في ذهن الباحث أن الهداية للمتقين، ووقر في روعه كذلك أن القرآن الكريم لابد أنه بين صفات هؤلاء المتقين، ليفتح الباب أمام الناس لتحصيل هذه الهداية، فكان هذا البحث.

والمنهج الذي اتبعه الباحث هو منهج التفسير الموضوعى المعتمد على إحصاء مواضع التقوى في القرآن الكريم، واستكمال الفكرة واستقصائها، وفهم المعانى والأغراض وربط الآيات بعضها ببعض واستخلاص النتائج.

وقد واجهت البحث صعوبات كثيرة، نوجز بعضها:

أولاً: قلة المصادر والشروح لموضوع التقوى، فالتفاسير المعتمدة كلها كان

الكلام فيها مختصراً موجزاً، لا يفى بالغرض بل إن مواضع كثيرة لم يكن لها تفسير أصلاً، ولم يشر إليها المفسرون.

ثانياً: أوقعت الصعوبة الأولى في صعوبة أخرى، وهى تفسير القرآن بالرأى، والتصدى لتلك المهمة، حيث قال ﷺ فيما يرويه ابن عباس ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار».(١)

ثالثاً: لم يكن هناك برغم أهمية الموضوع دراسة وافية لموضوع التقوى من الناحية العلمية، والكتاب الوحيد الذي خصص للتقوى - في حدود علمى - هو «التقوى في الكتاب والسنة وسير الصالحين» للدكتور محمد أديب الصالح، دار القلم دمشق، وهو كتاب يميل إلى الأدب والموعظة، لا إلى الدراسة العلمية، وهناك رسالة «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى» للعلامة تاج الدين عمر بن على اللخمى المعروف بالفاكهانى المتوفى ٧٣٤هـ (تحقيق وتعليق: محمد يحيى بيدق، مؤسسة الريان، بيروت)، وهى في عدة ورقات في تعريف التقوى، ومنازلها وعاقبتها، وقد أفدت منها في ذلك. ثم بعد أن فرغت من هذا البحث رأيت رسالة أو بحثاً فى: «آثار التقوى في القرآن الكريم» لراوية نور الدين عتر (دار المكتبى، دمشق)، وهو لا يزيد عن جزء من كتاب الدكتور أديب الصالح في جزئية آثار التقوى في الدنيا والآخرة، أو ملخصاً له في هذه الجزئية، وكل ذلك بأسلوب عاطفى أدبى.

رابعاً: من الصعوبات التي واجهتنى كانت نقل الكتابة في موضوع التقوى من العاطفة والأدب إلى الطريق العلمية في الكتابة، وكان ذلك من أصعب الصعوبات إذ اضطررت بسببها إلى تخفيض حجم الرسالة إلى ثلثها أو قريب من

---

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، مكتبة التراث الإسلامى، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، المقدمة، (١/ ٤)، وقال: رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

نصفها، وكان عبئاً ثقيلاً كأننى أكتب الرسالة من جديد.

وأما أهم المراجع فكانت:

كتب التفسير الخاصة بالقرآن: مثل: «جامع البيان» للطبرى، و«المحرر الوجيز» لابن عطية، و«الكشاف» للزمخشرى، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، و«التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور.

وكتب الحديث: «صحيح البخارى»، وشرحه«فتح البارى» لابن حجر العسقلانى. و«صحيح مسلم»، وشرحه «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للإمام النووى.

وكذلك المعاجم كـ«أساس البلاغة» للزمخشرى، و«لسان العرب» لابن منظور، علاوة على كتب السيرة والشعر والتراجم.

وقد تكون البحث من مدخل وخمسة فصول.

❁ المدخل: **وفيه مطلبان:**

١. اتجاهات التفسير.
٢. التفسير الموضوعى.

❁ الفصل الأول: مفهوم التقوى: **وفيه عشرة مطالب:**

١. مادة التقوى ومعناها.
٢. صور المادة إحصائياً وترتيبها.
٣. معنى التقوى في الشرع.
٤. ولكن يناله التقوى.
٥. محل التقوى.
٦. لباس التقوى.
٧. كلمة التقوى.
٨. خير الزاد التقوى.

٩. بقية مواضع التقوى.

١٠. التقوى أساس **قبول العمل**.

❁ الفصل الثانى: أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها: **وفيه ثلاثة مطالب**:

١. النصوص الواردة في الأمر بالتقوى.

٢. أساليب **الأمر بالتقوى من حيث**:

أ. المأمور به.

ب. المضاف إلى التقوى (معمولات التقوى).

١. **الأوامر والنواهى المصاحبة للأمر بالتقوى تفسير النصوص الواردة فيه.**

❁ الفصل الثالث: التقوى دعوة الرسل: **وفيه أربعة مطالب**:

١. تفسير نصوص دعوة الرسل إلى التقوى.

٢. التكرار في الأمر بالتقوى إشاراته وحكمه.

٣. تنوع أساليب الأنبياء في الأمر بالتقوى.

٤. مدى اتفاق **أسلوب دعوة إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك.**

❁ الفصل الرابع: أسباب التقوى: **وفيه خمسة مطالب**:

١. الإيمان.

٢. العبادة.

٣. الأخلاق والسلوك.

٤. التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة.

٥. صفات المتقين.

❁ الفصل الخامس: عاقبة التقوى: **يبدأ بتمهيد في محبة الله ومعيته وولايته لأهل التقوى، ثم ثلاثة مطالب**:

١. فى الدين:

أ. الفرقان مع التقوى.

ب. التقوى سبب الهداية.

ج. الانتفاع بالآيات المتلوة والمشاهدة لأهل التقوى.

٢. فى الدنيا:

أ. المخرج والرزق والتيسير.

ب. العاقبة للتقوى.

٣. فى الآخرة:

الفوز بالجنة والنجاة من النار.

❁ خاتمة: في عرض أهم نتائج البحث والتوصيات.

هذا وينبغى الإشارة إلى أن موضوع التقوى ما هو إلا لبنةٌ في خدمة القرآن الكريم من الناحية الموضوعية، وإسهامٌ متواضعٌ في إظهار أن القرآن الكريم، ما زال مرتعاً خصيباً لأهل العلم، لم توف أبحاثه بالقدر المطلوب، يجد كل باحث فيه بغيته، مع الإقرار بأن موضوع التقوى ذاته، يمكن أن يكون هناك مجال لكلام آخر فيه، بزيادة البحث ومزيد التأمل، والمطالعة، بعد فتح الله تعالى.

مدخل

مدخل
المطلب الأول
اتجاهات التفسير

للدخول إلى الكلام على التفسير الموضوعى ينبغى أن نعطى لمحة سريعة عن اتجاهات التفسير بغير كبير خوض في ذلك، إذ هو مستوف في مظانه، معلومٌ لمن عالج شيئاً من علم التفسير، بل ذلك لزوم البحث.

لقد مر علم التفسير بمراحل عدة حتى اتضحت مدارسه، وتمايزت مناهجه، وظهر أعلامه.

وأولى تلك المراحل كانت مرحلة التفسير في عهد النبى ﷺ وأصحابه الكرام؛ فكان رسول الله ﷺ مصدر التفسير للصحابة الكرام. فلما انتقل ﷺ إلى مولاه، كان مصدر الصحابة في التفسير: القرآن الكريم، ثم سنة النبى ﷺ ، وثالثاً: الاستنباط المبنى على معرفة اللغة ومشاهدة حال الرسول ﷺ ومعرفة أسباب نزول الآيات وملابساتها، علاوةً على قوة فهمهم وسلامة فطرتهم وسليقة لسانهم. وقد أضاف الدكتور/ محمد حسين الذهبى(١) مصدراً رابعاً هو أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وإن كنت قد استغربت إضافته لهذا المصدر؛ لوصول نهى النبى ﷺ للصحابة ألا يصدقوا أهل الكتاب ولا يكذبوهم فيما سكت عنه القرآن، ولأن عدم نقل المفسر عن أهل الكتاب وخلو التفسير من الإسرائيليات يعتبر مدحاً له. فكيف يتخذ الصحابة الكرام ذلك مصدراً لتفسيرهم؟! وقد أورد «الذهبى» نفسه أن العلماء كانوا يتقون تفسير الإمام المفسر «مجاهد بن جبر»

---

(١) محمد حسين الذهبى «التفسير والمفسرون»، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، مكتبة وهبة القاهرة، (١/ ٤٢).

لسؤاله أهل الكتاب.[١]

ولقد تكلم كثيرٌ من الصحابة في تفسير القرآن الكريم، منهم الخلفاء الأربعة وغيرهم.[٢] وأشهر من أثر عنه ذلك فهم: عبد الله بن عباس[٣]، وعبد الله بن مسعود[٤]، وعلى بن أبى طالب[٥]، وأبى بن كعب[٦] ﷺ.

وتميزت هذه المرحلة بعدم تفسير القرآن كله، وبقلة الاختلاف في فهم المعانى، مع الاقتصار على توضيح المعانى اللغوية، وكذلك بعدم التدوين.

وأما ثانى مراحل التفسير، فكانت في عصر التابعين الذين تتلمذوا على

---

(١) محمد حسين الذهبى «التفسير والمفسرون»، (١/ ١١٤).

(٢) انظر عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد السيوطى «الإتقان في علوم القرآن»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٧٤م، مجلد٢، (٤/ ٢٣٣).

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ربانى أمة محمد ﷺ وأعلمها بكتاب الله تعالى وأفقهها بتأويله. ولد قبل البعثة بثلاث سنوات عمَّر إحدى وسبعين عاماً، وتوفى عام ٥٥هـ، انظر ابن الجوزى «صفة الصفوة»، (١/ ٣١٤-٣١٩).

(٤) عبد الله بن مسعود بن غافل، أسلم قديما، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً، والمشاهد بعدها، لازم النبى ﷺ، قال فيه الرسول ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»، توفى ٣٢هـ، انظر ابن الأثير «أسد الغابة»، (٣/ ٣٨٤)، وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٧/ ١٦٢- ١٦٣).

(٥) على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن عم رسول الله ﷺ، أول الناس إسلاماً، زوَّجه النبى من ابنته فاطمة عليها السلام، شهد المشاهد كلها مع الرسول إلا تبوك، وقال له أنت منى بمنزلة هارون من موسى، توفى ٤٠هـ، أنظر ابن الأثير «أسد الغابة»، (٤/ ٩١) وما بعدها.

(٦) أبى بن كعب بن قيس الأنصارى، سيد القراء من أصحاب العقبة الثانية، شهد بدراً، والمشاهد كلها، أخرج الأئمة أحاديثه في صحاحهم، أول من كتب للنبى ﷺ، توفى ٣٠هـ، انظر ابن الأثير «أسد الغابة»، (١/ ٤٩-٥٠).

أيدى الصحابة ونقلوا عنهم. وقد اعتمد هؤلاء على فهمهم لكتاب الله، وعلى ما رواه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وكذلك على تفسير الصحابة، ثم اجتهادهم.

وقد نشأت في هذه الفترة مدارس مختلفة للتفسير:

أولاها: مدرسة التفسير بمكة. والتي قامت على عبد الله بن عباس ﷺ. وكان أشهر رجالها: سعيد بن جبير(١)، ومجاهد بن جبر(٢)، وعكرمة مولى ابن عباس(٣)، وطاووس بن كيسان اليهانى(٤)، وعطاء بن أبى رباح.(٥)

وثانيها: مدرسة التفسير بالمدينة. وكان أشهر رجالها: أبا العالية رفيع بن

---

(١) سعيد بن جبير حبشى الأصل، كان - رحمه الله - من كبار التابعين، ومقدمهم في التفسير والحديث والفقه والقراءات. قتل في شعبان ٩٥هـ، وهو ابن تسع وأربعين سنة، قتله الحجاج، وله مناظرة معه قبل موته. انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٩/ ٩٦-٩٨)، وانظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٤/ ١٣-١٤).

(٢) مجاهد بن جبر المكى المقرئ المفسر أحد الأعلام الإثبات ولد ٢١هـ في خلافة عمر ﷺ توفى ساجداً في مكة ١٠٤ هـ، اعتمد البخارى تفسيره، انظر النووى«تهذيب الأسماء واللغات»، (٢/ ٨٣).

(٣) عكرمة أبو عبد الله مولى ابن عباس أصله مغربى من البربر، روى كذلك عن أبى هريرة و على بن أبى طالب و غيرهم، وقد وثقه الأئمة الثقات كالبخارى ومسلم والإمام أحمد، وشهدوا له بالثقة والقرآن، ت ١٠٤هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٧/ ٢٦٣-٢٧٣)، وانظر النووى «تهذيب الأسماء واللغات»، (١/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٤) طاووس بن كيسان: الحميرى الجندى مولى، روى عن العبادلة الأربعة، كان عالماً متقناً خبيراً بمعانى كتاب الله تعالى ورعاً أميناً توفى بمكة ١٠٦ هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٥/ ٨-١٠)، وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٩/ ٢٣٥-٢٤٤).

(٥) المكى القرشى مولاهم ولد سنة (٢٧هـ) توفى (١١٤هـ) روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث وانتهت إليه فتوى أهل مكة، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب» (٧/ ١٩٩-٢٠٣)، وانظر ابن كثير «البداية والنهاية» (٩/ ٣٠٦-٣٠٩).

مهران[١]، ومحمد بن كعب القرظى[٢]، وزيد بن أسلم.[٣]

وثالثها: مدرسة التفسير بالعراق. وقد قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود ﷺ. وكان أشهر رجالها: علقمة بن قيس[٤]، والحسن البصرى[٥]، وقتادة بن دعامة السدوسى.[٦]

وقيمة تفسير التابعين أن ما اتفقوا عليه فهو حجة، وأما ما اختلفوا فيه فيرجع فيه إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة. وتميز تفسيرهم بكثرة الإسرائيليات واعتماده على الرواية والتلقى، وظهرت فيه نواة

---

(١) أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبى ﷺ لسنتين، روى عن على، وابن مسعود، وابن عباس، وهو من ثقات التابعين المشهور مجمع على ثقته، توفى ٩٠هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٣/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) من حلفاء الأوس، روى عن على وابن مسعود وابن عباس، اشتهر بالثقة والعدالة وكثرة الحديث وتأويل القرآن، ت١١٨هـ، انظر ابن كثير «البداية والنهاية» (٩/ ٢٥٧-٢٥٩).

(٣) زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، من كبار التابعين، عرف بغزارة العلم، ثقة، ت١٣٦هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب» (٣/ ٣٩٥ - ٣٩٧).

(٤) ولد في حياة الرسول ﷺ ، روى عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود، كان ثقة مأموناً، على جانب كبير من الورع والصلاح، وروى له أصحاب الكتب الستة، ت٦١هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (١/ ٢٧٦-٢٧٨).

(٥) الحسن بن أبى الحسن البصرى، ولد في خلافة عمر ونشأ بوادى القرى، كان فصيحاً ورعاً زاهداً عالماً فقيهاً مأموناً، ت١١٠هـ. انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤)، انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (٩/ ٢٦٦-٢٢٦٧).

(٦) عربى الأصل، روى عن أنس وأبى الطفيل، كان قوى الحافظة، واسع الإطلاع، متضلعاً في اللغة، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير، ت١١٧هـ، انظر ابن خلكان «وفيات الأعيان»، (٢/ ١٩٧)، ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٨/ ٣٥١ - ٣٥٦).

الاختلافات المذهبية.

وأما مراحل التفسير بعد هاتين المرحلتين، فبدأت بمرحلة التدوين، حتى أصبح التفسير علماً قائماً بذاته، وكان ذلك على أيدى طائفة من العلماء، كابن ماجه(١)، وابن جرير الطبرى.(٢) ولقد نحا التفسير في تلك المرحلة اتجاهاتٍ مختلفة:

الأول: التفسير بالمأثور، مثل: «المحرر الوجيز» لابن عطية(٣)، «جامع البيان في تفسير القرآن» لابن جرير، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير(٤)، و«الدر المنثور» للسيوطى.(٥)

---

(١) أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزوينى، أحد الأعلام، ألف سننه المشهورة إحدى الأمهات الست ، توفى ٢٧٣ هـ، انظر ابن حجر «تهذيب التهذيب»، (٩/ ٥٣٠ – ٥٣٢).

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى (أبو جعفر) ولد عام ٢٢٤هـ، ٨٣٩م مفسر، مقرئ، محدث، مؤرخ، أصولى، مجتهد، استوطن بغداد وتوفى ليومين بقيا من شوال في بغداد عام ٣١٠هـ، ٩٢٣م، انظر الإمام الذهبى «سير أعلام النبلاء»، (٩/ ٢٠٦-٢١١).

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن المعروف بابن عطية المحاربى ولد عام ٤٨١هـ، ١٠٨٨م، عالم مشارك في الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والأدب ورحل إلى المشرق وتوفى ٥٤١هـ، وأشهر مؤلفاته «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» . انظر السيوطى «بغية الوعاة»، (ص ٢٩٥).

(٤) هو إسماعيل بن عمر بن كثير ولد عام ٧٠٠هـ، محدث، مؤرخ، مفسر، فقيه وتوفى بدمشق عام ٧٧٤هـ، من تصانيفه «البداية والنهاية» انظر الشوكانى «البدر الطالع»، (١/ ١٥٣).

(٥) هو عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد السيوطى، الشافعى عالم مشارك في أنواع من العلوم ولد عام ٨٤٩هـ، وتوفى في جمادى الأولى عام ٩١١هـ، من مؤلفاته الإتقان في علوم القرآن، انظر السخاوى «الضوء اللامع»، (٤/ ٦٥-٧٠).

الثاني: التفسير بالرأى. والمقصود بالرأى هنا: الاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب. وقد اختلف العلماء من قديم في جواز التفسير بالرأى بين مجيز ومعارض.[(١)] ومن أهم كتب التفسير بالرأى الصحيح: «مفاتيح الغيب» للرازى.[(٢)]

وأما التفسير بالرأى المذموم كتفسير الفرق المبتدعة مثل المعتزلة والشيعة ، حيث اعتمدت الأولى على الأصول الخمسة المعلومة، والتي لا تتفق مع مذهب أهل السنة والجماعة، وهى: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،والمنـزلة بين المنـزلتين. ومن أهم كتب التفسير الاعتزالى: «الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» للزمخشرى[(٣)]، أما أهم كتب التفسير عند الشيعة فهو «مجمع البيان في تفسير القرآن» للطبرسى[(٤)] [(٥)].

---

(١) انظر: ابن تيمية «مقدمة في أصول التفسير»، (ص ٢٨- ٢٩). والسيوطى «الإتقان في علوم القرآن» (٢/ ١٧٩).

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسين،كان إماماً في التفسير والكلام ، والعلوم العقلية وعلوم اللغة ولد عام ٥٤٣هـ وله مؤلفات عديدة أشهرها «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب»، وتوفى رحمه الله عام ٦٠٤هـ. انظر الإمام بن كثير «البداية والنهاية»، (١٣/ ٥٥).

(٣) هو محمد بن عمر بن محمد الخوارزمى الزمخشرى، مفسر، محدث، متكلم، نحوى، لغوى، بيانى، أديب ولد بزمخشر عام ٤٦٧هـ، ١٠٧٥م، من تصانيفه الكثيرة «الكشاف عن حقائق التنـزيل»، وتوفى عام ٥٣٨هـ، انظر السيوطى «طبقات المفسرين»، (ص٤١).

(٤) هو الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى الطوسى، مفسر، ومشارك في بعض العلوم، من آثاره «مجمع البيان في تفسير القرآن»، وتوفى عام ٥٤٨هـ، انظر كشف الظنون لحاجى خليفة.

(٥) انظر الذهبى «التفسير والمفسرون»، (١/ ٢٦٥) وما بعدها.

الثالث: تفسير الفقهاء. فكان من الإنتاج التفسيرى للفقهاء: «أحكام القرآن» للجصاص[١]،وهو يتكلم عن الآيات التي لها علاقة بالأحكام فقط، وكتاب: «الجامع لأحكام القرآن» لأبى عبد الله القرطبى[٢]، من أجل التفاسير، فقد احتوى على أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والناسخ والمنسوخ.

الرابع: تفسير الصوفية. وهو نوعان: تفسير صوفى إشارى، وتفسير صوفى نظرى. ومن ذلك: «لطائف الإشارات» للقشيرى.[٣]

الخامس: التفسير في العصر الحديث، الذي اهتم بعوامل مختلفة أهمها: التوسع العلمى والتأثر بالمذهب والعقيدة والإلحاد الذي قام على حرية الرأى، وكذلك اللون الاجتماعى من التفسير، ومن رواده: الشيخ محمد عبده، ومن تلاميذه السيد محمد رشيد رضا. وقد أخذ على هذه المدرسة أنها أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وهم بذلك اقتدوا بالمعتزلة في بعض تعاليمها.

---

(١) هو أبو بكر، أحمد بن على الرازى، المشهور بالجصاص، ولد ٣٠٥ هـ، كان إمام الحنفية في وقته، أخذ عن الزجاج وعن أبى الحسن الكرخى وتوفى ٣٧٠ هـ، انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١١/ ٢٩٧).

(٢) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبى المفسر، كان من الصالحين والعلماء العارفين الزاهدين في الدنيا، توفى - رحمه الله - سنة ٦٧١هـ، انظر السيوطى «طبقات المفسرين»، (ص٢٨-٢٩).

(٣) هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد بن النيسابورى القشيرى الشافعى الصوفى الفقيه ولد٣٧٦ هـ، من مؤلفاته «التفسير الكبير»، «الرسالة»، «لطائف الإشارات»، توفى ٤٦٥هـ، انظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١٢/ ١٠٧)، انظر السيوطى «طبقات المفسرين»، (ص٢١-٢٢).

المطلب الثاني
التفسير الموضوعى

وهو عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النـزول كلما أمكن ذلك، ثم تناولها بالشرح والتفصيل، مع الإحاطة بجوانب الموضوع، مثل أن يقال: البر في القرآن الكريم، الإحسان إلى الوالدين في القرآن الكريم، وكذلك مثل التفسير الموضوعى لعدة مسائل قرآنية تتعلق مثلاً بالنظام السياسى للدولة، والنظام القضائى.

وفائدته تتبع مستقل لموضوعات القرآن موضوعاً موضوعاً، يستكمل فيه المفسر الفكرة ويستقصيها بحيث يستطيع فهم المعنى مكتملاً وأغراضه، وإظهار السياقات المختلفة، بحيث يتمكن المطلع أو القارئ من الإلمام بكافة جوانب الموضوع بسهولة.

هذا الاتجاه له نماذج متفاوتة ، ففى الحديث الفصول المختلفة التي أشار إليها د.أحمد الشرباصى مثل «الحرية في القرآن»، و«العزة في القرآن الكريم». وكذلك الدكتور/ محمد أحمد خلف فقد جمع الآيات المتعلقة بالقصص القرآنى ورتبها تاريخياً، وحاول استخلاص الحقائق وتوضيح ما تشتمل عليه من آراء وأفكار. ومن نماذجه بحث الدكتور شكرى عياد «وصف القرآن ليوم الدين والحساب». أما في القديم فوجدنا «التبيان في أقسام القرآن» لابن قيم الجوزية.[1]

---

(١) انظر: د. عفت محمد الشرقاوى «اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث»، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ود. محمد أحمد يوسف القاسم «التفسير الموضوعى في القرآن الكريم»، ط١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، القاهرة. ود. محمد حسين

وتتميماً للكلام على التفسير الموضوعى ينبغى أن نشير إلى أن الدكتور/ عبد الحى الفرماوى في كتابه «البداية في التفسير الموضوعى.. دراسة منهجية موضوعية» قد قسم التفسير الموضوعى إلى نوعين:

الأول: الكلام على السورة ككل، مع بيان أغراضها العامة والخاصة وما فيها، مع بيان ربط الموضوعات بعضها ببعض، حتى تبدو السورة في منتهى الدقة والإحكام.

الثاني: جمع الآيات القرآنية التي في موضوع واحد ووضعها تحت عنوان واحد، وتفسيرها تفسيراً منهجياً موضوعياً.

وهذا النوع الثانى هو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق اسم التفسير الموضوعى ثم ذكر نشأته وعدم الاهتمام به قديماً.(١)

=

الذهبى «التفسير والمفسرون»، مكتبة وهبة، الطبعة السادسة، طـ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(١) د. عبد الحى الفرماوى «البداية في التفسير الموضوعى.. دراسة منهجية موضوعية»، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

وقد مثل كتاب الشيخ محمد الغزالى النوع الأول «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

الفصل الأول

مفهوم التقوى

يقصد بهذا الفصل دراسة مواضع لفظة التقوى في القرآن الكريم، وتبيين علاقة هذه المواضع بعضها ببعض، وما قصد إليه القرآن الكريم من معانٍ وإرشادات ينبغى على المؤمن فهمها والالتزام بها. لزم لذلك أن نقدم تعريف التقوى في كلام أهل اللغة، ثم نشرع في تعريف التقوى في الشرع، ثم إحصاء لمادة التقوى في القرآن الكريم، وقد جعلنا هذا الفصل في عشرة مطالب:

المطلب الأول: مادة التقوى ومعناها.

المطلب الثانى: صور المادة إحصائياً.

المطلب الثالث: معنى التقوى في الشرع وتفسير النصوص والربط بينها.

المطلب الرابع: ولكن يناله التقوى منكم.

المطلب الخامس: محل التقوى.

المطلب السادس: لباس التقوى.

المطلب السابع: كلمة التقوى.

المطلب الثامن: خير الزاد التقوى.

المطلب التاسع: بقية مواضع التقوى.

المطلب العاشر: التقوى أساس قبول العمل.

المطلب الأول
مادة التقوى ومعناها

قال الراغب الأصبهاني في مادة «وقى»: «الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، قال تعالى:﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦]. والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارةً تقوى، والتقوى خوفاً، حسب تسمية مقتضَى الشيء بمقتضيه، والمقتضِي بمقتضاه»(١).

قال في اللسان(٢): «وقى وقاه الله وَقْياً»، ووقاية: صانه، ووقيت الشيء أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى. وفى الحديث: «فوقى أحدكم وجهه النار». وهذا اللفظ خبر أريد به الأمر، أى ليق أحدكم وجهه النار بالطاعة والصدقة.

ويقال: وقاك الله شر فلان وقاية. وفى التنـزيل العزيز: ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤]، أى: دافع. والتوقية: الكلاءة والحفظ. وقد توقيت واتقيت الشيء: حذرته. والاسم: التقوى.

---

(١) الراغب الأصبهانى «المفردات في غريب القرآن»، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، مادة (وقى)، (ص٨٣٣).

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهانى أديب، لغوى، حكيم، مفسر، له تصانيف كثيرة منها تحقيق البيان في تأويل القرآن وتوفى - رحمه الله - عام ٥٠٢هـ. انظر حاجى خليفة «كشف الظنون»، (ص١٧٧٣).

(٢) ابن منظور «لسان العرب»، تحقيق عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى، ط. دار المعارف، القاهرة، مادة (وقى).

وابن منظور هو محمد بن مكرم بن على، ولد بمصر عام ٦٣٠هـ، أديب، لغوى، ناظم مشارك في علوم، توفى بمصر عام ٧١١هـ، من مؤلفاته «لسان العرب». انظر ابن حجر «الدرر الكامنة»، (٤/ ٢٦٢-٢٦٤).

التاء بدل الواو، والواو من الياء، وفى التنـزيل: ﴿ وَءَاتَنٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٧]، أي: جزاء تقواهم، وقيل: معناه ألهمهم تقواهم.

والتقيُّ: المتقى. ورجل تقيّ من قوم أتقياء وتُقَواء، والأخيرة نادرة. قال أبو بكر: معناه موقّ نفسه من العذاب والمعاصى بالعمل الصالح.

قال النحويون: الأصل وَقويٌ. فأبدلوا من الواو الأولى تاء كما قالوا متزر، والأصل موتزر، وأبدلوا من الواو الثانية ياء وأدغموها في الياء التي بعدها وكسروا القاف لتصبح الياء. قال أبوبكر: والاختيار عندى في تقى أنه من الفعل فعيل، فأدغموا الياء الأولى في الثانية، الدليل على ذلك جمعهم إياه أتقياء، كما قالوا ولى وأولياء، وذلك أقرب لعدم ارتكاب الحذف والقلب.

المطلب الثانى
ترتيب المادة إحصائياً

رتبت مادة التقوى إحصائياً على ترتيب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، وذلك للاستعانة بها في فصول البحث، مع التعليق على كل مادة من هذه المواد بما يناسبها، وذكر المكى والمدنى للاستفادة منها في فهم مواضعها وسياقها، وقد اختصرت الإحصاء لمجىء الآيات في موضعها:

أولاً: لفظة التقوى:

وهى محل البحث وردت خمس عشرة مرة، وقد ازدحمت بالصور البيانية على ما سنوضح بعد ذلك - إن شاء الله تعالى.

وهذه أمثلة لتلك المواضع:

١. ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

٢. ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٣. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣].

ثانياً: الأمر بالتقوى:

جاء الأمر بالتقوى في خمسةٍ وثمانين موضعاً، منها تسعة وستون موضعاً بلفظ ﴿ ٱتَّقُوا۟ ﴾، أى الأمر لجماعة المخاطبين، وواحدة بالفاء ﴿ فَلْيَتَّقُوا۟ ﴾، وثلاثة مواضع للمفرد المخاطب بقول ﴿ ٱتَّقِ﴾، واثنان أيضاً للمفرد المخاطب ولكن بلام الأمر ﴿ وَلْيَتَّقِ﴾، وخمسة مواضع بضمير المتكلم ﴿ ٱتَّقُونِ ﴾، وأربعة مواضع بضمير الغائب ﴿ ٱتَّقُوهُ ﴾، وواحدة لا غير لجماعة الإناث ﴿ ٱتَّقِينَ ﴾.

وأما معمول التقوى، فهو إما لفظ الجلالة «الله»، وإما لفظ الرب، أى اتقوا ربكم. ويلاحظ أن لفظ «ربكم» يأتى في أمر الناس بالتقوى، أى أن المخاطبين به هم عموم الناس. وقد يأت الاثنان معا: «الله ربكم» أو: «ربه». ومن هذه المواضع:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١].
٢. ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١].
٣. ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢].
٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠].
٥. ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وأخيرة – وهى وحيدة – بغير إضافة، وذلك في قوله تعالى:
﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وفى دعوة الرسل أقوامهم لتوحيد الله جاء بعد الأمر بالتقوى والطاعة – اتقوا الله وأطيعون – توضيح لبعض صفات الله التي تستوجب أن يؤمنوا عند سماعهم وهى لا تليق بغيره – سبحانه – فكيف يعبد سواه، مثل:

١. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٢].
٢. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٤].
٣. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [يس: ٤٥].
٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].
٥. ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد وجاءت معمولات أخرى للتقوى، وهي:

أولاً: النار:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤].

ثانياً: اليوم الآخر:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨].

ثالثاً: السيئات:

﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

رابعاً: الفتنة:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ثالثاً: الأمر بالتقوى بين الأمر والنهي:

بمعنى أن الأمر بالتقوى قد يأتي معطوفاً على أمرٍ أمر الشارع به، أو نهي نهى عنه الشارع، أو يأمر بالتقوى ثم يعطف عليه الأمر أو النهي، أو يأتي أمر ونهي ويعطف عليه الأمر بالتقوى، ولكل ذلك معانٍ تناسبه، وقد يأتي بغير ذلك.

ونذكر من هذه الآيات:

أ. أن يكون الأمر بالتقوى معطوفاً على أمر، أو العكس: ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ب. الأمر بالتقوى بين الأمر والنهي، أو: معطوف على كليهما:

١. ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٢. ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢].

٣. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة: ٩].

وسوف يتم دراسة ما يتعلق بخواتيم هذه الآيات ومناسبتها للسياق إن شاء الله تعالى.

رابعاً: الفعل الماضي «اتَّقَوْا»:

ورد هذا الفعل في تسعة عشر موضعاً؛ المكي منها ثمانية مواضع، منها:

١. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٢. ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وأما المدني فهو أحد عشر موضعاً، منها:

١. ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران: ١٥].

٢. ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢﴾ [آل عمران: ١٧٢].

ويلاحظ في التعبير بالماضي «اتقوا» سواء في المكي أو المدني:

١. ذكر جزاء التقوى ويغلب في الآيات ذكر الجزاء الأخروي، سواء في ذكر

النجاة من النار أو من الوعد بالجنة ووصفها، أو بذكر الدار الآخرة وأنها دار المتقين، أو بذكر الثواب..، والتوسع في ذكر ذلك وغيره.

٢. وكأن المناسبة بين ذكر التقوى بلفظ الماضي وذكر عاقبتها وأجرها أنه لما فرغ من التقوى وأتمها كان المتوقع ذكر الجزاء.

٣. وذكر الماضي أراد تحقق الوقوع كأنه قد حدث.

٤. استخدام لو في المكى مرة واحدة لعموم الناس، وفى المدنى مرتين لأهل الكتاب فقط، ومناسبة ذلك.

٥. التركيز على الجزاء الأخروى في المكى كأنه:

أ. تركيز على الإيمان باليوم الآخر وهو أحد قواعد التوحيد.

ب. الحمل على الإيمان بذكر الجنة والنار فكان مناسباً للدعوة في بدايتها.

ج. أن الرسول ﷺ لم يكن يملك لهم في مكة ما يعدهم به من أمور الدنيا، أى حتى يكون الإيمان بالله وحده طلباً لثوابه لا للعاجل الفانى.

٦. المقارنة بين أهل التقوى والكفار صورة وعاقبة وذلك تقريباً في كل الآيات المكية، مثل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾، و﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، و﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾.

خامساً: الفعل المضارع «تتقوا»:

ورد أحد عشرة مرة الغالب فيها استخدام الجملة الشرطية. وكلها مدنية إلا آية الأعراف مكية، وهى في قصص الأنبياء. وغالبها في الإيمان والعمل الصالح المناسب للعهد المدنى. وكذلك يتميز أسلوب الشرط بحصول الجواب أو النتيجة إذا وقع الشرط، مما يتميز معه عاقبة التقوى عند وقوع شروطها، فكان كالحث عليها لتحصيل هذه العاقبة العظيمة.

المكى: آية واحدة: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أما المدنى، فمما ورد فيه: منها الشرطى، مثل:

١. ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

٣. ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ [محمد: ٣٦].

ويبقى موضع ليس من الشرط، وهو: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وقد عطف فيها بين البر والتقوى الإصلاح، ولكلٍ معنى، كما سيأتى - إن شاء الله.

سادساً: الفعل المضارع «تتقون»:

ورد في تسعة عشر موضعاً، منها أربعة عشر موضعاً مكياً، والباقى مدنى. والملاحظ في المدنى الترجى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وعلى خلاف الأفعال السابقة من جعل التقوى سبباً لحسن العاقبة في هذه المواضع جعل التقوى هى العاقبة والنتيجة للأعمال الصالحة. وكذلك ارتباط التقوى بالأعمال الصالحة التي فرضت في العهد المدني؛ عهد التشريع. بل أجمل ذلك في أن العبادة سبب التقوى أو يرجى بها.

وأما الآيات المدنية، فمما جاء فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

وأما المواضع المكية التنـزيل، فيلاحظ عليها:

أولاً: أن التقوى هى دعوة الرسل وأنها مطلوبة بقوله تعالى: (ألا تتقون)، إذ بداية دعوة الرسل هى لتوحيد الله، ومن ثم وجدنا الرسل جميعاً متفقين على دعوة الناس إليها، إما بمعنى الإيمان، وإما بمعنى الخشية. لذلك لاحظنا أيضاً التكرار.

ثانياً: يلاحظ أن التقوى كذلك طلبت بعد تقرير أدلة التوحيد التي كان يسوقها الرسل لأقوامهم برهاناً على انفراد الرب بالخلق والرزق، مما يستوجب انفراده بالتوحيد والعبادة.

من هذه الآيات:

١. ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٢. ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

٣. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

٤. ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٧٨].

٥. ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٣، ١٢٤].

٦. ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

سابعاً: الفعل المضارع «يتقون»:

ذكر ثماني عشرة مرة جمعت كثيراً من أمور التقوى ومطلوباتها السابقة، من أن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، وأن الموعظة والذكرى لهم، وكذلك النجاة في الآخرة، وأن الدار الآخرة لهم كذلك، ورحمة الله يكتبها لهم، وأن آياته الكونية لقوم يتقون، وأن آيات الله يبينها رجاء التقوى، وكذلك أنزل قرآنه سبحانه وتعالى لذلك. والمكي فيها ثلاثة عشر موضعاً، والمدني خمسة مواضع.

من المدني: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وأما المواضع المكية، فمنها:

١. ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

٢. ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١].

٣. ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ثامناً: الفعل «يتق» المجزوم:

ورد في ستة مواضع؛ أربعة مواضع منها شرطية لبيان عاقبة التقوى، واثنان في الأمر المفرد بالتقوى، ولكلٍ معنى في السياق. والمدنى منها خمسة مواضع، والمكى موضع واحد مقرون بالصبر المناسب للدعوة في العهد المكى، علاوة على كونه في قصة يوسف، والقصص القرآنى أحد أهدافه تثبيت أهل الإيمان بحكاية ما حدث للرسل مع أقوامهم السابقين وصبرهم على ذلك. والموضع المكى هو: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ

وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وأما المدنى فمنه: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢].

فجمع للمتقى في جواب الشرط الرزق والمخرج واليسر، وثَمَّ فارق بين أن يجعل له مخرجاً وبين أن يجعل له من أمره يسراً، وجمع له كذلك تكفير السيئات وإعظام الثواب.

تاسعاً: بقية مشتقات التقوى:

١. الفعل «يتقـه»:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

٢. الفعل «يتقـى»:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر: ٢٤].

٣. «الأتقى»:

لم تأت صيغة أفعل هذه إلا مرة واحدة، وكأنها لا تحتمل أكثر من ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ١٧، ٢١].

٤. «أتقاكم»:

وكذلك «أتقاكم» في خطاب المؤمنين ذكرت مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥. «واق»:

وهذه اللفظة وردت ثلاث مرات، كلها متعلقة بالله تعالى، ولها معانٍ، منها:
﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرعد: ٣٤].

والمعنى أن ليس لأحد واق من الله، لا الأنبياء ولا الأقوياء ولا غيرهم، إذا اتبعوا أهواءهم وخالفوا أمر ربهم.

٦. «تقياً»:

وردت ثلاث مرات؛ اثنان في سورة مريم، في قصة يحيى وعيسى، والثالثة عامة في ثواب التقوى، وهي:

١. ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم: ١٨].
٢. ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [مريم: ١٣].
٣. ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

٧. «تقاة»:

تقاة بمعنى تقية، وردت مرة واحدة في حكم خاص بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٨. «تقاته»:

ذكرت مرة واحدة كذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٩. الفعل «يوق»:

المبنى للمجهول، ورد مرتان في وقاية النفس من الشح، ولم يأت إلا في الشح والبخل، ومبنياً للمجهول، ومدنياً، ومنها:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٩].

١٠. الفعل «اتقى»:

جاء مذكوراً في سبعة مواضع، وجاء بالإفراد ليبين مسئولية كل فرد عن عمل نفسه، وليبين أن التقوى محلها القلب أو بالأصح أن الله هو العالم بمن اتقى، علم ذلك إليه، وأن التقوى هى البر، وأنه ييسر أصحاب التقوى للحسنى في الدنيا والآخرة، وأنهم لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.. إلى آخره. واثنان منهم مكيان، والخمسة مدنية.

المكى:

١. ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥].

٢. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٧].

ومن المدنى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

١١. «تقواها»:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٨].

تبين رحمة الله ﷻ وقطع العذر، ومعنى المقابلة بين الفجور والتقوى.

١٢. «تقواهم»:

جاءت مرة واحدة تبين أن التقوى نفسها جزاء الهداية: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧].

١٣. «المتقون»:

جاءت ست مرات فقط، وهي إما بياناً لصفاتهم، أو وصفاً للجنة التي وعدوا بها وذكراً لها. وقد جاء ثلاثٌ منها مكية، وثلاثٌ مدنية.

المكي:

١. ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٢. ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان: ١٥].

٣. ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣٣].

أما المدني، فمنه:

١. ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢. ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].

١٤. «المتقين»:

وردت في ثلاثة وأربعين موضعاً، منها ستة وعشرون موضعاً في التنزيل المكى جاءت لتطالبهم بالصبر، وتبين لهم أن العاقبة للمتقين، ثم ذكر الجنة والنار للحث على الإيمان والتوحيد، وكذلك التقابل بين فريقى، المتقين والفجار، وجزاء كلٍّ وعاقبته، وذكر الأمم السابقة وما آلت إليه أحوالهم بالإيمان أو بعدمه.

أما المدنى: وهى سبعة عشر موضعاً فتبدأ بإيضاح وتقرير أن الكتاب هدى للمتقين، ويبين صفاتهم، وأن البيان والموعظة للمتقين، كأنه كالحث لهم على التزام صفات التقوى. وهى مناسبة للأوامر والنواهى في العهد المدنى. ثم بين لهم ما يجمع ذلك كله فإن الله لا يقبل هذه الأعمال إلا من المتقين، مع الحض على ذلك بكونه مع المتقين، وأنه يحبهم – سبحانه. ومن مواضع المدنى:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١-٢].

وأما المكى، فمنه:

١. ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠].

٢. ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧].

٣. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

المطلب الثالث
التقوى في كلام أهل الشرع

وإذ قد عرفنا مادة التقوى في كلام أهل اللغة وذكرنا إحصائها، فلا بد من معرفة معناها في لسان أهل الشرع، ليكتمل المعنى ويتضح المقصود، إذ على معرفة معناها في عرف الشرع يتوقف معرفة ما ينبنى على ذلك من معرفة الله تعالى، والخوف منه والخشية له، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. فنبدأ بكلام الفخر الرازى -رحمه الله تعالى، لأنه لخص كلام من سبقه وفصّل بعض التفصيل، حيث يقول عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]:

«المسألة الثانية: المتقى في اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية فرط الصيانـة، إذا عرفت هذا فنقول إن الله تعالى ذكر المتقى هاهنا في معرض المدح، ومن يكون كذلك أولى أن يكون متقياً في أمور الدنيا، بل بأن يكون متقياً فيما يتصل بالدين، وذلك بان يكون آتياً بالعبادات محترزا عن المحظورات».(١)

وهو كلام كثير من المفسرين، فكانت التقوى عند الإمام الرازى هى الإتيان بالعبادات وترك المحظورات ولا يكون المرء تقياً إلا بذلك ولكنه - رحمه الله - أورد سؤالاً مهما مفاده: هل يستحق المرء اسم التقوى إذا لم يتق الصغائر؟ يقول - رحمه الله تعالى: «واختلفوا في أنه هل يدخل اجتناب الصغائر في التقوى؟ فقال بعضهم: يدخل كما يدخل الصغائر في الوعيد، وقال آخرون: لا يدخل، ولا نزاع في وجوب التوبة من الكل، إنما النـزاع في أنه: إذا لم يتوق الصغائر هل يستحق ذلك الاسم ؟»، وكأنه - رحمه الله - اختار عدم استحقاقه لهذا الاسم، إذ أورد من الأدلة ما يؤيد ذلك ويقويه وإن لم يصرح فقال: «فروى عنه ﷺ أنه

---

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»، ط. دار الغد العربى، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١/ ٣٨١-٣٨٢).

قال: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس».(1)
وعن ابن عباس - رضى الله عنهما: «أنهم الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه».(2) وبإيراده الحديث، وهو أن العبد لا يبلغ درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به فمن باب الأولى لا يكون تقياً بارتكاب الصغائر فإنها وإن سميت كذلك فهى حرام وإن لم ترق إلى الكبائر.

ومن ثم يقع اسم المتقى عند الرازى على من ترك المحظورات وأتى بالعبادات واجتنب الصغائر، ولكن هل يشترط في التقوى تَرْكُ ما لا بأس به، أى لا حرج فيه ولا إثم، كما أشار إليه غيره من أهل العلم؟ فالظاهر أن استدلاله بالحديث المذكور يشير ضمناً إلى ذلك حيث عقب بعد ذلك - رحمه الله - فذكر جوهر التقوى ومعناها، فقال: «واعلم أن التقوى هى الخشية قال في أول سورة النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]. ومثله في أول سورة الحج، وفى الشعراء: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٦]. ولا فرق في الخشية بين الصغائر والكبائر».(3)

ثم وصل بنا إلى الغرض الأصلى منها، وهو خمسة أمور، فقال(4) - رحمه الله: «واعلم أن حقيقة التقوى وإن كانت هى التي ذكرناها، إلا أنها قد جاءت في القرآن، والغرض الأصلى منها الإيمان تارة، والتوبة تارة أخرى، والطاعة

(1) الحديث أخرجه العراقى في أحاديث الإحياء (١/ ٣٣)، كتاب الشعب، وقال رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى.
(2) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٨٢).
(3) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٨٢).
(4) المصدر السابق، (١/ ٣٨٢).

ثالثة، وترك المعصية رابعاً، والإخلاص خامساً.

أما الإيمان فقوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح: ٢٦]، أي: التوحيد، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣]، وفى الشعراء: ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الشعراء: ١١].

وأما التوبة فقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أى: تابوا.

وأما الطاعة: فقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]، وفيه أيضا: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥٢]، وفى المؤمنين: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وأما ترك المعصية: فقوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، أى: فلا تعصوه.

وأما الإخلاص: فقوله في سورة الحج: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، أى: من إخلاص القلوب، فكذا قول الله تعالى: ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١].

وهذه الأغراض بهذا التفصيل ستكون عوناً - إن شاء الله تعالى - فيما يأتى، ونبراساً نستضيء به في تنزيل ألفاظ التقوى الواردة على حسب تلك المعانى، بحيث يظهر المراد منها بحسب السياق وغيره من الأدلة.

ويختم الإمام الرازى كلامه في التقوى بذكر أهميتها وعظم مكانتها وشرف أهلها وعلو منزلتهم، فيقول: «واعلم أن التقوى مقام شريف، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله..»».

وينهى الإمام هذا الختام قائلاً: «ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلا ما في قول الله

تعـالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] كفاه، لأنه تعالى بين أن القران هدى للناس في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم قال هـا هنـا في القـرآن إنه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس، فمن لا يكون متقيا كأنه ليس بإنسان».(١)

ونواصل النظر في كلام أهل العلم، لنستكمل تعريف التقوى، حيث نصل إلى شرح الحـافظ ابن رجب الحنبلي لحديث: «اتق الله حيثما كنت» من كتابه «جامع العلوم والحكم»(٢)، حيث هو أجمع من رأيت شرحاً لمعنى التقوى في شرحه للحديث، ونعيد ترتيب كلامه ليتفق مع الترتيب العام للكلام على تعريف التقوى، يقول - رحمه الله - ما مختصره: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، إلى أن يقول متدرجاً في الكلام على التقوى: وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، كما قال أبو هريرة(٣) ﷺ لما سئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم،

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٨٢).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، (١/ ٣٩٥) وما بعدها.

والحافظ ابن رجب هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الشهير بابن رجب الحنبلى، محدث حافظ فقيه أصولى مؤرخ، ولد ببغداد عام ٧٣٦هـ، ومؤلفاته ٣٣ جزءاً ورسالة منها «جامع العلوم والحكم»، وتوفى عام ٧٩٥هـ. انظر ابن حجر العسقلانى «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى أسلم عام ٧هـ، كان من حفاظ الصحابة روى عن الإمامين أبا بكر وعمر، وأبى بن كعب، والفضل بن العباس، وكثير من غيرهم، شهد مع النبى ﷺ خيبر وما بعدها، توفى - رحمه الله - عام ٥٩هـ، انظر الحافظ بن كثير «البداية والنهاية»، (٨/ ١٠٣).

فقال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى». وأخذ هذا المعنى ابن المعتز[1] فقال:

خـلِّ الـذنوب صغيرهـا وكبيرهـا فهـو التُّـقَى
واصـنع كـماشٍ فـوق أرض مـن الـشوك يحـذر مـا يـرى
لا تحقـرن صـغيرة إن الجبـال مـن الحـصى

فكان أول ما أشار إليه ابن رجب - رحمه الله - من معانى التقوى حسب ترتيبنا لكلامه هو اجتناب المحرمات، ثم يزيد عليه بعد ذلك بمثل ما ذهب إليه الإمام الفخر فى بداية تعريفه للتقوى، فيقول - رحمه الله تعالى: «فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه».

ثم يرتفع بمعنى التقوى منـزلة أخرى فيقول: «ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات»[2]، وهو في هذه المنـزلة يفيدنا معنى جديداً تشتمل عليه التقوى، وهو زائد على اختيار الفخر الرازى، وهو ترك الشبهات، فلا تكمل تقوى العبد - على كلام الحافظ ابن رجب - إلا بترك الشبهات، وهو حق، إذ حديث النبى ﷺ يشير إلى هذا المعنى، وهو قوله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»[3]، وإن كان الرازى أدخل في التقوى ترك ما لا بأس به، وهو ترك بعض

(١) هو عبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل الخليفة العباسى، أديب، شاعر من آثاره ديوان شعر، ت٢٩٦هـ.

(٢) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٥).

(٣) رواه البخارى (٥٢)، و(٢٠٥١). وانظر أحمد بن على بن حجر العسقلانى «فتح البارى بشرح صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخارى»، تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن باز،

المباحات، وهو أعلى من ترك الشبهات، لكن الشبهات باب آخر.

والمتقون تركوا ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فلم يقعوا في الشبهات ابتداءً، وإنما تركوا أبواباً من الحلال خشية الوقوع في الحرام.

ونظراً لأن القرآن الكريم قد ذكر للمتقين صفات أعلى من التعريف السابق ، فلم ينس الحافظ ابن رجب أن ينوه بها مستدلاً ببعض تلك الآيات التي لا مفر من ذكرها، لتكتمل بها صورة التقوى، فيقول(١): «وربما دخل فيها - أي التقوى الكاملة - فعل المندوبات وترك المكروهات، وهو أعلى درجات المتقين، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ [البقرة: ١-٤]. وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ثم يؤيد ما ذهب إليه ببعض أقوال الصحابة ﷺ فيقول - رحمه الله: «وعن أبي الدرداء(٢) ﷺ قال: تمام التقوى أن يتقي اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة،

=

المكتبة السلفية القاهرة، (١/ ١٢٦)، (٤/ ٢٩٠). ورواه مسلم (١٥٩٩)، وانظر يحيى بن شرف النووي «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، حققه وفهرسه عصام الصبابطي وآخرون، دار الحديث، القاهرة، (٦/ ٣١).

(١) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) هو العارف المتفكر، العالم المتذكر، أبو الدرداء صاحب الحكم والعلوم، أسلم عام ٢هـ

حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله ولا شيئاً من الشر أن تتقيه».(١)

وبعد أن قطعنا هذا الشوط الطويل مع الحافظ ابن رجب في تبين ملامح التقوى وصل بنا - رحمه الله تعالى - إلى أصل التقوى، فقال: «وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى»، وذكر معروف الكرخى عن بكر بن خنيس، قال: «كيف يكون متقيا من لا يدرى ما يتقى؟».

قال معروف الكرخى(٢): إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة ولا تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك وقد قال النبى ﷺ لمحمد بن مسلمة(٣): «إذا رأيت أمتى قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب به أُحُدَاً».(٤)

=

على يد عبد الرحمن بن عوف، وتوفى بدمشق بعد أن ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليها. انظر أبا النعيم الأصبهانى «حلية الأولياء»، (١/ ٢٨٨).

(١) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٠).

(٢) علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادى، واسم أبيه فيروز، وقيل فيرزان، من الصابئة، توفى سنة مئتين، انظر الإمام الذهبى «سير أعلام النبلاء»، تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، (٩/ ٣٣٩).

(٣) هو محمد بن مسلمة بن خالد بن عدى الأنصارى الأوسى، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك ومات بالمدينة عام ٤٦). انظر ابن الأثير الجزرى «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، (٥/ ٢١٢).

(٤) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٢). و«أُحُد» الجبل المشهور بالمدينة المنورة، وقَصْدُهُ ﷺ ألا يشارك في الفتن.

ومازال حبل الحديث متصلاً في معنى التقوى وحقيقتها، حتى نصل إلى صاحب رسالة «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»[(١)] العلامة الفاكهاني، حيث هو من قد علمت الذي أفرد آية التقوى برسالة وكان دقيقاً في اختياره لمعنى التقوى من بين ما عرض لها من معاني وحقائق، فنذكر حاصل كلامه وما زاد به عن غيره ممن سبق أو ممن عارضه، ثم الترجيح بين ذلك كله لاختيار الأقرب إلى الأدلة والأولى بالمتابعة، وحتى نستقصي في البحث ما ورد فيه.

يقول - رحمه الله تعالى:

«الطرف الأول في حقيقة التقوى جملة وتفصيلاً. أما جملةً: فهي عبارة عن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات. قال الغزالي[(٢)] - رحمه الله تعالى: التقوى في قول شيوخنا: تبرئة القلب عن ذنبٍ لم يسبق عنك مثله، حتى يحصل للعبد من قوة العزم على تركه وقاية بينه وبين المعاصي.

---

(١) العلامة تاج الدين عمر بن علي اللخمي المعروف بالفاكهاني «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق وتعليق محمد يحيى بيدق، الطبعة الأولى، مؤسسة الريان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (ص٢٩).

والعلامة الفاكهاني ولد بالاسكندرية سنة ٦٥٤هـ، يقول عنه ابن فرحون في «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، (ص١٨٦-١٨٧): قرأ القرآن بالقراءات، وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب، على حظ وافرٍ من الدين المتين، والصلاح العظيم، واتباع السلف الصالح، وحسن الخلق، وله شعرٌ حسن، توفي -رحمه الله- عام ٧٣٤هـ. وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١٤/ ١٦٨).

(٢) الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد محمد الغزالي الطوسي، ولد ٤٥٠هـ، فقيه متكلم أصولي حكيم، له مؤلفات كثيرة أشهرها: إحياء علوم الدين، توفي ٥٠٥هـ. انظر ابن السبكي «طبقات الشافعية»، (٤/ ١٠١).

وأما تفصيلاً: فاعلم أن التقوى في القرآن الكريم تنطلق على ثلاثة أشياء:

أحدها: بمعنى الخشية والهيبة، قال تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال - سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال ابن عباس ﷺ: أطيعوا الله حق طاعته. قال مجاهد: هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر.

الثالث: بمعنى تبرئة القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى كما تقدم دون الأولين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور: ٥٢]، ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت بهذا أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية، وهي: تبرئة القلب عما ذكرنا».(١)

وبتأمل ما قاله - رحمه الله تعالى - من ذكر التقوى جملةً، لم نره خرج على كلام أهل العلم. وأما تفصيلاً، فما ذكره من أن الأول والثاني مما يطلق على التقوى فكذلك هو قول أهل العلم، وإن استدل على الأولى وهي الخشية بقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١]، حيث استدل بها الإمام الرازي على التقوى بمعنى الإخلاص كما سبق، والتدقيق أن الآية محتملة، فلا يظهر خلاف - إن شاء الله تعالى.

وأمّا الثالث فالنظر فيه من وجوه، وهو الذي ذكره في تعريف التقوى، وإن كان قد نقله عن الإمام الغزالي، لكنه اختاره وأقام الدليل عليه من الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور: ٥٢]:

---

(١) الفاكهاني «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص٢٩).

الوجه الأول: أنه ذكر في حقيقة التقوى تفصيلاً أنها على ثلاث أشياء في القرآن الكريم ثم قال في الثالث إنه هو حقيقة التقوى دون الأولين، فكيف تطلق على ثلاثة أشياء في القرآن، ثم يقول والثالث هو الحقيقة دون الأولين؟ فكان الأولى أن يذكر أن ذلك اختياره أو ما ارتضاه، وأنه الذي سيبنى عليه شرحه، خاصة وأن الأولين لم يُقدح في دليلهما، وأنهما من معانى التقوى التي لا غبار عليها.

الثانى: هو احتجاجه بالآية الكريمة على أن العطف يقتضى المغايرة بين الطاعة والخشية والتقوى. والرد أن التغاير ليس لازماً للعطف فقد يعطف الشيء على مرادفه للتأكيد مثلاً كقول الشاعر:

فألفى قولها كذباً ومينا

وقد يعطف الخاص على العام والعكس، لفرط الاهتمام بالخاص، أو لغيره من المعانى المستنبطة من السياق، كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٨]، فعطف جبريل وميكال على الملائكة، وهما قطعاً من الملائكة، وإن ذلك من باب عطف الخاص على العام لخصوصيته، كما في تفسير الآية، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢]. فالعطف يقتضى التغاير، فماذا نفعل في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وله تفصيل يأتى في موضعه - إن شاء الله تعالى - وهو قريب مما سبق التوفيق به.

ومن عطف العام على الخاص قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨]، فلا مانع إذاً في قوله تعالى في الآية محل الاستشهاد ﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ [النور: ٥٢] أن يكون

من باب الترادف أو عطف العام على الخاص لفائدة.[١]

ثالثا: قوله: «فعلمت بذلك أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية وهى: تبرئة القلب عما ذكرنا» ليس بلازم.

وعلى أية حال فقد أفادنا - رحمه الله تعالى - معنى آخر جديداً للتقوى ينضم إلى ما ذكر أهل العلم، وبعد ذلك قسم - رحمه الله تعالى - ما ذكر من معنى التقوى إلى منازل: الأول: تقوى عن الشرك، والثانى: تقوى عن البدعة، والثالث: تقوى عن المعاصى الفرعية.

ويجمعها قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة: ٩٣].

ونستكمل رحلتنا مع العلامة الفكهانى في تعريفه لحقيقة التقوى لزاماً علينا، حيث لخص لنا مرة أخرى تعريفه للتقوى، ووضع لها حداً جامعاً على حد تعبيره، فنلخص مقصوده في بعضٍ، ونسوق حروفه في البعض الآخر، ثم نقف بعد ذلك لنقارن ونوازن بين كلامه بعضه بعضاً، وبين كلامه وكلام أهل العلم.

يقول - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر للإمام الغزالى تعريفاً للتقوى، وهو ترك فضول الحلال، وخبر الرسول ﷺ : «إنما سمى المتقون متقين لتركهم ما لابأس به حذرا مما به بأس»[٢]:

---

(١) انظر لما سبق جمال الدين بن هشام الأنصارى «مغنى اللبيب»، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار إحياء الكتب العربية، (٢/ ٣٢).

(٢) انظر الإمام الفاكهانى «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق محمد يحيى بيدق، ص٣١ وما بعدها.

«فأحببت أن أجمع بين ما قاله علماؤنا وبين ما في الخبر عن الرسول ﷺ فيكون حداً جامعاً، ومعنى بالغاً، فأقول: التقوى اجتناب ما تخاف منه ضرراً في دينك.[(١)]

ثم الذي يُخَاف منه في أمر الدين قسمان: يخص الحرام والمعصية[(٢)]، وفضول الحلال، لأن الاستعمال لفضول الحلال يخرج صاحبه إلى الحرام ومحض العصيان، وذلك لشره النفس وطغيانها، وتمرد الهوى وعصيانه.

فقد تحصل لك من ذلك أن التقوى على قسمين: فرض ونفل. فالفرض ما تقدم من أنه تبرئة القلب عن شر. والنفل ما نُهي عنه نهى تأديب، وهو فضول الحلال، كالمباحات المأخوذة بالشهوات.

فالأولى فرض يلزم بتركها عذاب النار. والثانية تقوى خير وأدب، يلزم بتركها الحبس والحساب واللوم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الأدنى من التقوى، وهى منـزلة مستقيمى الطاعة. ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة العليا من التقوى، وتلك منـزلة مستقيمى المباح. وإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل

---

(١) وانظر كذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، دار الفكر، بيروت (١/ ٣٢). والألوسى «روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١/ ١٧٩). وانظر القاضى أبا سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى بحاشية الكازوني)»، تحقيق الشيخ عبد القادر عرفات العشَّا حسَّونة، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (٢/ ٩٩-١٠٠).

(٢) قال الألوسى في «روح المعانى»: «فالمراتب متعددة لتعدد مراتب الضرر، فأولها التوقى عن الشرك، والثانية التجنب عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، والثالثة ما أشير إليه بما روى الترمذى عنه ﷺ : «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس»، وفى هذه المرتبة يعتبر ترك الصغائر».

معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقها، وجمع كل خير فيها، وهو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين، وذلك منـزلة الأدب على باب الله ﷻ. فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة، فافهمـه موفقاً».[١]

هذا ملخص كلامه الذي يتحصل في أن التقوى فرض ونفل. والفرض هو تجنب ضرر المعصية، والنفل ترك الفضول.

ونلاحظ شيئاً آخر لابد من الإشارة إليه، وهو أن تعريفه للتقوى بترك المعصية والحرام، أو تبرئة القلب عن الذنب وترك الفضول لا يعنى ذلك أن المتقى لا يأتى بالواجبات والمستحبات الشرعية، إذ لا يعقل أن المتقى يتجنب المعاصى والذنوب وهو مقصر في الواجبات الشرعية كترك الصلاة مثلاً أو الصيام أو الصدق أو الأمانة وبر الوالدين وغيرها، إذ ذلك عين المعصية، فكأن مجمل كلامه في نهاية المطاف أن التقوى الإتيان بالواجبات وعدم التفريط فيها، مع بقية ما أشار إليه الرازى.

ومن السابقين المتقدمين ممن تكلموا في التقوى وتعريفها ولزومها: الحارث المحاسبى[٢] - رحمه الله. فقد بين لنا حد التقوى، وإن كان على طريقة من ذكرنا من أهل العلم ولكنه ساق ذلك في صيغة الحوار من السؤال والجواب، تعليماً للسائل، وتفهيماً للقارئ والسامع، وتثبيتاً لتلك المعانى في القلوب والأذهان.

يقول - رحمه الله[٣]: «قلت: فما التقوى؟»، قال: «الحذر بالمجانبة لما كره الله

---

(١) الفاكهانى «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص٣١).

(٢) الحارث بن أسد المحاسبى نشأ بالبصرة، نزل بغداد، نقل الحديث عن أعلام عصره، ألف المؤلفات في تزكية النفس منها: الرعايا، والوصايا، توفى ٢٤٣هـ. انظر ابن الملقن «طبقات الأولياء»، (ص١٧٥-١٧٧).

(٣) المحاسبى «الرعاية لحقوق الله»، تحقيق عبد القادر عطا، الطبعة الثالثة، دار الكتب الحديثة، ص٤٧).

ﷻ »، قلت: «الحذر من ماذا؟»، قال: «الحذر من الله ﷻ »، قلت: «فالحذر من الله في ماذا؟»، قال: «في خصلتين: تضييع واجب حقه، وركوب ما حرم ونهى عنه في السر والعلانية».

فأعاد – رحمه الله – علينا معنى التقوى بالحذر والمجانبة لما كره الله، وهو قريب من كلام الفكهاني والألوسي[(١)] ومن نحا نحوهم – رحمهم الله جميعاً – وإن عبروا بما يضر في الدين والآخرة، فقد عبر عنه هو بما كره الله ﷻ ، وليس المقصود الكراهة الاصطلاحية، وهي تعبير المتأخرين في الفقه والأصول بما نهى الشارع عنه نهياً غير جازم، لا يأثم فاعله، وإنما لا شك مراده ما هو أعم من ذلك مما يشمل الحرام والمكروه، كما هو تعبير المتقدمين، وكما جاء في حديث الرسول ﷺ : «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وضياع المال»[(٢)]، ومما لاريب فيه أن ذلك يشمل الحرام.

---

(١) هو محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، ولد عام ١٢١٧هـ، مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوي، نحوي، مشارك في بعض العلوم وله بعض مصنفات منها: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، وتوفي في عام ١٢٧٠هـ. انظر البغدادي «هدية العارفين»، (٢/ ٤١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٥). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، تحقيق الصبابطي وحازم محمد وعماد عامر، (٦/ ٢٥١).

المطلب الرابع
ولكن يناله التقوى منكم

نستفتح بهذا المطلب، وهو مطلب الإخلاص الذي يجب أن نبدأ به، وقد عبر القرآن عنه بقوله: ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

بعدما أشرنا فيما سبق إلى معنى التقوى لغةً وفى عرف أهل العلم، نحصى أولاً الآيات التي وردت فيها لفظة التقوى ذاتها، لنستوضح منها صورة متكاملة لأهل الإيمان تحمل على التمسك بها، وحمل النفس عليها، ولتتحقق سعادة الفرد والمجتمع، وحتى تعود حضارة هذا الدين حية كما كانت على أسسها المتينة:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ولقد وردت كلمة التقوى في القرآن خمس عشرة مرة، و هذه هى مواضعها:

أولاها: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الثانية: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الثالثة: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

الرابعة: ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

الخامسة: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

السادسة: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

السابعة: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الثامنة: ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

التاسعة: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

[الحج: ٣٢].

العاشرة: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

الحادية عشرة: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح: ٢٦].

الثانية عشر: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣].

الثالثة عشرة: ﴿ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المجادلة: ٩].

الرابعة عشرة: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦].

الخامسة عشرة: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾ [العلق: ١١-١٢].

فبالنظر إلى هذه الآيات نراها وضحت على نحو دقيق وتناسق بديع شمول التقوى وصورتها، فرأينا أولاً: أن الله تعالى هو أهل التقوى، وأنه لا يناله إلا التقوى من الناس، وأن الرسول ﷺ إنما أمر بالتقوى، ثم جسد ملامح التقوى بأن لها كلمة هى كلمة التقوى، و لها زياً يعرف به أصحابها هو لباس التقوى، وأن لها مستقراً يفيض على بقية الأعضاء وهو القلب: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، ولها زاد يتزوده المرء هو خير زاد، زاد الآخرة: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ووضحت الآيات بشدة أن التقوى وإن كان محلها القلب، فإن لها مظاهر تنبئ عما في القلب، وسلوكاً رشيداً يشير إلى تلك الصفة هو احترام شعائر الحق سبحانه: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ ، ودلت على الأساس الأمتن، هو أساس التقوى. وأخيراً بينت أن العاقبة للتقوى، أى لهم العقبى في الأولى والآخرة.

و نبدأ رحلتنا المباركة مع هذه الآيات الكريمات، نفصل تلك المعانى، ونجلى تلك الحقائق، ونأخذ أول ما نأخذ قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦]، توطئة للكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، لتعلقها بالله ﷻ فهى أحق بالبدء بها. والمعنى أنه سبحانه حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه، فيؤمنوا ويطيعوا، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا.(١) ونشير إلى ما ذكره صاحب «التحرير والتنوير» العلامة الطاهر بن عاشور(٢)، يقول - رحمه الله(٣): «جملة ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ واقعة موقع التعليل لمضمون جملة ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [المدثر: ٥٥]، تقوية للتعريض بالترغيب في التذكر، والتذكر يفضى إلى التقوى، فالمعنى: فعليكم بالتذكر، واتقوا الله تعالى، لأن الله هو أهل التقوى». وأهل الشى: مستحقة، وأصله أنه ملازم الشى وخاصته وقرابته وزوجته، ومنه: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ [هود: ٨١]، وعليه فأهل التقوى أى المستحق لها، وأهل المغفرة أى أن المغفرة من خصائصه،

(١) انظر الزمخشرى «الكشاف»، دار المعرفة، بيروت، (٤/ ١٦٢-١٦٣). والطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، وعلى هامشه: النيسابورى «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، مجلد١٢، (٢٩/ ١٠٨). وابن كثير«تفسير القران العظيم»، مكتبة التراث الإسلامى، حلب، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، (٤/ ٤٤٧). والفخر الرازي«التفسير الكبير»، (١٦/ ١٣).

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكين بتونس، ومولده ووفاته ودراسته بها ولد عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، وله مصنفات مطبوعة منها «التحرير والتنوير» في تفسير القرآن، وتوفى عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. انظر عمر رضا كحالة «معجم المؤلفين»، (٣/ ٣٦٣).

(٣) الإمام محمد الطاهر بن عاشور«التحرير و التنوير»، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (٢٩/ ٣٣٤-٣٣٥). و أضاف بيت الكشاف:

ألا يا ارحمونى يا إله محمد   فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

وأنه حقيق أن يغفر، لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه، وهو تعريض بالمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن يغفر لهم ما قد سلف، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]. وتعريف جزأي جملة ﴿ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ للقصر على الله تعالى أنه لا غيره يستحق أن يتقى ويتجنب غضبه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وذكر ابن كثير في تفسيره حديث النبي ﷺ إذ قال: قال ربكم: «أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله، فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له».[١] ونختم كلام ابن كثير بما أورده من تكرار كلمة (أهل) دون أن يقال: والمغفرة، للإشارة إلى اختلاف المعنى بين أهل الأولى وأهل الثانى.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾، وهو موضع شديد الارتباط بتقوى القلب وهو الإخلاص له سبحانه.

وقد نزلت الآية الكريمة[٢] لتبين للمؤمنين - بعدما ذكر الله تعالى من مناسك الحج وشعائره – أن الأصل في ذلك كله تقوى الله، وأن الواصل إليه – سبحانه - هو التقوى منكم، دون نفس اللحم والدم، على خلاف معتقدات أهل الجاهلية وفعلهم، فإنهم كانوا يلوثون بدماء القرابين ولحومها الكعبة

---

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٤٤٧).

(٢) وهناك قراءة أخرى: (لن تنال الله لحومها ولا دماؤها)، بالتاء في الموضعين، فأنث لفظ التقوى، ومن قرأ بالياء فلأن التقوى والتقى واحد. انظر ابن الجوزى «زاد المسير»، (٥/ ٤٣٤).

المشرفة، ظناً أن ذلك يصل إلى الله.

قال الألوسى في روح المعانى[(١)]: «أى لن يصيب رضا الله تعالى اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء، ولكن يصيبه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمه تعالى والتقرب إليه سبحانه والإخلاص له ﷺ، وقال مجاهد: أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيماً لها، وتقرباً إليه تعالى» ا.هـ.

وفى الآية، بعد تخليص معتقدات أهل الإيمان من أى شائبة من شوائب الجاهلية وحمل أعمالهم وأقوالهم على التقوى، إشارة لطيفة إلى أن ينظروا إلى المقصود من هذا العمل ومن كل عمل، وهو ما يصل إلى الله – جل وعلا – من أعمالهم، وذلك هو الإخلاص المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾، فاعمل ما شئت وقل ما شئت ظاهراً وباطناً، فلن يصل من ذلك كله إلى الله العلى سوى ما كان منك على التقوى، فلتكن محاسبتك لنفسك إذاً على هذا المقياس، فما كان لوجه الله فأمضه، وما كان لغيره فدعه، فإن الله لا يصل إليه إلا ما كان خالصاً لوجه وصالحاً على سنة نبيه ﷺ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠]، فكان هذا الموضع للتقوى داعياً المرء إلى الإخلاص في عمله، وترك الرياء فيه أو محبة ثناء الناس أو حب الظهور والشهرة، وتنقية عمله من كل هذه الشوائب المكدرة له والأمور المحبطة لثوابه.

يقول ابن الجوزى في «زاد المسير»:[(٢)]

(١) محمود بن عبد الله الحسين الألوسى «روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى»، دار الفكر ببيروت، طبعة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، (١٠/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٢) الإمام ابن الجوزى «زاد المسير في علم التفسير»، المكتب الإسلامى، الطبعة الرابعة

«والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله، وإنما يتقبل ما يتقوونه به، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عَرِيَتْ عن نية صالحة».

=

١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، (٥/ ٤٣٤).

وابن الجوزى هو عبد الرحمن بن على بن محمد، ولد ببغداد عام ٥١٠هـ، محدث، حافظ فقيه، واعظ أديب، مؤرخ، مشارك في علوم أخرى وله مصنفات تزيد على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً منها «زاد المسير في علم التفسير» وتوفى - رحمه الله - في بغداد عام ٥٩٧هـ. انظر السيوطى « طبقات المفسرين» ص١٧).

المطلب الخامس
محل التقوى

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى:

وكلمة التقوى لا ينطقها ولا يعمل بمقتضاها ويثبت عليها إلا صاحب قلب عامر بالتقوى، ممتلئ منها، يخشى الله ويتقيه، فينضح ذلك على الجوارح، لأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهى القلب، كما قال رسول الله ﷺ.[1] فقلبٌ خربٌ من التقوى فارغٌ منها أنَّى يتأتى منه كلام التقوى وألفاظ الخشية! ناهيك عن أعمال الإيمان وسلوك الطاعة. إن ما يتميز به ذلك الدين هو تلك الصلة الوثيقة بين القلوب وبين خالقها، تلك الصلة من المحبة والخشية والإنابة والطمأنينة بذكره والتعلق به، أى صلة التقوى التي كان القلب إذن محلها التقوى ومستقرها، منه تفيض، ومنه تنطلق.

وكان لذلك موعدنا مع مكان ومنزل التقوى، وقد ذُكِرَ ذلك في موضعين من القرآن الكريم، الأول: قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣]، والثاني: قوله: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢].

ونبدأ بالموضع الأول، وهو قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات: ٣].

---

(١) رواه البخارى (٥٢) من حديث النعمان بن بشير. انظر أحمد بن على بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ١٢٦). ومسلم (١٥٩٩)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٦/ ٣١).

يقول ابن جرير:(١)

«يقول تعالى ذكره إن هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى».

وأول ما نشير، نشير إلى أن الآية ذكرت ميزة عظيمة لأهل التقوى، وهى أن قلوب أهل التقوى إنما اصطفاها الله تعالى لذلك، وهو وحده الذي أخلصها وهيأها ومحصها لتقواه تعالى، فكأن الله - جل وعلا - بسابق علمه علم أهلية هذه القلوب له، لتوحيده ومحبته وذكره، أى لتقواه الشاملة، فنقاها لذلك وهذبها، لتكون أوعيته من خلقه ومحل رحماته من بين المؤمنين به ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وذلك بما أعانها به ووفقها له من العمل الصالح من مثل ما ذكر سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ

(١) ابن جرير الطبرى، «جامع البيان»، مجلد١١، (٢٦/ ٧٦). والغض الكف في لين، كما يقول ابن جرير، ومنه غض البصر، وهو كفه عن النظر، كما قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

يقول ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٢٢-٢٢٣): «الغض حقيقته خفض العين، أى أن لا يحدق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار، والامتحان الاختبار والتجربة، واللام في قوله (للتقوى) لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أى لتكون فيها التقوى، أى ليكونوا أتقياء».

فيجوز أن يجعل الامتحان كناية عن تمكن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها، بحيث لا يوجدون في حال غير متقين، وهى كناية تلويحية. ويجوز أن يجعل فعل (امتحن) مجازاً مرسلاً عن العلم، علم الله أنهم متقون، وعليه فتكون اللام في قوله (للتقوى) متعلقة بمحذوف حال من قلوب، أى كأنه للتقوى، فاللام للاختصاص».

و(أولئك) إشارة إلى الموصول تفخيماً اشأنه، وأنهم جديرون بالخبر المذكور بعده. انظر الألوسى «روح المعاني»، مجلد١٤)، (٢٦/ ٢٠٦).

أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾[1]، وليس المقصود هو فقط خفض الصوت عنده، وإن كان مطلوباً تأدبا معه ﷺ حياً وكذلك ميتاً، كما طبقه عمر رضي الله عنه[2]، بل خفض الصوت دليل السمع والطاعة، إذ لا يعقل أن يخفض المرء صوته عنده ويخالف أمره ونهيه، ويكون مع ذلك من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، ولكن كف الصوت عنده عنوان التسليم لأمره والائتمار بحكمه، ودليل الاتباع لهديه وشرعه ظاهراً وباطناً حال حياته، ولسنته وشريعته بعد موته، كما فهمه بعض أهل العلم[3]، لذا ورد قول الحق -

---

(١) وقد رأيت الأستاذ/ سيد قطب أشار إلى مثل ذلك في تفسيره «فى ظلال القرآن»، فيحسن ذكر لفظه. يقول - رحمه الله:
«فالتقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنه يستحقها. والذين يغضون أصواتهم عند رسول عند رسول الله ﷺ قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة، هبة التقوى، وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم»، سيد قطب «فى ظلال القرآن»، دار الشروق، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، (٦/ ٣٣٤٠).

(٢) روى ابن كثير في تفسيره، (٤/ ٢٠٧)، قال: روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

(٣) يقول الإمام القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الثانية، (١٦/ ٣٠٧):
«المسألة الرابعة: قال القاضى أبو بكر بن العربى: حرمة النبى ﷺ ميتاً كحرمته حياً، وحرمته المأثورة بعد موته في الرفعة، مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرتفع صوته عليه، ولا يعرض عنه،كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به».
ويقول كذلك:

جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١]، وقوله - سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

وقد فهم الصحابة ﷺ من ذلك أن رفع الصوت عنده ﷺ سبب الهلاك وحبوط العمل، فما بالك بأزيد من ذلك من مخالفة أمره أو التخلف عن طلبه، فكانوا مضرب المثل في الأدب معه، إذ القلوب الممتلئة من تقوى الله ﷻ لا يصدر منها حتى ولا رفع الصوت على المشرع ولا الشرع، إذ رفعه دليل التجرؤ واللامبالاة وقلة الأدب المنافى للخشية والتوقير النابع من تقواه - سبحانه.

فهذا ثابت بن قيس بن شماس[1]، الصحابى الجليل، خطيب رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل الواقعى على ذلك، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره[2]، عن أنس ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى. ..) إلى قوله تعالى: (...وأنتم تشعرون)، جلس في بيته حزيناً ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق

=

« الخامسة: وليس الغرض يرفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف ولا الاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون».

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن زهير الخزرجى المدنى،يقال له خطيب الأنصار شهد أحداً وما بعدها من المشاهد وثبت في صحيح مسلم أن النبى ﷺ بشره بالجنة ﷺ ، قتل في موقعة اليمامة . انظر الإمام النووى «تهذيب الأسماء واللغات»، (١/ ١٣٩).

(٢) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٢٠٦-٢٠٧)، والرواية التي ذكرها هى رواية الإمام أحمد بن حنبل «مسند أنس» رقم (١٢٤٢٦)، طبعة بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، (ص٨٧٥).

بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار. فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال، فقال ﷺ: «لا، بل من أهل الجنة». قال أنس ﷺ: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة، كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تعودون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل ﷺ.

فكانت هذه البشارة العظيمة لتلك القلوب التقية.

ويؤيد حديث النبى ﷺ هذا المعنى، وهو أن التقوى في القلب، فيقول ﷺ: «التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره - ثلاثاً - «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه».(١) وإذا كان أصل التقوى في القلوب، فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله ﷻ، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».(٢)

وليس معنى هذا ترك العمل في الظاهر، كما يظنه كثير من الناس في أيامنا هذه، إذ يحسب أن قلبه سليم ويترك واجبات الشرع ويفرط فيها، بحجة أن ربنا رب قلوب، وهو معنى لم يخطر عليبال أحد من أهل العلم، لأن الحكم على الناس إنما هو بظاهر الشرع، فلو كانت قلوبهم سليمة كانت أعمالهم موافقة لما في هذه القلوب، وإلا كيف يدعى تاركو الصلاة - مثلاً - والواقعون في غير ذلك من نواهى الشرع تقوى قلوبهم؟ لذا يشير الحافظ ابن رجب في شرحه لحديث «إنى حرمت الظلم على نفسي»، فيقول - رحمه الله تعالى: «وفى هذا الكلام دليل

---

(١) الحديث رواه مسلم (٢٥٦٤)، عن أبى هريرة رضى الله عنه. وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٦٣).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (٢/ ٢٧٥-٢٧٦).

على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»، فأشار إلى صدره».(١)

مما سبق، تتضح بجلاء مكانة القلب، وأنه محل تقوى الله تعالى، ومحل تمحيصه ونظره، فهو محل أنواره من التوحيد، مما يدفع المؤمنين للاهتمام بإصلاح قلوبهم بمزيد الطاعة والإخلاص لله تعالى، وتنقية القلوب مما يفسدها ويعكر صفوها ويطفأ نورها، سواء بمعاصي الجوارح فإنها سبب ظلام القلب وقسوته كما قال النبي ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنباً نكتت في القلب نكتة سوداء، فإن تاب وأقلع صقلت، وإذا أذنب ذنباً آخر نكتت نكتة أخرى حتى يسود القلب، وذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. فإذا ما استحكم فساد القلب وسواده والران عليه صار قلباً ميتاً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه، فصار عنده الحق باطلاً والباطل حقاً، ورأيته على أسوأ سبيل في السلوك والعادات والأخلاق، وهو مشاهد في دنيا الناس اليوم.

وكذلك يسود القلب بما يرتكب من معاص متعلقة به، كالحقد والحسد والغش وحب الدنيا وطول الأمل والنفاق والرياء وترك الإخلاص، وهي أنكى وأشد.

كان إذاً القلب وتقواه والاهتمام به سبب كل سعادة ورفعة في الأولى والآخرة.

ولا يفوتنا أن نشير إلى احتمال آخر في حديث النبي ﷺ: «التقوى ها هنا»، ويشير إلى صدره، «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، وهذا الاحتمال

---

(١) المصدر السابق، (٢/ ٤٧).

لمعنى كلامه ﷺ أنه لابد أن يسود علاقة المسلم بأخيه المسلم علاقة التقوى. قال بعضهم: ويحتمل أن يكون معناه محل التقوى هو القلب، فمن كان في قلبه التقوى فلا يحقر مسلماً، لأن المتقى لا يحقر مسلماً.(١)

والموضع الثانى من المواضع التي وردت التقوى فيها مضافة إلى القلب هو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢]. وقد أخرنا ذكرها للمعنى الجديد المتعلق بتقوى القلب، وهو تعظيم شعائر الله تعالى، فإذا كنا قلنا قبلاً: إن تقوى القلب وبره تظهر على الجوارح والعكس كذلك، فإن الآية الكريمة توضح بغير لبس أن تعظيم شعائر الله -جل ذكره- أعظم الأدلة على تقوى القلب، فلا يكون القلب قد حَلَّتْه تقوى الله -سبحانه- وهو لا يعظم شعائره ومعالم دينه وأوامره ونواهيه، فإن ذلك أخص خصائص المتقين لربهم.

ترى المستهزئ بذلك، التارك لأوامره، الواقع في نواهيه، المسر بمعصيته أو الجاهر بها، تراه لله تقياً؟

ولقد ضربت الآية المثل في تعظيم تلك الشعائر وإجلال تلك الحرمات، بتعظيم البُدْن التي ينحرها الحاج في حجه، تقرباً إلى الله بها رجاء الثواب، وإطعاماً للبائس الفقير. وهذا الفعل، وإن كان في نظر المرء يمكن أن يكون هناك ما هو أفضل منه في جنسه أو من غير جنسه كما سنوضح، فقد أمر الشارع به، ليستخرج من القلوب تقواها، وليميز منها تعظيمها لأوامره، تنبيهاً على غيره من الأوامر، وإرشاداً لها على تعظيم بقية معالم الدين صغيرها وكبيرها، إذ الكل من الله - تبارك وتعالى - المستحق للتعظيم والإكبار.

---

(١) انظر د. محمد أديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة وسير الصالحين»، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (١/ ١١٢-١١٣).

ولنرى تحليل الآية:

اسم الإشارة هنا مستعمل للفصل بين كلامين أو وجهين من كلام واحد، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض، فإذا أراد الخوض في غرض آخر قالَ: هذا وقد كان كذا وكذا، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكره بعده، إذا كان ما بعده لا يصلح خبراً، والمعنى: ذلك بيان أو ذكر، والمشهور استعمال هذا، كما في قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [ص: ٥٥]، وقول زهير:

هـذا ولـيس كمـن يعيـا بخطبتـه ... وسـط النـدى إذا مـا قائـل نطقـا [(١)]

وإنما أوثر استعمال ذلك للبعيد للدلالة على بعد المنزلة، كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

والشعائر جمع شعيرة، وهي المعلم الواضح، وشعائر الله لقب لمناسك الحج، وقيل: هي شرائع دينه تعالى.[(٢)]

وهي بوزن (فعيلة)، إما بمعنى اسم الفاعل، أي مُشْعِرة معْلِمة بما عينه الله، أو بمعنى مفعولة، أي مُشْعَرٌ بها تجعل ليَشْعُر بها الرائي، فعلى التفسير الأول تكون جملة ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ... ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ ...﴾ ، وشعائر الله أخص من حرمات الله، إذ الحرمة ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله بهذه الصفة فيحتمل أن يكون عاماً في جميع التكاليف، فعطفت عليها للعناية بالشعائر. وشعائر الله كل ما أمر الله بزيارته أو بفعل يوقع فيه مما أشعر الله الناس وقرره وشهره، ومنه الكعبة والصفا والمروة وعرفة

---

(١) زهير بن أبي سلمى، ط دار بيروت ١٣٨٤هـ، ١٩١٤م، تحقيق أكرم البستاني.

(٢) انظر الألوسي «روح المعاني»، (١٠/ ٢٢١). والطاهر بن عاشور « التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٥١).

والمشعر الحرام ونحوها من معالم الحج. وتطلق الشعيرة أيضاً على بدنة الهدى، قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾، لأنهم يجعلون فيها شعاراً علامة على أنها نذرت للهدى.

وضمير ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ عائد إلى شعائر الله المعظمة، وقوله: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ جواب الشرط، أى تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب، على رأى الزمخشرى(١) ومن تبعه كالرازى، والبيضاوى(٢) وأبى السعود(٣)، وذهب البعض إلى أنها من تقوى القلوب(٤)، وإضافة تقوى إلى القلوب لأن تعظيم الشعائر اعتقاد قلبى ينشأ عنه العمل. وتقوى القلوب أولى لموافقتها لصريح الكتاب الكريم.

---

(١) الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣١-٣٣). و عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى «المحرر الوجيز»، تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، (٤/ ١٢١). والرازى «مفاتيح الغيب»، (١١/ ٢٧٣). والبيضاوى «أسرار التنـزيل»، (٤/ ١٢٥). وأبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٨).

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى الشيزارى الشافعى قاض عالم بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق والحديث وأصولى وله تصانيف كثيرة منها منهاج الوصول إلى علم الأصول، وتوفى عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨م. انظر ابن السبكى «طبقات الشافعية»، (٥/ ٥٩).

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادى الحنفى، ولد رحمه الله عام ٨٩٨هـ، فقيه، أصولى، مفسر، شاعر، عارف باللغات العربية والفارسية والتركية، وتوفى في ٥ من جمادى الأولى ٩٨٢هـ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى بالقسطنطينية، وله مؤلفات كثيرة منها «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». انظر الشوكانى «البدر الطالع»، (١/ ٢٦١).

(٤) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ٢٥٧).

وإنما ذكرت القلوب، كما يقول الإمام الرازى[(١)]: «لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه، ولكن لما كان قلبه خالياً عنها، لا يكون مجداً في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص»، ويكاد يكون هذا الكلام كلام أبى حيان[(٢)] في «البحر المحيط» بنصه. ويقول الزمخشرى: «وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء».[(٣)]

لا ريب إذن أن تعظيم دين الله تعالى ومعالمه هو من عمل أصحاب القلوب التقية. ونلاحظ أن هذا الموضع بالذات من مواضع التقوى سيق في موضوع الحج ومناسكه وأعماله، لأن كثيراً من أعمال الحج - إن لم يكن كلها - لا مدخل للتعليل العقلى فيها، وإنما تعتمد على ما وقر في القلب من الإيمان وما تمكن فيه من التقوى كالطواف، والسعى سبعاً، ورمى الجمار سبعاً، وحلق الشعر أو تقصيره، ونحر البدن. لذا وجدنا عمر ﷺ يقول في تقبيل الحجر: «أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك».[(٤)] فتعظيم هذه الأمور والأفعال والأماكن، وإن لم يعلم المرء علتها، لها حِكَم لا

---

(١) انظر الفخر الرازى «مفاتيح الغيب»، (١١/ ٢٧٣).

(٢) أبو حيان الأندلسى «البحر المحيط»، دار الفكر بيروت، طبعة عام ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، (٧/ ٥٠٦). وأبو حيان هو محمد بن يوسف بن على الغرناطى الجيانى الأندلسى الشهير بأبى حيان، ولد عام ٧٥٤هـ، وهو أديب نحوى لغوى مفسر له مصنفات عديدة تزيد على الخمسين أشهرها «البحر المحيط في تفسير القرآن» وتوفى بالقاهرة في ٧٤٥هـ. انظر ابن حجر «الدرر الكامنة» (٤/ ٣٠٢-٣١٠).

(٣) جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣٣).

(٤) حديث عمر رواه البخارى (١٦٠٥). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٣/ ٤٧١)، ورواه مسلم (٢٤٨). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٢/ ٢٠).

شك، دليل تقوى القلب والتسليم لأمر الرب - جل شأنه، وهو فيض الإيمان وبرد اليقين.

ومن هنا رأينا تطبيق ذلك في عمل الصحابة وأمر النبى ذاته ﷺ ، فمعنى تعظيم البُدن - لكونها من شعائر الله سبحانه - كما ذكر المفسرون هو أن تُخْتار حساناً سماناً غالية الأثمان، لأن اختيارها على غير ذلك يدل عليالبخل والشح والحرص على الدنيا، وغير ذلك من المعانى السيئة المنافية للتقوى، أن يضن المرء على نفسه بالثواب، ويبخل على الله تعالى بمال الله الذي جعله مستخلفاً فيه، فأى تقوى هذه إذاً؟ لذا روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل في أنفه برة من ذهب[1]، وكان ابن عمر ﷺ يسوق البدن مجللة بالقباطى، فيتصدق بلحومها وبجلالها.

وقد يفكر المؤمن في أنه لو أهدى عدداً أكبر من البدن والهدايا بدلاً من عدد أقل أحسن وأثمن وأغلى لكان أولى، فإن الرد جاء من النبى ﷺ نفسه لعمر ﷺ فقد أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار، وسأل النبى ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدناً، فنهاه عن ذلك وقال: «بل أهدها».[2] يقول الأستاذ/ سيد قطب في ذلك: «ويربط - أى السياق - بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب، إذ التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره، وقد كان المسلمون على عهد النبى ﷺ يغالون في الهدى ويختارونه سميناً غالياً، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله مدفوعين بتقوى الله...، والناقة النجيبة التي أهديت لعمر ﷺ لم يكن يريد أن يضن بقيمتها، بل كان يريد أن يبيعها فيشترى بها نوقاً أو بقراً للذبح، فشاء رسول الله ﷺ أن يضحى بالنجيبة ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها، ولا يستبدل بها

---

(١) جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣٣).

(٢) المصدر السابق، (٣/ ٣٢).

نوقاً كثيرة قد تعطى لحماً أكثر، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل، والقيمة الشعورية مقصودة ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾، وهذا هو المعنى الذي لحظه رسول الله ﷺ وهو يقول لعمر ﷺ: «انحرها إياها»، هى بذاتها لا سواها».[(١)]

هذه هى المعانى التي أكد عليها الرسول ﷺ لتدل على تقوى القلوب، وحمل فيها أهل الإيمان على أفضل البذل.

تلك تقوى القلوب، وأثرها في تعظيم الشرع ومعالمه، وأثرها في هذا السلوك الراشد الذي تستضيء به حياة الأمة، ويستنير طريقها إلى التقدم والرقى.[(٢)]

---

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٤/ ٤٢٢).

(٢) فإذا تفشت هذه الأخلاق وجدنا الكل يراعى الله تعالى، عليه رقيب منه،مطلع على عمله، ناظر وشاهد لسره وعلنه، فرأينا حينئذ المدرس يراعى ربه، والطبيب يراعى ربه، والحاكم والمحكوم كل يراعى ربه، فيتقن كل واحد عمله، ويتفوق كل واحد في فنه، ويتقدم كل صانع في صنعته، ترى الأمة حالتئذ وقد تقدمت وخرجت عما هى فيه من الفساد والإفساد.

المطلب السادس
لباس التقوى

وما زال البحث متصلاً حول جوانب التقوى المختلفة، ليكتمل بنيانها في نفوس المؤمنين، وواقعهم ومجتمعهم. فإذا كان للتقوى محل وهو القلب، ولها كلمتها كلمة التقوى، ولها مظاهرها التي تنبئ عنها من تعظيم شعائر الله ﷻ، فإن لها لباساً يتميز به أصحابها، إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله تعالى، فرؤيتهم تذكر به، وسلوكهم يدعو إليه.

إن الآية التي وصلنا إليها من مواضع التقوى هى قول الحق - جل اسمه: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

ويحسن في البداية أن ننقل هنا كلام الأستاذ/ سيد قطب(١)، لنفاسته ولتصويره للواقع، ولكن مع تلخيصه لطوله. يقول - رحمه الله - قبل أن يبدأ في تفسير الآية - ما ملخصه: وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها - قصة آدم ﷺ كما سيجىء - تشير إلى شىء مركوز في طبع الإنسان وفطرته، وهو الحياء من التعرى وانكشاف سوأته:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٣/ ١٢٧٥) وما بعدها.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وكلها توحى بأهمية هذه المسألة وعمقها في الفطرة البشـرية، فاللباس وستر العورة زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية. كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية. والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوءاتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها وموارتها. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء من الله تعالى، هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته وخصائص إنسانيته التي بها صار إنساناً، وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوأته.

إن العرى فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العرى جمالاً هو انتكاس في الذوق البشرى قطعاً، والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة، والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأما في الجاهلية الحديثة «التقدمية» فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها وينقلهم إلى مستوى «الحضارة» بمفهومها الإسلامى الذي يستهدف استنفاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها.

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحى بهذه القيم والموازين الأصلية وتبينها خير بيان.

وسوف نعود - إن شاء الله - لتكملة كلامه بعد النظر في الآيات.

ونلاحظ أن الخطاب موجه إلى جميع ذرية آدم، لا يختص بأحد دون أحد أو قوم دون قوم أو أهل ملة دون غيرهم، ليوحى بأن هذا الأمر وهو اللباس وتغطية السوءات يجب على كل الناس، لأن ذلك هو الفطرة والطبع السليم، وغير ذلك من التبرج والعرى وإظهار مفاتن المرأة إنما هو من غواية الشيطان

وفتنته لبنى آدم جميعاً، إذ ذلك ما حدث مع أبى البشرية كلها.

وهذا الخطاب بهذا المعنى يشمل المؤمنين والمشركين، ولكن الحظ الأوفى منه للمشركين، لأن حظ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنهم موافقون في شئونهم لمرضاة ربهم، وأما حظ المشركين فهو الإنذار بأنهم كافرون بنعمة ربهم معرضون لسخطه وعقابه، لكونه لم يستقبلوا هذه النعمة وتلك المنة بما تستوجبه من طاعة الله تعالى والائتمار بأمره وعدم الانسياق مع وسوسة الشيطان وإغوائه، ففسقوا عن أمر ربهم وأفسدوا في الأرض بهذه الصنوف من العرى والتبرج التي كانت سبباً في إفساد غيرهم وإخراجهم عن تقوى الله - جل وعلا.

وابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بالاهتمام البالغ بشراشر قلوبهم.

وكان لخطابهم ببنى آدم وقعه العجيب بعد ذكر قصة آدم عليه السلام وما لقيه من وسوسة الشيطان ليبين لهم ما حدث لأبيهم مع عدوه وعدوهم، فتحترس الذرية من الوقوع في شركه، إذ شأن الذرية أن تثأر لآبائها وتعادى أعدائهم.(١)

ونرى في التفسير القرآنى ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ تشريفاً لهذا المظهر، حيث عبر عن تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه بالإنزال من عند الله، ومن ثم كان أول مظاهر الحضارة الإنسانية، أو كان الذي على آدم من اللباس نزل به من الجنة، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص. وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية وهى أول أصول الإسلام، وأنه مما كرم الله به النوع الإنسانى منذ ظهوره في الأرض، وفيه تعريض بالمشركين الذين خرجوا عن هذا التكريم ومسخوا تلك الفطرة، وجعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجوا عراةً، وتعريض بغيرهم ممن جعله تقدماً ورقياً، بل هو ارتكاس في حمأة الجاهلية،

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٧٢).

وقد كان الأمم يحتفلون في أعياد أديانهم بأحسن اللباس، كما حكى عن موسى عليه السلام وأهل مصر: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ [طه: ٥٩]، فكان في اللباس تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً.(١)

أما قوله تعالى: ﴿ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ فيقول الزمخشرى: «أى أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سوأتكم ولباساً يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾».(٢)

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾، فمنهم من قرأها بالنصب، ومنهم من قرأها بالرفع، ولكل توجيه بديع. أما قراءة النصب فبالعطف على لباساً وريشاً، ويكون المعنى: أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم ولباساً يزينكم ولباساً للوقاية أى تتقون به - ويتعين أى يكون لباساً حقيقة - كلبوس الحرب من الدروع والجواش والمغافر، وذلك كقوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾. والإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ تعود إلى هذا الملبوس المذكور، أى خير أعطاه الله بنى آدم، وتكون الجملة مستأنفة حينئذ.

وأما على قراءة الرفع فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا ﴾، والاختيار هنا أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله تعالى وخشيته، لأن هذا المعنى أليق بالرفع، ويكون استطراداً للتحريض والحث على تقوى الله فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه، وهو التقوى.

وأطلق على التقوى اللباس، إما بتخييلها بلباس يلبس، وإما بتشبيه ملازمة

---

(١) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٧٢-٧٤).

(٢) الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ٥٨).

تقوى الله بملازمة اللابس لباسه، كقوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[١]، مع ما يحسّن هذا الإطلاق من المشاكلة، وهذا المعنى الرفع أليق به، ويكون استطراداً للتحريض على تقوى الله، فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة لتعظيم المشار إاليه.

وقد رجح ذلك الإمام الطبرى - رحمه الله - فقال: «وأولى الأقوال بالصحة[٢] في تأويل قوله: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ استشعار النفوس تقوى الله في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته. وذلك يجمع الإيمان والعمل الصالح والحياء وخشية الله والسمت الحسن، لأن من اتقى الله كان به مؤمناً وبما أمر به عاملاً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يُرَى عند ما يكرهه من عباده مستحيياً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورؤيت عليه بهجة الإيمان ونوره».

ثم يعلل لهذا الاختيار - رحمه الله تعالى - بأن كل من ادرع شيئاً واحتبى به حتى يرى هو أو أثره عليه فهو له لابس، ولذلك جعل - جل ثناؤه - الرجال

---

(١) انظر: الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٨٥). وأضاف الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ٥٨-٥٩): «كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس المواري للسوأة، لأن مواراة السوأة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة».

(٢) الطبرى «جامع البيان»، (٨/ ١١٢). وقد ذهب إلى هذا القول لأن المفسرين فسروا لباس التقوى بعدة أقوال جمعها ابن الجوزى في عشرة أقوال. قال رحمه الله، (٣/ ١٨٢-١٨٣)، في زاد المسير: «وللمفسرين في (لباس التقوى) عشرة أقوال: أحدها: أنه السمت الحسن. قاله عثمان بن عفان، ورواه الذيال بن عمرو عن ابن عباس. والثانى: العمل الصالح. رواه العوفى عن ابن عباس. والثالث: الإيمان. قاله قتادة وابن جريج والسدى. فعلى هذا سمى لباس التقوى لأنه يقى العذاب... الخ».

للنساء لباساً، وهن لهم لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً".

ونظرة أخرى على قوله ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾، يتضح لنا أن هذه الصيغة من صيغ العموم، ومن ثم يكون المعنى أن كل لباس يكون فيه تقوى الله ﷻ حسياً كان أو معنوياً فهو خير، فالمؤمن إذاً مطالب بأن تكون التقوى زيه الذي يرتديه، وثيابه التي يتدثر بها. فما كان مقرباً إلى الله تعالى من الزى والملبس فهو تقوى لله يحافظ عليها أهل الإيمان. فمثلاً، نهى النبى ﷺ عن التشبه بالكفرة مطلقاً في زيهم ولباسهم وسلوكهم واعتقاداتهم، وغيره مما يختصون به، قائلاً: «من تشبه بقوم فهو منهم»[1]، فيكون التشبه بهم في الزى والمظهر مما يدخل في هذا الباب من لباس التقوى، أى: إن لباسهم مخالف للتقوى وعليه يلزم مخالفتهم، والتزى والظهور بما كان يحب النبى ﷺ هو التقوى والأحب والأقرب إلى الله - سبحانه، علاوة على ما في التشبه بهم من الإحساس بعقدة النقص المظهرة للتخلف، والمزرية بماضى الأمة وهويتها وتراثها، والتي نراها من هؤلاء المتفرنجين. وهذا التقليد من هؤلاء يدل على ميلهم إلى ما نهى الله عنه من مودة الكفار وموالاتهم وتفضيلهم على بنى جلدتهم، والله - جل وعلا - حذرنا ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن ثم قال رسول الله ﷺ : «خالفوا المشركين»[2]، وهو في أمور متعددة، مما يدل على اطراد طلب المخالفة وشموله، وهو في الملبس لا كما يقال في الجوهر، لأن الجوهر - والنهى عن التشبه بالكفرة فيه معلوم - لا يحتاج إلى بيان أو تنبيه،

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١)، وحسنه الألبانى في تخريج أحاديث «المشكاة»، (٤٣٤٧).

(٢) هكذا بصيغة الأمر. والحديث رواه مسلم (٢٥٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٢/ ١٤٩).

وكأنه ﷺ يستشرف الغيب بإخباره عن تردى هذه الأمة حين تخرج عن أوامر ربها وسنة نبيها وتتبع الكفرة وتقلدهم وتسير سير الذليل الحقير المنكسر وراء سيده المنتصر، فيقول: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضبٍ دخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».[1] وهذا الواقع الكريه لا تخطئه عين، حتى عد رجعياً ومتخلفاً ومقذوفاً بالسيل من الاتهامات من لا يسير في هذا السبيل ولا ينهج هذا النهج النكد.

والمتأمل في الآية لابد أن يقف متفحصاً عند قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، فهى طلب التذكر وإعمال العقل والفكر ومدى ما أدت إليه هذه المخالفة لتلك الآيات - التي لابد أن تحمل على تقوى الله - من واقع مر ينبئ عن عظيم الخطر في مخالفة أمر الله تعالى، ومعاندة العقل، ومصادمة الفطرة، ومخالفة السنة، وما في ذلك من خزى وهوان في الدنيا والآخرة.

ونعود إلى كلام الأستاذ/ سيد قطب[2] كما وعدنا، يقول - رحمه الله: «فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى. كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان. فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه. ومن لا يستحى من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العرى، العرى من الحياء والتقوى، والعرى من اللباس وكشف السوأة!».

---

(١) رواه البخارى (٣٤٥٦). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٦/ ٤٩٥). ورواه مسلم (٢٦٦٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٤٧٢).

(٢) الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٣/ ١٢٧٨-١٢٧٩).

المطلب السابع
كلمة التقوى

ونواصل التعرف على بقية مواضع التقوى، لنستكمل البحث، من هذه المواضع «كلمة التقوى» وقد وردت في قوله: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦]، فإذا كان للتقوى محل ولها لباس، وتعظيم للشعائر يدل عليها فإن لها كلمة كذلك، وجمهور المفسرين[(١)] هنا على أن كلمة التقوى هنا هى قوله «لا إله إلا الله»، وذكر بعضهم أنها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، أو «لا إله إلا الله والله أكبر»، أو «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير»، أو هى «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقيل عن مجاهد إنها الإخلاص، ونقل عن الزهرى[(٢)] الوفاء بالعهد، هذا مجمل أقوال المفسرين، وهى أقوال لا يملك الباحث التسليم بها، إذ معناها أن الله ﷻ ألزمهم قول «لا إله إلا الله»، وهذا القول هم ملتزموه من قبل ومن بعد: ضحوا فيه بأنفسهم وأهليهم وأموالهم

---

(٢) وانظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد ١١، (٢/ ٦٦-٦٧). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٨، (١٦/ ٢٨٩). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٤/ ٣٤٥). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ١٩٤). والزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٤٦٧). والإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى «زاد المسير في علم التفسير»، (٧/ ٤٤٢-٤٤٣) الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامى. وأبو حيان «البحر المحيط»، (٩/ ٤٩٧). والألوسى «وروح المعاني»، مجلد١٤، (٢٦/ ١٧٨-١٨٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤-٢٥/ ١٩٥-١٩٧). وغيرها.

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى ولد عام ٥٨هـ، ٦٧٨م، محدث، حافظ، فقيه، مؤرخ، من أهل المدينة وتوفى رحمه الله ١٢٤هـ، له تصنيف في مغازى رسول الله ﷺ، انظر حاجى خليفة «كشف الظنون»، (ص١٤٦-١٤٧).

وأوطانهم، كذلك فإن القول بأنهم أحق بتلك الكلمة من غيرهم قول لا يظهر له وجه أو ميزة!

ولم يوجد من المفسرين والمحققين ممن قرأت لهم من أشار إلى هذا الاعتراض، أو بمعنى أدق أشار إلى بعض تلك المعاني وإن لم يورد فيه إشكالاً أصلاً إلا صاحب «التحرير والتنوير» العلامة ابن عاشور، وهاك ملخص تحقيقه - رحمه الله: إن كلمة التقوى إن حملت على ظاهر المعنى كانت من قبيل الألفاظ، وإطلاق الكلمة على الكلام شائع ،كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وفسرت هنا بقول «لا إله إلا الله». وإلزامهم إياها معناه أنه قدر لهم الثبات عليها قولاً بلفظها، وعملاً بمدلولها؛ إذ فائدة الكلام حصول معناه، وإضافة كلمة إلى التقوى بهذا التفسير حقيقية، ومعناها أن كلمة الشهادة أصل التقوى، لأن أساس التقوى اجتناب الأصنام من إضافة السبب إلى المسبب، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى. وأفاد - رحمه الله - أن الأسانيد التي رفعت تفسير الكلمة بـ «لا إله إلا الله» إلى الرسول ﷺ كلها ضعيفة، ولكنها وردت عن كثير من الصحابة، وهذا هو الاحتمال الأول.

والاحتمال الثانى: أن ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ على غير ظاهر معناها، فتكون إضافتها بيانية، أو تطلق على حقيقة الشيء الأول، وتكون مقحمة كإقحام اسم في قول لبيد: **إلى الحول ثم اسم السلام عليكما**

ومنه قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ على أحد التفسيرين، ويكون المعنى: وألزمهم التقوى، والثانى وهو إطلاقها على حقيقة الشيء ، كقول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها ... يهدى إلى غرائب الأشعار

ويؤيده ما نقل عن مجاهد أنه فسرها بالإخلاص. فيكون المعنى على هذا الاحتمال الثانى أنهم تخلقوا بالتقوى لا يفارقونها، واستعير الإلزام لدوام

المقارنة. وهذا الاحتمال لا يعارض تفسير كلمة التقوى بالشهادة وهو الاحتمال الأول، لأنه تفسير للتقوى بجزىء من التقوى هو أهم جزيئاتها: وهو الشهادة.[(١)]

وآخر ما أشار إليه أهل التفسير لكلمة التقوى هو أنها الوفاء بالعهد، ويكون للإلزام. هنا معنى جديد هو الإيجاب، أى أمر المؤمنين أن يفوا بعهدهم مع المشركين في صلح الحديبية لذلك لم ينقض المسلمون العهد حتى كان المشركون هم الذين نقضوه.

والذى أذهب إليه - بعد عرض ما سبق من أقوال المفسرين - متوائماً مع فهمى للسياق، مستنداً إلى بعض ما ذكرته من إشارات أهل العلم، أن كلمة التقوى هنا عامة لأنها مفرد مضاف إلى معرفة فيكون من صيغ العموم، فتشمل كلمة التقوى حينئذ كل ألفاظ التقوى، أى ما فيه طاعة الله واتقاء غضبه، وليس الألفاظ فحسب بل الالتزام بمعناها والثبات عليها، ويكون المعنى: أن الله تعالى ألزم أهل الإيمان في كل ألفاظهم تقوى الله تعالى وثبتهم، أو يجب أن يثبتوا على تلك المعانى الحقة لألفاظ التقوى، فلا يصدر منهم إلا ما فيه تقوى الله تعالى قولاً وعملاً، لأنهم أحق بذلك شرعاً وقدراً، لما علم الله فيهم من محبتهم له، ومن خشيتهم لله ﷻ ومهابتهم واقتدائهم بالنبى ﷺ أن يلفظوا بأقوال لا تقوى فيها، أو أن يتلفظوا بأقوال التقوى ولا يعملوا بمقتضاها، أو يداوموا ويثبتوا عليها ثباتا على المبدأ وتمسكاً بالواجب الحق. والآية تحمل - كما أشار الأستاذ/ سيد قطب - الثناء على أصحاب النبى ﷺ حيث ألزمهم كلمة التقوى بأحقيتهم... الخ.[(٢)] فلا يجوز للمؤمنين أن يخرجوا في ألفاظهم وأقوالهم عن

---

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/).

(٢) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٦/ ٣٣٢٩).

تقوى الله ﷻ كما قال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨]، وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[(١)]، فكان قول الخير أو الصمت علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونلاحظ أن القرآن الكريم عبر بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، وأن الكلمة الطيبة هي كلمة التقوى على ما أشرنا، وعكسها الكلمة الخبيثة، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

ويتضح من قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ... ﴾ أن جزاء كلمة التقوى نطقاً والتزاماً، والثبات على ذلك هو تثبيت أصحابها بالقول الثابت في الحياة الدنيا، بأن ييسر الله لهم الأقوال الإلهية على وجهها، فإن (ال) في ﴿ بِٱلْقَوْلِ ﴾ للاستغراق، والباء للسببية. وأن يدركوا دلائلها حتى تطمئن قلوبهم فلا يخامرها شك، فيصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين، وعاملين غير مترددين. و﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ يشمل ما كان من أمرها مما يحتاج التثبيت لأهوالها وكربها، وأول ذلك القبر. روى البخاري عن البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله»، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، (٦١٣٦)، (٦٤٧٥). وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (١٠/ ٤٤٥-٥٣٢)، (١١/ ٣٠٨). ورواه مسلم (٤٧). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (١/ ٢٩٣).

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾»[١]، وهو الجزاء الذي من جنس العمل والذي طالما أكد عليه القرآن الكريم والسنة المشرفة.

---

(١) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٧، (١١/ ١٤٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢/ ٥٣١). والطاهر بن عاشور «التحريروالتنوير»، (١٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

المطلب الثامن
خير الزاد التقوى

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧]:

التزود إعداد الزاد، وهو الطعام الذي يحمله المسافر، وهو مستعار للإكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء، شبه بإعداد المسافر الزاد لسفره بناءً على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت. قال الأعشى(١):

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا

هذا في المعنى المجازى للتزود، ويجوز استعماله في معناه الحقيقى على وجه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، فيكون التزود أمراً بإعداد الزاد من الطعام وغيره، ويكون تعريضاً كما في سبب نزول الآية بقوم من أهل اليمن يحجون بيت الله بغير زاد، يقولون: نحن متوكلون على الله، كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فيكونون كلاً على الناس ثقلاء عليهم، فنبههم بأن خير الزاد ما يقيهم السؤال ويحفظهم من أن يكونوا ثقلاء على الناس، فإن ذلك من التقوى، لأن فيه صيانة ماء الوجه والعرض.(٢)

وهكذا يتضح أن التقوى زاد المؤمن في سفره في دنياه، وسفره إلى آخرته(٣)،

---

(١) ميمون بن قيس «ديوان الأعشى»، دار صادر بيروت، (ص٤٦).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والنوير»، (٢/ ٢٣٥-٢٣٦). وانظر العلامة الآلوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٣٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٢/ ٤١١).

(٣) يقول الإمام الرازى في مقاتيح الغيب، (٣/ ١٨٩)، ما حاصله: «وتحقيق الكلام أن الإنسان له سفران، سفر في الدنيا يتزود له الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا لابد له فيه من زاد هو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد الأخير خير

وهى إشارة أيضاً إلى لزوم استصحاب التقوى على كل حال من أحوال المؤمن سفراً وحضراً وكل ما كان فيه تقوى لله ﷻ حتى لو كان زاداً يأكله وشراباً يشربه فعليه أن يتزوده، فهو أقرب إلى الله وأحب إليه سبحانه، بل كل شأن من شئونه ولو كان مباحاً كالطعام والشراب لا ينبغى أن يخليه عن التقوى، فهو دليل التعلق بالله تعالى والالتزام بشرعه، ودليل على أن كل حركة وسكنه من المؤمن إنما هى لله تعالى، كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وهناك ملحوظة، وهى أن المرء لما كان مسافراً إلى الآخرة في كل أوقاته، وأن رحيله إليها يمكن أن يتم بين لحظة وأخرى، فإن المؤمن الذي يهمه أمر آخرته ينبغى أن يكون مشغولاً في كل أوقاته بإعداد زاد الرحيل، لأنه غير منقطع السفر حتى يصل، فلا يضيع من وقته شيئاً في غير تقوى الله تعالى في أمر معاده ومعاشه، يضن بأنفاسه أن تضيع سدى بغير فائدة يرجو ثوابها في دينه ودنياه.

ولا يقدر هذا الأمر وذلك الخطر حق قدره إلا من أكرمه الله تعالى باستخدام عقله وبإعمال فكره ونظره في حاله في الدنيا وما هو مقدم عليه من أمر الآخرة، لذلك رأينا الآية الكريمة تختم بقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، أى واشتغلوا بتقواى يا أصحاب العقول، لأن الألباب جمع لب وهو العقل، واللب الخالص من كل شيء، وكأن مقتضى العقل الخالص عن

=

من الأول لوجوه، منها أن زاد الدنيا يخلص من عذاب موهوم ومنقطع وزاد الآخرة يخلص من عذاب دائم ومتيقن، وأن زاد الدنيا يوصل إلى شهوة النفس وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس، وأن الدنيا وزادها في ادبار وانقضاء وزاد الآخرة يوصلك إليها وهى كل ساعة في الإقبال والقرب والوصول. فثبت بما ذكرنا أن خير الزاد التقوى» ا.هـ. ويمثل ذلك أشار الخازن في تفسيره.

الشوائب شوائب الهوى وغيره تقوى الله سبحانه وتعالى.[١] يقول ابن عطية[٢] في المحرر الوجيز: «وخص أولو الألباب بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل، لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكاليف فالنداء بـ(أولى الألباب) عام لجميع المكلفين».

وقد يلحظ المرء تكراراً في الآية، فبعد الحث على التقوى أمر بها مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، ولكن التحقيق أنه ليس هناك تكرار، لأنه حث على الإخلاص بعد الحث على التقوى.

ويوضح البيضاوى المعنى، فيقول – رحمه الله: « قضية اللب خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم أن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه».[٣]

---

(١) انظر الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٣٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٣٦). والرازى «مفاتيح الغيب»، (٣/ ١٩٠).

(٢) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٢٧٤).

(٣) البيضاوى «أنوار التنـزيل»، (١/ ٤٨٣). وهذا ما ذكره أبو السعود بنصه في «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٤).

المطلب التاسع
بقية مواضع التقوى

واستكمالاً للبحث لابد من الإشارة إلى بقية مواضع التقوى في القرآن الكريم، لتكتمل صورة التقوى، ونستأنف بهذه الآية الكريمة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨]:

وحديث التقوى وزادها يدفع بنا إلى بيوت الله تعالى، وهى المساجد، حيث تتنـزل الرحمة وتحط السكينة وتحف الملائكة، وفيها يستطيع المرء المؤمن أى يحصل التقوى، وأن يجهز منه ما يمكنه من مواصلة رحلة السفر إلى الآخرة.

وللمسجد في الإسلام أهميته القصوى، فهو المدرسة التي خرجت وتخرج قادة الإنسانية ورواد النهضة وفرسان الحق، فكان المسجد أول ما أسس النبى ﷺ عند وصوله للمدينة، لعلمه وإعلامه بعظم منـزلته في بناء الأمة وتقوية الصلة بالله تعالى وإيقاظ الضمير وشحن القلوب بمادة التقوى، حيث تعلم العلم النافع والقيام بالعمل الصالح من ذكر وقراءة للقرآن، ومن قيام وصلاة ومن اعتكاف ومجاهدة، وفيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعلم الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وكذلك فيه يتم النظر في مصالح المسلمين وجمع صدقاتهم، وعقد ألويتهم وخروج جيوشهم ناشرة لواء الخير والعدل والسلام، بتعبيد الناس لرب العالمين وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وفيه علاوة على ذلك الإصلاح بين الناس وجمع شملهم وتوحيد صفهم وإظهار المساواة بينهم، لا فرق بين كبير وصغير ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، حيث الجميع أمام ربٍ واحدٍ صفاً واحداً بكتابٍ واحدٍ وإمام واحد يرجون رحمته ويخافون عذابه.(١)

---

(١) انظر د. محمد سعيد رمضان البوطى «فقه السيرة»، (ص١٥٢-١٥٣)، ١٣٩٨هـ،

فكان رسول الله ﷺ أول ما يبدأ يبدأ من بيت الله تعالى، وأول ما يرجع قبل رجوعه إلى أهله وبيته، يبدأ ببيت الله تعالى.(١)

ولما تفطَّن المنافقون لفضل المسجد وخطره، هداهم شيطانهم إلى هذا التفكير الخبيث - الذي ما فتئ المنافقون في كل عصر وزمان يستخدمونه - ليكيدوا للإسلام وأهله، وليحاربوا الله ورسوله، وليفرقوا به بين المؤمنين، ألا وهو مسجد الضرار، فيبنوا مساجد لإيقاع الضرر - بل أعظم الضرر - بالإسلام والمسلمين، أو يحولوا المساجد إلى مساجد ضرار، ليخرجوا بها المسلمين عن تقوى الله تعالى، بتحريم ما أحل الله أو بتحليل ما حرم الله، وبنشر الجهل والخزعبلات، وبإيقاع الفتنة بينهم والخلاف، وإلهائهم عن قضايا الأمة بفرعيات لا خطر للخلاف فيها، وشغلهم عن مهمات الأمور وقضايا الساعة والعودة إلى

=

١٩٧٨م، دار الفكر، الطبعة السادسة. يقول: «فقد أقبل رسول الله ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامى راسخ متماسك يتألف من هؤلاء المسلمين: الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة، فكان أول خطوة قام بها في سبيل هذا الأمر بناء المسجد. ولا غرو ولا عجب، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامى، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد وحبه...إلخ».

وانظر الدكتور مهدى رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية»، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (ص٢٩٣) وما بعدها. وكذا صفى الدين المباركفورى «الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)»، (ص٢٠٥-٢٠٦)، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث.

(١) رواه البخارى (٤٤١٨). وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (٨/ ١١٤). ومسلم (٢٧٦٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٠٠) وما بعدها.

النبع الصافي في الكتاب والسنة وسير النبلاء من السلف الصالحين، حتى تبقى الأمة متخلفة لا قيمة لها ولا وزن في دنيا الناس، وهو ما يصبو إليه أعداء الأمة وأعداء الإسلام.

قام المنافقون في عهد رسول الله ﷺ فعلاً بهذا الفعل الهابط، فقاموا ببناء مجمع سموه مسجداً[١]، ليكيدوا فيه لله ولرسوله وللمؤمنين، وتهيئته لكل أصحاب العدواة والحقد على الإسلام ورسوله والمسلمين. وكان عبد الله عمرو أبو عامر من أشرافهم في الجاهلية، تنصر وتعبد حتى سمى أبا عامر الراهب، ولما جاء الإسلام شرق به ريقه ونافق وجاهر النبى ﷺ بالعداوة، وظاهر عليه الكفار واليهود. وبعد غزوة بدر ذهب إلى مكة وأقام فيها يحرض على النبى ﷺ.[٢] فلما فتح الله مكة ذهب إلى الطائف، فلما فتحت الطائف ذهب إلى الروم يستنصر بهم على أهله وعشيرته، يحارب رسول الله ﷺ والمسلمين - وذلك ديدنهم؛ العمالة لأعداء أمتهم والاستنصار بهم ضد أهلهم ووطنهم- ووعدهم أن يأتى بجيش من الروم ليطرد محمداً وصحبه من المدينة، وأن يعدوا هذا المجمع إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق، كما سماه باسمه اللائق به رسول الله ﷺ.[٣]

جاء المنافقون وطلبوا من النبى أن يصلى لهم في مسجدهم ويدعو لهم بالبركة حيث بنوه لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة، يحلفون بالله كذباً إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، وكان قريباً من مسجد قباء إمعاناً في

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/ ٥٠٢).

(٢) وقال للنبى ﷺ: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم».

(٣) وقد جاء في السير أن رسول الله ﷺ دعا على الكاذب أن يموت طريداً شريداً غريباً، فمات أبو عامر على هذا النحو لما فر إلى الشام، طريداً شريداً غريباً، فكان هو الفاسق الكاذب.

تفريق المؤمنين وتشتيتهم. كان رسول الله ﷺ متجهزاً لغزوة تبوك، فقال لهم: «إنا على سفر وحال شغل، عندما نرجع – إن شاء الله – نصلى فيه»، يريدون بصلاته فيه تحصيل مزية لمسجدهم تروج لمقصدهم الفاسد وهدفهم الأثيم.

وعند رجوع المصطفى ﷺ من تبوك قبيل دخوله المدينة جاءه النهى الحاسم من الله – جل وعلا: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، إنه مسجد لم يؤسس على التقوى، فأمر ﷺ عمار بن ياسر[١] في نفر من أصحابه أن اذهبوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه. إنها المفاصلة بين الحق والباطل، ليس ثَم أنصاف حلول تلتقى فيها التقوى مع عدمها في منتصف الطريق، لا تقم فيه أبداً، وحرقوه واهدموه.[٢]

التقوى إذاً هى الفيصل بين ما كان لله تعالى فيبقى في الدنيا وله ذخره وثوابه يوم يقوم الأشهاد، وما كان لغيره فيهدم في الدنيا، ويوم القيامة يهوى بأصحابه في نار جهنم.[٣]

---

(١) قال معظم المفسرون: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، فقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ...». وانظر لما سبق القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٨/ ٢٥٣). وابن جرير «جامع البيان»، مجلد٧، (١١/ ١٨).

(٢) (لاتقم فيه) أى: للصلاة، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام. يقال: فلان يقوم الليل، أى يصلى، ومنه الحديث الصحيح: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)، القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٨/ ٢٥٨)، والألوسى «روح المعانى»، (٧/ ٢٨).

(٣) انظر الشيخ محمد الغزالى «فقه السيرة»، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، طبعة دار القلم، (ص٤١٤-٤١٥). ود.محمد سعيد رمضان البوطى «فقه السيرة»، (ص٣٢٤-٣٢٦). ود. مهدى رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية».

ثم جاء التوجيه الحاسم بالأسلوب المعجز: ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨]. فنقف عند هذا الموضع أولاً لنحلله، ثم نعود للموضع التالى للتقوى في هذه القصة.

اللام في قوله: ﴿ لَّمَسۡجِدٌ ﴾ لام القسم، وقيل: لام الابتداء، والمعنى: والله لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، وفيه تأكيد لمضمون الجملة. و(مسجد) مبتدأ، و﴿ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ صفته، وخبره ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾.

و﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ صفة ثانية للمبتدأ جاءت بعد خبره على قول بعضهم، فبعد أن ذكر صفة المحل ذكر صفة الحال فيه، وعلى كل حال فيه تقرير وتحقيق لاستحقاق القيام فيه.

وهو حاصل كلام المفسرين(١)، وفيه تتضح معانى كثيرة عند النظر الفاحص لهذا النص الكريم.

أول هذه المعانى: تبيين الله تعالى لصفات المسجد الذي يجب أن يقوم فيه النبى ﷺ وأتباعه، بعد أن نهاه أن يقوم في مسجد الضرار أبداً. وهذه الصفات تدور كلها حول التقوى و المتقين، لأن المسجد - كما أشرنا - هو المكان الذي يحصل فيه المرء على وجه الخصوص زاد التقوى المأمور به.

فأقسم المولى ابتداءً بنفسه - سبحانه - أن المسجد الذي يجب أن يقوم فيه هو المسجد المؤسس على التقوى، سواءً في النية والقصد من إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، أو من القيام بالشرع وإحياء السنة، أو من التعاون على البر

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، (١٠/ ٢٩). والعلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٤٤٧-٤٤٨). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (٧/ ٢٨).

والتقوى وتقوية الروابط وإحكام عرى الوحدة و التكافل والتراحم والمساواة بين المؤمنين، أو من مساعدتهم على تحصيل زاد آخرتهم بتوثيق الصلة بينهم وبين ربهم، أو بغير ذلك من أسس التقوى اللازمة لقيام بناء محكم متين.

ولفرط اهتمام الصحابة بمعرفة أماكن التقوى وجدنا سؤالهم عن أى المساجد أسس على التقوى من أول يوم؟ وهى مسألة تنازعها أهل العلم بناءً على أقوال الصحابة. قال في البحر المحيط: «قال ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين: المؤسس على التقوى مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة، وهو أولى لأن الموازنة بين مسجد قباء ومسجد الضرار أوقع منها بين مسجد الرسول. وروى أنه قال: «هو مسجدى هذا» لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، وإذا صح هذا النقل لم يمكن خلافه».(١)

---

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/ ٥٠٤). والقول الأول قول الكشاف بحروفه، انظر (٢/ ١٧٢)، وتبعه البيضاوى، (٣/ ١٧٢)، وأبو السعود، (٢/ ٤٤٧)، والنسفى، (٢/ ١١١)، وذكر النيسابورى كلام الكشاف كذلك، مجلد٧، (١١/ ١٨) (على هامش الطبري). أما القول الثانى فترجيح ابن جرير، مجلد٧، (١١/ ٢١-٢٢)، وكذا ابن عطية، (٣/ ٨٢)، والقرطبى، (٨/ ٢٥٩-٢٦٠)، وهو ترجيح صديق خان في «فتح البيان»، (٤/ ١٩٧-١٩٨)، وسبقه الألوسى، (٧/ ٢٩).

وقول من قال: هو مسجد رسول الله ﷺ هو الأرجح - في نظر الباحث - لصحة الحديث الذي رواه مسلم: (هو مسجدى هذا)،فهو نص في المسألة، فلا نظر لخلافه، ويؤيده قوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ ﴾، والمسجد الذي قام فيه وداوم ﷺ مسجده المشرف. وأما قول من قال: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ ﴾ فهو صادق على رجال مسجد الرسول، بل هو من باب الأولى، أو هم الأنصار بغض النظر عن كونهم يصلون في قباء أو في مسجد الرسول ﷺ، ولا يعقل أن أهل قباء يصلون في قباء فقط، ولا يأتون مسجد النبى ﷺ صلاة معه وجهاداً وتعلماً واستفتاءً وغير ذلك!

ولم يقل - سبحانه - إنه أسس على التقوى فقط، وإنما أسس عليها من أول يوم قيامها، فقط وكأن ما أسس على غير التقوى من أول يوم ثم تبدلت أحوال القائمين عليه إلى التقوى أو تغيروا وتبدلوا بمتقين كذلك لا يزال المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم أفضل وأحق أن يقام فيه(١)، وهذا يؤكد قيمة التقوى وعلو منـزلتها، والله أعلم.

الصفة الثانية من الصفات التي تدعو المرء إلى أن يقوم في المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم: كون عمّاره من الذين يحبون أن يتطهروا، وعبر بالمحبة لأن الذي يحب شيئاً ممكناً يفعله لا محالة، فقصد بذلك التنويه بأنهم يتطهرون

=

وأما روايات الطهارة النازلة فيهم - أي أهل مسجد قباء - فروايات ضعيفة كما ذكر الألوسي وصديق خان، وقد جمع بعضهم بين القولين. وقال الألوسي وتبعه حسن خان: «وجمع الشريف السمهودي بين الأخبار، وسبقه إلى ذلك السهيلي، وقال: كل من المسجدين مراد، لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أول يوم. والسر في إجابته توهم السائل اختصاص مسجد قباء بمزية على هذا. ثم قال: ولا يخفى بعد هذا الجمع» أ.هـ. بتصرف. ورجح هذا الجمع العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣٢)، حيث قال ما حاصله: «ووجه الجمع عندي في قوله ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: المسجد الذي هذا صفته فيكون وصفاً كلياً انحصر في فردين: مسجد الرسول ومسجد قباء، فأيهما صلى فيه حال دعوته للصلاة في مسجد الضرار كان أحق وأجدر». وقال ابن كثير - رحمه الله، (٢/ ٣٨٩)، في الجمع بين القولين: «ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى».

(١) قال الإمام ابن كثير، (٢/ ٣٩٠): «دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة من أول يوم بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنـزه عن ملامسة القاذورات».

تقرباً إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم لها، بحيث صارت الطهارة خلقاً لهم، فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.[(١)] والطهارة تشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية من تطهير النفس من الذنوب والمعاصى بالتوبة والاستغفار، فتلك صفات مسجد التقوى، وهذه صفات أهله.

الثاني: بينت الآية السابقة بهذا التعبير وهو ﴿ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾[(٢)] أن المرء الذي يقصد تقوى الله فلا بد له من صحبة تعينه على ذلك، وتعاونه على إعداد زاده والعمل لآخرته، أو بمعنى آخر أن يقوم في المسجد الذي هذا أهله، فذلك أجدر أن يحقق هدفه من تقوى الله تعالى. وفى التعبير بكونهم رجالاً ما فيه من التنويه بشأنهم وإعلاء منزلتهم، وكفى به شرفاً، فمن هذه صفاتهم من طهارة القلب والنفس والبدن، ومن زكاء الفعل والقول هم الرجال.

الثالث: أن المعانى الجميلة في الآية ذلك الجزاء الرائع الذي لا جزاء فوقه،

---

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣٣).

(٢) قال المفسرون: هذه الآية نزلت في الأنصار. يقول صاحب «التحرير والتنوير» مختصراً هذه الأقوال: «وجملة ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ ثناء على مؤمنى الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قباء. وكان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء. وقد ذهب الإمام الفخر، (٨/ ١٧٨)، إلى أن الطهارة المراد منها التطهر عن الذنوب والمعاصى، وأن هذا القول متعين لازم لوجوه: الأول: أن التطهر عن الذنوب والمعاصى هو المؤثر في القرب من الله تعالى واستحقاق ثوابه ومدحه. والثانى: أنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر بالله والتفريق بين المسلمين فوجب على كون هؤلاء على الضد من صفاتهم، وما ذاك إلا لكونهم مبرئين عن الكفر والمعاصى. والثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر وقدر عند الله لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصى.

وهو محبة الله تعالى للمتطهرين، فإنهم لما أحبوا الطهارة أحبهم الله، والجزاء من جنس العمل، أو لما أحب المؤمن المتطهرين وقام معهم لله تعالى، تطهيراً لنفسه وإرضاءً لربه وتقوى له سبحانه، فإنه بذلك متعرض لمحبة الله له على قدر ما طهر نفسه وزكاها وحفظها ورعاها، أى بقدر ما حصل من تقوى الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

الرابع: أن الآية أشارت في المقام الأول إلى عظمة هذا الجيل - الرعيل الأول - من أصحاب الرسول ﷺ، حيث نوهت بهم وبشأنهم وبجميل صفاتهم بعظيم تقواهم لله ثم بمحبة الله - جل وعلا - لهم.

وفى المقابل ألمحت الآية إلى أهل النفاق والشك والارتياب، من سوء نيتهم وخُبث طويتهم، وفساد قصدهم، فعرضت الآية بهم تعريضاً هتك أستارهم وفضح عداوتهم، حيث بينت أن مسجدهم لم يؤسس على التقوى، فكان حرياً بالمقاطعة والهدم والتحريق وعدم القيام فيه، وعرضت بمن فيه بأنهم غير متقين، حيث أنهم لا يحبون أن يتطهروا، يحبون الخبث والخبائث في القصد والنية والعمل والبناء، حتى ولو كان في صورة ما يحبه الله تعالى من بيوته، فهم جديرون ببغض الله إياهم.(١)

الخامس: جاءت الآية باسم التفضيل ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾، فهل هناك مفاضلة بين التقوى وما أسس عليها وبين ما لم يؤسس على التقوى؟ هل يوجد وجه مقارنة حتى يقال: هذا أحق فقط من هذا؟ كلا، إن اسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة، لأن الله تعالى قال: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، فكان معنى أحق أى كونه في نفسه حقيقاً بأن يقام فيه، إذ لا استحقاق للقيام في المسجد الضرار رأساً.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣٣)، والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ١٧٧-١٧٨).

ولعل النكتة في الإتيان باسم التفضيل هو التهكم بالمنافقين[١] بأن مسجدهم - مجاراة لهم - وإن كان حقيقاً بالصلاة فيه فإن المسجد الذي أسس على التقوى أحق، أى إن مسجدكم لم يؤسس على التقوى، فليس جديراً إلا بأن يكون مكاناً تلقى فيه الجيف والقمامة، وأن يهوى بأصحابه في النار.

السادس: استنبط العلماء من الآية أن ما كان من المساجد لم يؤسس على التقوى ولم يبن على رضا الله تعالى فلا يقوم فيه المؤمن، إذ هو لاحق بمسجد الضرار، وقد طبق العلماء ذلك. يقول الإمام القرطبى[٢]: «وأسند الطبرى عن شقيق أنه جاء ليصلى في مسجد بنى عامر، فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بنى فلان لم يصل فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلى فيه، لأنه بنى على ضرار. قال علماؤنا: وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فهو في حكم مسجد الضرار، لا تجوز الصلاة فيه».

فهذه آثار التقوى، يتحرى أصحابها مواقع القبول وأماكن الرضا عند الله تعالى.

ونستكمل الموضع التالى للتقوى في سياق مسجد الضرار وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٩]:

فبعد أن أقسم الله - سبحانه وتعالى - بأن المسجد الذي أسس على التقوى

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣١).

(٢) القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٨/ ٢٥٤). وكذلك الكشاف أشار إلى ذلك، ونقل القصة. يقول الزمخشرى، (٢/ ١٧٢): «وقيل: كل مسجد بنى مباهاةً ورياءً وسمعةً أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار».

من أول يوم هو الحقيق بالصلاة والدعاء دون غيره، بل إن غيره مصيره إلى الهدم والفناء ولا يجوز أن يقوم فيه المسلم، جاءت الآية التي معنى لتأكيد ذلك وبث السكينة في قلوب المؤمنين لمثل هذا الحكم الحاسم، ولمحو أى تردد في تلك المواقف والمبادئ الفاصلة، فضربت الآية هذا المثل شاهداً على ثبات وقوة ما بنى على التقوى، وهشاشة وخسة وسوء ما بنى على غيرها وسرعة انهياره، مما يدل على عاقبة ذلك وحسن ثوابه وسوء منقلب الآخر وأليم عقابه.

وبالنظر في الآية: نجد التفريع في قوله: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ...﴾ على قوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ ...﴾ لزيادة بيان أحقية المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه، وبيان أن تفضيل المسجد تفضيل مسلوب المشاركة بعد ورود النهى عن الصلاة فيه.

والاستفهام للتقرير(١)، وأخرت الفاء عن همزة الاستفهام لأن الاستفهام حقه الصدارة.

ونلاحظ في الآية: أنه في الجزء الأول جاء الخبر بقوله (خير)، أى: أفمن أسس بنيانه على تقوى الله تعالى ورضوانه خير، وفى الجزء الثانى حذف الخبر وهو قوله (خير) وكأنه لدلالة الأول عليه، ولكنه في الثانى ومع حذف الخبر عقب بقوله: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾، وهو تركيب موح كأن الثانى لا

---

(١) هذا ما عليه جمهور المفسرون، وذهب صديق خان في «فتح البيان»، إلى أنه استفهام إنكارى، وكذا الألوسى في «روح المعانى»، (٧/ ٣٢). والفاء عاطفة على مقدر أى بعد ما علم حالهم، فمن أسس. والتأسيس: بناء الأساس، وهو قاعدة الجدار المبنى من حجر وطين أو خص. والبنيان في الأصل: مصدر بوزن الغفران والكفران، ويطلق البنيان على المبنى من الحجر والطين خاصة، وهو هنا مطلق على المفعول أى المبنى. والشفا (بفتح الشين والقصر): حرف البئر وحرف الحفرة. والجرف (بضمتين): جانب الوادى وجانب الهوة. وهار: اسم مشتق من هار، البناء إذا تصدع.

يستحق أبداً ذكر الخير معه، لأنه لا خير فيه البتة، كأنه - وهو الحق - شرٌ كله قصداً ونية وعملاً ونتيجة، ويذكر بقابل ذلك بأن الأول خير كله قصداً ونية وعملاً وعاقبة، حيث يقال في جواب الاستفهام: بل المؤسس على التقوى هو الخير، فالتمسك بذلك هو الخير، وقد يوحى تنكير الخير بشيء مما ذكر.

ونلاحظ في الجملة الثانية كذلك التعبير بكلمة (هار) أي: منهار، وفيه إشارة إلى أن من أسس بنيان دينه على غير التقوى، ورفع بنائه أياً كان على غير رضا الله تعالى، فقد أسس بنيانه على حرف منهار، ليس على حرف يوشك أى يسقط ويتداعى، بل هو منهار بالفعل، كما يؤكد اسم الفاعل البانى على شيء منهار متداع ساقط، يبنى وهو ينهار، فهل يتم له البنيان؟ وهل يستطيع هو نفسه أن يبنى والبنيان ينهار ويتساقط عليه منزلق فوق رأسه، يكاد أن يرجم به وأن يدفن تحته حياً. وهى توحى أشد الإيحاء بما عليه بناء التقوى والمتقون من ثبات البنيان وارتفاعه، وتحقق النتيجة للبنائين المتقين، وحفظ الله لهم.

وتبين الآية نتيجة البناء على غير تقوى، على الباطل والنفاق والرياء والسمعة، على غير ما يرضى الله، تبينها على أسوأ حال وهو الانهيار به(١) في نار جهنم، وهو العاقبة الوخيمة التي وضحت وجلت ما هو مقابلها وهو الجنة، تلك عاقبة الذين اتقوا وإن لم تذكر في الآية.(٢)

---

(١) سواء عاد الضمير على البانى أو على البنيان وكانت الباء للتعدية أو للمصاحبة، أى: انهار به حال كونه مصاحبا له إلى النار.

(٢) جاءت بعض الأخبار لتؤكد بظاهرها أن هذا المسجد وقع بعينه في نار جهنم، وليس هناك شئ خارج قدرة الله تعالى. يقول العلامة الألوسى، (٧/ ٣٣)، ما حاصله: «وظاهر الإخبار أن ذلك المسجد إذا وقع وقع في النار، فقد أخبر ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة أنه قال في الآية: والله ما تناهى ان وقع في النار. وذكر لنا أنه حفرت فيه بقعة فرأى منه الدخان...»، إلى أن يقول: «وأنت تعلم أنى والحمد لله مؤمن

وقد لخص صديق خان[١] البلاغة في الآية بقوله: «والمعنى أن من أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي تقوى الله ورضوانه، خير أمن أسس دينه على ضد ذلك، وهو الباطل والنفاق. قيل: إنه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي،أو مجازاً فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة بحال من بنى شيئاً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن فيه، أو البنيان استعارة أصلية والتأسيس ترشيح...»، إلى أن يقول: «وسبحان الله، ما أبلغ هذا الكلام وأقوى تراكيبه وأوقع معناه وأفصح مبناه».[٢]

وهكذا أوضح هذا البيان المعجز بأوضح الأساليب أنه لا يستوى أبدا ما أسس لله مع ما أسس لغيره، وأن التقوى هى الفيصل في التفرقة في كل مراحل العمل نيةً وسلوكاً وواقعاً. وكذا لا يستويان عاقبة ونتيجة تنظرك. فهى دعوة

=

بقدرته سبحانه على أتم وجه وأنه ﷻ فعال لما يريد، لكنى لا أؤمن بمثل هذه الظواهر ما لم يرد فيها خبر صحيح عن رسول الله ﷺ. وقد سبق ابن عطية إلى القول بمثل ذلك، ولكنه رجح كونه مثلا، يقول: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ الظاهر منه وما صح من خبرهم وهدم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارج مخرج المثل. وقيل: بل ذلك حقيقة وأن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم. قاله قتادة وابن جريح، وهذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أصوب وأصح.» ا.هـ.

(١) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ٢٠٠-٢٠١).

وهو محمد صديق خان بن حسن بن على، عالم، أمير مشارك في أنواع من العلوم ولد في قتوج بالهند في جمادى الأولى ١٢٤٨هـ، ١٨٣٢م، وله من تصانيفه الكثيرة أبجد العلوم،وتوفى عام ١٣٠٧هـ، ١٨٨٩م. انظر فهرس الفهارس للكتانى (١/ ٢٦٩).

(٢) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ٢٠٠-٢٠١).

لبناء النفس والمجتمع على ذلك ليتقدم ويتطور.

والموضع التالى من مواضع التقوى هو قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾(١):

ويطلق البر في كلام الشرع على معنيين: أحدهما: على معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خص بالإحسان إلى الوالدين فقيل: بر الوالدين، ومن هذا المعنى قوله النبى ﷺ لما سُئل عن بر الحج، قال: «إطعام الطعام وإفشاء السلام»، وفى رواية: «وطيب الكلام».(٢) والثانى: أى من معانى البر أن يراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالبر بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار، كالمرض والفقر، وعلى

---

(١) البر في اللغة: التوسع في فعل الخير، وينسب إلى الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾، وإلى العبد فيقال: بر العبد ربه. انظر الراغب الصبهانى «المفردات في غريب القرائن»، مادة بر. والإثم في اللغة: الذنب، وقد أَثِم إثماً ومأثماً إذا وقع في الإثم فهو آثم. انظر أبو بكر الرازى «مختار الصحاح»، ترتيب محمود خاطر، مادة: أثم.

(٢) رواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين (١/ ٤٨٣) من رواية جابر، وصححه، ووافقه الذهبى. وهو في «مجمع الزوائد» لنور الدين الهيثمى (٣/ ٢٠٧)، وقال: رواه الطبرانى في الأوسط واسناده حسن.

الطاعات كالصبر عند لقاء العدو.

وقد فسر النبي ﷺ البر بقوله: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».(١)

فما علاقة ذلك كله بجواب النبي ﷺ: «البر حسن الخلق»؟ حسن الخلق يشمل هذه الخصال كلها لأنه يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، لذلك قالت السيدة عائشة: كان خلقه ﷺ القرآن، يعني يتأدب بآدابه، فيفعل أوامره ويجتنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلق الجبلة لا تفارقه، وهذا أحسن الأخلاق وأشرفها.(٢)

ولكن هل عطف التقوى على البر يقتضي المغايرة؟ فما معنى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾؟ ذكرنا فيما سبق توضيح معنى البر، وكان مهماً لمعرفة العلاقة بين البر والتقوى، لأن البر في المعاني السابقة هو تقوى الله تعالى، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ ... وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، وجاء قوله تعالى ليؤكد هذا المعنى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾، وإذاً فما معنى قوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾؟ خاصةً وأن الأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة، وإلا كان المعنى: وتعاونوا على البر والبر، أو التقوى والتقوى. والتوفيق أن هذه الألفاظ إذا اجتمعت افترقت في المعنى، كلفظ الإسلام والإيمان والدين، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ تعني أن الإسلام مقصود به معنى، وهو الأفعال الظاهرة في حديث جبريل، وهي الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج، والإيمان

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣)، انظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٥٢).

(٢) انظر ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (٢/ ٩٣).

مقصود به الاعتقادات الباطنة، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأمّا عند الإطلاق فيشمل كل منهما الآخر، أى إذا افترقا، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، فلا شك أن الإسلام يشمل الإيمان والإحسان، وصار الدين كذلك يشمل الإسلام والإيمان والإحسان.

وكذا لفظ البر والتقوى عند اجتماعهما، كقوله تعالى السابق: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، فإن البر له معنى، والتقوى لها معنى على ما فصلنا في معانى البر، ومعانى التقوى. يقول الإمام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: «وقد قال في آية البر: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾. وقد أشار ابن القيم إلى مثل ذلك في تفسير الآية.[1]

ثم ندرس الآن ما لم نتعرض له في دراسة نصوص البر والتقوى التي أشرنا إليها قبل، لأننا ذكرناها في مواضعها من البحث. أول ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾، وعلى ما وضحنا من علاقة البر والتقوى يكون معنى الآية: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، أى على معاملة الخلق بالإحسان وبالتقوى معاملة الحق سبحانه بفعل طاعته، واجتناب محرماته، ويكون قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ أن يراد بالإثم: المعاصى، وبالعدوان: ظلم الخلق، وذلك أنسب للسياق، لأنه في تأديب الله تعالى للمؤمنين في معاملتهم للكفرة، حيث أرشدهم إلى أن شنآنهم للكفرة لا يمنعهم من الإحسان إليهم ليحبوا دين الله، ولا يدفعهم لظلمهم

---

(١) شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم ابن تيمية «مجموع فتاوى شيخ الإسلام»، (٧/ ١٨٣)، وانظر ابن القيم محمد بن أبى بكر «التفسير القيم»، جمع محمد أويس النووى، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ص٢٢٨).

لكونهم كفرة قد أذوا المسلمين وصدوهم عن المسجد الحرام، كل ذلك لا يحملهم على العدوان، بل يلزمهم الإقساط إليهم وعدم التعدى عليهم.

أما التعاون على البر والتقوى فجميلٌ أثره، وحسنٌ عاقبته، فقد سمعنا عنها وعشناها ذكريات.

لم تسعفنى المصادر والمراجع التي تحت يدى بتفسير موسع للآية، وكأنها واضحة بها لا مزيد عليه لتفسير أو شرح، فلم تزد على تفسير معنى الإثم والعدوان والبر والتقوى، مع إشارة للتفسير المناسب للسياق أو العموم في الآية.

يقول الإمام ابن جرير شارحاً لألفاظ الآية مجملاً لتفسيرها:

«وليعن بعضكم أيها المؤمنون بعضاً على البر، وهو العمل بما أمر الله بالعمل به، والتقوى، وهو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه. وقوله: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ يعنى: ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم، يعنى على ترك ما أمركم الله بفعله، والعدوان». يقول: «ولا على أن تتجاوزوا ما حد الله لكم في دينكم وفرض لكم في أنفسكم وفى غيركم».

وأما مناسبة ذلك - وهو قوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ ... ﴾ - للسياق، فهو على قول من قال: إن قوله ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾، فيكون المعنى كما يقول العلامة أبو السعود[1]: «أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم إياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم، وانتقامكم منهم للتشفى، ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، لما كان الاعتداء غالباً بطريق التظاهر والتعاون، أمروا أثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر

---

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٦). وبمثله قال الألوسى «روح المعانى»، (٤/ ٨٥).

والتقوى، ومتابعة الأمر، ومجانبة الهوى، فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون على العفو، والإغضاء عما وقع منهم دخولاً أولياً[(١)]، ثم نهوا عن التعاون في كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، بقوله: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام».

وبتكملة النظر في الآية وجدنا النهي متأخراً عن الأمر، مع أن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، أو كما يقول العلامة أبو السعود: «مع تقدم التخلية على التحلية، مسارعةً إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات، فإن المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان، إنما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى».[(٢)]

ونلاحظ أن التعاون على البر والتقوى متضمن للنهي عن الإثم والعدوان، لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده، فالنهي تأكيد لمضمون الجملة قبله، ومع ذلك فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه، والمقصود أنه يجب أن يصد بعضكم بعضاً عن ظلم قوم لكم نحوهم شنآن، وهو أن البغض لا يقتضي ولا يكون سبباً لظلم المبغوض والاعتداء عليه، وأن تجتمع القبيلة مع بعضها في

---

(١) يوضح الألوسي هذا القول بأنه على قول من قال: إن قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ ...﴾ استئناف، والوقف لازم على قوله: ﴿ أَن تَعْتَدُواْ ﴾، لتصير الآية من جوامع الكلم، وتكون تذييلاً للكلام، ويكون هو المعنى العام في الآية، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾، ويدخل العفو والإغضاء دخولاً أولياً. وإلى مثله أشار القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» فيما نقله عن الأخفش، قال: هو مقطوع من أول الكلام، وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر، أو ليعن بعضكم بعضاً، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا عنه، فقوله موافق لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله» ا.هـ.، (٣/ ٤٦). وقد نقله د. أديب الصالح «التقوى»، (١/ ٤٦).

(٢) أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٦).

مواجهة الآخرين حميةً وعصبيةً مهما كان الآخرين مظلومين ومعتدى عليهم، ومهما كان أفراد القبيلة ظالمين آثمين معتدين.

ولم يفرق الإسلام كذلك في هذا المبدأ حتى مع اختلاف العقيدة والدين، بله العرق واللون والمكان، فالآية نزلت في المشركين الصادين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، المقاتلين للإسلام وأهله، والذين فعلوا في المسلمين ما يندى له جبين البشرية خزياً وأسفاً، ومع ذلك جاء الإسلام بالعدل والقسط في معاملتهم، حتى حال القدرة عليهم، ولم يرض لهم الظلم، مع أنهم البادئون به الساعون إليه.

ويجدر بنا أن ننقل كلمات الأستاذ/ سيد قطب في تفسير الآية، إذ أصاب في عمومه وجانبه الصواب في بعضه فننقل هنا ما حالفه فيه التوفيق، ونترك الآخر لتعليق الهامش. يقول - رحمه الله[1]: «إنها قمة في ضبط النفس، وفى سماحة القلب..، ولكنها هى القمة التي لابد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديها، وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء». ثم يمضي - رحمه الله - ليصف الجاهلية، وما جاء به الإسلام من منهج ربانى، وتربية استطاعت أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر، فيقول: «كانت حمية الجاهلية ونعرة العصبية.. كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى، وذلك طبيعى في بيئة لا ترتبط بالله، ولا تستمد تقاليدها

ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله، يمثل ذلك كله المبدأ الجاهلى المشهور: «انصر أخاك ظالماً أم مظلوماً»[2]، وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلى وهو

---

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٢/ ٨٩٣).

(٢) هذا ما أشرنا إليه في بداية الكلام مما جانبه فيه التوفيق - رحمه الله تعالى، وليت مثل هذا

يقول:

وهـل أنـا إلا مـن غزيـة، إن غـوت غويـت، وإن ترشـد غزيـة أرشـد

ثم جاء الإسلام، جاء المنهج الرباني للتربية، جاء ليقول للذين آمنوا: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾، جاء ليربط القلوب بالله، وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله، جاء ليخرج العرب ويخرج البشرية كلها من حمية الجاهلية ونعرة العصبية وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في

=

الكلام الجميل لم يعكر صفوه مثل ذلك، وقد ذكره من قبل ثم أعاد الكلام عليه مرة أخرى من بعد، وكأنه – رحمه الله – فاته– والغفلة والسهو من صفات البشرية – أن هذا حديث صحيح رواه البخارى، وانظر فتح البارى، (٥/ ٩٨)، باب «أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً»، المطبعة السلفية، من كلام الرسول المعصوم ﷺ حيث قالوا: يا رسول الله، هذا نصره مظلوماً، فكيف نصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه، وفى رواية: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره. نعم ذكر ذلك القول في الجاهلية، يقول الحافظ ابن حجر في «فتح البارى»، الموضع السابق: «لطيفة: ذكر المفضل الضبى في كتابه الفاخر أن أول من قال »انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً« جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره، وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية، لا على ما فسره النبى ﷺ وفى ذلك يقول شاعرهم:

إذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم على القوم لم أنصر أخى حين يظلم » اهـ.

ومقصودنا، حتى وإن قيل ذلك وصار مبدأ في الجاهلية، فكم من أمور الجاهلية صححها النبى ﷺ فأخذنا الصحيح هذا الذي أقره الشرع، ونبذنا ما لم يقره، فصار هذا القول من قول الرسول ﷺ بهذا التفسير الرائع، بل ويصح أن يكون تفسيراً جميلاً للآية، لا كما أبقاه الأستاذ على معنى الجاهلية، فيتعاون الناس على نصر المظلوم، وكف الظالم، ولو كان أخاهم، ففى ذلك نصره، وهو من التعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان.

مجال التعامل مع الأعداء والأصدقاء».

ونعود لاستكمال النظر في الآية، حيث فصل بعض أهل العلم شيئاً من التعاون الذي يجب بين الناس، فنقل القرطبى عن ابن خويز منداد قوله: «والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه: فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغنى بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة: «المؤمنون تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»[1]، ويجب الإعراض عن المعتدى، وترك النصرة له، ورده عما هو عليه».

وهذا كالمقدمة لما ذكره علماء الحديث في باب التعاون على البر والتقوى، ومنهم الإمام النووى[2]، حيث ذكروا من أحاديث النبى ﷺ ما يوضح شيئاً من هذا التعاون يكون نبراساً لبقية أنواع التعاون، وفى نفس الوقت تبين جزاء هذا التعاون وعظيم ثوابه عن الله - جل وعلا. فالحديث الأول عن الجهاد يبين أن المعين للمجاهد الغازى على الجهاد أن له أجر الغزو، مع أنه لم يغز، يقول رسول الله ﷺ: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»[3]، وفى رواية لابن حبان: «كتب له مثل أجره لا ينقص من أجره شيء»،

---

(١) رواه أبو داود سليمان بن الأشعث، تعليق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، (٢٧٥١). وابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، المكتبة العلمية، بيروت، (٢٦٨٣).

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف النووى، ت ٦٧٦هـ، في كتابه «رياض الصالحين» مع شرحه دليل الفالحين، للإمام محمد بن علان الصديقى، ت ١٠٥٧هـ، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (١/ ٤٥٥) وما بعدها.

(٣) متفق عليه، من رواية زيد بن خالد الجهنى. رواه البخارى (٢٨٤٣)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٦/ ٤٩). ورواه مسلم (١٨٩٥)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٧/ ٤٦).

بل إن من خلف غازياً في أهله بخير، من قضاء حاجة لهم أو إنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم في أمرهم، كان غازياً هو الآخر، له أجرهن لا ينقص من أجره شيء، وإن كان عظم الثواب يختلف باختلاف الجهاز والنفقة والقيام على مصلحة أهل الغازى قلةً وكثرةً.

إن التعاون على البر والتقوى وجزيل الثواب عليه جعل ثواب المجهز والمتخلف في أهل الغازى بخير ثواب، من عرض نفسه للموت، وتحمل مشقة السير، وكابد متاعب القتال والمواجهة.

والحديث الثانى في الحج، عن ابن عباس - رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لقى ركباً بالروحاء، فقال: من القوم؟ قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال رسول الله ﷺ : فرفعت إليه امرأة صبياً، فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر.[1]

فإذا كان الحديث الأول في الجهاد يبين التعاون على البر والتقوى، فهذا في الحج يبين كذلك قيمة التعاون على طاعة الله تعالى، حتى ولو كان المتعاون معه المحمول على ذلك صبياً صغيراً غير مكلف، فما بالك لو كان مكلفاً، وكذلك لو التعاون فيما هو أخص من هذا الأمر، مما يلزمه ويخصه مباشرة. وهذا يوضح ثواب التعاون على الطاعة، وأهمية أن يقوم الناس بإعانة بعضهم بعضاً على القيام بمثل هذه القربات والتقرب إلى الله تعالى بالإعانة على جميع الطاعات، وأن في كل أجراً لا ينقص به أجر الآخر.

والثالث عن أبى موسى الأشعرى ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «الخازن المسلم الأمين، الذي ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبةً به نفسه، فيدفعه إلى الذي

---

(١) رواه مسلم في الحج (١٣٣٦)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٥/ ١٠٩). الروحاء: محل بقرب المدينة، انظر الصديقى الشافعى «دليل الفالحين»، (١/ ٤٥٦).

أمر له به، أحد المتصدقين».[١]

فإذا كان الحديث الأول فيمن يعين على الجهاد، والثانى على الحج، فهذا في الخازن الأمين كيف جعله رسول الله ﷺ بتعاونه أحد المتصدقين، فإذا ما أخرج ما أمر بإعطائه من المال على النحو الذي ذكره النبى ﷺ كان متصدقاً مع أنه ليس بماله، ونلاحظ قول الرسول ﷺ: «فيعطيه كاملاً موفراً» تأكيد بعد تأكيد لما غلب على الخزان من بخلهم بمال غيرهم، أما قوله «طيبة بها نفسه» أى بغير حسد للآخذ على ما أخذ، وهو ليس ماله حتى تطيب أو لا تطيب بها نفسه، ومع ذلك أشار إليه لغلبة الحسد على إعطائهم المال لغيرهم، أو لعبوسهم وتقطيب وجوههم بما يكدر خاطر المعطى، فانظر كيف عظم أجرهم. وفى هذا توصية من النبى ﷺ لأمثال هؤلاء في كل زمان ومكان، لإحسان معاملتهم ظاهراً وباطناً لكل مسلم له تحت أيديهم مصلحة يثابون على قضائها هذا الثواب العظيم.

ونختم بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾، وسياق هذه الآية الكريمة هو: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾، فكما ذكر سبحانه وتعالى في آية البر: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ...﴾، فهكذا هنا ليس البر بأن يأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر في تقوى الله تعالى. وقد ذكر أن الأنصار في الجاهلية كانوا إذا رجعوا من الحج دخلوا بيوتهم من ظهورها، فرجع أحدهم فدخل من بابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنـزلت الآية الكريمة لترشدهم أن البر ليس في اتيان البيوت من ظهورها، ليس في ذلك بر، كما أنه التوجه في ذاته إلى المشرق والمغرب ليس فيه

---

(١) متفق عليه. رواه البخارى (١٤٣٨)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٣/ ٣٠٢). ورواه مسلم (١٠٢٣)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٢٠).

بر، وأخبرهم أن البر في تقوى الله تعالى، ونهاهم ثم عن تلك العادة من عادات الجاهلية، وهى اتيان البيوت من ظهورها، وأنها ليست من علامات الفلاح، ولا العمل الصالح، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.(١)

وقد ذكر الزمخشرى في «الكشاف» أن هذه الآية تحتمل أن تكون تمثيلاً لتعكيسهم في السؤال وهو قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ ﴾ وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والبر من اتقى ذلك، ومباشرة الأمور من وجوهها، والمراد توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعاله حكمه وصواب من غير اختلاج تردد أو شك.(٢)

وإذا قلنا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا مانع أن يزاد هذا المعنى على التفسير السابق للآية، فتشمل الآية الكريمة هذا وذاك، خاصة وقد صار هذا التذليل مثلاً، وهو قوله: ﴿ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ ﴾.

والموضع التالى هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]:

فإذا كان الله تعالى أهل التقوى، والداعى إليها رسول الله ﷺ وأتباعه بإحسان، ولها كلمتها وهديها، فإن هذه الآية الكريمة تبين لنا طريقاً هو أقرب للتقوى، ومكاناً ينـزل فيه المرء بجوارها أو يحل عندها، ألا وهو العدل مع القريب والبعيد والعدو والصديق، مع المسلم والكافر، ترفعاً عن نزعات الميل والهوى لجنس أو عرق أو دين، وتخلصاً كذلك من رغبات النفس ضد

---

(١) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٢/ ١٠٨). وانظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٢٢٥). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ١٨٩).

(٢) انظر جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١١٧-١١٨).

المكروهين والمبغوضين إلى أفق العدل والحق والقسط. إنه منهج الله – سبحانه وتعالى – الحامل للنفس البشرية على الضبط وفق معايير الحق والخير الخاضع لسلطان الله تعالى وحده، الذي يجعل تلك القلوب حية تستشعر خوف الله ومراقبته والخشية له الباعثة على السلوك السوى والخلق الرشيد والعمل الصالح، مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة قد نهى الله تعالى فيها المؤمنين أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء، وكانت الغاية في ضبط النفس والسماحة، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوى القويم، فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل، يقول الأستاذ/ سيد قطب(١): «وهى قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق، فهى مرحلة وراء عدم الاعتداء، والوقوف عنده تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض. إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبى ينتهى عند الكف عن الاعتداء. فأما التكليف الثانى فأشق لأنه إجراء إيجابى يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين».

كل ذلك يحدث وينبغى أن يحدث لعلة واحدة، هى أن ذلك أقرب للتقوى، أقرب لما يحب الله – جل وعلا، يقول الإمام الفخر الرازى، في قوله: ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾: «فنهاهم أولاً عن أن يحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم ذكر لهم علة الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾»(٢).

---

(١) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٢/ ٨٥٣).

(٢) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٢٠). وهو قول معظم المفسرين من قبل، انظر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٣٢٦-٣٢٧)، والبيضاوى، (٢/ ٣٠١)، والنسفى،

ويكمل الإمام فيقول:

«وفيه وجهان - أى معنى التقوى هنا: الأول: هو أقرب إلى الاتقاء من معاصى الله تعالى. والثانى: هو أقرب إلى الاتقاء من عذاب الله».[1]

=

(١/ ٢١٣)، وأبا حيان «البحر المحيط»، (٤/ ١٩٦). والألوسى «روح المعانى»، مجلد٤، (٥/ ١٢٣).

يقول العلامة الألوسى في تفسير الآية: «﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ أى كثيرى القيام له بحقوقه اللازمة، وقيل: أى ليكن من عادتكم القيام بالحق في أنفسكم بالعمل الصالح، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله تعالى، ﴿ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ أى لا يحملنكم، ﴿ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾ أى شدة بغضكم لهم، ﴿ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾: فلا تشهدوا في حقوقهم بالعدل، أو فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، ﴿ ٱعْدِلُواْ ﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم. ﴿ هُوَ ﴾ راجع إلى العدل، ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أى أدخل في مناسبتها... إلخ».

(١) الرازى «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٢١).

وأفعل التفضيل هنا على غير بابه، إذ لا يشترك العدل مع الجور في قربهما من التقوى، ولكن العدل أقرب، بل ذلك كقوله: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، إذ ليس فيما يشركون خير حتى تعقد المقارنة، يقول الإمام ابن كثير: «وقوله ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾، الإمام ابن كثير »تفسير القرآن العظيم«، (٢/ ٣٠-٣١). وتكلف الراغب الأصفهانى - على حد تعبير العلامة الألوسى - في توجيه الآية فقال: فإن قيل: ذكر - سبحانه - ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وأفعل إنما يقال لشيئين اشتركا... إلخ؟ قيل: إن أفعل وإن كان كما ذكرت، فقد يستعمل على تقدير بناء الكلام على اعتقاد المخاطب في الشيء في نفسه، قطعاً لكلامه وإظهار لتبكيته، فيقال لمن اعتقد مثلاً في زيد فضلاً وإن لم يكن فيه فضل ولكن لا يمكنه أن ينكر أن عمراً أفضل منه: اخدم عمراً فإنه أفضل من زيد، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. «روح المعانى»، (٥/ ١٢٢-١٢٣).

والحق أن حذف معمول التقوى هنا يجعلها تشمل كل معانى التقوى، أى التقوى الشاملة، التي لا يشذ معها شيء من الخير، وذلك أن العدل هو ملاك كبح النفس عن الشهوة، وذلك ملاك التقوى.(١)

وهذا يبين لنا أهمية التقوى وقيمتها ودرجتها عند الله، ومدى محبة الله تعالى للمتقين، حيث فرض على النفس هذا التكليف الشاق، وهذا المبدأ الصعب، ولكن يهون على النفس وتتقبله راضية إذا كان في ذلك ما يحب الله من تقوى ويرضى، وما تستقيم به أمور الدنيا.

ولما كان الأمر بالعدل يمكن أن تتململ منه النفس، وتتردد في القيام به، جاءت بداية الآية بهذا النداء المحبب للنفس المثير فيها لكوامن الطاعة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ليحملهم على المسارعة لما يتلوه من الأوامر والنواهى، إذ من دواعى الإيمان وأهم سماته وعلاماته المبادرة لامتثال تعاليم الشرع وتوجيهاته، والانصياع التام لأحكامه وتشريعاته.

ثم جاء الأمر بالقيام لله تعالى، وهو كذلك حث على الانقياد لتكاليف الله تعالى، متصل بما قبله من الحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾.(٢)

وقد رأينا كيف جاء الأمر بالقيام بصيغة المبالغة، لأن من قام مرة أو مرتين لا يعد قواماً لله تعالى، وكذلك لأن كثرة القيام لله تعالى لا تترك مجالاً للقيام لغيره بوجه ما للجور أو للظلم، أو لأية مخالفة للأمر، حتى يكون المرء في قيامه مثالاً

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٣٦).

(٢) ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية.

للتقوى الكاملة لله - جل وعلا - التي يجاهد المرء أن يصل إليها من كل جهة لرضا الله - سبحانه.

وفى الآية تنبيه على أنه - سبحانه - إذا أمر المؤمنين بأن لا يحملهم بغضهم وعداوتهم لأعدائهم وأعدائه على ترك العدل معهم، وأن ذلك أقرب للتقوى، فمن باب الأولى العدل مع المؤمنين وهم أولياؤه وأحباؤه. ترى العدل معهم يصل بالمرء إلى أية درجات التقوى؟[(١)]

ثم ختم القرآن الكريم الآية بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، فإذا كان العدل أقرب للتقوى، فإن التقوى هى المطلوب الأصلى والهدف المنشود، ومن ثم أمر بها مرة أخرى، اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله.[(٢)]

ويحتمل الأمر بالتقوى هنا كذلك ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبرى، من كونها أمراً بالخوف من الله في عدم تطبيق ما سبق من أوامر، مع التنبيه على أن الله خبير بذلك، وأنه لا يخرج عن علمه ما يصنعون فيجزيهم به، يقول - رحمه الله: «واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عباده، فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءه الذي بين لكم، فيحل لكم عقوبته وتستوجبوا أليم نكاله، إن الله خبير بما تعملون، أى ذو خبرة وعلم بما تعلمون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، محض ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم به

---

(١) راجع الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٣٢٦-٣٢٧). والبيضاوى، (٢/ ٣٠٣). والرازى «التفسير الكبير»، (٥/ ٦١٩). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٤/ ١٩٦). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٣).

(٢) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٤). والألوسى «روح المعانى»، (٥/ ١٢٣).

جزاءكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا».

وأبو حيان الأندلسى له نظرة أخرى فاحصة ولطيفة في الخاتمة الكريمة للآية، فيقول - رحمه الله(١): «لما كان الشنآن محله القلب، وهو الحامل على ترك العدل، أمر بالتقوى، وأتى بصفة ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ومعناها: عليم، ولكنها تختص بما لطف إداركه، فناسب هذه الصفة أن ينبه بها على الصفة القلبية».(٢)

أى من كون اطلاع الحق على خفايا الصدور، فتجعل المرء مراقباً لربه، يصدر فعله عن هذه المراقبة، مقروناً بالتقوى الباعث على مراعاة الأمر.

ونختم بأن الحق - سبحانه - أظهر الاسم المعظم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ لما مر، إدخالاً للروعة في النفس، وإثارةً للمهابة، وتأكيداً على استقلال الجملة.

وأما الموضع التالى فهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]:

وإذا كانت آية العدل تبين لنا منـزلاً ينـزله المرء فيكون قريباً من التقوى التي يحب الله ورسوله ﷺ، فهذه الآية الكريمة تبين لنا المنـزل الثانى الذي ينـزله المرء فيكون كذلك أقرب للتقوى، وهو العفو. وهو من المفارقات العجيبة في أسلوب القرآن الكريم المعجز، أن يكون العدل والعفو أقرب للتقوى، وهما ليسا في كفة واحدة من أوامر الشرع، إذ العدل واجب والعفو مستحب وفضل، ولكن إذا علمنا مقابل العفو، وهو الذي يشاركه في التقوى، ولكن العفو أقرب منه لها،

(١) انظر ابن جرير «جامع البيان»، مجلد٤، (٦/ ٩١).

(٢) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٤/ ١٩٦).

تبيت لنا هذه المفارقة، فمقابل العفو التمسك بالحق، وهو لا ينافى التقوى، ومن ثم كان العفو أقرب منه لها.

أما العدل فلا يدخل معه في التفصيل شيء، إذ ليس هناك إلا الجور والظلم، فصار أفعل التفضيل هنا على غير بابه كما بينا، من ثم كان العدل قائماً برأسه في كونه هو الأقرب من التقوى.

ولتوضيح ذلك نعود إلى تفسير الآية الكريمة(١)، والذي ملخصه أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها، وقد فرض لها صداق، فلها نصف هذا الصداق، جبراً لكسرها. واستثنى ما هو أقرب للتقوى - وهو على الأصح من أقوال أهل العلم(٢) - أن تعفو المرأة عن نصفها المقدر لها من الصداق، أو يعفو الزوج عن نصف المهر الآخر، حيث في الغالب ما يسلم الزوج المهر كاملاً. ثم ندبهم إلى عدم نسيان هذا التفضل من كل منهما على الآخر، وترك التقصى، والمسامحة، لما كان بينهما من الوصلة التي لا تشبهها وصلة، والتي تدعو رعايتها إلى التسامح. ثم ختم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كأنه ترغيب للمحسن، وترهيب

---

(١) وانظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٢، (٢/ ٣٤٠)، وعلى هامشه تفسير النيسابورى، (ص٣٨٢). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٢/ ٥٣٩). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٣٢٠ وما بعدها. والنسفى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (١/ ٩٥). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٧٤). والبيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (١/ ٥٣٥). والرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٤٥٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٢، (٣/ ٢٠٨). والزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١٤٦). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٢٨٩). والألوسى «روح البيان»، (٢/ ٢٣٣-٢٣٤). وابن الجوزى «زاد المسير»، (١/ ٢٨١).

(٢) وقد أشار صديق خان إلى هذا الأصح في «فتح البيان»، (١/ ٢٩٣ وما بعدها، بعد ذكر الأقوال وأصحابها.

لغيره، فهو بصير بما عمل كل منكم فيجازيه به.

ونلاحظ أن القرآن الكريم يلاحق هذه القلوب كي تصفو وترف وتخلو من كل شائبة باستجاشة شعور التقوى، ويلاحقها باستجاشة شعور السماحة والتفضل، ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله، ليسود التجمل والتفضل هذه العلاقة ناجحةً كانت أم خائبة، ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية، موصولة بالله في كل حال.[١]

وليس ثم خلق حميد وسلوك رشيد يحمل المرء على هذه التصرفات الحسنة، إلا تقوى الله - جل وعلا، فالمتقون أهل لأن يبادروا إلى امتثال ذلك، لتسود هذه المعانى النبيلة في مجتمع أهل الإيمان، فلا ترى مكاناً حينئذ لحقد وانتقام، مما نسمع عنه ونقرأ هذه الأيام بين الأزواج وزوجاتهم، ابتداءً بالمحاكم، وانتهاءً بالتقطيع إرباً إرباً في أجولة تلقى في المصارف والترع أو على قوارع الطرق، مما ينهى به الأزواج والزوجات هذه العلاقة، بل حياة الآخر منهما على هذه النحو المفزع البائس، بغير شفقة كانت أو رحمة تكون. وليتأمل المرء سمو الإسلام ونظراته الحانية لما يجب أن تكون عليه الحياة، فاشلة كانت أو ناجحة، وما في اتباع تعاليمه من السعادة في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ومعنى العفو أقرب للتقوى: أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق، لأن التمسك بالحق لا ينافى التقوى، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعى وطبيعى، وفى القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزغه عن المظالم والقسوة، فتكون

---

(١) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (١/ ٢٥٧).

التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه».(١)

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم لم يذكر إلا العدل والعفو في كونهما أقرب للتقوى، وقد رأينا فيما مر معنى ذلك في العفو، ولعل العدل - والله أعلم - لم يذكر مقروناً بالتقوى ذاتها، بل بالقرب منها، لأن في الفضل - وهو فوق العدل - مجالاً واسعاً يكون المرء به من المتقين، فما بالك لو زادهم فوق عدله من كرمه تفضلاً، وقد سمعنا أمثلة مثل ذلك من فعله الشريف ﷺ ، فقد ذكر القاضى عياض في «الشفا»(٢) أمثلة عديدة، منها:

عن أنس ﷺ : كنت مع النبى ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة، حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد، احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا مال أبيك، فسكت النبى ﷺ ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده»، ثم قال: «ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى؟»، قال: لا، قال: «لم؟!»، قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبى ﷺ ثم أمر بأن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر.

فرأينا في الحديث الشريف عدله وفضله ﷺ ، وكيف لم يحمله ظلم الأعرابى له ﷺ على أن يعامله بالمثل، بل زاد فوق العدل التفضل.

وهكذا رأينا تلك الجوانب المضيئة للتقوى، التي تجعل الفرد المسلم والمجتمع الإسلامى أرقى وأعز المجتمعات التي يعيش في رباها المرء مطمئناً، يشعر بالرضا والسكينة، يفيض عليه السلام النفسى من جراء تلك المودة

(١) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٤٠٤).

(٢) انظر الملا على «شرح الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/ ٢٤٣).

والرحمة والتعاطف، فضلاً عما ينتظره في الآخرة من رضوان الله تعالى وحسن مثوبته.

والموضع التالى هو قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ ﴾ [المجادلة: ٩]:

وفى سيرنا لاستكمال صورة التقوى نصل إلى النجوى، حيث أمر تعالى بأن يكون تناجى المؤمنين فيما بينهم بالبر والتقوى، فإذا كانت التقوى لها كلمتها التى ينبغى أن تقال نطقاً، وأن تمتثل سلوكاً، فإنه كذلك ينبغى أن يكون تناجيهم، أى كلامهم المخصوص الذى يتسارون به بينهم ويخفونه عن غيرهم، لابد أن يكون كذلك، وهذا أدب إسلامى رفيع أن يكون سر المرء وعلانيته براً وتقوى، خاصة إذا كان هذا التناجى يمكن أن يكون سبباً لوقوع الريب والشك فى قلب غيره، فيقع بين المؤمنين بسبب ذلك سوء الظن المؤدى إلى التجسس المنهى عنه، وإلى وقوع البغضاء والشقاق، لتحل محل الألفة والمحبة والاجتماع، بل إن من آداب الإسلام العليا المحافظة على قلب المؤمن، وألا يصدر من أحد ما يكون سبباً لحزن أخيه وتألمه، حفظاً لشعوره ومراعاةً لنفسيته، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ(١): «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»، فإن ذلك يحزنه، فحفظ الإسلام حق الإنسان بهذا الإعلان الخالد، ناهيك عن شتمه وسبه والسخرية به وضربه وسجنه وتعذيبه وقتله، فإن ذلك يحزنه فلا تفعله، وإن لم يتعلق به حق، إذ ما علاقته باثنين يتناجيان ولكل

---

(١) رواه البخارى (٦٢٩٠)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١١/ ٨٢-٨٣). ورواه مسلم (٢١٨٤)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٧/ ٤٢٣).

حريته، لا إن كان ذلك يحزنه، هو أخوك، حريته موقوفة عند حزنه، إن وصلت إليه. ثم انظر إلى ما فى ذلك من السلام، إذ كل أحد آمن الجانب من أخيه لا ينتظر منه أدنى الشر ولا يتوقعه. وتخيل مجتمعاً قد ترك كل واحد انشغاله بغيره، فتفرغوا لهدف واحد، توجهت إليه جهودهم، وتوحدت عليه مقاصدهم، وتآلفت عليه قلوبهم، وهو كيف يترقى هذا المجتمع وينمو ويقوى ويعز، ويصير مرهوب الجانب، مسموع الصوت، صامداً لأعتى قوة كالبنيان المرصوص.

ونعود إلى الآية الكريمة، نستوضح معانيها، حيث بدأت بالخطاب للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وهل هو للمؤمنين الخلص، أو للمنافقين الذين آمنوا فى الظاهر؟ فإن حملنا ما تقدم من الخطاب فى الآية: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ...﴾ على اليهود والمنافقين، كان الخطاب هنا لأهل الإيمان ألا يسلكوا مسلكهم، ونهياً لهم ألا يقتفوا طريقهم طريق الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾. وإن حملنا الخطاب السابق على اليهود فقط، جاز أن يكون الخاطب هنا للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم.(١)

وإن كان الأولى أن يكون الخطاب للمؤمنين، إذ ذلك المعهود من خطاب القرآن الكريم، وكذلك لما سبق فى قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾، وهو عام لكل من نهى عن ذلك، فشمل اليهود والمنافقين، فلم يبق إلا أن يكون

---

(١) انظر الرازى «التفسير الكبير»، (١٥/ ٤٤٧). والألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢/ ٣٨). والطاهر بن عاشور «النحرير والتنوير»، (٢٨/ ٣٢). وابن الجوزى «زاد المسير»، (٨/ ١٩٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٩، (١٧/ ٢٩٤).
ورجح صاحب التحرير أن الخطاب للمنافقين، وذكر أدلته، انظر (٢٨/ ٣٢). ولكن المذكور هو اختيار الباحث.

ذلك خطاباً للمؤمنين.

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ ﴾ [العلق: ٩-١٢]:

هذا هو الموضع التالى من مواضع التقوى. فبعد أن رأينا الموضع الأول - وهو أن الله ﷻ أهل التقوى - رأينا هنا النبى ﷺ هو الآمر بها المبلغ عن الله - سبحانه وتعالى، ولما كان - صلوات الله وسلامه عليه - إمام المتقين، لا جرم كان إمام الآمرين بها والداعين إليها، وهى سنة الأنبياء وطريقتهم جميعاً فى دعوة أقوامهم إلى الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٨] وهكذا سار على هذا الدرب جميع الأنبياء من توصية أقوامهم وأمرهم بتقوى الله تعالى، وإذا كان الأنبياء قد واجهوا من قومهم الإيذاء والعنت والمشقة فقد واجه ﷺ أعظم المشقة فى دعوة قومه إلى تقوى الله تعالى. والآية من الآيات التى تخبر بشىء مما وقع له ﷺ مع قومه. قال الألوسى فى «روح المعانى»: «لم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية فى أن العبد المصلى هو رسول الله ﷺ، والناهى هو اللعين أبو جهل»، فقد أخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة ﷺ أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷺ يصلى ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ : «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». وفى بعض الأخبار ما ظاهره أنه حصل منه نهى لفظى[1]، فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ

---

(١) ... الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٦، (٣/ ٣٢٨).

يصلى، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟.. الحديث.

ولننظر فى تحليل الآيات:

قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾: كلمة تعجيب من حال، تقال للذى يعلم أنه رأى حالاً عجيبة. واستعمل الاستفهام فيها لأن الحالة العجيبة من شأنها أن يستفهم عن وقوعها استفهام تحقيق وتثبيت لنبئها إذ لا يكاد يُصدَّق به. والرؤية هنا علمية، والمعنى أعجب ما حصل لك من العلم قال الذى ينهى عبداً إذا صلى. والمنهى عنه محذوف يغنى عنه تعليق الظرف بفعل ﴿ يَنْهَىٰ ﴾، أى ينهاه عن صلاته.

وأتى بصيغة المضارع فى قوله ﴿ يَنْهَىٰ ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة، كأنها تقع الآن، وإلا فإن نهيه قد مضى.[(١)] ولمعنى آخر وهو أن هذه الحالة عجيبة فى كل زمان يمكن أن تقع، لذا فهى مذمومة تستدعى التشنيع والتبكيت فى كل وقت، لكل طاغية ينهى عباد الله عن الصلاة. والأمر بتقوى الله، لذا رأينا كلمة ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ هنا متوجهة إلى غير معين كأنها لكل أحد له تمييز فى كل آن ومكان.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٠/ ٤٤٦-٤٤٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٥٢٠).

وقد ذكر فى التحرير فائدة العدول عن التعبير بضمير الخطاب (ينهاك) إلى (ينهى عبداً)، فقال: «لأن التعجب من نفس النهى عن الصلاة بقطع النظر عن خصوصية المصلى».

وقد ذكر الإمام الرازى فى «التفسير الكبير» فوائد ملخصها أن التنكير فى (عبداً) يدل على كونه كاملاً فى العبودية، وثانيها أن هذا أبلغ فى الذم، لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته، فينهى كل من يرى، وثالثها أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة. ورد أن على ﷺ رأى أقواماً يصلون قبل العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾. وأخذ هذا الأدب أبو حنيفة ﷺ. ورابعها: أيظن أبو جهل إذا لم يسجد لى محمد ألا يسجد لى غيره. وخامسها: تفخيم شأن النبى ﷺ كأنه مع التنكير معرف. راجع (ص٥١٨-٥١٩) لتفصيله.

يقول الأستاذ/ سيد قطب: «والتشنيع والتعجيب واضح فى طريقة التعبير، التى تتعذر مجاراتها فى لغة الكتابة، ولا تؤدى إلا فى أسلوب الخطاب الحى، الذى يعبر باللمسات المتقطعة فى خفة وسرعة! ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾؟ أرأيت هذا الأمر المستنكر؟ أرأيته يقع؟ ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾؟».[(١)]

ولقد ذكرنا هذه المقدمة لأن قوله: ﴿ إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ مرتبط بقوله: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾، كأن الصلاة هى كون المرء على الهدى آمراً بالتقوى، وقد أشار إلى ذلك الفخر الرازى، حيث أوردها على صيغة سؤال مفاده أن المذكور فى أول الآية هو الصلاة، والهدى فى فعل الصلاة، فلم أضاف إليها شيئاً ثانياً وهو قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾، وأجاب - رحمه الله - بثلاثة أوجه، نذكر منها وجهاً واحداً، وهو:

«أنه ﷺ كان فى صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى، لأن كل من رآه وهو فى الصلاة كان يرق قلبه فيميل إلى الإيمان، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول».[(٢)]

عدنا إذاً إلى قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾ مرتبطاً بالآية قبلها، وقد اخترنا أنه النبى ﷺ[(٣)]، والمعنى تعجيب آخر، أى:

---

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٦/).

(٢) ذكر الرازى فى «التفسير الكبير» وجهين آخرين، وإلى مثل ذلك أشار فى «روح المعانى»، (١٦/ ٣٣٢-٣٣٣)، فقال: «وكان الظاهر عليه أن يذكر فى الجملة الأولى أيضاً أن يقال: أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى، لكنه حذف اكتفاء بذكره فى الثانية، واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس، لأن الأمر بالتقوى دعوة قولية والصلاة دعوة فعلية، والفعل أقوى من القول... إلخ».

(٣) والآية محتملة لتفسير ثانٍ، انظر الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ٣٣)، وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٥/ ٨٨٧)، والبيضاوى «أسرار التنزيل»، (٥/ ٥١١)، والرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٥٢٠).

أرأيت إن كان العبد على الهدى، أينهاه عن الهدى، وإن كان العبد آمراً بالتقوى أينهاه عن التقوى، ذلك هو الظن به، فيعجَّب المخاطب من ذلك، لأن من ينهى عن الصلاة وهى قربة إلى الله، فقد نهى عن الهدى ويوشك أن ينهى عن أن يأمر أحد بالتقوى. وقد عبر القرآن الكريم بـ﴿ عَلَى ﴾ فى قوله: ﴿ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾، لتبين شدة التمكن من الهدى، بحيث يشبه تمكن المستعلى من المكان، وهو من الاستعلاء المجازى. وقد أشرنا إلى التفخيم فى تنكير ﴿ عَبْدًا ﴾ ويكون المعنى: أينهى العبد الذى هو فى النهاية من العبودية لله تعالى، والمتمكن أشد التمكن من الهدى، أينهاه عن الهدى؟ فما أعجب ذلك! أينهاه عن الأمر بالتقوى؟ فما أعجب ذلك! وفيه من التشنيع على هذا الفعل القبيح والقول الكريه ما فيه، وهو عام فى كل أحد يقول هذا القول المنكر ويفعل هذا الفعل المستقبح، وإنذار من الله تعالى كذلك لكل من يتعاطى هذا الصد عن سبيل الله تعالى أن يكون عقابه من جنس عمله فى السوء والشناعة، ولم يسكت القرآن الكريم عن هذا العذاب المنتظر والجزاء الواقع، بل صرح به فى نهاية السورة بقوله: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾، حيث وصفه بهذا الوصف القبيح، ثم أشار إلى أن عذابه سيطول أعلى مكان فى جبهته التى يرفعها متكبرٌ متشامخاً، بأن يؤخذ منها ويجرجر إلى النار بشدة لا توصف، وبقسوة لا تخطر ببال، وبذلة ومهانة لا تتصور، جزاءً وفاقاً، ناصية الكاذب الخاطئ المذنب الأثيم.

كل ذلك يبين لنا قيمة الأمر بالتقوى، وقيمة الآمر بها، إذ كان الناهى عنها بتلك الصفة وله تلك النهاية.

فإذا كان الناهى عن التقوى صاحب ناصية كاذبة خاطئة، فلاشك أن الآمر بالتقوى صاحب ناصية صادقة صالحة مستقيمة غير آثمة ولا مذنبة، يأمر بالتقوى، ويوجه إليها، ويدعو لها، ويوصى بها.

وتبين الآية لنا خطر الأمر بالتقوى وعظيم فضله، وأنه لا ينبغى لأهل

الإيمان أن يتخلوا عن تلك المهمة والقيام بأعبائها وتحمل تبعاتها، وعليهم أن ينتظروا من الله تعالى شيئين:

الأول: دفاع الله تعالى عنهم والقيام لهم، وأنه يحفظهم من كيد أعدائهم، ومن الشرور المحدقة بهم، كما ذكرنا ذلك فى قصة أبى جهل مع النبى وكما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨]، ومهما لاقوا فى سبيل الله تعالى والدعوة إليه فإن العاقبة لهم ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الثانى: عظيم جزاء الله لهم، المقابل لجزاء الناهى عن التقوى، فإذا كان هذا له السفع فى الناصية، فذلك له الإعظام والتكريم فى دار الخلد، جزاءً بما كان يعمل ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٤٥-٤٦].

وتبين الآيات أن الأمر بالتقوى من وظيفة الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام، فالقائمون بذلك من أتباعهم، إذا قائمون بأعظم مهمة، متحملون لأعظم أمانة، فما أعظمهم وأعظم مهمتهم، وما أجملهم وأجمل جزاءهم، وأعجب بهم واندهش لهم، فهم فى الدرجة العليا من ثناء الله عليهم.

وتشير الآيات بجلاء إلى أنه ينبغى ألا يأمر بالتقوى ولا يدعو لها إلا من تحقق بها، وتمكن منها فى نفسه، فلا يقوم بإصلاح غيره إلا من أصلح نفسه واهتم بها ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٣]، فقوله إذاً هباءً لا يقوم على أساس راسخ ولا أصل ثابت، وإنما هو متاجر بالدين، يقول ما لا يفعل، فلاشك أن مثل هذا لا تؤثر دعوته، ولا تؤتى ثمرتها، ويخشى عليه فى الأولى والآخرة، وإن كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لازماً على أى حال.

وتبين الآيات درجة النبى ﷺ العظيمة، ورتبته العالية فى كونه أعظم من دعا

إلى تقوى الله تعالى، وتحمل فى سبيل ذلك أعظم المشقات والمتاعب، كل ذلك حتى أتاه اليقين، فما أن جاءه أمر الحق تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ [المدثر: ٢] لم يتوان لحظة واحدة عن هذا الإنذار، إلى أن لقى الله - جل وعلا - وهو للمسلمين القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى لابد لهم أن يمتثلوه ظاهراً وباطناً، إن كانوا يرجون رفع رايتهم فى الدنيا وعلو منـزلتهم فى الآخرة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فبينت هذه الكلمات الموجزة من كلام الله المبارك - بعد أن اتضح أن الله سبحانه أهل التقوى - لزوم الأمر بالتقوى مع التزود بزادها، وأن الرسول ﷺ أعظم من دعا إلى التقوى، وتحمل فى سبيلها. وبينت جزاء التقوى وعظمها، وعاقبة المانعين من الأمر بها وعدم طاعتهم فى ترك الأمر بها، وإحاطة الله ومنعته للدعاة لها، مهما بدا أمرهم فى الدنيا على غير ذلك، وهى دعوة لأهل الإيمان فى كل زمان ومكان لأن يدعو إلى الله، مهما منعهم الطغاة من ذلك ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ ﴾ [العلق: ٦]، وأن يثبتوا والعاقبة لهم.

كان هذا آخر الكلام على هذا الموضع، مقصود المؤمن فيما يأتي أو يذر بل في كافة أعماله وتصرفاته ونياته وتوجهاته هو تقوى الله -تعالى-.

المطلب العاشر
التقوى أساس قبول العمل

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]:

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بتلك الآيات الكريمات السابقات، فحيث حلت التقوى في القلب والعمل من العبد فإن الله يقبل أعماله؛ لأن هذه الأعمال كذلك كانت السبب في محبة الله له، إذ لو كانت طاعته وقربانه في غير محل القبول ما وصل العبد إلى محبة الله ولا ولايته؛ أعماله مردودة لفقدها أحد شرطى القبول - الإخلاص والمتابعة.

يقول الزمخشرى في «الكشاف»: «وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم! وعن عامر أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: ما يبكيك فقد كنت كذا وكذا؟ قال: إنى أسمع الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾».[1]

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - المثل الأعلى في الفهم والعمل، لذلك ورد عنهم ما يبين قيمة التقوى، يقول الحافظ بن كثير في تفسيره: «كان ابن عمر ﷺ يقول: «لو علمت أن الله تعالى تقبل منى سجدة واحدة أو درهماً صدقة؛ ما كان غائب أحب إليَّ من الموت: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2]، ومن الجدير بالذكر أن هذا التعبير القرآنى الفريد قد جاء في سياق قصة ابنى آدم، التي

---

(٢) جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٣٣٣). وقد ذكر الطبرى أثر عامر هذا في تفسيره، مجلد٤، (٦/ ١٢٣)، وذكر النسفى كلام الزمخشرى، (١/ ٢٠٧)، ونقله بنصه في «روح المعانى» الألوسى، مجلد٤، (٦/ ١٦٥).

(٢) العلامة الشيخ محمد السفا رينى الحنبلى «نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، ت١١٨٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ، (١/ ٤٦).

قصها علينا القرآن الكريم، لتبين قبول الله طاعة المتقين دون غيرهم، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهذا يبين قيمة التقوى لأن أحد القربانين صار مقبولاً والآخر مردوداً، لأن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال، قال تعالى هاهنا، حكايةً عن المحق: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وقال - سبحانه - فيما أمرنا من القربان بالبدن: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، والتقوى من صفات القلوب قال ﷺ: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى صدره ثلاثاً.(١)

---

(١) الإمام محمد بن عمر الرازي، «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٥٣).
وقد أغرب العلامة الكبير الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية، حيث ذكر في نهاية ما ذكره من أقوال قوله: «ومعنى هذا الحصر أن الله لا يتقبل من غير المتقين وكان ذلك شرع زمانهم» ا.هـ. الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٧٠). وما ذكرنا لكافة المفسرين غنية في الموضوع.

الفصل الثانى

أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها

بعد أن عرضنا لمواضع التقوى ومعانيها، حيث اتضحت بذلك أهميتها، نبدأ الفصل الثانى، وهو في الكلام على أساليب الأمر بالتقوى في القرآن الكريم، حيث تبين هذه الأساليب كيف اتبع القرآن الكريم كافة ما يمكن من أوامر، ليحمل الناس أفراداً وجماعات على تقوى الله تعالى. وقد جعلته في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : النصوص الواردة في الأمر بالتقوى.

المطلب الثانى : أساليب الأمر بالتقوى من حيث:

أ . المأمور به «المخاطب» مفرداً أو جمعاً، الناس أو المؤمنين، وسر ذلك وتعليله.

ب. المضاف إلى التقوى (معمول التقوى) مع التعليل.

المطلب الثالث : الأوامر المصاحبة للأمر بالتقوى، تفسير النصوص الواردة فيها.

المطلب الأول
النصوص الواردة في الأمر بالتقوى

هذا المطلب حصر للنصوص الواردة في الأمر بالتقوى، وقد ذيلتها بتفسير إجمالي يبين مقاصدها، ليكون تفصيل هذا التفسير كل في موضعه من بقية المطالب، وها هي ذي تلك النصوص:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١].

٢. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤].

٣. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٤. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

٥. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

٦. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

٧. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

٨. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٩. ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

١٠. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣١].

١١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى

تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

١٢. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤].

١٣. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧].

١٤. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨].

١٥. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٨].

١٦. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٨].

١٧. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧].

١٨. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنفال: ١].

١٩. ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

٢٠. ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٩].

٢١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩].

٢٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١].

٢٣. ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ ﴾ [الزمر: ١٠].

٢٤. ﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المجادلة: ٩].

٢٥. ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧].

٢٦. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

٢٧. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن: ١٦].

٢٨. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ ﴾ [الطلاق: ١].

٢٩. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطلاق: ١٠].

٣٠. ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة: ٤١].

٣١. ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

٣٢. ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

٣٣. ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر: ١٦].

٣٤. ﴿ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٢].

٣٥. ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الروم: ٣١].

٣٦. ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

٣٧. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١].

وبالنظر في هذه الآيات الكريمات نلاحظ:

أولاً: أن الله تعالى أمر الجميع بتقوى الله مؤمنين كانوا، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، أو كفاراً كقوله: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ [نوح: ٣]، وأفراداً كقوله: ﴿ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أو جماعات كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، أو نساءً كقوله: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، حتى النبي ﷺ أمر بذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١].

ثانياً: تعدد معمولات التقوى في الآيات من لفظ الجلالة: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إلى وصف الربوبية ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، إلى الجمع بينهما: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ ﴾ [الطلاق: ١].

كذا جاء اليوم الآخر والنار والفتنة والسيئات معمولات للتقوى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ [غافر: ٩].

كل ذلك لحمل الناس على تقوى الله تعالى.

ثالثاً: رأينا الأمر بالتقوى معطوفاً على أوامر من أوامر الشرع، والعكس ليكون الأمر بالتقوى حاملاً للمؤمنين على تنفيذ تلك الأوامر والتزامها كقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ١].

رابعاً: وردت أساليب كثيرة متنوعة مع الأمر بالتقوى، كالتذييل لها، حضاً على تقوى الله تعالى، والتزامها وعداً كقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ووعيداً كقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]، وحثاً وإلهاباً لهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [المائدة: ٥٧]، إلى غير ذلك مما سنبينه في موضعه – إن شاء الله.

خامساً: بينت الآيات كذلك عواقب الالتزام بأوامر التقوى، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

كل ذلك لحمل الناس كافة على تقوى الله تعالى.

وإلى تفصيل ذلك في بقية المطالب، وثمة تنبيه إلى أنني وضعت بعض تلك النصوص في الموضع اللائق بها في الفصول الأخرى، كعاقبة التقوى وغيره.

المطلب الثانى
أساليب الأمر بالتقوى

وهذا المطلب خصص لدراسة أساليب الأمر بالتقوى من حيث:

١. المأمور بها مفرداً أو جمعاً، الناس أو المؤمنون.

٢. المضاف إلى التقوى (معمول التقوى)، مع تعليل كون الأمر بأسلوب الغيبة أو الخطاب.

وها هى ذى بعض الأمثلة لتلك الآيات، نسوقها لننظر فيها، ونربط بين معانيها:

١. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٢. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

٣. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

٤. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

٥. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

٦. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

٧. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١].

٨. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ ﴾ [الطلاق: ١].

الإضافة إلى النار وعذابها:

١. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤].

٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

٣. ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الإضافة إلى اليوم الآخر:

١. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٣. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٤. ﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

الإضافة إلى السيئات:

١. ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر: ٩].

٢. ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٥].

الفتنة:

١. ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وبالنظر في هذه الآيات الكريمات يتبين:

أولاً: أن إضافة التقوى إلى الله – سبحانه – معناه أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضب وسخط وعقاب وقاية تقيه من ذلك، وهو أصل التقوى كما ذكرنا في تعريفها[١]، وكذلك الأمر في اتقاء اليوم، إنما يتقى ما يحدث فيه من أهوال وكرب، حيث يأمر الله المؤمنين بأن يجعلوا بينهم وبين تلك الأهوال والكرب وقاية تقيهم من ذلك، من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، وهو نفس المعنى في طلب التقوى من النار كما في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، أى يجعل بينه وبين النار وعذابها وقاية، كما في حديث النبى ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[٢]، وذلك كما ذكرنا.

ثانياً: عبر القرآن الكريم في بعض المواضع بلفظ الجلالة (الله)، وفى بعضها بلفظ الربوبية، ولكن الملاحظ أنه جاء بلفظ الجلالة عند نداء المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، ولم يشذ عن ذلك شيء إلا ما كان من قوله في سورة الزمر: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ﴾، وليس بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ...﴾، سنشرح مناسبتها بعد – إن شاء الله تعالى.

وأما لفظ الربوبية، فقد ذكر مع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وهى نداء لأمة الدعوة جميعاً، لذا وجدنا السياق متناسباً مع دعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وهو ما أشرنا إليه في «التقوى دعوة الرسل»، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ

---

(١) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٨).

(٢) الحديث رواه البخارى (١٤١٧). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٣/ ٢٨٣). ورواه مسلم (١٠١٦). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٠٩).

رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾. ولنضرب أمثلة على ذلك من الآيات السابقة، توضح المقصود وتزيد في فهم الآيات، بمقارنتها بعضها ببعض.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]: جاء الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليشمل جميع المدعوين الذين يسمعون القرآن، لئلا يختص بالمؤمنين، إذ غير المؤمنين حينئذ هم كفار العرب، وهم الذين تلقوا دعوة الإسلام قبل غيرهم.

فلما كان ما بعد هذا النداء جامعاً لما يأمر به الناس نودي جميع الناس، فدعاهم الله إلى التذكر بأن أصلهم واحد، إذ قال: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ دعوة تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد، فالمقصود من التقوى في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه، وذلك حق توحيده والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه عن الشركاء في الوجود والأفعال والصفات.

ومن ثم عبر بـ ﴿رَبَّكُمُ﴾ دون لفظ الجلالة (الله)، لأن في معنى الرب ما يبعث العباد على الحرص على الإيمان بوحدانيته، إذ الرب هو المالك الذي يدير شؤون مملوكه. ودلت الإضافة في ﴿رَبَّكُمُ﴾ على الصلة التي بين الرب وبين المخاطبين، وهي صلة تعد إضاعتها حماقة وضلالاً، لأنهم بهذه الإضافة إليه محققون له بتقواه حق التقوى.

ثم جاء التعبير ذلك في نفس الآية بقوله – جل وعلا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾، فجاء بلفظ الجلالة، ولم يعد بضمير على ﴿رَبَّكُمُ﴾، لأن الآية شرعت في الكلام على التشريعات التي حوتها السورة، فأعيد لفظ

التقوى ليختص بالمؤمنين، والحكمة من مخاطبة المؤمنين بالتقوى في مواضعها، حيث جاءت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، إنما المطلوب ثباتهم عليها وازديادهم منها. وجاء حينئذ لفظ الجلالة (الله) في هذه الأوامر، لأن التقوى هنا مأمور بها المؤمنون خاصة، لأنه مقام تشريع ناسبه إيثار المهابة وإدخال الروع في ضمائر السامعين، ليمتثلوا تلك الأوامر، على خلاف لفظ ﴿ رَبَّكُمُ ﴾، الذي ناسب الترغيب لما يظهر من صلة بين عموم الناس وبين ربهم.(١)

وفى التعبير بالناس والمؤمنين في هذه النداءات تنبيه آخر، وهو التفريق بين القرآن المدنى والقرآن المكى، فإن غالب القرآن المكى كان النداء فيه للناس، بعكس الخطاب المدنى فقد كان غالبه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. وقد تميز القرآن المكى المتعلق بالتقوى فيما رأينا من النصوص بذكر عاقبة التقوى مجملة، كقوله: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، وذلك في قصه قصص الأمم المكذبة، تثبيتاً للمؤمنين وتسلية للنبى ﷺ مع ذكر عاقبة التقوى في الآخرة.

أما القرآن المدنى فقد زاد في الأمر بالتقوى للعبادات والسلوك والمعاملات، ثم زاد على ذكر عاقبة التقوى في الآخرة ذكر عاقبة التقوى في الدنيا. يذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾ من سورة الحج، مضيفاً على ما سبق من المعانى: «وفى التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافاً إلى ضمير المخاطبين، إيماءً إلى استحقاقه أن يتق لعظمته بالخالقية وإلى جدارة الناس بأن يتقوه، لأنه بصفة تدبير الربوبية، لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعى مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم، وكلا

---

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢١٦-٢١٧)، وانظر الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى «الإتقان في علوم القرآن»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م، مجلد١، (١/ ٣٧).

الأمرين لا يفيد غير وصف الرب دون وصف الخالق والسيد».[(١)]

وبذا يتضح دقة التعبير بلفظ الجلالة أو الربوبية ومناسبة ذلك للخطاب.

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠]، فقد خرجت الآية الكريمة عن مثل ما سبقها من كون الأمر بالتقوى للمؤمنين يضاف إلى الله، ليس إلى لفظ الربوبية، وهى الوحيدة كما أشرنا. وأما معناها فهو أن الله - جل وعلا - أمر المؤمنين بأن يتقوا ربهم، وذلك بالنداء في قوله: ﴿ قُلْ ﴾، ولكن لما أضاف المؤمنين إلى ضمير الله تعالى بوصف العبودية دل ذلك على تشريفهم، وليدل - كذلك من باب الأولى - على كونهم متقين لله - سبحانه - من قبل ندائهم للتقوى وأمرهم بها، ويؤذن كذلك بالاهتمام بما سيقال لهم عن ربهم، لأن الله تعالى أمره أن يبلغهم عين ما أمر الله - جل وعلا، ويبين درجتهم العظيمة عند الله تعالى، إذ وضعهم في مقام المخاطبة منه سبحانه وتعالى.[(٢)]

ويكون المراد من الأمر بالتقوى لهؤلاء المتقين من قبل، الدوام على تقوى الله والثبات عليها، لأن السياق يشعر بأنهم قد نزل بهم من الأذى والتعذيب في الدين ما يخشى عليهم معه أن يقصروا في تقواهم، حيث جاءت جملة: ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ ﴾ معترضة، لتزيح ما عسى أن يتوهم من التعلل في التفريط بعدم التمكن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي.

ومن ثم كان الأمر ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ ﴾ تمهيداً لما سيوجه إليهم من أمرهم

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ١٨٦).

(٢) وانظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ٤٦٠). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٣، (٢٣/ ٣٦٥). والعلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/ ٣٥٢).

بالهجرة للسلامة من الأذى في دينهم، فجاء التعبير الربوبية ليمس هذه العلاقة والصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم، التي تثير فيهم الامتثال لترك الوطن والأهل في سبيل الله تعالى، حماية لدينهم وبعداً عن الفتنة فيه.

وجاء كذلك الجمع بين اسم الجلالة واسم الربوبية في معمولات الأمر بالتقوى في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾، وهو في قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾.

فرأينا أولاً: حذف متعلق ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ليعم جميع ما يتقى الله فيه، وأول ما يقصد بأن يتقى الله فيه ما سيق الكلام لأجله من مواضيع الطلاق والعدة وغيرها مما كان شائعاً فيه الظلم في الجاهلية.

ثانياً: قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ تحذير من التساهل في تلك الأحكام، وذلك أنهم كانوا لا يقيمون في الجاهلية للنساء وزناً، وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن، فنسى الناس تلك الحقوق وغمصوها، فكانت هذه الآيات بتلك اللهجة الشديدة لتكفهم عن ذلك، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله، ولمزيد الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ربكم للتذكير بأنه حقيق أن يتقى غضبه.(١)

وإذ قد ورد النداء للجمع - الناس والمؤمنين - بتقوى الله تعالى، فقد جاء كذلك للمفرد ولم يأت إلا في آية واحدة بصيغة الخطاب، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١].

والظاهر أن صيغة الخطاب هذه لا تكون إلا للنبي ﷺ، لأنه الموحى إليه من

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٢٩٨-٢٩٩).

الله تعالى، ومن ثم يتوجه الخطاب المباشر من الله تعالى إليه، فكانت الوحيدة في القرآن الكريم لهذا المعنى، حتى ولو فرض أن تكررت فلا يمكن إلا لمخاطبة النبي ﷺ. أما بصيغة الغيبة فقد وردت كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وبالنظر في الآية نرى أنه قد ذهب بعض العلماء إلى أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ تنبيه بالأعلى على الأدنى بالأمر بتقوى الله تعالى، ويكون ذلك خطاباً للأمة في شخص النبي الكريم ﷺ ، ويكون الأمر للنبي ﷺ بالتقوى أمر بالثبات عليها والازدياد منها أتقى الناس لله - جل وعلا.(١)

وللعلامة ابن عاشور تفصيل آخر، حيث يقول في تفسيره للآية الكريمة: «والأمر للنبي ﷺ بتقوى الله توطئة للنهى عن إتباع الكافرين والمنافقين، ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلق بالله دون غيره، فإن معنى ﴿ وَلَا تُطِعِ ﴾ مرادف معنى: لا تتق الكافرين والمنافقين، فإن الطاعة تقوى، فصار مجموع الجملتين مفيداً معنى: يا أيها النبى لا تتق إلا الله، فعدل عن صيغة القصر وهى أشهر في الكلام البليغ وأوجز، إلى ذكر جملتى أمر ونهى، لقصد النص على أنه قصر إضافى أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، لأنه لو اقتصر على أن يقال: لا تتق إلا الله، لما أصاخت إليه الأسماع إصاخة خاصة، لأن تقوى النبى ﷺ ربه أمر معلوم».(٢)

تعين بما سبق في قوله: ﴿ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ والنهى في قوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ ﴾ مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى

---

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣/ ٤٥٦). وصديق خان «فتح البيان»، (٧/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/ ٢٥٠).

الله، فأشعر ذلك أن تشريعاً عظيماً سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه، وعلى بعض أمته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين، فأعلمهم من قبل أن الرسول ﷺ لن يطيعهم لييأسوا من ذلك، وهو دليل على أن طلباتهم من النبى ﷺ يمكن أن تكون نصحاً له، خاصة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام فمن تقوى الله ألا يطاعوا فيها كذلك.

وقد ختمت الآية بما يدل على لزوم تقواه وحده بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ ﴾، أى هو العليم بما فيه الصلاح، الحكيم بما يشرع، فوجبت طاعته لا طاعة غيره - جل وعلا.

وتبين هذه الآية الكريمة تشريعاً عاماً للمؤمنين في كل زمان أن طاعة المنافقين والكافرين مخالف لتقوى الله ومضاد لها. وكم كان ذلك وما زال مخالفاً لصلاح الأفراد والأمة، بل وموقع لهم في البلاء والمحن.

لم يغفل القرآن الكريم إفراد النساء بالأمر بتقوى الله تعالى، وإن كن يدخلن في الأمر العام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، وذلك للتنبيه على أن النساء مأمورات بتقوى الله تعالى لا ينقصن عن الرجال في ذلك، وأن عاقبة التقوى تشملهن في الدنيا والآخرة، وأن صلاح النساء عليه المعول الكبير في إصلاح شؤون البيت، وبالتالى صلاح الأمة.

جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٥٥] لتدل على ما سبق. وبالنظر فيها نجد أسلوب الالتفات من الغيبة في قوله ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ ﴾ لتشريفهن بذلك، وحملهن على تقوى الله تعالى.

والآية نزلت في نساء النبى ﷺ تنبيهاً بالأعلى على الأدنى بتقوى الله تعالى، فإذا كان صواحب الرسول ﷺ مأمورات بذلك، فمن باب الأولى أن يأمر غيرهن.

وختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾، أي لا تخفى عليه خافية، لحضهن على تمام التقوى، فإن اطلاع الرب سبحانه على المرأة حامل لها على الحياء، والبعد عما يغضب الله تعالى، وكان يمكن كذلك أن يقال: إنه كان على كل شيء شهيداً، فأظهر لفظ الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة في نفوسهن من الله تعالى، وتأكيداً على استقلال الجملة.(١)

وهكذا ما تركت آيات التقوى في القرآن الكريم من أحدٍ إلا خاطبته بتقوى الله - جل وعلا.

كان معمول التقوى فيما سبق في الآيات السابقة عند مخاطبة الجمع والمفرد هو الاسم الظاهر لفظ الجلالة «الله» أو الربوبية «ربكم» كقوله ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ و﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾. وهنا رأينا أسلوبين جديدين لمعمول التقوى ساقهما القرآن الكريم، ينبغي كذلك النظر فيهما إتماماً لما سبق، وهو قوله: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ بصيغة الخطاب، و﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ بصيغة الغيبة، وقد ورد الأول في قوله تعالى:﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالى:﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢]، وقوله: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر: ١٦]، وقد ورد الثاني في قوله: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح: ٣]. وبالنظر في الأسلوب الأول، وهو ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾، نلاحظ على هذه

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/ ٩٦).

الآيات أن الأمر بالتقوى جاء بعد مناداة المولى سبحانه لعباده بأنه إلاههم وربهم، وكذلك خاطب سبحانه العباد كافة بالتقوى في قوله: ﴿ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾، مؤمنهم وكافرهم. وهذه الآيات قد جمعت الأوامر السابقة، التي معمولها لفظ الجلالة الظاهر والربوبية ولكن مع استخدام تعبيرات جديدة لتؤكد لزوم التقوى والحث عليها، مع زيادة أسلوب من أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها، وهو: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، ونلاحظ أن كل ذلك بالخطاب المباشر، لا باستخدام أسلوب الغيبة، تشريفاً للمخاطبين لحملهم على تقوى الله تعالى.

وبالنظر في هذه الآيات نرى أن سياق الأولى في سورة البقرة هو قوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾، وقد جاء في شأن اليهود لقيامهم بهذه الجريمة، وهى تحريف آيات الله بثمن قليل، ولا يقصد القرآن الكريم أن يحرفوها بثمن كثير، بل هو تبشيع للفعل وأنه مهما أوتوا في مقابله فهو قليل حقير، لأنه فعل منافٍ لتقوى الله والخوف منه.

ثم جاء بهذا التذييل ﴿ وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾، ليحضهم على تقواه هو وحده، فهو من أساليب القصر، بل كما ذكر بعض المفسرين هو أبلغ في إفادة القصر من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مثلاً، لينبههم على تخصيصه وحده دون غيره بالتقوى، أي بالخوف منه، لا من رهبانهم وأحبارهم ممن يحرفون كلام الله لهم أو يأمرونهم بهذا التحريف، فأمرهم سبحانه بعصيان كل أولئك، وعدم الخوف إلا منه هو وحده، مهما كان الترغيب والترهيب.(١)

وهو لاشك تنبيه على المؤمنين من باب الأولى بتقوى الله تعالى والخوف منه

---

(١) انظر «التفسير الوسيط»، مجمع البحوث الإسلامية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٣م، (١/ ٨٨). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٤٥٧). وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٦٥).

وحده، والحفظ على دينه وكلامه، لئلا يحرف مهما كان الثمن مادياً أو معنوياً.

أما الموضع التالى وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ فقد جاء في سياق قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾، وهو تفريع لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ ﴾، لأن التخويف مؤذن بأن العذاب أعد لأهل العصيان، فناسب أن يعقب بأمر الناس بالتقوى لتفادى هذا العذاب.

وقدم النداء على التفريع من أن مقتضى الظاهر تأخيره عنه، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾، لأن المقام هنا مقام تحذير وترهيب، فهو جدير باسترعاء أذهان المخاطبين إلى ما سيرد بعد التفريع، خاصة وهو يخاطب عموم الناس، كافرهم ومؤمنهم.

أما قوله: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾، فهو في سياق ترغيب المؤمنين في إكمال أعمال الحج والتزود بزاد التقوى في قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾، فلذا جاء الأمر بالتقوى معطوفاً بالواو، وخاطب به أولى الألباب، لأن التقوى مما يرغب فيه أهل العقول.

ونختم بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾، وهى بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وهذه الآية معطوفة على قصص إرسال الرسل السابقة عليها من أول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، لأن تلك القصص إنما قصت عليهم لأن شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالألوهية، ويكون المعنى: ولكون دينكم ديناً واحداً لا يتعدد فيه المعبود، وكونى ربكم، فاتقون ولا تشركوا بى غيرى، خطاباً للرسل، والمراد أممهم أو خطاباً لمن خاطبهم القرآن

الكريم.[(١)]

وهكذا رأينا أنواع الخطاب المختلفة الذي جاءت في القرآن لأمر الناس والمؤمنين، أفراداً وجماعات بالتقوى، وبكل أسلوب يحملهم على ذلك.

ويتبقى النظر في الأسلوب الأخير في الأمر بالتقوى، وهو ما جاء بصيغة الغيبة ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾، لنستكمل كل معمولات التقوى المتعلقة بالله تعالى.

وأول هذه الآيات التي جاء فيها هذا الأمر قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٢] في سورة الأنعام. وفى هذه الآية الكريمة عطف ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ على ﴿ أَقِيمُواْ ﴾، والضمير المنصوب عائد إلى ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ في قوله: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ...﴾ ، أى اتقوا رب العالمين. وفى ذكر اسم الله تعالى بوصف الربوبية لجميع الخلق إشارة إلى تعليل الأمر بالتقوى، إذ هو جدير بذلك سبحانه، لأنه ربهم - جل وعلا.

وَجَمع قوله «واتقوه» جميع أمور الدين، وقدمت الصلاة، وهى من التقوى للاهتمام بها بعد الإسلام لله تعالى، إذ هى أهم أمور التقوى، فكان ذلك من عطف العام على الخاص لأهمية الخاص بالإفراد والذكر.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ تعليلاً للأمر بتقواه - سبحانه، ولوجوب الامتثال، وهى معطوفة على «واتقوه» عطف الخبر على الإنشاء، أى: وقل لهم وهو الذي إليه تحشرون، حضاً لهم على تقوى الله وعلى عدم التفريط فيها، لأنهم سيحشرون إلى الله تعالى فيسألهم عن ذلك، ويجازيهم به، وقدم معمول «تحشرون» ليفيد حصر الحشر إليه لا إلى غيره، تأكيداً

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨/ ٦٩-٧٠).

لرجوعهم إليه، وحسابهم عنده لا محالة.(١)

والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ ﴾ [الروم: ٣١] في سورة الروم، حيث جاءت الآيتان الباقيتان في فصل «التقوى ودعوة الرسل»، والآية السابقة عليها: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد ورد فيها الأمر بتقواه - سبحانه - بعد أمرهم بإقامة وجوههم إلى الله منيبين، أى: راجعين إليه النوبة بعد الأخرى، حيث أعربت «منيبين» حال من الضمير في «أقم»، والخطاب للنبى ﷺ وأمته، فلذا جمع «منيبين»، لتحملهم تلك التقوى على رجوعهم الله والإقامة على طاعته، وأهم ما يقيمون من أمور الدين فذكرها ونبه على إقامتها هو الصلاة، وهى في نفس الوقت التي تبين إنابتهم وحسن تقواهم لله تعالى. وقد فسرت الإنابة أيضاً بالتوبة، فيكون المعنى: أقيموا وجوهكم للدين تائبين لله تعالى، ويكون الأمر بالتقوى وإقامة الصلاة مستعملاً في طلب دوام ذلك.(٢)

وبعد أن انتهينا من ذكر معمولات التقوى المتعلقة بالرب سبحانه وتعالى، نستكمل بقية المعمولات:

أولها: النار وعذابها:

إن تحقيق أسباب الوقاية من النار وعذابها مما يسعى إليه المتقون، ومن ثم كان من صفاتهم التي مدحهم الله - جل وعلا - عليها أنهم يدعون ربهم أن

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/ ٩٥). وأبى السعود «إرشاد العقل السليم».

يقيهم عذاب النار. ولما كانت الوقاية من النار وعذابها من مطلوبات الشرع، ودليل تقوى الله، حيث ينجى الذين اتقوا من عذاب جهنم: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧٢]، أمر الله تعالى الناس جميعاً بأن يتقوا النار، بقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، بل وزاد أمر المؤمنين خاصة بأن يقوا أهلهم كذلك، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾. وقد أمر الرسول ﷺ أيضاً المؤمنين أن يقوا أنفسهم النار، وألا يستصغروا شيئاً من المعروف والعمل الصالح يكون وقاية لهم من النار، فقال - عليه الصلاة والسلام: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» الحديث.[1] دل ذلك على أن امتثال الأوامر واجتناب النواهى والمسارعة إلى الخير هى ما يقى به المرء نفسه من النار وعذابها.

ونبدأ في تحليل تلك الآيات الواردة في ذلك:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾.

الآية الكريمة جاءت في سياق ما ذكره القرآن الكريم من تحدى الكفار أن يأتوا بسورة من مثله، مع الاستعانة بشهدائهم. ثم أخبرهم أنهم لم ولن يفعلوا، وهم فرسان الكلام وأساطين البلاغة، ويهمهم ويشغلهم أن يأتوا بمثله، أو يعارضوه ليبطلوا تلك الدعوة، بدلاً من الحرب والقتال، فظهر بذلك عجزهم، وظهر بذلك إعجاز القرآن الكريم الخالد، وجاء الوعيد الشديد في جواب الشرط - على رأى جمهور المفسرين - وهو ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾، أى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ بمعنى أنكم إذا لم تأتوا بمثله - ولن تأتوا - فاتركوا عنادكم وآمنوا، لأن ذلك وقايتكم من النار. ولذلك ذهب - أى لأن الإيمان هو الوقاية من النار- بعض المفسرين

---

(١) سبق تخريجه.

إلى أن ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ أثر لجواب الشرط، دل على جملة محذوفة، ويكون تقدير الكلام: فإن لم تفعلوا فأيقنوا أن ما جاء به محمد حق منـزل من عند الله، وأنه صادق فيما أمركم به من عبادة الله وحده، فاحذروا النار إن لم تمتثلوا أمره.(١)

وعلى ما قلنا من ذهاب جمهور المفسرين إلى أن (فاتقوا) جواب الشرط، يقول العلامة أبو السعود في تفسير الآية من «إرشاد العقل السليم»:

«﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتيبه عليه،كأنه قيل: فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله - كما هو المقرر - فاحترزوا من إنكار كونه منـزلاً من عند الله - سبحانه، فإنه مستوجب للعقاب بالنار، ولكنه أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير النار، وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها، للمبالغة في تهويل شأنه، وتفظيع أمره، وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه، وتنفيرهم عنه، وحثهم على الجد في تحقيق المكنى عنه».

ويستطرد قائلاً إن هذا التعبير ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ من بديع الإيجاز. يقول - رحمه الله: «حيث كان الأصل: فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم، وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد، وترككم الإيمان به سبباً لاستحقاقكم العقاب بالنار، فاحترزوا منه، واتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة».(٢)

فكان هذا اللفظ المبدع في إيجازه يحمل في طياته الأمر بالتقوى، وتبيين سبيل التقوى، وعاقبة النكول عن التقوى.

وهنا سؤال: إنهم لا يؤمنون بالبعث، فكيف حذرهم القرآن النار ولم يحيطوا بها علماً؟ لعله قد سبق علمهم بما حذرهم به النبي ﷺ قبل ذلك وهددهم به إذا لم

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٣٤٣-٣٤٤).

(٢) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٨٢).

يؤمنوا، ولاشك أن معظم القرآن المكى كذلك، وقد سبق لهم قوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾، ولذا ذكر هنا أنهم وتلك الحجارة وقود النار، ولعل ذلك إشارة إلى أصنامهم التي كانوا يعبدون، ليروا أنها لم تنفعهم، حيث كانوا يظنون فيها النفع والضر والتقريب إلى الله، فيزداد بذلك سوءهم وعذابهم، ولتطول برؤيتهم حسرتهم وندامتهم.

والآية التالية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

وهى من هذا القبيل، أى من إضافة التقوى إلى النار. وإذا كانت الآية السابقة خطاباً للكفار، فهذه الآية خطاب للمؤمنين بأن يقوا أنفسهم، وليس ذلك فحسب - فإن المؤمن راع ومسئول عن أهل بيته - وعليه أن يقى أهله كذلك النار، وذلك بأن يحقق في نفسه تقوى الله تعالى، وأن يحمل أهله عليها بكل سبيل، فإن ذلك من مسئوليته التي سيحاسب عليها، فضلاً عن إساءته بأن يرى أهله يعذبون، وكان يمكن أن يكون السبب في نجاتهم.

يقول الإمام ابن كثير في معرض تفسير الآية: «وقال مجاهد: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ ، قال: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله».[١]

ونلاحظ أن الآيات الكريمات السابقة على هذه الآية الكريمة كانت في موعظة نساء النبى ﷺ فكانت تلك مناسبة لتحذير المؤمنين من الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم، وأن لا يصدهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم، وإن كان في ذلك بعض الأذى.[٢]

---

(١) الحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣٩١). وابن جرير الطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد١٢)، (٢٨/ ١٠٧).

(٢) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٣٦٥).

وقد عبرت الآية السابقة عن العناد وترك الإيمان بالنار، وفى هذه الآية الكريمة عبر القرآن الكريم عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار، فكان مناسباً أن يعبر عن العناد وترك الإيمان بالنار مع الكافرين، ليفروا من هول ما هم فيه إلى الله تعالى مؤمنين مسلمين، وأما المؤمنون فالموعظة والتحذير هى وقايتهم من النار، ليتمسكوا بها وألا يفرطوا فيها فيقحموا بذلك في النار، على عكس الأولين حيث هم في النار أصلاً.

وزيد في الآية الثانية تهويل شأن النار وتفظيعها، ليحذر المؤمنون ذلك، في قوله: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ...﴾، على عكس الأولى، لأنهم في النار ولا يحتاجون إلى تخويف.

وهذا كله هو التقوى التي سبق كل ذلك لأجلها.

الثانى: اليوم الآخر:

جاء الأمر بالتقوى مضافاً كذلك إلى اليوم الآخر أى معمولاً له، لأن اليوم الآخر وما ذكر الله من أهواله التي يشيب له الولدان، كفيل لمن تدبر فيه بحضور قلب، أو مراعاة سمع، أو صفاء ذهن، أن يحمل المرء على تقوى الله تعالى، بل وعلى استدامة تلك التقوى سالكاً سبيل الاستقامة. كلما راغ عنه أو أخذته الدنيا أو الشهوات شيئاً عن هذا السبيل، رده ذلك التذكر مرة أخرى إلى الجادة، والاستعداد ليوم المعاد، خاصةً وأن رحيل الإنسان من الدنيا بغته، مما يوجب دوام الحذر ولزوم التقوى.

وهاك ما ورد في ذلك:

١. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٣. ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٣].

٤. ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المزمل: ١٧].

والتقوى لا تكون مما سيحدث في هذا اليوم، خاصة إذا كان ما سيحدث فيه شديداً لا دفع له،وأكيداً لا تخمين فيه. يقول العلامة الألوسى، في «روح المعانى»: «واتقاؤه بمعنى اتقاء ما فيه، إما مجازاً بجعل الظرف عبارة عن المظروف، أو كناية عنه للزومه له وإلا فالاتقاء من نفس اليوم مما لا يمكن، لأنه آتٍ لا محالة، ولابد أن يراه أهل الجنة والنار جميعا، والممكن المقدور اتقاء ما فيه بالعمل الصالح »[(١)].

فمعنى التقوى اللغوي[(٢)] أن يجعل المرء بينه وبين عذاب الله تعالى أو حسابه الواقع في هذا اليوم وقاية تقيه منه، وهذه الوقاية هى تقوى الله تعالى، ولكنها بالمعنى الشرعى المعلوم. ونلاحظ أن (يوماً) منكرة ومنونة في كل المواضع، حيث أعربت مفعولاً به، لا ظرفاً، وذلك لتهويل شأن هذا اليوم وشدته، وطوله وكربه، مما وصفه الله تعالى به في آيات أخر، كما أشرنا إلى شئ منها. ولعل في تنكيره إبهام مجيئه كذلك، ليكون الناس على حذر من مباغتته إياهم، فيستعدوا بتمام التقوى للقائه.

وسياق الآيات الكريمات يبين لنا أن القرآن الكريم خاطب كافة البشر باتقاء اليوم الآخر، كلاً بما يليق به من أسلوب ينبئ عن فكره واعتقاده، وبما يكون مؤثراً فيه، بالغاً به الدرجة القصوى من الموعظة، عذراً لهم جميعاً، وتهديداً

---

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٣٩٨).

(٢) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٤٨٤).

لهم جميعاً. فآية المزمل - وهي قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ - جاءت خطاباً للمشركين المكذبين، حيث سبق قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ...﴾، فهددهم بما حدث لفرعون في الدنيا بتكذيبه الرسل، أن يحدث لهم مثله، وتوعدهم بما هو أشد، وهو اليوم الذي تشيب فيه الولدان، ليكون باعثاً لهم على تقوى الله تعالى.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾، والآية الأخرى الشبيهة بها فسياقها في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى ... ﴾. ومناسبة سياقها على هذا النحو أن اليهود والنصارى معتقدون أن أنبياءهم وصالحيهم سيشفعون لهم عند الله، فأيأسهم الله تعالى وقنطهم من كل شيء يظنون نجاتهم به في هذا اليوم، إلا من تقوى الله تعالى، كما سنشير إلى كلام المفسرين.

والآية الثالثة - وهي قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ - قد جاءت في سياق نهى الله تعالى المؤمنين عن التعامل بالربا، وأمرهم بحسن المعاملة من إنظار المعسر والتخفيف على المدين، ثم حذرهم اليوم الذي سيرجعون حتماً فيه إلى الله - جل وعلا - فيعطى ويجازى كل أحد على قدر طاعته وإحسانه، وأنه لا يضيع عنده مثقال الذرة من العمل الصالح، كما أنه سيجازى العاصين المتعدين لحدوده، المخالفين لأمره، جزاءهم الوفاق: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وكأن اليوم من الهول

بحيث يجب أن يتقيه كل أحد من مسلم أو كافر.

وقد وصف يوم القيامة بأنه تشيب له الولدان، وأنه لا يرد فيه ولا يدفع ولا ينفع ولا يشفع أحد عن أحد. فالوصف الأول يدل على مدى هوله وشدته وعظم كربه، وما يغشى الناس فيه من المحن والعذاب، وما يقاسونه من طول الانتظار، والثانى أنه لا مرد له من الله ولا وقاية له بغير التقوى، والثالث أنه توفى كل نفس ما كسبت، فجمعت الآيات بذلك ما يمكن أن يكون سبباً لتقوى الله تعالى. يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ولذلك قال الشيخ ابن عطية: حصرت هذه الآية المعانى التي اعتاد بها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في شدة لا يتخلص إلا بأن يشفع له أو يفتدى أو ينصر».[1]

وذلك في الوصف الأول في الآيات ليوم القيامة.

وقد جاء تنكير «نفس» و«شىء» في الآية في سياق النفى، فتعم كل نفس وكل شيء، ويكون المعنى أنه لا تجزى أى نفس أى شيء عن أى نفس، وهذا يفيد التيئيس الكلى والإقناط التام من نجاة أى نفس، إلا بتقوى الله تعالى.

يقول العلامة أبو السعود: «﴿ لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا ﴾ أى: لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق...، وإيراده منكراً مع تنكير النفس للتعميم

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٤٨٦)، وذكر أن تفسيره للآية أرشق من تفسير ابن عطية.

والعدل هو الفدية في الآية، وقد احتجت المعتزلة على اعتقادهم الفاسد بنفى الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ على خلاف معتقد أهل السنة جميعاً. وما من مفسر قرأت له إلا وذكر موضوع الشفاعة لأهل الإيمان ممن ارتكب الكبائر في هذه الآية، رادا على المعتزلة. راجع كلام العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، حيث أحاط بالمسألة، (١/ ٤٨٧-٤٨٨).

والإقناط الكلى».[1]

وآخر هذه المعمولات هو «السيئات»، وقد جاء ذلك في قوله تعالى:﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ ﴾ [غافر: ٩].

جاءت السيئات هنا في هذا الموضع معمولاً للتقوى في قوله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ ﴾. وقد ذكر بعض المفسرين أن (قهم السيئات) معناها ألا يفعلوها في الدنيا وأن يحفظها منها، ومن ثم كان من وقاه الله تعالى السيئات فقد رحمه من آثارها الوخيمة في الآخرة. ويمكن أن يكون ذلك في الآخرة، بمعنى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أى جزاء السيئات، أو على ظاهرها على أن جزاء السيئة سيئة مثلها، ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ على معنى ما سبق يومئذ أى يوم القيامة، ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ ﴾ من وبيل عقابها، على حذف المضاف، أو منها نفسها، على كونها هى الجزاء. ويكون معنى الوقاية من السيئات في الدنيا والآخرة أن وفقهم الله تعالى لتقواه بالمعنى الشرعى، ليحول بذلك بينهم وبين هلكتهم. والسياق يدل على كون ذلك في الآخرة، إذ تقوى السيئات هى الرحمة التي لا رحمة بعدها، وذلك هو الفوز العظيم، خاصةً وأن ذلك دعاء الملائكة للمؤمنين، إذ من فضل الله تعالى السابغ على أهل الإيمان، التائبين منهم بالذات، المستقيمين على أمر الله تعالى، المتمسكين بطريقه، أن ملائكة الله - جل وعلا - الذين يحملون العرش من حوله، من وظائفهم التي يقومون بها ويداومون عليها، دعاءهم للمؤمنين بهذه الأدعية التي ذكرتها الآيات السابقة على الآية الكريمة التي معنا.

وذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً

---

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ١٢١).

وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ ﴾ [غافر: ٧-٩].

وقد لخص ذلك كله العلامة الألوسى في «روح المعانى»[(١)].

وبذلك نختم ما أحصينا من آيات «مضافات التقوى» ومعمولاتها.

---

(١) انظر العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٣، (٢٤/ ٧٣).

المطلب الثالث
الأوامر المصاحبة للتقوى

جاء الأمر بالتقوى في القرآن الكريم في آيات كثيرة، إما معطوفاً على أحد الأوامر أو النواهى، كقوله - سبحانه - في الأوامر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ومن الثانى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وقد يأتى العكس، أى الأمر بالتقوى، ثم يعطف عليه الأمر أو النهى، فالأول مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة: ٣٥]، ومن الثانى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقد يكرر الأمر بالتقوى، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

وقد يأتى أمر ونهى معطوفين على الأمر بالتقوى، كقوله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. فهذه الآية فيها نهى عن اتخاذ آيات الله هزواً، وأمر بذكر نعمة الله عليهم وما أنزل من الكتاب والحكمة لهدايتهم، ثم عطف على هذا الأمر والنهى الأمر بالتقوى، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. ، ثم ذيلت الآية بقوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

علاوةً على ما أسميته أساليب الحض على التقوى، وهى التذييلات التي

جاءت في نهاية هذه الأوامر لتكون حضاً وحثاً على تنفيذ تلك الأوامر السابقة، ولها أمثلة مما حصرناه في أول الفصل، منها قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ولم أجد من المفسرين الذين قرأت لهم تفسير هذه الآيات ما يشفى الغلة في توضيح معنى الأمر بالتقوى في هذه الآيات الكريمات، سواء كان مقدماً أو مؤخراً، فإما أنهم لم يذكروها من أصلها كابن عطية والزمخشري، أو أشار إلى معنى التقوى المعلوم - وهو إتيان الأوامر واجتناب النواهي - كالحافظ بن كثير.

وبالنظر في هذه الآيات نجد فرقاً في الأسلوب والمعنى، لو أخرنا ما قدم أو قدمنا ما أخر. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [المائدة: ٤]، فلو قلنا: اتقوا الله وكلوا مما أمسكن عليكم، لتغير المعنى، والدليل على ذلك أننا لو قلنا: اتقوا الله وكلوا، لكان مقصود الشرع هو الأكل، لذلك خوفهم بالله وأمره بالأكل وحملهم عليه، وأن يأكلوا أو لا ليس مقصوداً للشرع، لأنه مباح، أما أن يقول: (فكلوا.. واتقوا..) يكون بذلك أباح لهم الأكل، ثم أمرهم بتقواه ألا يكون في هذا المباح ما يخالف ربهم، أو أن يقعوا بسببه فيما كره لهم أو حرمه عليهم، ويقاس على ذلك الباقى، مع ملاحظة السياق في ذلك كله.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١] تختلف عما لو قلنا: أصلحوا ذات بينكم واتقوا الله. وهكذا في معظم الآيات، خاصةً تلك التي عطفت فيها الأوامر على الأمر بالتقوى أو بالعكس، مما يبين دقة القرآن الكريم المعهودة في اختيار الألفاظ للمعانى المقصودة.

ولابد من النظر في بعض معانى التقوى - التي أشرنا إليها - لنقيم الدليل والبرهان على صحة ذلك، ونؤيده بهذه الآيات شواهد عليه. فنبدأ بالقول إن من معانى التقوى الخوف، وهو أقرب ما وجدنا من المعانى يناسب الأوامر أو النواهى بعد الأمر بالتقوى. ويكون المعنى: خافوا الله وافعلوا، أو: خافوا الله ولا تفعلوا، فيكون الخوف هو الباعث على القيام بأوامر الشرع، وانتهاء عن نواهيه، ويكون المعنى: اجعلوا بينكم وبين ما تحذرون من عذاب الله تعالى وسخطه وقاية، من التزام ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه. ويكون الأمر بالتقوى - أولاً - ليسرع أهل الإيمان إلى الامتثال والمبادرة، وعدم التعلل بالواهى من العلل، للتحلل من أوامر الشرع أو نواهيه.

ويصح - في نظرى القاصر - أن تكون تلك قاعدة يفسر بها الأمر بالتقوى، قبل الأمر بالشيء أو النهى عن شيء. وبالتنقيب في كلام أهل العلم عن بصيصٍ يؤيد ما أقول، وجدت في كلام العلامة الطاهر بن عاشور - عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨] - شيئاً من ذلك، حيث يقول: «ويجوز أن يكون (اتقوا الله) المذكور أولاً مراداً به التقوى بمعنى الخوف من الله، وهى الباعثة على العمل، ولذلك أردف بقوله: ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ »[1].

أما ما ورد من الأمر أو النهى، ثم يعقبه الأمر بالتقوى، كقوله تعالى: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ١١٢).

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧].

الظاهر من كلام المفسرين أن الأمر بالتقوى بعد الأمر بشيء أو النهى عن شيء، إنما هو الأمر بالتقوى مطلقاً، وهى التي تحمل المؤمن على تمام الامتثال لله تعالى، ولرسوله ﷺ في كل شيء، ثم الامتثال بوجه خاص بما ورد في السياق، تنبيهاً على أهميته في حينه. ويكون المعنى: اتقوا الله أن تقصروا في أوامره، أو أن ترتكبوا نواهيه، ومن جملتها ذلك الذي أمرناكم به أو نهيناكم عنه، وكذلك احذروا أن تتعدوا حدود الله فيه، أو أن تفرطوا في تحصيله.

يقول الإمام الطبرى في مثل ذلك، في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ «يعنى - جل ثناؤه: واتقوا الله أيها الناس فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فاحذروه في ذلك أن تقدموا على خلافه». ثم يشير إلى ما أمر بهن السياق، فيقول - رحمه الله: «وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تطعموا ما لم يسم الله عليه من الصيد والذبائح...»، إلى أن يقول: «ثم خوفهم إن هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك وغيره، فقال: اعلموا أن الله سريع حسابه لمن حاسبه على نعمته منكم»(١).

نأتى الآن إلى تفصيل تلك المواضع:

أولاً: المواضع التي عطفت فيها الأوامر على التقوى:

أول هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾. وهو معطوف على أمر من أوامر الشرع وهو قوله: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، كما هو واضح في سياق الكلام على أحكام الحج وإتمام مناسكه، ليفيد الوصاية بتقوى الله تعالى، بعد بيان تلك الأحكام التي لا تخلو من مشقة

---

(١) محمد بن جرير الطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد ٤، (٦/ ٦٤).

للتحذير من التهاون فيها، فالأمر بالتقوى عام، والحج هو أجدر أفراد هذا العموم، لأن الكلام فيه.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فقد تصدر بقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾، اهتماماً بالخبر، وأن العلم به يقينى لا احتمال فيه، إذ لا حاجة فيه للنظر وإعمال الفكر. ولو اقتصر على قوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لحصل العلم المطلوب، لكن لما أريد تأكيد الخبر افتتح بالأمر بالعلم. وفيه كذلك تعريض بغفلة المخاطب عن أمر مهم[1]، فجمعت هذه المعانى لتبين أهمية التقوى، وأهميتها في ذلك السياق بالذات، فإن كان في بعض أحكام التقوى كأحجام الحج شدة على النفس رجاء سعادتها، فإنه لا توازى شدة العقاب حال التفريط فيها والتهاون في أدائها، فكان هذا الحض متناسباً تماماً مع بقية السياق.

يقول العلامة الألوسى في «روح المعانى»:

«﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، كما يستفاد من ترك المفعول، ويدخل فيه الحج دخولاً أولياً، وبه يتم الانتظام. ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لمن لم يتقه، أى استحضروا ذلك لتمتنعوا عن العصيان، وإظهار الاسم الجليل في مواضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة»[2].

فكان هذا الترتيب للأمر بالتقوى في هذا السياق بهذه المعانى، مما يحذر المرء أشد التحذير، ويخوفه أشد التخويف، من عدم التزام التقوى وأحكامها.

---

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢١١، ٢٣٠)، (٩/ ٣١٤). وقد فصلناها في قوله: (واعلموا أن الله مع المتقين).

(٢) العلامة الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٢٧). وقد سبقه بحروفه العلامة أبو السعود في «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٣). وصديق خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، مطبعة العاصمة القاهرة، ١٩٦٥م، (١/ ٢٣٠).

والموضع التالى هو قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وهذا موضع في الحث كذلك على التقوى والحض عليها، وهو في خاتمة آيات الحج من سورة البقرة، وهو معطوف على الأمر بذكره - سبحانه - في قوله: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ في نفس الآية، فهو من باب الأمر بالتقوى بعد الأمر بشيء من أوامر الشرع بما مر ذكره في بداية المطلب .

والقول في حذف مفعول ﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ والقول في ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾ سبق، والجديد الذي يحمل المؤمن على التقوى وهو قوله: ﴿ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ . وهذه الوصية بالتقوى وصية جامعة للراجعين من الحج أن يتقوا الله تعالى في سائر أحوالهم وأماكنهم، وألا يجعلوا تقواه خاصة بمدة الحج، كما كانت تفعله الجاهلية، فإذا انقضى الحج رجعوا يتقاتلون ويغيرون ويفسدون، وكما يفعله كثير من عصاة المسلمين عند انقضاء رمضان أيضاً. وإن أهم شيء يدل على الثبات على تلك التقوى المأمور بها هو دوام ذكره، الذي يتحصن به المرء من الشيطان، كما أنه المقصود من تلك العبادات.

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تحريض على التقوى وتحذير من خلافها.(١) يقول الإمام فخر الدين الرازى، في «التفسير الكبير»: «وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فهو تأكيد بالتقوى، وبعث على التشديد فيه، لأنه من تصور أنه لابد من حشر ومحاسبة ومساءلة، وأن بعد الموت لا دار إلا الجنة أو النار، صار ذلك من أقوى الدواعى له إلى التقوى».(٢)

---

(١) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٦٤).

(٢) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢٦). وانظر الألوسى «روح المعانى»، (ص ١٤٢). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٧).

وأما تقديم ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ فللاعتناء بمن يكون الحشر إليه[١] - سبحانه وتعالى. ويواصل الإمام الفخر كلامه، فيقول: «والمراد بقوله تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ أنه حيث لا مالك سواه ولا ملجأ إلا إليه، ولا يستطيع أحد دفعاً عن نفسه، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ [الانفطار: ١٩]».[٢]

وأما مناسبة ﴿ تُحۡشَرُونَ ﴾ للسياق دون غيرها، فقد ذكر ذلك العلامة الطاهر بن عاشور، في «التحرير والتنوير»، ونلخص ما يفيدنا، فيقول: واختير لفظ ﴿ تُحۡشَرُونَ ﴾ دون: تصيرون أو ترجعون؛ لأن الحشر - الذي هو الجمع بعد التفرق - يدل على المصير والرجوع، مع دلالة الاجتماع - مجتمعين كلهم - كما كانوا مجتمعين حين استحضار حالهم في هذا الخطاب، وهو اجتماع الحج، فذكر ذلك بالحشر العظيم».[٣]

ومعنى ذلك أن حشركم إلى الله تعالى يوم القيامة يذكركم به هذا الحشر الكبير في الحج في عرفات، ومزدلفة ومنى، وفى الطواف والسعى، إذ كل ذلك تنبيه مصغر ليوم الحشر الأكبر. والتقوى خير زاد يستعد به المرء لنجاته في هذا اليوم، فكان لفظ ﴿ تُحۡشَرُونَ ﴾ أنسب الألفاظ للسياق، مع الحض الشديد على تقوى الله.

وأما الموضع التالى فهو قوله تعالى: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. وهو موضع كذلك من عطف الأمر بالتقوى على أمر من أوامر الشرع وهو الأمر بتقديم الأعمال الصالحة، وهذه الجمل الكريمة في سياق أدب من آداب الإسلام، وهو

---

(١) انظر الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٤٢).

(٢) الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢٦).

(٣) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٦٤).

أدب إتيان النساء، وما ينبغي على المسلم أن يكون فيه من الفضائل، وهذا من إحاطة الإسلام بكافة تصاريف المرء وأعماله، لتكون في ظاهرها وباطنها، وسرها وعلانيتها على وفق ما يحب الله تعالى ويرضى.

وسياق الآية الكريمة: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي: أعدوا لأنفسكم، أي: لنفعها ما يدخر لكم من الثواب بالأعمال الصالحة في هذه الحياة الدنيا، لتجدوا غبطة ذلك:﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ عطف على الأمر بتقدمة الأعمال الصالحة، وهو تحريض يناسب السياق السابق في قضاء الشهوات، وخوف التفريط في القربات؛ تحريض على امتثال الشرع بتجنب المخالفة، فيدخل تحته التخلى عن السيئات، والتحلى بالواجبات والقربات، فمضمونها أعم من جملة ﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ﴾».(١)

ولقائل أن يقول: ما علاقة ذلك بآداب إتيان النساء؟

العلاقة أولاً: بما أشرنا إليه آنفاً من أن كل حياة المسلم يجب أن تخضع لله تعالى.

وثانياً: أن ذلك اهتمام بالحرص على الأعمال الصالحة، لئلا ينساها المرء حال انشغاله بلذاته وشهواته، أو ألا تكون شهواته ولذائذه هى الطاغية على وقته وجهده، والمسيطرة على فكره وعقله، فإن له معاداً لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، إلا تقوى الله تعالى.(٢)

---

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٤).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٤).

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ عطف على قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، وهو أسلوب جديد كذلك غير ما سبق من أساليب الحض على تقوى الله تعالى، وهو يحمل التحذير والترغيب في آن. يقول الطاهر بن عاشور، في «التحرير والتنوير»: «وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ يجمع التحذير والترغيب، أى فلاقوه بما يرضى به عنكم، كقوله: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ ، وهو عطف على قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾».[1]

هذا أسلوب قوى في حمل المؤمن على تقوى الله تعالى، عندما يوقن بملاقاة الله - جل وعلا، وأنه لا يمنعه منه حينئذ مانع، ولا يدفع عنه دافع.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾، وكونه أمراً بعد الأمر بالتقوى يحمل شدة التحذير، ومناسبة ذلك للسياق فلم أر من تكلم عن مناسبته، كما في الآية السابقة في قوله تعالى: (تحشرون).

وأقول - والعلم عند الله تعالى: إن ملاقاة الله تعالى تزيد على الحشر، فهى مواجهة الله تعالى لعباده بما عملوا، فإذا تيقن المرء أنه محشور وموقوف ومعروض على الله تعالى، ثم يواجه بما قدمت يداه، فلا شك أن ذلك يزيد من خوفه من ربه، وكذلك من الاستحياء منه، وإن عفا عنه - سبحانه - وهو الأهم في ملاقاة الله، وكان تصريح العلماء بشىء من ذلك. يقول الفضيل بن عياض[2]: «وسوأتاه منك وإن عفوت».[3] وهذا الكلام منبنٍ على حديث الرسول ﷺ: «ما

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٥). قال ابن عطية: «هو خبر يقتضى مبالغة في التحذير»، «المحرر الوجيز»، (١/ ٣٠٠).

(٢) هو أبو على الفضيل بن عياض أحد أئمة العباد الزهاد وهو أحد العلماء والأولياء انتقل إلى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام وتوفى رحمه الله عام ٨٧ هـ. انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ١٩٨).

(٣) لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلى، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ط. دار ابن

الرسول ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبين الله ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم... الحديث».[(١)] وهذا الأمر مما يستحى المرء منه، وفيه ما حرم الله تعالى ونهى عنه، فكان مناسباً أن يستحى المرء أن يأتى الله تعالى بما يستحى منه، فنبهه المولى - جل وعلا - بلقائه على ذلك، وحذره من الفضيحة بين يديه بمثل تلك الأمور، وغيرها، والله أعلم.

وهكذا نرى كيف جاء هذا الأسلوب حاضاً على التقوى حاثاً عليها، لينضاف إلى ما سبق وما سيلى من أساليب .

وقد أشار العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره للآية في «التحرير والتنوير»، إلى ان الجمل الثلاث رتبت على عكس حصول مضمونها في الخارج. يقول - رحمه الله: «فإن الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أولاً، ثم يعقبه الأمر بالتقوى ثم الأمر بأن يقدموا لأنفسهم، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء، وأعقب بالأمر بالتقوى إشعاراً بأنها هى الاستعداد، ثم ذكروا بأنهم ملاقو الله، فجاء ذلك بمنزلة التعليل».[(٢)]

وجاء قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعقيباً للتحذير بالبشارة على عادة القرآن الكريم من قرن الوعد بالوعيد.

وأما الآية التالية، فقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وهذا أسلوب آخر نضيفه إلى ما أوردناه سابقاً من أساليب

=

كثير، دمشق، بيروت، (ص٤٩٦).

(١) رواه البخارى (٣/ ١٤١٧)، ومسلم (٤/ ١٠٩)، وهذا لفظ مسلم.

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٣٧٥). وقد ذكر الفخر الرازى في «التفسير الكبير»، (٣/ ٣٥٧)، تعليلاً آخر. قال في نهايته: «وما أحسن هذا الترتيب»، فانظره.

الحض على التقوى والالتزام بها.

جاء هذا الأمر بالتقوى بعد نهي وأمر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

وهذه الآيات قريبة من الآيات المسوقة آنفاً، ولكنها في الطلاق والخلع والعدة، وما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف، والتي أمر المؤمنين فيها أن يتقوا الله تعالى، في أنفسهم ونسائهم وبيوتهم، وأن تكون تقوى الله هى المحرك لهم فيما يأتون ويذرون من هذه الأحكام وغيرها، وألا يكون الهوى والشهوة والانتصار للنفس ومضايقة الآخرين هو الحامل لهم على ذلك، فيكونون كالمستهزئين بهذه الأحكام، اللاعبين بأوامر الله - جل وعلا. ثم ذكرهم بمنّته - سبحانه - بإنزال الكتاب والحكمة، إذ أخرجهم من وهدة الجاهلية وضلالها، فاتقوا الله ولا ترجعوا إلى هذه الضلالات، بعد هدايتكم بنعمة الإسلام.

فبينت الآيات - أولاً - أن تقوى الله تعالى لازمة للمؤمن إذاً في كل أحواله، وأنها المقصد من كل أحكام الشرع، فلا يفتأ القرآن الكريم يأمر بها ويوصى، سلوكاً واتباعاً، ويبشر بها عاقبة ونتيجة.

وثانياً: كان هذا الأسلوب من أساليب الحض على التقوى مناسباً لهذا السياق، فعندما حذرهم من الاستهزاء بآيات الله بأى نحو كان أمرهم بالتقوى وحثهم عليها بأسلوب التوكيد بأنه بكل شيء عليم، فلا يغيب عنه شيء من أمورهم.

فهذا تحذير من المخالفة يترتب عليه عقابهم، وإلا بماذا يفيد العلم بمن استهزئ بآيات الله. يقول العلامة ابن عاشور، في «التحرير والتنوير»: «وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تذكير بالتقوى وبمراعاة علمهم بأن الله عليم بكل شيء تنزيلاً لهم في حين مخالفتهم بأفعالهم لمقاصد الشريعة،

منزلة من يجهل أن الله عليم لا يخفى عليه شيء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء لأن هذا العليم قدير».(١)

وهكذا ينضاف علم الله بخلقه تحذيراً جديداً باعثاً على التقوى.

وأما الآية التالية، فهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وإذا كان علم الله تعالى - في الآية السابقة - بظواهر أعمالهم، وخوافي نياتهم هو الحاث لهم على تقوى الله تعالى، فإن بر الله بهم هو الباعث لهم في هذه الآية الكريمة على تقوى الله في سرهم وعلانيتهم، وكفى بإعلامهم بأن الله ناظر إليهم زاجراً ورادعاً. يقول العلامة أبو السعود، في تفسيره «إرشاد العقل السليم»: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيجازيكم بذلك. وإظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتربية المهابة، وفيه من الوعيد ما لا يخفى».(٢)

ولتوضيح هذا التهديد الشديد الحامل على تقوى الله تعالى، نسوق شيئاً - مختصراً - مما ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي، في شرحه لحديث: «اتق الله حيثما كنت»، من كتابه «جامع العلوم والحكم». يقول - رحمه الله تعالى: وقال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي، وتظهرونها لي؟! إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟».

ويقول كذلك: «وهذا هو السبب الموجب لخشية الله في السر، فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر. وإلى هذا

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٤٢٥).

(٢) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٧٠).

المعنى الإشارة في القرآن الكريم بقوله - عز وجل. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]».

إلى أن يقول - رحمه الله: «وسئل الجنيد[١]: بما يستعان على غض البصر، قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظره. وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل: خلوتُ، ولكن قل: على رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب».[٢]

فإذا ما تيقن المرء أنه تحت بصر الله، لا يخفى منه شيء على الله، دعاه ذلك وحمله على التقوى والالتزام بأمور الشرع والاستحياء والخوف من مخافتها، وإجلال الله تعالى أن يراه حيث نهاه أو يفتقده حيث أمره.

والشاهد التالى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وهذا من بديع معنى الحث على التقوى والحض عليها، إذ نصر الله للمؤمنين من أعظم ما يشكرون عليه ربهم - سبحانه وتعالى، لأن النصر من عند الله - جل وعلا. فجعل الله تعالى تقواهم له - سبحانه - هو شكرهم الذي يتوجهون به إليه، ويقومون له به.

يقول الإمام ابن جرير الطبرى في «جامع البيان في تفسير القرآن»، عند تفسير هذه الآية الكريمة:

---

(١) شيخ مذهب التصوف، وهو سيد الطائفة، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، ت ٢٩٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء، (٢/ ١٣٧).

(٢) انظر ابن رجب «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٩-٤٠٨).

«عن ابن اسحاق[١]: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾، يقول: وأنتم أقل عدداً وأضعف قوة، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: فاتقون فإنه شكر نعمتى».[٢]

أى أن تكون التقوى شكراً لله على نعمه، وأن يكون ذلك المعنى بهذه الصياغة من أساليب الحض على التقوى، فذلك مما يحتاج إلى توضيح.

أما الكلام على الشكر وتوضيح الكلام فيه، فقد ذكره كل من تكلم في هذه المقامات من مقامات الإيمان، كأبى حامد الغزالى في «الإحياء»، وابن القيم في «مدارج السالكين»، وابن أبى الدنيا في كتاب «الشكر»، وابن رجب الحنبلى في «جامع العلوم والحكم»، وكل من تكلم في التصوف، وغيرهم من شراح السنة، ومفسرى القرآن الكريم.

ونختصر من أقوالهم اختصاراً، ونركز على كلام الحافظ ابن رجب، لأنه الأنسب لما نحن فيه.

فنختصر مقدمة الشكر - أولاً - من كلام الإمام ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين شرح منازل السائرين».[٣] يقول - رحمه الله تعالى - ما ملخصه: الشكر منـزلة من أعلى المنازل، وهى فوق «الرضا» وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: شكر وصبر. وقد أمر الله تعالى به، فقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤]، ونهى عن ضده، فقال تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا

---

(١) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، محدث، ومؤرخ، توفي سنة ١٥٠هـ. انظر المزي «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٤٠٥).

(٢) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٣، (٤/ ٤٩).

(٣) ابن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، (٢/ ١٧٨:١٧٩): منـزلة الشكر.

تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وأثنى على أهله، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]، وجعل الشكر غاية خلقه وأمره، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]، ووعد أهله بأحسن جزائه، فقال: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان: ٣١]، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فقد سمى نفسه - سبحانه: «شاكراً» و«شكوراً»، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبةً للشاكرين وفضلا.

يقول الإمام ابن رجب، في «جامع العلوم والحكم»، ما ملخصه: ولكن الشكر على درجتين: إحداهما: واجب، وهو أن يأتي بالواجبات، ويجتنب المحارم. وهذا لابد منه، ويكفى في شكر هذه النعم. والدرجة الثانية من الشكر: الشكر المستحب. وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات، وهذه درجة السابقين المقربين، وهى التي أرشد إليها النبى ﷺ.

كان الأسلوب القرآنى الكريم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ من أعظم أساليب الحث على التقوى والحض عليها، عندما يعلم المرء أنه بسلوكه مسالك التقوى المختلفة يصل إلى هذه الدرجة العلى من القرب والاصطفاء والأجر عند الله تعالى، وذلك في الدنيا والآخرة.

ونعود لسياق هذه الآية الكريمة، لنختم الكلام عليها، حيث يقول الحق تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يقول العلامة أبو

السعود، أثناء تفسيره للآية، في تفسيره «إرشاد العقل السليم»: «وفى ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم؛ أى إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى راجين أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل»[(١)].

والآية التالية قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

والأمر بالتقوى هنا معطوف على أمر ونهى قبله، وهو أمر عام بالتقوى، يفيد التقوى في كل الأحوال والأمور، وخاصة ما تقدم ذكره - من باب الأولى - وهو التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، حتى ولو كان ذلك موجهاً ضد الكفرة المشركين الذين صدوكم عن المسجد الحرام، فلا يحملنكم بغضهم على الاعتداء بطريق التشفى.

ولما كان هذا حملاً للمؤمنين على هذه الدرجة العالية من الأخلاق الفاضلة، ولو مع الكفرة الذين آذوهم واعتدوا عليهم، كان لابد أن يأتى مع الأمر بالتقوى تحذير شديد يمنع من مخالفتها، ويحمل المؤمنين ويحثهم على التزامها، فجاء قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ تعليلاً لهذا الأمر بالتقوى، أى: إن الله يعاقب من لا يتقيه لا محالة، لذا أكد هذا الخبر بإن والجملة الاسمية.

ونلاحظ كذلك أنه أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة في قلوب المؤمنين، إذ السياق بدلاً من قوله: إنه شديد العقاب. وأفاد إظهار اسم الجلالة كذلك تقوية استقلال الجملة، لتصير تذييلاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾،

---

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤٠٩).

ليحفظها المرء منعاً له من تقحم الحرام، أو التفريط في أوامر الله تعالى.[1] خاصةً وقد نزلت الآية الكريمة في المشركين الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، فلما أن تمكن منهم المسلمون حتى وصلهم الأمر بالعدل، وترك التشفى والظلم، مع ما في ذلك من مخالفة النفس ودواعى الطبع من أن ينتصر المرء ممن ظلمه، وينـزل به شيئاً مما فعل به، ولصعوبة الموقف في هذه الأحوال على حد العدل جاء هذا التذييل الشديد، إن عاقبتم بشدة فجرتم ولم تعدلوا، فاحذروا شدة عقاب الله تعالى.

والآية التالية قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [المائدة: ٤].

وهو كذلك من مواضع عطف الأمر بالتقوى على أمر من أوامر الشرع، فقد نزلت الآية الكريمة في سياق سؤال الصحابة - رضى الله عنهم - عما يحل لهم من الصيد، فأحل الله لهم أن يأكلوا مما أمسكت عليهم الجوارح المعلمة إذا ذكروا اسم الله عليه. ثم عطف الأمر بالتقوى على ذلك: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، فأمرهم بتقواه أمراً عاماً، وبالأخص ما يتعلق بسياق الآية، حتى لا يخرجوا عما أباح لهم من الأكل، أو يتجاوزا ما حده لهم فيه، أو أن يتساهلوا في شيء من أمور الدين حال صيدهم، لأن ذلك مما تميل إليه النفس فتخرج به إلى هواها، وإلى مخالفة الرب - سبحانه، مع ما في الالتزام بتلك الأمور من مصالح لهم.

ثم جاء الحث على التقوى بأسلوب شديد التأثير، يحض على التقوى حضاً،

---

(١) وانظر لما سبق: العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٦).

تنبيه: هذه الآية قبل نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ ﴾ [التوبة: ٢٨]، انظر: العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ٨٨).

ويحمل عليها حملاً، وهو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، ليزيدنا معنى جديداً عما سبق من أساليب، فعلاوة على مجيء الأسلوب القرآنى مؤكداً للخبر بإن والجملة الاسمية، ومظهراً للفظ الجلالة في موضع الإضمار، فقد جاء قوله سريع الحساب ليهددهم ويتوعدهم بالحساب وبسرعته، كأنه يقول: إن معاقبتكم عند المخالفة أسرع شىء يلحقكم، إذ هى في إثر المخالفة تواً، فانظروا نجاة أنفسكم من ذلك، وهو الإسراع بتقوى الله والتزام أوامره، والوقوف عند حدوده. يقول في «روح المعاني» العلامة محمود الألوسى: «﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أى: سريع إتيان حسابه، أو سريع إتمامه إذا شرع فيه، فقد جاء أنه - سبحانه - يحاسب الخلق كلهم في نصف يوم، والمراد على التقديرين أنه - جل شأنه - يؤاخذكم على جميع الأفعال حقيرها وجليلها، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، وتعليل الحكم..».(١)

ويضيف العلامة الألوسى: «ولعل ذكر هذا إثر بيان حكم الصيد لحث متعاطيه على التقوى، لما أنه مظنة التهاون والغفلة عن طاعة الله تعالى، فقد رأينا أكثر من يتعاطى ذلك يترك الصلاة ولا يبالى بالنجاسة، والمحتاجون للصيد - الحافظون لدينهم - أعز من الغراب الأبيض، وهم مثابون فيه».(٢)

وقد جمع الإمام ابن عطية في «المحرر الوجيز» تفسير الآية.(٣)

وأيا كان موعد الحساب، فهو تهديد شديد يسوق على التقوى لمن تدبره وخاف معانيه.

وهكذا تزيدنا الأوامر بالتقوى أساليب جديدة في الحض عليها كلما توغلنا

---

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٠).

(٢) المصدر السابق، (٦/ ٩٥-٩٦).

(٣) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٢/ ١٥٨).

مع تلك الآيات، التي يحسبها المرء بادى الرأى أمراً واحداً، لتعلمنا بقيمة تقوى الله تعالى، وأهميتها وجدارة المرء أن يبذل لها ليصير من أهلها.

والآية التالية هى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المائدة: ٧].

جاء هذا القول الكريم معطوفاً على قوله - جل وعلا: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾.

أى جاء الأمر بالتقوى معطوفاً على أمرهم بتذكر نعم الله عليهم، وبأمرهم أن يذكروا الميثاق، وهو العهد بينهم وبين ربهم، حين قالوا سمعنا وأطعنا. ثم ذيل بالحض على التقوى بمعنى جديد، ولفظ جدى يضاف إلى ما سبق من أساليب الحث على التقوى وامتثالها، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

ولننظر في سياق الآية لتوضيح ذلك:

ذكَّرت الآية المؤمنين بنعمة الله عليهم، وهى نعم مضت ليست نعمة واحدة، وإنما المراد جنس النعمة، وأعلاها الإسلام، ثم العز والتمكين في الأرض، وذهاب أمور الجاهلية، وصلاح حال الأمة، إلى غير ذلك من النعم التي أجملتها هذه اللفظة المباركة الموحية. وإذ ذكرهم بالنعم فإنما يقصد بالتذكير شكر الله تعالى، والوفاء له بالعهد، والاستقامة على ذلك، لئلا يخرجوا إلى كفران تلك النعم فيحرموها. ثم ذكرهم بعهده الذي عاهدهم به من بيعتهم للنبى ﷺ على الإسلام، وعلى ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، وذكرهم ببيعة العقبة الأولى والثانية، وببيعة الرضوان، كل هذه العهود وغيرها التي قالوا فيها: سمعنا وأطعنا. وكذلك تحمل الآية معنى العهد الذي عاهدهم به، أى: وفاؤه لهم - سبحانه - إذا وفوا بما عاهدوا الله عليه،

فكان من استعمال العهد في حقيقته ومجازه.(١)

وعقب بعد ذلك بالأمر بالتقوى، لأن النعمة تستحق أن يشكر مسديها، وأن العهود يجب أن يوفى بها، وشكر الله تعالى والوفاء بعهده هما تقواه، وهو مناسب أشد المناسبة لهذا السياق الكريم.

وجاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ليبين هذه المناسبة في الآية، فيحمل على التقوى ويحث عليها، لأن هذا التذييل جاء تعليلاً للأمر بالتقوى، أي: واتقوا الله لأنه عليم بذات الصدور، فلا تخفى عليه منها خافية، فلا يطلع منكم على تقصير في شكر نعمه، أو إضمار لعدم الوفاء بعهده. فهو تحذير من إضمار شيء من المعاصي، ومن توهم أن الله لا يعلم مكنونات صدورهم ودواخلهم، فيحذروه أشد الحذر. وإذا كان الله مطلعاً على تلك الخفيات، فمن باب أولى أن يطلع على ما ظهر منهم.

وإذا كان الأمر بالتقوى أمراً عاماً، فيدخل فيه المتقدم دخولاً أولياً، أي: فليتقوا الله في كل أمورهم، وبخاصة ما كان من شكر نعمه والوفاء بعهده.(٢)

وقد أشار الإمام ابن جرير لمثل ذلك.(٣)

---

(١) سمعنا بمعنى: علمنا، أي: علمنا وأطعنا، أو بمعنى: امتثلنا. وتكون «وأطعنا» توكيد لها، وقد جاء ذلك في معنى سمع قوله: بايعنا على السمع والطاعة.

وانظر لما سبق العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٣٤:١٣٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٣). والألوسى «روح المعانى»، مجلد٤، (٦/ ١٢١:١٢٢).

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٣٤:١٣٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٣). والألوسى «روح المعانى»، مجلد٤، (٦/ ١٢١:١٢٢).

(٣) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان، مجلد٤، (٦/ ٩٠:٩١).

وهكذا يأتى أمر القرآن الكريم بالتقوى في المواضع التي تحتاج إلى التقوى.

وأما الآية التالية فهى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

وهذه الآية الكريمة مما عطف فيه التقوى على الأمر: ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ و﴿ فَٱنتَهُوا۟ ﴾. وهى وإن كانت نازلة على سبب خاص في غزوة بنى النضير، إلا إنها آية عامة، وفيها جماع صلاح المؤمنين، لذا أمرهم بتقوى الله تعالى الحاملة لهم على عدم تفريطهم فيما آتاهم أو الوقوع فيما نهاهم، لأنه ما أمرهم ﷺ بشىء إلا بشىء يقربهم إلى الله، وما نهاهم عن شىء إلا وفيه بعدهم عن الله - سبحانه وتعالى، فكانت مصلحتهم في الأولى والآخرة في قبول أمره والانتهاء عن نهيه، فطاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصيته: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، لأنه ﷺ كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣-٤]. ومن ثم كانت عاقبة تلك الطاعة له ﷺ الهداية: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور: ٥٤]، والرحمة: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦]، والفوز في الآخرة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

فلا غرو أن جاء النكير بالتشديد على مخالفته ﷺ فقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]. فكان متناسباً إذاً أن يأتى أسلوب الحض على هذه التقوى بقوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ بتأكيد الخبر، وإظهار العقاب الشديد لمن يخالف أمره ونهيه ﷺ.

والآية أبلغ رد على من يريد الاحتكام إلى القرآن الكريم لا غير، إذ ذلك ليس من تقوى الله، لأنه في النهاية رد للقرآن والسنة جميعاً. وقد ذكر معظم المفسرين - عند تفسير تلك الآية - أحاديث لزوم اتباع النبى ﷺ وأن ذلك من

تقوى الله تعالى.(١)

وختمت الآية - كما أشرنا - بهذا الأسلوب من أساليب الحض على التقوى:﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾، ليبين مغبة مخالفة أمره ﷺ ، وليخوفهم ويحذرهم من ترك التقوى الحاملة لهم على ذلك. لذا يقول الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير»: «وعطف على هذا الأمر تحذير من المخالفة، فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله ﷺ ، وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات يدل على أن التقوى هى امتثال الأمر واجتناب النهى، واتقوا عقاب الله لأن الله شديد العقاب، أى لمن خالف أمره واقتحم نهيه».(٢)

وأما الآية التالية، فهى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

ونختم بهذه الآية الكريمة، وهى الوحيدة التي جاء فيها أمر معطوف على الأمر بالتقوى، ثم جاء الأمر بالتقوى مرة أخرى معطوفاً على هذا الأمر. ثم ختمت بهذا الأسلوب المناسب للسياق من كون الرب - جل وعلا - خبيراً بمن يتقى ربه ومن لا يتقيه، وسيجزى كلاً بما يستحق. وهذه الآية الكريمة هى وأمثالها الأصل والدليل لمبدأ محاسبة النفس قبل ملاقاة الحساب يوم القيامة.

كان الأمر بالتقوى إذاً الحاث للمخاطبين بالإيمان على تلك المحاسبة، وكان

---

(١) انظر صديق خان «فتح البيان»، (٩/ ٣٤٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٨٧). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣٣٦). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٨/ ٧١).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٨٧).

الأمر بالتقوى الثانى هو الحامل لهم على ملازمة ذلك والاستقامة عليه، خاصةً أن الله تعالى قد قرب إليهم يوم القيامة كأنه غد، ليسهل عليهم مدة المجاهدة اليسيرة في هذه الحياة الدنيا، مع ما يترتب على ذلك من النعيم الخالد المقيم.

والغد أقرب الأيام في حياة المرء، أى أن يوم القيامة أقرب الأيام، يعنى أن أقرب أيام المرء ليكون عند الله، فماذا قدم لهذا الغد؟! ومن ثم جاءت لفظة (غد) منكرة لتهويل ذلك الغد، وخطر شأنه بما لا يدركه أحد، أى غد لا يدرك كنهه، لغاية عظمته، وكنه ما ينتظر الناس فيه من أهوال وكرب.(١)

هذا وجه تنكير لفظة (غد)، فما وجه تنكير (نفس)؟ يجيب الزمخشرى على هذا السؤال، ومثله عدد من المفسرين، فيقول: «أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك».(٢)

أى أن النفوس الناظرة في أمر آخرتها، وما هى مقدمة عليه من أمر الله، قليلة، وإن كانت كل نفس مطالبة بذلك، لأن النكرة في هذا السياق من صيغ العموم.

يقول العلامة الألوسى، في «روح المعانى»، ما ملخصه - بعد أن نقل كلام الزمخشرى: «ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وفيه حث عظيم على النظر وتعيير بالترك، وبأن الغفلة قد عمت الكل، فلا أحد خلص منها، فهو كما في الحديث: «الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة»، لأن الأمر بالنظر وإن عم لكن المؤتمر

---

(١) انظر الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٨٤). والألوسى «روح المعانى»، (٢٨/ ٨٦-٨٧).

(٢) الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٨٤). وممن تبع الكشاف بألفاظه: الفخر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد١٥ (ص٤٨٤). وصديق خان «فتح البيان»، ويقول: «وفى النفس - التنكير - للتقليل أو التعريض بغفلة كلهم عن هذا النظر الواجب»، (٩/ ٣٦١). وأبو حيان «البحر المحيط»، (٩/ ١٤٨)، ونسبه للزمخشرى. والألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٨/ ٨٧).

الناظر أقل من القليل».(١)

وقد تكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى، لإظهار لزومها أولاً، والثبات عليها آخراً، لخطر هذا الأمر وعظيم شأنه. وسواء تكرر ذلك توكيداً للأمر السابق، أو تأسيساً لأمر جديد بالتقوى، فهما يظهران أهمية الذي اكتنفه الأمر بالتقوى، وأهمية التقوى للقيام بهذا الأمر.

وجاء قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ تعليلاً للحث على التقوى في الموضعين، مع إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار، ليكون أوقع في نفوس المخاطبين، مع استقلال الجملة بدلالتها.(٢)

نختم بذلك أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها، بما اتسع المقام، وهو إشارة لما وراء ذلك مما يمكن أن يقف عليه الباحث في أمر التقوى، وهو تنويه بما كررنا القول به من قبل لقيمة التقوى، حتى تنوعت أساليب الأمر بها والحض عليها بما أتينا بشيء من تفصيله.

ثانياً: النواهي المصاحبة للأمر بالتقوى:

كان فيما ذكرنا في فصل «أساليب الأمر بالتقوى» أن الأمر بالتقوى قد يأتي

---

(١) العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٨/ ٨٧). وانظر كذلك الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ١١٠) وما بعدها.

والحديث أخرجه البخارى، ومسلم (٢٣٢)، الفضائل، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد في المسند. وهو في صحيح الجامع (٢٣٢٨)، (جـ٢)، ط. المكتب الإسلامى، تحقيق ناصر الدين الألبانى.

يقول الإمام النووى في شرح الحديث: «بل معنى الحديث: أن الزاهد في الدنيا الكامل في الزهد فيها، والرغبة في الآخرة قليل جداً، كقلة الراحلة في الإبل. هذا كلام الأزهرى، وهو أجود من كلام ابن قتيبة»، النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٤٢).

(٢) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ١١٢).

معطوفاً على أمر من أوامر الشرع، أو معطوفاً على نهي، وأشرنا إلى أمثلة، ثم أفردنا الأوامر بالكلام. وجاء الآن دور الكلام على النواهي المعطوفة على الأمر بالتقوى، لأنها تبين كذلك مقصود الشارع عندما ينهى عن شيء، ثم يأمر بتقوى الله في الالتزام بهذا النهي، أو العكس. وتوضح أيضاً أن اجتناب النواهي من شرائط تقوى الله تعالى. وهاكم تلكم المواضع:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة: ٥٧].

٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

٣. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات: ١].

٥. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١٢].

نبدأ بالموضع الأول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

وإذا كانت الأساليب السابقة في الحض على التقوى والتزامها يستخدم فيها

صفات الله تعالى وأسماؤه على إجلاله والخوف منه، فإن الأسلوب الجديد يخاطب المؤمنين من ذوات أنفسهم، بإيمانهم الذي يدعون، وبالعكس منه كذلك، كأنه يقول: إن المؤمنين لا يفعلون ذلك الذي يتنافى مع إيمانهم، أو مع كمال إيمانهم بالله.

والأمر بالتقوى هنا معطوف على نهى، على خلاف ما سبق من العطف على أمر أو أمر ونهى. فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية المستهزئين بدينهم من أهل الكتاب المشركين، ومن الكفار الذين لا كتاب لهم، ثم أمرهم بتقوى الله الباعثة لهم على ذلك، لأن التقوى هى الكفيلة بقطع تلك الولاية المحرمة بين المؤمنين وبين أولئك المجرمين.

ومصداق الآية واقع شاهد، فما والى المسلمون أعداء دينهم الصادقين لعباد الله عنه، المستهزئين به إلا من قلة تقواهم التي يخشى بها على إيمانهم ذاته. لذا كان الأسلوب متناسباً مع السياق أعظم التناسب مما لو قال مثلاً أن الله سميع عليم، لأن القضية قضية إيمان وكفر، خاصة وقد ذكرهم قبل ذلك بأن من يتخذ أولئك المشركين أولياء فهو منهم فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١]، أى ليس مؤمناً.

أما الموضع الثانى، فهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وإذا كان الإيمان في الآية السابقة معلقاً بالتقوى - سواء كان في أصله أو في كماله - فإنه ينتفى أصله أو كماله بانتفائه، مما يحث المرء على التقوى خوفاً من ذهاب إيمانه، فإنه في هذه الآية الكريمة قد أمرهم بالتقوى معللاً ذلك بإيمانهم بالله - جل وعلا، فإن ربهم الذي آمنوا به يستحق منهم التقوى - سبحانه، وكذلك إيمانهم بربهم ﷻ إنما يظهر ويتحقق بتقوى الله - سبحانه وتعالى، لذا كان

هذا الأسلوب جديداً في حث المؤمنين على تقوى الله، بإظهار تلك الرابطة بينهم وبين ربهم، والتأكيد عليها.

وهذا ما يؤكده العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٨]. فكل آية - كما نرى - فيها أمر بتقوى تلهمنا معنى جديداً يستحث قلوب المؤمنين وخطاهم إلى تقوى ربهم، خاصة ما يعرض من أوامر أو نواهٍ في سياق الأمر بالتقوى في نفس الآية.

وسياق هذه الآية والتي قبلها يبين تمام الاتساق بين حكم الآية والأمر بتقوى الله وعلته، فقد نهى - سبحانه - المؤمنين عن تحريم ما أحل، وعن الاعتداء، ثم أمرهم بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، وعطف على ذلك الأمر بالتقوى لله الذي هم به مؤمنون.

فكأنه يقول: إن الله الذي أنتم به مؤمنون هو الذي يحرم ويحلل، وليس لأحد غيره ذلك، فاتقوا الله ولا تحرموا ما أحل لكم، واتقوا الله ولا تعتدوا إلى ما حرم عليكم، فإن الذي أنتم به مؤمنون قد نهاكم أن تحرموا طيباته وتنقطعوا عن الحياة وتترهبنوا، فاتقوه ولا تفعلوا ذلك. وكلوا من طيباته التي رزقكم، واتقوه كذلك أن يصرفكم ذلك عن عبادتكم وذكركم، واتقوه أن يشغلكم ذلك عن شكره، واتقوه أن يكون ذلك سبب غفلتكم عن آخرتكم ومعادكم، أو غفلتكم عن المنعم بذلك كله عليكم. فالذى أنتم به مؤمنون يريد أن يرى أثر إيمانكم في التزامكم حدوده، واتباعكم لهدى نبيكم ﷺ. فالله تعالى يريد أن تظهر عليكم حقائق دعواكم بأنكم به مؤمنون.

وهى مسألة من خصائص الإيمان، التحليل والتحريم وطاعة الله تعالى، فكان مناسباً أن يذكرهم بالذى هم به مؤمنون.

والموضع الثالث قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ

أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

هذه الآية الكريمة جاءت تنهى عن أكل الربا، وقد وردت بخطاب المؤمنين، لأن من شأن الإيمان أن يحمل صاحبه على الاستماع لأوامر الشرع، والاستجابة لها، فكأنها تستثير فيهم تلك العاطفة التي تبعث على الاهتمام بما يلقى عليهم من الشرع، والإسراع إلى تنفيذه. والنهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة ليس معناه جواز أكله بغير مضاعفة، لأنه قد ورد النهى مطلقاً عن أكل الربا في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وإنما ربا الأضعاف المضاعفة هو المعلوم عندهم في الجاهلية، فنهاهم عنه.(١)

والآية تبين وتؤكد أن ترك الكبائر من شرائط التقوى، لذا قال في الأولى: (لا تأكلوا الربا... واتقوا الله...)، أى: اتقوا الله في كل أحوالكم وأعمالكم، وبخاصة أكل الربا، فإن أكله دليل على عدم تقوى الله، بل دليل على دخول أكله تحت لعن الله له، وطرده من رحمته. وفى الآية الثانية أمر المؤمنين بتقوى الله أولاً، ثم عطف عليه الأمر بترك الربا، لتكون تقوى الله والخوف منه هو الباعث على ترك الربا، ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، حضاً لهم على ذلك، وتبياناً لقيمة التقوى، فإنها إذا لم تحملهم على ذلك دل على عدم إيمانهم، فيثير فيهم بهذا الأسلوب المسارعة لإظهار الإيمان، وذلك بأن يبادروا إلى الإلتزام بما يبين تقواهم، وهو أن يذروا كل ربا بقى عليهم. وفى الآية الأولى قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وهو حض آخر لهم على ترك الربا المضاعف الذي يظنون به فلاحهم بكثرة أموالهم، فدلهم على ما يطمئنهم على فلاحهم الحق بأنه ترك ذلك، فكان هذا الأسلوب تثبيتاً لقلوبهم وتقوية ليقينهم، وأن الحرام لا

---

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٠٤).

فلاح معه، وأن التقوى سبب الفلاح في الأولى والآخرة.

أما الموضع الرابع، فهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ ﴾ [الحجرات: ١].

وهذه الآية الكريمة من آيات الآداب التي ساقها القرآن الكريم، تعليماً للمؤمنين وتأديباً لهم في معاملتهم لله ورسوله ﷺ. وقد تصدر الخطاب فيها بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه رادع للمحافظة عليه، ورادع عن الإخلال به.[1]

وقوله: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي: لا تتقدموا بين يدى الله ورسوله، لا تقطعوا أمراً وتجزموا به وتجترئوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله ورسوله، ويأذنا فيه. وحاصله النهى عن الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. وهى استعارة تمثيلية بتشبيه حال من يفعل فعلاً دون إذن من الله ورسوله بحال المتقدم على من يلزمه متابعته تصويراً للهجته وبشاعته بصور المحسوس، كتقدم الخادم بين يدى سيده بدون مصلحة. وهذا كله يؤكد أن التقوى ألا يفعل ذلك الفعل كله.[2]

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»:

«وعطف (واتقوا الله) تكملة للنهى عن التقدم بين يدى رسوله ليدل على أن ترك إبرام شيء دون إذن الرسول ﷺ من تقوى الله وحده، أى ضده ليس من التقوى».[3]

---

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ١٩٩).

(٢) المصدر السابق، (١٤/ ٢٠٠).

(٣) العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢١٩).

وكأن العلامة ابن عاشور لما قال: التقدم بين يدى الرسول، ولم يقل بين يدى الله ورسوله، كأنه نظر إلى تفسير آخر في الآية، وهو أن قوله: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أى: لا تقدموا بين يدى الرسول ﷺ، لأنه تقدم بين يدى الله تعالى، إذ النبى ﷺ هو المبلغ والواسطة عن الله تعالى فكان التقدم بين يديه تقدماً بين يدى الله تعالى. وإنما ذكر الله تعالى في الآية لتعظيمه ﷺ، والإعلام بجلالة محله عند ربه، ومزيد اختصاصه به.[١]

وللآية الكريمة عدة أسباب للنـزول، ذكرها المفسرون، تبين في جملة ما بينت كيفية تأدب الصحابة بهذه الأداب والتزامهم بها، منهم أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما. مما يدل على ما ينبغى لمن دونهم من تقوى الله تعالى والتأدب بهذا الأدب.[٢] وختمت الآية بما يناسب سياقها من أن الله سميع عليم، وهو علة النهى عن التقدم بين الرسول ﷺ، وعلة الأمر بالتقوى لسمعه وعلمه الموجب لمراقبته وخوفه المؤذن بعذاب من يخالف ذلك. وقد أظهر الاسم الجليل في كل الإضمار بدلاً من أنه سميع عليم، لتربية المهابة والإجلال في نفوس المكلفين.

وعلى نفس النهج جاءت الآية الأخيرة، وهى تكمل لنا تلك الصورة السابقة من الآداب، وهى قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ٨].

أعيد النداء مرة أخرى، ومعناه كما ذكرنا في الآية السابقة، ولكن تكراره هنا لاختلاف الغرض والاهتمام به، وذلك أن المنهيات المذكورة من جنس

---

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ٢٠٠).

(٢) انظر السابقين، وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٢٠٥- ٢٠٦).

المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها ليدفعها، ومن ثم لم يكن الدافع لها إلا تقوى الله تعالى. وإذا كان الأدب في الآية السابقة مع الله ورسوله ﷺ، فإنه هنا مع المؤمنين الغائبين عن المرء بوجه خاص، مما يزيد من أهمية التقوى الباعثة على التنـزه عن مثل هذه الأخلاق، إذ ليس ثم إلا التقوى.

ونشير سريعاً إلى هذه الاخلاق المضادة للتقوى لزوم تفسير الآية. أول هذه الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة، والتي تنشأ عنها الغيرة والمكائد والاغتيالات والطعن في الأنساب والمبادأة بالقتال، وما نجمت العقائد الباطلة إلا من الظنون الكاذبة، قال تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».(١)

ولما جاء الأمر باجتناب كثير من الظن، وهو المتعلق بالناس، دل على أن الظنون السيئة غير قليلة، فوجب التمحيص والفحص، لعدم اتهام الناس وحفظ حرماتهم وأخذهم بالظنة، فأعلم السامع بهذا الاستئناف البياني: ﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٌ ﴾، وهو كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون ليعرضوا ما تقضى إليه على أحكام الشريعة، أو سؤال أهل العلم ليدفعوا المحرم منها، وهو دليل على أنه ليس كل الظن محرماً، ولم نؤمر باجتنابه، وأما اجتناب الظن فبتعاطى وسائل الاجتناب، فإن الظن يحصل في خاطر الإنسان اضطراراً، فلا يعقل التكليف باجتنابه، وإنما يراد بالأمر التثبت فيه وتمحيصه والتشكك في

---

(١) رواه البخارى (٦٠٦٤)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١٠/ ٤٨١). ورواه مسلم (٢٥٦٣)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٦١).

صحته إلى أن يرجح أحد طرفيه.(١)

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ فهو كذلك من تلك المنهيات التي تضاد التقوى، ويجب على المسلم اجتنابها، وهى من آثار الظن، لأن نفس الظان تدعوه إلى تحقيق ما ظنه سراً فيسلك طريق التجسس، ووجه النهى عنه أنه ضربٌ من الكيد والتطلع على العورات. وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوءه فتنشأ عنه العداوة والحقد، وذلك ثلم للأخوة الإسلامية. وإذا ترتب على التجسس مفسدة عامة صار كبيرة من الكبائر، كالتجسس على المسلمين لمن يبتغى الضر لهم. وليس من المنهى عنه ما يجر نفعاً للمسلمين كالتجسس على الأعداء.

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾، والاغتياب أن يذكر الغائب بما يكره، والاسم الغيبة بكسر الغين، وإنما قال: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ دون أن يقال: اجتنبوا الغيبة لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾، وقد مثلت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت، والتمثيل مقصود منه استقطاع الممثَّل وتشوبهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين؛ لأن الغيبة متفشية في الناس.

والاستفهام في (أيحب أحدكم..) للتقرير لتحقق أن كل أحد يقر بأنه لا يحب ذلك، بل يشمئز منه ويقذره، فجاءت فاء الفصيحة لتفيد الإلزام بما بعدها، أى إذا أقررتم بكراهة الممثل به فاكرهوا الممثل كذلك، وهو الغيبة وفى هذا الكلام مبالغات أشار إليها المفسرون تفيد تبشيع هذه الصورة المنكرة، حتى عدت عند جمهور أهل العلم من الكبائر، وإن استثنوا مصلحة الشهادة والرواية

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥١-٢٥٣).

أو المشورة في مخالطة أو مصاهرة.(١)

لا شك بعد ذلك كله أن يكون من شرائط التقوى ترك الكبائر فجاء للأمر بالتقوى معطوفاً على الجمل السابقة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ ليكون كالتذييل لها، إذ التقوى هى جماع الاجتناب والامتثال، فمن كان سالماً من التلبس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بشىء منها في المستقبل، ومن كان متلبساً بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبس به منها.

وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييل للتذييل، لأن التوبة تكون بعد التلبس بالإثم فقيل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ ﴾، وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتقى، فالرحيم شامل للجميع.(٢)

فكان هذا الأسلوب فاتحاً لباب الرجاء الباعث للناس على تقوى الله - جل وعلا - متناسباً مع السياق.

اتضحت بهذه الصور التي أوردناها كيف أن الأمر بالتقوى معطوفاً على تلك النواهى دليل على أنها مخالفة للتقوى يشترط نفيها والتنـزه عنها حتى يدخل المؤمن في زمرة المتقين.

ونختم بهذا الموضع، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]:

وهو كذلك من عطف النهى على الأمر بالتقوى، أى اتقوا الله حق تقاته،

---

(١) انظر الإمام محمد بن أبى بكر بن أيوب بن قيم الجوزية «التفسير القيم»، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية بيروت، ص٤٤١)، والطاهر بين عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥٥-٢٥٦)، والألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ٢٣٨-٢٤٢).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٥٧).

ونهاهم ألا يموتوا إلا وهم مسلمون. والآية كما ذكر المفسرون معناها أن يطاع الله فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا التفسير منقول صحيحاً عن ابن مسعود ﷺ.[١] وأما النهى عن أن يموتوا إلا وهم مسلمون فإن معناه المداومة على هذه التقوى إلى المات، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فيوشك بمداومتهم على التقوى أن يثبتهم الله عليها حال حياتهم فيأتيهم الموت وهم كذلك.

والآية تشير إلى لزوم المرء التقوى في كل أحواله، لأنه لا يعلم متى يموت. ونلاحظ أنها أمرت بأن يتقوا الله حق تقاته، ليست أى تقوى، لأن هذا البذل والاهتمام لأمر الآخرة سبب من أسباب التوفية على الإيمان.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الآية منسوخة[٢] بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [التغابن: ١٦]، والصحيح الذي عليه المحققون أن ليس ثم نسخ في الآية، إذ تقوى الله حق تقاته لاشك منوطة باستطاعة العبد[٣]، وكأن المطلوب أن يبذل المرء جهده وما يستطيع حتى لا يموت إلا

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٨٧).

(٢) انظر السيوطي «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (٦/ ٢٢٨). وانظر الخازن «لباب النقول في معانى التنـزيل»، ط. الحلبى، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٨٥م، (٦/ ١٠٦).

(٣) انظر الطبرسى «مجمع البيان في تفسير القرآن»، مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م. وكذلك هو قول الثعالبى «الجواهر الحسان»، ط. مؤسسة الأعلمى، بيروت، (١/ ٢٩٤). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٥/ ٣٠). والقاسمى «محاسن التأويل»، ط. دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م، (١٥/ ٥٨٢٦). والشوكانى «فتح القدير»، دار الحديث، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، (١/ ٥٤٧).

مسلماً، وهو مقصود يجب أن يبذل المرء له حتى يتعرض لفضل الله بتثبيته عليه إلى الممات. وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن النهى عن الموت على غير الإسلام مجاز يستلزم عدم مفارقة الإسلام طالما كان حياً، لأنه لا يدرى متى ينتقل إلى الله تعالى، فبينت الآية أن التقوى لا تجوز مفارقتها على حال، ولا التقصير فيها في أى زمان.

الفصل الثالث

التقوى دعوة الرسل

المطلب الأول : تفسير نصوص دعوة الرسل إلى التقوى «نظرة إجمالية».

المطلب الثاني : التكرار في الأمر بالتقوى.. إشاراته وحكمه.

المطلب الثالث : تنوع أساليب دعوة الرسل إلى تقوى الله تعالى.

المطلب الرابع : مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك.

المطلب الأول
نصوص دعوة الرسل إلى التقوى
نظرة إجمالية

لما كانت التقوى بهذه الأهمية، وتحمل تلك المعانى التي رأيناها في الفصلين السابقين، لا جرم كانت أول دعوة الرسل لأقوامهم، وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك، وتبين أيضاً الحجج التي ساقها الرسل ليحملوا الناس على تقوى الله تعالى.

ونبدأ بإحصاء هذه الآيات ثم بعد ذلك يكون النظر في تفسيرها كلٌّ في مطلبه، وها هى ذى:

١. ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢].

٢. ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح: ١-٣].

٣. ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

٤. ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

٥. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٣].

٦. ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

٧. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ وهى مكررة في سورة الشعراء بنفس اللفظ عند

ذكر دعوة الرسل لأقوامهم، ففى قصة نوح قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١١٠].

أما في قصة هود فقال تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٢].

وفى قصة ثمود:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٠].

وفى قصة إلياس، وقصة لوط، وقصة شعيب كذلك، مع بعض الاختلافات التي سنذكرها - إن شاء الله تعالى - عند دراسة النصوص ومقارنتها.

١. ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٣].

٢. ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

٤. ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

٥. ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١].

٦. ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣].

٧. ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٨].

٨. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

٩. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١].

١٠. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يس: ٤٥].

١١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان: ٣٣].

١٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨].

١٣. ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ

ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

١٤. ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

١٥. ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦].

١٦. ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة: ١١٥].

أرسل الحق سبحانه وتعالى رسله وأنبيائه لدعوة الناس إلى تقواه ﷻ، أى ليجعلوا بينهم وبين عقاب ربهم وعذابه وقاية تقيهم منه، وأول ما يقى الناس ذلك هو توحيده والإيمان به -جل شأنه.

وبالتأمل في النصوص السابقة وتفحصها ومقارنة بعضها ببعض، انتهيت إلى الملاحظات التالية:

التقوى هى أول ما دعا الرسل أقوامهم إليه، وهى كما ذكر كل من رأينا من المفسرين إما توحيد الله تعالى والإيمان به، أو هى الخوف الباعث علياالإيمان والتوحيد وطاعة الرسل. وقد ذهب إلى المعنى الأول - وهو كون التقوى هنا توحيد الله تعالى - الفخر الرازى وغيره،كما أشرنا إلى كلامه في تعريف التقوى.(١) وهذا الوجه هو ما أميل إليه للآتى:

أولاً: أن الرسل أول ما دعوا أقوامهم، دعوهم إلى توحيد الله - جل شأنه - فقال تعالى:- ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦]، فكانت

---

(١) انظر فصل «مفهوم التقوى».

التقوى كذلك هى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، إذ هى أول ما دعا الرسل أقوامهم إليه أيضاً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢]، أى: أنذروا أنه لا إله غيره فوحدوه وأخلصوا له الدين، والخطاب موجهٌ للرسل جميعاً.

ثانياً: جاء في رد قوم نوحٍ عليه السلام عليه، لما دعاهم إلى تقوى الله تعالى بقوله: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٨]، قالوا في ردهم عليه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، فكان دليلاً على أن أمرهم بالتقوى أمر بالإيمان، لما في ردهم من هذا المعنى.

ثالثاً: جعل القرآن الكريم التقوى في مقابل الكفر في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].

تدرج الرسل في دعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، من الحض عليها بالرفق، إلى الأمر بها، يتضح ذلك في قول الرسل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، على معنى الترفق بهم والحث لهم، ثم بعد ذلك جاء الأمر بالتقوى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، مما ينير طريق الدعاة إلى الله بسلوك الأنبياء في الدعوة. هذا على اعتبار أن «ألا» هنا للتحضيض، أما إذا اعتبرناها مكونة من همزة الاستفهام ولا النافية، فإنها تحتمل الإنكار، والسياق هو الذي يبين ذلك.

ورأينا الرسل كذلك وهم يسلكون هذا السبيل، يؤكدون للناس تجردهم عن المصالح والمطامع والحظوظ، فلا يبتغون من وراء دعوتهم مالاً ولا أجراً، إنما أجرهم في ذلك كله على الله تعالى، وهذا يبين للدعاه طريق الإخلاص في الدعوة، وابتغاء الدار الأخرة، وتنكب طريق المنافع الذي يوضح بجلاء أنهم ليسوا دعاة إلى الله تعالى، بل هم لصوص يقطعون الطريق على السائرين إلى الله

تعالى، محصورين في شهواتهم الضيقة الزائلة، إنهم دعاة الشيطان وليسوا من التقوى في شيء. إن للدعاة المتقين شأناً آخر من التجرد عن التكسب بالدين، والمتاجرة به، بل على العكس، إنهم يبذلون وقتهم وجهدهم وأموالهم، بل أنفسهم، عسى أن يقبلهم ربهم ويجزيهم الجزاء الأوفى في الأولى والأخرة.

أن الأمر بالتقوى في دعوة الرسل الناس إلى ربهم ﷻ متكرر، مما يفيد دوام واستمرار الدعوة إليه، مع عدم اليأس أو القنوط من استجابتهم، حتى ولو ظهر الإعراض والعناد إلى أقصى درجة، وقد ظهر ذلك جليا في قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، في سورة الأعراف، حيث يئس بعض أتباع الرسل من دعوة العصاة المخالفين لأمر الله، يقول القرآن الكريم مصوراً هذا المشهد في صيغة حوار: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وكانت إجابة المتمسكين بالدعوة القائمين عليها: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، أي: ذلك اعتذار إلى الله، ونرجو أن يثوبوا إلى تقوى الله - سبحانه وتعالى.

أن التكرار في الآيات التي أشرنا إليها، خاصةً في سورة الشعراء التي يظهر فيها جلياً تكرار الأمر بالتقوى، ليس تكراراً محضاً، وهو من دقة الأسلوب القرآني.حيث ذكر جمع من المفسرين أن الأمر الأول بالتقوى معلل بكون الرسول أميناً فيما يبلغ عن ربه، أميناً في نصحهم وإرادة الخير لهم، أميناً في تحذيرهم من مغبة عنادهم وكفرهم، وأن ذلك سيكون سبب هلاكهم. ثم جاء الأمر مرةً ثانية بتقوى الله تعالى لعلة أخرى، وهي نفى المصلحة في دعوتهم، بل أجره على رب العالمين. فاتضح بذلك أن التكرار ليس تكراراً محضاً، لأنه معلل كما رأينا بعلتين مختلفتين.

وإذا كان الأمر بالتقوى أمراً بالإيمان والتوحيد - كما أشرنا - فإن بعض آيات التقوى جمعت بين دعوة الرسل إلى توحيد الله ودعوتهم إلى تقواه في ذات

السياق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ [نوح: ١-٣]، مما يعد استخداماً للتقوى في بقية أو في بعض معانيها الأخرى وسيأتي شرح ذلك كله - إن شاء الله، وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

تنوع التعبير القرآني لحمل الناس على تقوى الله - جل وعلا:

فمرة بالتخويف الشديد الذي من شأنه دفع الناس إلى التقوى كقولة تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ ﴾ [الحج: ١]. فمتصور هذا الهول أو شئ منه وعظمه وخطره، وأنه لا نجاة له منه إلا سوى الله يجعله يسارع إليها، خاصة وهو يعلم أن مرده إلى الله وأن الدنيا زائلة، وكل ما حصل فيها لا يمنع عنه ولا يدفع موتاً ولا حساباً ولا عقاباً. ومن هذه الأيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٣٣ ﴾ [لقمان: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٥١ ﴾ [الأنعام: ٥١].

ومرة أخرى بالترغيب والوعد بالرحمة، كقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ومنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨ ﴾ [الحديد: ٢٦].

ومرة بذكر آياته في الآفاق وفى أنفسهم التي تدل على وحدانيته وعظمته الحاملة على توحيده وإفراده بالعبادة والتقوى وحده ﷻ، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

ﭐتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخۡتِلَـٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦].

ومرة بتقريره سبحانه لهم أنه الخالق الرازق المحيى المميت، المدبر الذي بيده الأمر، وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَـٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]. فمن يستحق أن يتقى ويوحد ويعبد؟ من كان ذلك كله بيده هو الذي يستحق أن يعبد فلا يشرك به، وأن يتقى فلا يخشى غيره.

ومرة بتعداد النعم عليهم التي لو تفكروا فيها، وأن الله الواهب لها بغير استحقاق منهم، ولا بسبق سبب لكان دافعاً لهم إلى التقوى، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤].

بين لهم أنه أنزل القرآن الكريم جلياً واضحاً ميسراً ليتقوا الله، قال عز من قائل: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَـٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣]. فكان القرآن الكريم الآيه العظمى والمعجزة الكبرى التي تحمل على تقوى الله – سبحانه.

والآن نشرع في دراسة النصوص القرآنية التي تؤيد ما سبق لتكتمل الصورة بالبرهان الشرعى والدليل العقلى. ونشير في هذا المطلب إلى هذه الآية وبقية الآيات تأتى في مواضعها، وهى قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ

عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢].

هذه الآية الكريمة هى ملخص الرسالة حيث ينـزل جبريل بالوحى من الله تعالى على من يشاء من عباده ليُعْلِموا الناس بأن الله واحد ليعبدوه ويتقوه. فالآية على وجازتها قد جمعت أركان الرسالة، فالمُرسِل هو الله تعالى، أرسل جبريل عليه السلام بالمُرسَل به وهو الوحى إلى المُرسَل وهو الرسول ليبلغ رسالة الله - جل وعلا - إلى المُرسَل إليهم، وهم الركن الرابع وهم الناس الذين أُرسل إليهم الرسول.

وكانت الآية الكريمة في غاية الدقة إذ بينت قضية النبوة أتم بيان، فقد وضحت أن الله -جل وعلا- برحمته أرسل للناس رسلاً ليهدوهم إلى تقوى الله حتى يسعدوا في الآخرة والأولى. فكان في الآية الرد على كل الطوائف التي تنكر الرسالة، كهؤلاء الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء، أو هؤلاء البراهمة الذين اكتفوا بالعقل، أو غلاة الصوفية الذين يدعون أن الرسل حجاب بين الله وبين الناس، وغير هؤلاء من طوائف الضلال، كذلك أشارت الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة وهى أن الوحى هو الروح - بهذا اللفظ الموحى - لتوقف حياة الناس الحقيقية عليه لأنهم بغيره أموات، لذلك قال فيه الحق - سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، أو لأنه - أى الوحى - بالنسبة للدين كالروح للبدن، فلا دين إذاً بغير وحى.

وبينت الآية كذلك المذهب الحق في موضوع النبوة، وأنها اصطفاء وعطاء من الله - جل في علاه، لا تتحصل برياضة النفس وتهذيبها، أو بإشراق الروح وغيره، بل كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]، فهى اجتباء محض من الله تعالى. ومن ثم شدد المولى جل

وعز النكير على من ادعى شيئاً من ذلك، وتوعده بأشد العذاب ووصمة بأسوأ الصفات فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣].

ثم جلت الآية زبدة الرسالة وهدفها الأسمى: ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]؛ أن توحيد الله وتقواه - جل وعلا - مقصد الرسالات، أى أرسل الحق سبحانه رسله وأنزل عليهم كتبه ليُعلموا الناس أن إلههم واحد يجب أن يفردوه هو بالعبادة، وأن يخلعوا ما دونه من الأنداد، وأن ذلك سبيل سعادتهم أفراداً وجماعات، في الدنيا والآخرة فكانت الآية الكريمة كما رأينا محيطة بالموضوع كله على اختصارها ودقتها، مع التوضيح والرد على كل مخالف. وبينت في نفس الوقت موضوعنا الأساسى من سياقها وهو تقوى الله وأنها دعوة الرسل جميعاً، وإن زاد بعض أهل العلم على ذلك أن الآية أفادت أعلى مراتب الكمال الإنسانى،وهو أن يتحقق المرء بالقوة العلمية والعملية ،فالقوة العلمية في معرفة ربه ومعبوده وخالقه ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾، يترتب على هذه المعرفة طمأنينة النفس وتحقيق سلامها ورضاها واتزانها الروحى والمادى،مع إبعاد شبح القلق والاضطراب في عدم معرفتها بربها - جل وعلا.

وأما الكمال الثانى فهو بتحقيق القوة العملية وهى تقوى الله عز وجل ويتحقق بها نجاتها ورفعتها. يقول العلامة الألوسى وهو تابع في ذلك للإمام الفخر الرازى في قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾

وهو مشتمل على التوحيد الذي هو منتهى القوة العلمية والأمر بالتقوى

التي هى أقصى كمال القوة العملية، فإن النفوس البشرية لها نسبة إلى عالم الغيب تستعد بها لقبول الصور والتحلى بالمعارف والإدراكات من ذلك العالم، ونسبة إلى عالم الشهادة تستعد بها لأن تتصرف في أجسام هذا العالم ويسمى استعدادها الحاصل لها باعتبار النسبة الأولى.(١)

(١) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ٤٠). والعلامة الألوسى «روح البيان»، مجلد٨، (١٤/ ١٤١).

المطلب الثاني
التكرار في الأمر بالتقوى
إشاراته وحكمه

رأينا أن دعوة الرسل أقوامهم كانت إلى تقوى الله تعالى، والمتأمل في النصوص يجد تكرار دعوة الرسل واستمرارها والمداومة عليها. وأقصد بالتكرار هنا أمرين:

الأول: تكرار ألفاظ الرسل في دعوة أقوامهم إلى تقوى الله تعالى.

الثاني: مداومة الرسل - عليهم السلام - في دعوة أقوامهم، وثباتهم على ذلك، فينبغي النظر في الأمرين شرحاً ومثلاً.

ونبدأ بالأمر الأول، وهو تكرر ألفاظ الرسل في دعوتهم إلى التقوى وهل كان تكراراً محضاً أم لا؟ ومثال ذلك نوح عليه السلام، فقد ذكر القرآن الكريم عنه قوله لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧-١١٠]، فكرر عليه السلام أمره لهم بتقوى الله تعالى: مصدراً إياه «بإن» التي تفيد التأكيد مع عدم سبق إنكارهم لأمانته لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة فإن الأمانة دليل الصدق.(١)

وفى الإشارة إلى استدلال نوح بأمانته تعريض بالمشركين الذين كانوا يدعون النبى ﷺ بالأمين قبل البعثة ثم كذبوه بعد ذلك، كما قال هرقل لأبى سفيان: هل جربتم عليه كذباً؟ أى النبى ﷺ فقال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. فقال له هرقل بعد ذلك: فقد علمت أنه ما كان ليترك الكذب

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٥٨).

على الناس ويكذب على الله.[١]

ثم جاء قول نوح ﷺ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فبعد طول الدعوة واستمراره عليها بالرفق واللين والأمانة والصدق، لم يكن بد من الانتقال إلى الأمر بتقوى الله سبحانه وطاعته ﷺ أمراً جازماً يحمل في طياته التخويف والتحذير من عقاب الله جل وعلا، ويحمل في نفس الوقت تأكيد دعوته السابقة لتقوى الله تعالى، وعلى شاكلته جاء قوله تعالى: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فالاستفهام هنا للإنكار، فبعد أن ترفق بهم ثم رأى منهم ما رأى من الإعراض والإيذاء بعد طول الأناة عليهم، انتقل إلى الإنكار عليهم مفرعاً ذلك على قوله: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ فينكر عليهم شركهم واتخاذهم آلهة أخرى مع الله تعالى، وعدم اتقائهم وخوفهم من ربهم وعقابه. هكذا تتدرج الدعوة إلى تقوى الله تعالى.

ثم بين ﷺ علة أمره هذه المرة، وهى تنـزهه عن المطامع الدنيوية والحظوظ النفسية في الدعوة إلى تقوى الله، وذلك من قوله: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، أى لا أسألكم عليه أجراً أياً كان مالاً أو غيره، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩]، فرأينا الأمر بالتقوى معللاً بعلتين: الأمانة وعدم الطمع وطلب الأجر وكلتاهما كافية في طلب تقوى الله تعالى فكيف إذا اجتمعا؟ فلا تكرار إذاً، لأن المعنى مختلف، يقول الإمام الفخر الرازى في تفسيره الآية: «وقد يقول الرجل لغيره: ألا تتقى الله في عقوقى وقد ربيتك صغيراً؟ ألا تتقى الله في عقوقى وقد علمتك كبيراً؟»[٢]، وهكذا كان كافة

(١) رواه البخارى (٧)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ٣١-٤٥).

(٢) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٢/ ١٥١). و العلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٧٢).

الرسل وأتباعهم يرجون الأجر والثواب من الله تعالى في الآخرة، حيث كانوا متجردين له، حاسمين طمع أنفسهم أو تطلعها لزائل من زوائل الدنيا وحطامها الفانى، وهذا ما يبينه الأمر بالتقوى نفسه، إذ كيف يأمر الواحد منهم بتقوى الله وهو يطلب أجراً ومالاً ومتاعاً؟ هذا منافٍ لسير المتقين وأخلاق الصالحين وهو بأخلاق النفعيين والمتاجرين بالدين ألصق وأولى.

والأمر الثانى: وهو تكرر الدعوة من الأنبياء - عليهم السلام - لأقوامهم وثباتهم على ذلك، ونضرب مثلاً لذلك أيضاً نوحاً ﷺ، ولكن بذكر آيات أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [نوح: ١]، فقام ﷺ من فوره يقول: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح: ٢-٣].

ثم بعد دعوة طويلة لهم قال: ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ فجعل دعوته عليه السلام في كل الأزمان، فعبر بالليل وبالنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد كل وقت يتوسم فيه أنه أقرب إلى فهم دعوته من أوقات النشاط بالنهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهى بالليل.

فإذا كان ما سبق هو زمن دعوتهم، فإنه ذكر أيضاً بأن دعوته كانت مع ذلك مختلفة الحالات في القول من جهر وإسرار فقال: ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ [نوح: ٨-٩] وقد عبر بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ التي تفيد في عطفها للجمل أن مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليها، لأن اختلاف كيفية الدعوة ألصق بالدعوة من زمنها، فدعاهم ﴿ جِهَارًا ﴾ أى علناً، ثم أضاف الإسرار إليه ليكون أقوى في الدعوة وأشد، والمعنى أنه توخى ما يظنه أقرب لاستجابتهم وأدخل لقلوبهم فجهر حين يكون الجهر أجدى مثل مجامع العامة،وأسر للذين يظن أنهم يستمعون إليه إذ كانوا أبعد عن عيون قومهم، فكانت دعوته كذلك موزعة على مختلف الناس، فها هى

ذى دعوته عليه السلام، وهى على الحقيقة دعوة كافة الأنبياء جمعت مختلف الأزمنة، وجميع الهيئات، وكافة الفئات، وأخذ يدعو: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤].

أما متى توقف نوح عن الدعوة فذلك حين أخبره ربه - سبحانه - بقوله: ﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦].

وأمَّا المثل الثانى فهو قصة القرية التي كانت حاضرة البحر:

قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

ونذكر ملخصاً سريعاً لقصة هذه القرية، ثم نبين مقصدنا الأصلى فيها، فنقول: أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل اليهود في أيامه عن أهل هذه القرية الذين عتوا عن أمر الله تعالى، ولم يعظموا السبت الذي وصاهم به، وماذا كان جزاؤهم عندما فسقوا عن شرع الله ولم يبالوا بالموعظة ولم يتقوا الله، وقد أمره الله تعالى أن يسألهم لا سؤال استفسار، فهو قد علم علمها من الله جل وعلا، بل سؤال تقرير لتقريعهم وتوبيخهم، وعد سوابق عصيانهم وبيان أن عصيانهم إياه ﷺ ليس بدعاً بل شنشنة قديمة منهم.

كان هذا حال الفريق الأول من هذه القرية، وهى الفرقة التي كانت سادرة في غيها وغلوائها، لا ترعوى عن ضلالتها، ولا ترقب الله في أعمالها. أما الفريق

الثانى، فهم الأمة الصالحة التي قامت بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفرقة أيست من اتعاظ الموعوظين، وغلب على ظنها أن قد حقت عليهم كلمة العذاب، لتحققهم بالحال التي أخبر الله تعالى بأنه يهلك أو يعذب من تحققت فيه، فتركت الموعظة والأمر والنهى عن المنكر بما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾، أى ما العلة في وعظكم لهؤلاء؟ وهو إنكار في معنى النفى، يفيد انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يحصلها وعظهم، وذلك يفضى إلى اليأس من حصول اتعاظهم.(١)

ونلاحظ ابتداءً أن الصالحين المنكرين الذين يئسوا من الوعظ، قالوا لهؤلاء الصالحين الدائبين في الوعظ: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ هكذا بصيغة المضارع المفيد للاستمرار، أى لم تستمرون في وعظكم؟ مكررين له؟ ثابتين عليه؟ وهو ما يفيد أن تلك الأمة الصالحة ثابتة على كلفة الوعظ، لم تيأس، ولم يخالطها الإحباط، وهو ما ينبغى للدعاة إلى الله أن يتعلموه.

كان ردهم أنهم مستمرون في وعظهم لعلتين:

الأولى: ليكون لهم عذر عند الله ﷻ إذا سألهم عن القيام بحق الدعوة.

والثانية - وهو الهدف من دعوة الرسل - هى قولهم: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، أى لما عسى أن يحصل من تقوى الموعوظين بزيادة الموعظة والاستمرار عليها، أى أن الرسل وأتباعهم لا ينفكون يدعون إلى تقوى الله تعالى مهما بدا من إعراض المدعوين إصماماً لآذانهم وإغلاقاً لقلوبهم، وإيذاءً لرسلهم وأتباع رسلهم، وأن ذلك لا يزيدهم إلا إصراراً على الموعظة والدعوة، وثباتاً عليها، رجاء أن يتقوا الله تعالى.

وهو ما يبين لنا أسرار تكرار الدعوة والحكمة من الاستمرار عليها.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ١٥١).

المطلب الثالث
تنوع أساليب دعوة الرسل إلى الله تعالى

تنوعت الأساليب التي ذكرها القرآن الكريم، والتي تحض الناس على تقوى الله تعالى، حيث نبه الرسل الكرام أقوامهم إليها، أو دعوهم للتفكر فيها، حتى لا يترك المولى - جل وعلا - سبيلاً يصل به الناس إلى تقوى الله إلا وبصرهم بها، ولفت عقولهم وأبصارهم وأسماعهم إليها.

أول هذه الأساليب:

١ - التخويف الشديد الذي من شأنه أن يدفع الناس إلى تقوى الله تعالى:

من ذلك قوله -جل وعلا-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١-٢].

أمر - سبحانه وتعالى - الناس جميعاً من لدن نزول هذه الآية إلى يوم القيامة بتقواه - جل وعلا، ثم علل سبحانه - وجوب التقوى عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به.(١)

فمتصور هذا الخطر العظيم يسارع - لا محالة - إلى إنقاذ نفسه منه، خاصة إذا تيقن بحصوله ووقوعه التيقن المفيد للعمل، الباعث على التقوى، ولا شك أن الله - وجل وعلا - لم يذكر ذلك إلا وله حكمة فيه، يتنبه لها أصحاب العقول

---

(١) جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٢٤). و أبو البركات النسفى «مدارك التنـزيل»، (٣/ ٧١).

الواعية المدركة المقدرة لعاقبتها، فيكون دافعاً لها إلى اتقاء هذا الهول الفظيع، لأن المرء العاقل يدفع عن نفسه الشر والسوء بكل وسيلة ممكنة، فإذا ما تحقق الإنسان أن وسيلته في ذلك تقوى الله تعالى، فمن العبث ألا يدفع بها. ومن قلة الفهم وضعف العقل أن ينشغل عنها، وهو يعلم بقدوم الهول الذي لا دافع له ولا مانع منه بغير ذلك.

وقد جيء بلفظ «شيء» للتهويل الشديد بتوغله في التنكير، أى أن زلزلة الساعة لا يعرف كنهها إلا بأنها شيء عظيم.(١)

ثم فصل بعد ذلك هذا الهول، فذكر منه ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أى تذهلها الزلزلة. والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة. والمرضعة: هى التي في حالة الإرضاع، ملقمة ثديها للرضيع، من هول ما فوجئت به ذهلت عن رضيعها ونزعت ثديها لما يلحقها من الفزع الشديد.

الثانى: ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ فمن شدة الهول والكرب العظيم تسقط الحامل حملها لتمام أو غير تمام.

الثالث: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ قد ذهبت عقولهم، وترنحت أجسامهم، يتماوجون من غير خمر، ولكن ما أرهقهم من الهول أذهب عقولهم، وطير تمييزهم.(٢)

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ١٨٧)، وقال: وهو من المواضع التي يحسن فيها لفظ «شيء» كما ذكر عبد القادر الجرجانى في «دلائل الإعجاز».

(٢) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١١/ ٢٢٩-٣٠٠). والساعة: علم في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخروى، وإضافة الزلزلة في الدنيا أو في وقت الحشر، وحمل الزلزلة على الحقيقة هو الظاهر، وهى حاصلة عند إشراف العالم الدنيوى على الخراب، ويجوز أن تكون الزلزلة مجازاً عن الأهوال

وقد رأينا أن الأمر بالتقوى معلل بأن زلزلة الساعة شئ عظيم، وهو يقتضى أن لزلزلة الساعة أثراً في الأمر بالتقوى غير التخويف الشديد الحامل على التقوى، وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله: ﴿ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فإذا كان وقت حصول الجزاء فيه هذا الهول المرعب والفزع العظيم، فلا شك كان الاتصاف بالتقوى واجباً لاتقاء ذلك كله.

يقول الأستاذ/ سيد قطب، في وصف تفصيل ذلك الهول:

«فإذا هو أشد رهبة من التهويل، إذ هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعى، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها، وبالناس سكارى، وما هم بسكارى، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة، وفى خطواتهم المترنحة، مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة، بينما الخيال يتملاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هول حى، لا يقاس بالحجم والضخامة، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن، وما تذهل المرضعة عن طفلها وفى فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعى. إنه مطلع عنيف مرهوب، تتزلزل له القلوب».(١)

والآية الثانية من آيات التخويف التي ينبغى أن ننظر في معناها كذلك - لنأخذ العبرة والعظة ونتمسك بأهداب التقوى - هى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ

=

والمفزعات التي تحصل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾. وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، (١٧/ ١٨٧).

(١) الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٤/ ٢٤٠٨).

جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

فهذا أمر بالتقوى، وتذكير باليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، ودعوة بالتخويف مما يقع فيه من أهوال تجعل الولدان شيباً، ليكون تذكير الناس بتلك الأفزاع والكرب حاملاً لهم حملاً على تقوى الله تعالى، وإعداد الزاد - زاد التقوى - لهذا الموقف الذي لاينفع فيه أحد أحداً: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣]. فلا ينفع كل أحد إلا ما قدم من عمل صالح تثقل به موازينه، وتبيض به صحيفته.

وإذا كان الله - جل وعلا - قد ذكر في الآية السابقة في سورة الحج التخويف بذكر زلزلة الساعة وشدتها، فقد أضاف القرآن الكريم هنا مشهداً آخر من مشاهد الهول والرعب والخوف، وهو مشهد فرار الولد من الوالد والوالد من الولد، كل يقول: نفسى نفسى. فذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد، ليستدل بهما على غيرهما، فإذا كان الوالد الشفوق لا يجزى عن ولده البار، ولا الولد البار يجزى عن الوالد الشفوق، فما بالك ببقية الأرحام، فضلاًعن الأصدقاء والخلان؟[1]

يقول الأستاذ/ سيد قطب:

«إن الهول هنا هول نفسى، يقاس بمداه في المشاعر والقلوب. وما تتقطع أواصر القربى والدم، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد، وبين المولود والوالد، وما يستقل كل بشأنه، فلا يجزى أحدُ عن أحد، ولا ينفع أحداً إلا عمله وكسبه، ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له في مألوف الناس،

(١) على اختلاف القراءات في قوله: «يجزى».

فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجيء في موضعها الذي فيه تستجاب، وقضية الآخرة تعرض في ظلال هذا الهول الغامر فتستمع لها القلوب».(١)

وبالنظر في تركيب الآية نلاحظ:

أولاً: تقدم الوالد على الولد في قوله: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾، لأن الوالد أشد شفقة على ابنه، فلا يجد له مخلصاً من سوءٍ إلا فعله.

وقد نزلت الآية في مكة وأهلها - يومئذ - خليط من المسلمين والمشركين، وربما كان الأب مسلماً والابن كافراً، وربما كان العكس. وقد يتوهم بعض الكافرين إذا داخلهم الظن في مصيرهم بعد الموت أن قد يدفع عنهم أبناؤهم المسلمون حميةً كحمية الدنيا وأنفتها، وكذلك قد يتوهم أن أحد الفريقين أرجى في المقصود. ولكن جملة: ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ أكدت بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ فقد جاءت جملة إسمية، ووسط فيها ضمير الفصل، وانصب النفى فيها على الجنس. كل ذلك مؤكدات للمبالغة في تحقيق عدم جَزْءِ هذا الفريق المولود عن الآخر، إذ كان معظم المؤمنين من الأبناء والشباب، وكان آباؤهم حينئذ كفرة على الشرك، كأبى قحافة والد أبى بكر ﷺ، وأبى طالب والد على ﷺ، وأم سعد بن أبى وقاص ﷺ، وغيرهم. فأريد حسهم أطماع آبائهم وما عسى أن يكون من أطماعهم في أن ينفعوا آباءهم في الآخرة.

ثانيا: وأما إيثار لفظ «مولود» على «ولد» فلأن لفظ «مولود» توحى بأنه ولده من صلبه، إذ إن لفظ «ولد» أعم منها حيث تطلق على ولد الولد مع ما توحى به لفظة «مولود» من تجشم مشقة التربية التي تستدعى التحنن

---

(١) انظر الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٥/ ٢٧٩٨).

والتعطف[1]. ومع ذلك ليس بمغنٍ ولا بدافعٍ عن أبيه شيئاً، حسماً لأى طمع في ذلك، ولفتاً للأنظار مرة أخرى إلى كون التقوى هى وحدها سبب النجاة. قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ونختم بما ذكر الله - جل وعلا - في هذا المعنى مضافاً إلى ما سبق، وذلك قوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١]. حيث أمر المولى - جل ذكره - نبيه ﷺ بإنذار الذين يخافون الحشر، لا ولى لهم ساعتئذٍ من دون الله ولا شفيع، بإنذارهم بالقرآن، وتخويفهم رجاء أن يتقوا الله تعالى، فيسارعوا إلى الطاعة وينتهوا عن المعصية، فبينت الآية الكريمة أن الإنذار والتخويف من الأمور التي كثيراً ما تحصل تقوى الله تعالى، إذ تتأثر القلوب بالوعظ، فترق وتخشع لأمر الله وما نزل من الحق، فتنقاد الجوارح لما يحب الله تعالى، وتتجنب ما يغضبه. ومن ثم أُمِرَ النبى ﷺ والمؤمنون بالقيام بهذا الأمر.

وبالنظر في تحليل الآية:

قوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أى: أعلمهم مع التخويف. ﴿ بِهِ ﴾ أى: بما يوحى إليك، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. ثم خص الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، مع أنه ﷺ مأمور بإنذار الخلائق كلهم، لأن خوف الحشر مظنة الإيمان، وكأنه قيل: الكفرة المعرضون دعهم ورأيهم وأنذر بالقرآن من يرجى إيمانه.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/ ١٩٤). والزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٢١٧). الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٢/ ٥٣٠-٥٣١). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٢، (٢١/ ١٦٤).

واختلف أهل العلم في تعريف هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فذهب بعضهم إلى أنهم المؤمنون، وعرفوا بالموصول لما تدل عليه الصلة من المدح، لأن الإنذار لهم نافع، خلافاً لحال المنكرين للبعث فإنهم لا يخافونه، فضلاً عن الاحتياج إلى شفعاء. وذهب بعضهم إلى أنهم الكفرة. وذهب قومٌ آخرون إلى أنهم عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودى ونصرانى، إلا أنهم قيدوا المسلمين بكونهم مفرطين فينذروا رجاء التقوى. ورجح آخرون أنهم المجوزون للحشر من غير المسلمين، لأن المسلمين على أى حال فيهم شىء من التقوى.(١)

وهذه المعانى توضح للداعين إلى الله تعالى الطريق الذي ينبغى أن يسلكوه في حمل الناس على تقوى الله، والجهد الذي يجب عليهم بذله مع من يرجى إيمانه ممن يخاف الحشر، لا مع غيره.

أما قوله: ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فهو تعليل للأمر بالإنذار، أى رجاء أن يتقوا ربهم - سبحانه - بتحقيق أسباب التقوى، وأولها: ترك الشرك والكفر، ثم الإتيان بالطاعات، وترك المعاصى على ما ذكرنا في معنى التقوى.

٢- الترغيب والوعد بالرحمة:

أمر الله تعالى الرسل بإنذار أقوامهم وتخويفهم رجاء أن يتقوا، لكن إدامة التخويف لهم قد يعودهم عليه حتى لا يكون سبباً لاستجابتهم، بل - على العكس - تكون النفوس قد تبلد إحساسها، لأنها قد تعودت على سماع ذلك حتى فقدت التأثر به، والانفعال معه.

---

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٤/ ٥٢٠). الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٦/ ٣٢١). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ٢٤٤). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٥٤)، وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ١٦).

فاقتضت حكمته تعالى أن بين لهم الخير، وبشرهم به، ووعدهم بالرحمة، وحببها إليهم، مع ما يستلزم ذلك من إحسانه وفضله، ليكون ذلك كله مدعاةً لهم ليتقوا الله تعالى، ويرجوا اليوم الآخر.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

أي: وهذا الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه - وهو القرآن الكريم - كتاب عظيم الشأن، لا يقدر قدره، أنزلناه على محمد ﷺ بوساطة جبريل عليه السلام مشتملاً على فوائد الدين والدنيا، وهو كتاب مبارك كثير الخير.(١) ومن كانت هذه صفته من كونه منزلاً من الله بالخير والبركة للناس في دنياهم وأخراهم يجب اتباعه، حيث الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

فلاحظنا أن الله - جل وعلا - قد نعت كتابه بما يكون سبباً في محبة الناس إياه وإقبالهم عليه لتصلح عليه أمورهم كلها، إذ كل أحد يحب الخير لنفسه - لاشك، فكان هذا من باب ترغيبهم في الإيمان والطاعة.

ثم بين لهم الجزاء بعد ذلك، وهو قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، ليكون هذا الرجاء في رحمة الله تعالى عوناً لهم، وشارحاً صدورهم لتقوى الله.

وقدم المولى - سبحانه - الأمر باتباعه، والأمر بالتقوى لتكون الرحمة من الله جزاء ذلك فقال: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ونلاحظ أنه - سبحانه - قال: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾، أي القرآن الكريم، أي اتبعوا أوامره والتزموا بما فيه، ثم قال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ﴾ بغير عود الضمير إليه، حيث فهم منها من قرأنا له من المفسرين: واتقوا مخالفته ونواهيه، وإن كان حذف الضمير،

---

(١) انظر أبا السعود، «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٢٢٣). والألوسى «روح المعانى»، (٨/ ٩٠).

وحذف المفعول - كما هى عادة القرآن الكريم في كثير من الأحيان - لتشمل كل ما يصلح للتقوى، لأن اتباع القرآن المطلوب في الآية كان في أن يتبعه المرء فيما جاء به، من التزام أمره واجتناب نهيه، والاتعاظ بمواعظه، والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه...، وغير ذلك. فكان الأمر بالتقوى - زائداً على هذه المعانى - ليشمل كل معانى التقوى الملائمة لهذا السياق من الخوف من الله واليوم الآخر، والخوف من النار، وليشمل كذلك الزائد على الاتباع، من الالتزام بالمستحبات، وترك المكروهات، واجتناب الشبهات، وغيرها مما قدمنا في معنى التقوى، وما يحصل به المؤمن رحمة الله الموعودة في الآية.

وأشارت الآية الكريمة بهذه اللفظة الحانية - لفظة «الرحمة» - إلى ما يشتاق إليه المرء في الدنيا من العيشة الحسنة، والحياة المطمئنة، ورضا النفس وسلامها، وتواد الناس وتعاطفهم، وما به يرتفع نكد الدنيا وأزماتها، واضطراباتها النفسية والاجتماعية، وعدم الأمن و الطمأنينة فيها.

لا جرم كان الوعد بالرحمة العنصر الثانى الذي يحمل به الرسل أقوامهم على تقوى الله تعالى، وكان لزاماً حينئذ للدعاة إلى الله أن يخلطوا الرهبة بالرغبة ليكون أعون على تحصيل مقصود الدعوة من تقوى الله، إذ هو الهدف الأسمى - كما ذكرنا - من دعوة الرسل.

وإذا كان ذلك هو ما ذكر الله - جل وعلا - عن الرسول الخاتم ﷺ، فقد جاء مثله عن أول[1] من أرسله المولى للدعوة إليه نوح عليه السلام حيث قال سبحانه على لسانه- عليه وعلى نبينا الصلاة السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦٣].

---

(١) ورد ذلك في حديث الشفاعة، انظر العسقلانى «فتح البارى» (٤٧١٢). ورواه مسلم (١٩٤).

بدأت هذه الآية الكريمة باستفهام إنكارى من نوح ﷺ يجابه به قومه الذين استبعدوا وأحالوا أن يرسل المولى بشراً لينذر عباده، ويهديهم إلى طريق التوحيد ونبذ الشـرك، وطاعة الله وترك معصيته، بقولهم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] بعد قولهم: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ في نفس الآية. فكان هذا الإنكار منه ﷺ فضحاً لشبهتهم، إذ إن الذي جعلوه مستبعداً ومستحيلاً هو نفسه موجب القبول والإيمان، لأن كون المذكر رجلاً منهم أقرب إلى القبول من كونه من جنس آخر.

ونلاحظ أن الجمل رتبت على ترتيب حصول مضمونها في الوجود، فإن الإنذار مقدم لأنه حمل على الإقلاع عما هم فيه من الشرك والوثنية، ثم تحصل التقوى، وهى العمل الصالح، فترجى منه الرحمة.(١)

يقول صديق خان في «فتح البيان»:

«وهذا الترتيب في آية من الحسن، لأن المقصود من الإرسال الإنذار، ومن الإنذار التقوى، ومن التقوى الفوز بالرحمة».(٢)

وغايتنا من الكلام أن الرسل جمعوا إلى الإنذار - الذي أشرنا إليه من قبل - الوعد بالرحمة، لتكون حافزاً للناس على تقوى الله تعالى، والمسارعة إلى إجابة دعوة الرسل، لذلك كان معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى: لتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم لله ﷻ ، مع ما في هذا الأسلوب من الشفقة عليهم، ودعوتهم بكل سبيل إلى تقوى الله، كأنه يتحنن إليهم برحمة الله المرجوة ليتقوه -

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ١٩٦).

(٢) صديق حسن خان «فتح البيان»، (٣/ ٣٥٤). وكذلك أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٢٥٩).

سبحانه، فيفوزوا بتلك الرحمة.

وللعلامة أبى السعود رأى حسن في مجيء حرف الترجى «لعل» في هذه الآية، حيث يقول:

«وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة الطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هى منوطة بفضل الله تعالى، وأن المتقى ينبغى ألا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله ﷻ»(١).

وتلك آية أخرى من آيات الترغيب ليتقوا الله تعالى، وهى قوله - سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ ﴾ [الحديد: ٢٨].

رأينا في الآيتين من قبل كيف رغب الرسل أقوامهم في تقوى الله تعالى بوعدهم بتنـزل الرحمة عليهم. أما هذه الآية الكريمة فقد وعدت المؤمنين إيماناً صحيحاً من أهل الكتاب إن هم اتقوا ربهم - جل وعلا - وآمنوا برسوله محمد ﷺ بنصيبين من رحمة الله جزاء إيمانهم بالرسل من قبل وإيمانهم كذلك برسول الله ﷺ، وحثاً لهم على الإيمان الصحيح، وترغيباً لهم في تقوى الله الحاملة لهم على الإيمان برسول الرحمة ﷺ، حيث لا يصح إيمانهم إلا بالإيمان به وإتباعه. ويكون معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا بعيسى إيماناً خالصاً: اتقوا الله، واخشوا عقابه، واتركوا العصبية والحسد وسوء النظر، وآمنوا بمحمد ﷺ، وقد صح حديث لرسول الله ﷺ في ذلك.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية:

«قد تقدم في رواية النسائى عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمنى

---

(١) أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٢٥٩).

أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التي في القصص[١]، وكما في حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى الأشعرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران، وعبدٌ مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجلٌ أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»، أخرجه الشيخان، ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبى حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير».[٢]

ومع ذلك، فإن الآية تحتمل أن يراد بالذين آمنوا المؤمنون من أهل ملة الإسلام، فتكون الآية بشارة لهم بأنهم لا يقل أجرهم عن أجر مؤمنى أهل الكتاب، لأنهم لما آمنوا بالرسل السابقين أعطاهم الله أجر مؤمنى أهل مللهم، أى أعطاهم أجرهم مرتين، ويكون قوله للمؤمنين ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ مستعملاً في الدوام على الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ في سورة النساء، ويكون إقحام الأمر بالتقوى قصداً لأن يحصل في الكلام أمر بشيء يتجدد، ثم يردف عليه أمر يفهم منه أن المراد به طلب الدوام، وهذا من بديع نظم القرآن.[٣]

ويؤيد هذا الاحتمال ما رواه البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا

---

(١) سورة القصص، آية: (٥٤).

(٢) الحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣١٧). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١)، (٢٧/ ١٤٢).

(٣) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٢٧).

فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم».[(١)]

بل إن الله - سبحانه وتعالى - زاد المؤمنين من أهل الإسلام، جزاء تقواهم وثباتهم على الإيمان، ما جاء في جواب الشرط المحذوف في الآية، وهو النور الذي يمشون به، والمغفرة.

فكأنه أثابهم في الآخرة كفلين من رحمته، مع مغفرة الذنوب والخطايا، وذلك هو الفوز المبين، وجزاء الدنيا، وهو قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، وهذا الجزاء في الدنيا تمثيل لحالة القوم الطالبين التحصيل لرضا الله والفوز بالنعيم، الخائفين من الوقوع في ضد ذلك، بحالة قوم يمشون في طريق بليل، يخشون الخطأ فيه، فيعطون نوراً، فيتبصرون بالثنايا، فيأمنون الضلال فيه.[(٢)]

وهذا - كما هو واضح - على احتمال أن المراد بالآية المؤمنون من أهل ملة الإسلام. وإذا قلنا بالاحتمال الأول فلا شك أن هذا الجزاء ينتظر أولئك المؤمنين من أهل الكتاب إذا اتقوا ربهم وآمنوا برسوله محمد ﷺ.

وإنما ضوعف أجرهم لما في النفوس من التعلق بما تدين، فيعسر عليها تركه. وأما في جانب المسلمين فلئلا يفوقهم بعض من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب، إذ المسلمون مؤمنون بموسى وبعيسى وبجميع الرسل، لا يفرقون بين

---

(١) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١)، (٢٧/ ١٤١). والحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣١٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤٢٨/٢٧).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٢٩).

أحدٍ منهم.

ويحسن بنا أن ننقل كلاماً جميلاً للأستاذ/ سيد قطب، نختم به الآية. يقول:

«ونداؤهم على هذا النحو ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان وتذكير برعايته حق رعايته، واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب، وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله، فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص، معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار.

﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي: نصيبين من رحمته، وهو تعبير عجيب، فرحمة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها، ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض.

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ هبة تنير تلك القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط ولا تلتوى بها الطريق نوراً تمشون به».(١)

٣- ذكر آياته في الآفاق وفي أنفسهم:

من الأساليب التي حض القرآن الكريم بها الناس على تقوى الله، ودعا الرسل أقوامهم بها، تلك الآيات الكونية التي بثها - سبحانه - في الكون الرحيب والآيات التي في أنفسهم، شاهدةً على وحدانيته وعظمته، داعيةً الخلق للسجود له، ودوام التسبيح بحمده، والتي لو تفكر فيها المرء، ونظر إليها بعين الاعتبار، لكانت هاديته إلى الله - جل وعلا - وإلى تقواه حق تقاته.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦].

---

(١) الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٦/ ٣٤٩٦).

وهذا استدلال آخر[١] على وحدانية الله تعالى، وعلى انفراده بالخلق والتقدير. استدلال بأحوال الضوء والظلمة، وتعاقب الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، ثم عطف بما هو أعم وأشمل، وهو ما خلقه - جلت قدرته - في السماء من الأبراج النيرة، والأفلاك الدائرة، والمجرات الهائلة، وما فيها من ملائكة وغيره مما لا يحيط بمعرفته إلا هو - سبحانه، وكذلك ما خلق في الأرض مما بلغته معرفة الناس على مختلف العصور، من البحار والمحيطات وما فيها وما تحتها، ومما هو في باطن الأرض من الجمادات والمعادن وغيرها، ومما هو على ظهرها من أنواع المخلوقات والحيوانات والنباتات. كل ذلك آيات باهرات تدل على الصانع الخالق المدبر الحكيم - سبحانه وتعالى - وعلى وحدانيته، وكمال قدرته التي تدعو الناس إلى تقوى الله تعالى وتوحيده، وإفراده بالعبادة.

وبالنظر في الآية الكريمة:

نرى تأكيد هذا الاستدلال بحرف «إنَّ»، لأجل تنـزيل المخاطبين به، الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد، منـزلة من ينكر أن في ذلك آيات على الوحدانية، بعدم جريهم على موجب العلم.[٢]

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يشمل كل الأجسام والأحوال فيهما، وبالتالي يكون هذا الدليل أشمل من كل الأدلة السابقة، ويبين حينئذ وجود آيات الله تعالى الشاهدة على الوحدانية ولزوم التقوى في كل مخلوقاته، ويظهر ضآلة الإنسان المتمرد على ربه، المنكر لوجوده، أو المتأبى على

---

(١) حيث سبقتها آية أخرى تدل على وحدانية الله وبديع صنعه، وهي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

(٢) انظر الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (١١/ ٩٧).

طاعته وتقواه.

ولهذه الآية آية شبيهة في سورة البقرة، وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ...﴾ إلى قوله: ﴿... لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤] وأخرى شبيهة بها في سورة آل عمران، وهي: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فجعلت آية البقرة: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾، وآل عمران: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، والآية التي معنا: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾. يقول الطاهر بن عاشور: «لأن السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات، ليعلموا أن بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات، وأن نفعها حاصل للذين يتقون، أي يحذرون الضلال، فالمتقون هم المتصفون باتقاء ما يوقع في الخسران، فيبعثهم على تطلب أسباب النجاح، فيتوجه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل».(١)

وهكذا يختص أهل التقوى بالانتفاع بالآيات، وأن الآيات دليل لتقوى الله وتوحيده، ومن ثم دعا الرسل أقوامهم إلى التفكر والنظر لتحصيل تقوى الله.

الآية التالية: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

هذه آية من آيات التفكر في الآفاق والأنفس، وهي من الآيات التي ساقها القرآن الكريم ليتبصر بها الناس قدرة الله تعالى وعظمته في بديع صنعه، فتحمل الناس على تقواه - سبحانه - وتوحيده، والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ٩٨).

عن الشركاء في الأفعال والصفات، مع اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه. حملها الرسل إلى أقوامهم ليتقوا الله تعالى.

ونلاحظ في تحليل الآية ما يلى:

- أن الخطاب بالتقوى متوجه إلى الناس جميعاً، أى المكلفين من نزول الخطاب إلى يوم القيامة، مما يدل على أن التقوى ليست مختصة بقوم دون قوم، ولا بمكان دون مكان، ولا بزمان دون زمان، خاصةً وأن علة الأمر بالتقوى كذلك واحدة، وهى الخلق من نفس واحدة، والتي تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد.

- أن الله تعالى أمرنا بالتقوى، وذكر عقيبه أنه تعالى خلقنا من نفسٍ واحدة، ولبيان المناسبة بين الأمر بالتقوى والخلق من نفسٍ واحدة يحسن بنا أن نلخص هنا ما ذكره الإمام الفخر الرازى لجودة الكلام. يقول - رحمه الله:

«قولنا: إنه تعالى خلقنا من نفس واحدة مشتمل على قيدين. الأول: أنه تعالى خلقنا. والثاني: كيفية ذلك الخلق. ولكل واحد من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى.

أما القيد الأول: وهو أن الله تعالى خلقنا، فلاشك أن هذا المعنى يوجب علينا الانقياد للأوامر والنواهى، أى لتقوى الله. وبيان ذلك بأكثر من وجه:

الأول: أنه لما كان خالقاً لنا، وموجداً لذواتنا وصفاتنا، فنحن عبيده، وهو مولى لنا، والربوبية توجب نفاذ أوامره على عبيده، والعبودية توجب الانقياد للرب الموجد الخالق.

الثانى: أن الإيجاد غاية الإنعام والإحسان، فإنك كنت معدوماً فأوجدك، وعاجزاً فأقدرك، وجاهلاً فعلمك، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾، فعليه أن يقابل تلك النعم بإظهار الخضوع والانقياد، وترك التمرد والعناد، وهو حقيقة التقوى.

أما القيد الثاني: وهو كونه - سبحانه - خلقنا من نفس واحدة، وأن ذلك يوجب تقواه - سبحانه. فبيانه من أكثر من وجه:

الأول: أن خلق جميع الأشخاص من نفس واحدة أدل على كمال القدرة، وتمام العلم، بحيث لو كان الأمر على غير ذلك من غير خالق عليم حكيم قادر، لم نر إلا أشياء متشاكلة ليست على هذا النسق، فلما رأينا في أشخاص الناس الأبيض والأسود والأحمر والأسمر، والحسن والقبيح، والطويل والقصير، دل ذلك على أن مدبرها وخالقها فاعل مختار، قادر على كل الممكنات، عالم بكل المعلومات، فحينئذ يجب الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه، فكان ارتباط قوله: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ في غاية الحسن والانتظام.

الثاني: أن هذا يدل على المعاد، لأنه تعالى لما كان قادراً على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصاً مختلفين، وأن يخلق من النطفة شخصاً عجيب التركيب لطيف الصورة، فكيف يستبعد إحياء الأموات وبعثهم؟ ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ ﴾ [لقمان: ٢٨]»[١].

ووَصْل ﴿ خَلۡقُكُمۡ ﴾ بصلة ﴿ مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ إدماج، للتنبيه على عجيب هذا الخلق وأحقيته في الاعتبار، وعطف: ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ على: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ هو صلة ثانية، وقوله: ﴿ وَبَثَّ مِنۡهُمَا ﴾ صلة ثالثة، لأن الذي يخلق هذا الخلق العجيب جدير بأن يتقى، وقد حصل من ذكر هذه الصلات تفصيل لكيفية خلق الله الناس من نفس واحدة هذا الخلق العجيب. ولو غير هذا الأسلوب، فجيء بالصورة المفصلة دون سبق إجمال، فقيل: الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً، لفاتت

---

(١) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤/ ٦٤٧-٦٤٩).

الإشارة إلى الحالة العجيبة من خلق الزوج، وهذا كله يحمل المرء على التفكر والاعتبار الداعي إلى تقوى الله - جل وعلا.

وقد شمل قوله: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ العبرة بهذا الخلق العجيب الذي أصله واحد، ويخرج مختلف الشكل والخصائص، والمنة على الذكران بخلق النساء من أجلهم، والمنة على النساء بخلق الرجال من أجلهن، ثم منَّ على النوع بنعمة النسل في قوله: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾، مع ما في ذلك من الاعتبار بهذا التكوين العجيب.[1] والبث: النشر والتفريق للأشياء الكثيرة، وهي من الألفاظ الموحية التي تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وقد جعلها من آياته الدالة على وحدانيته، والداعية إلى توحيده والتزام أوامره. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى: ٢٩]. فالمتأمل في هذا الكون يرى ما بث الله فيه من خلق، وكيف وزعهم على امتداد المكان وتغيره، وعلى امتداد الزمان وتعاقبه، بما يدل على تمام صنعه، وكمال علمه، وعظيم قدرته.

وبقية شرح الآية في الفصل السابق.

٤. تقريره سبحانه لهم أنه الرب والخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر، الذي بيده الأمر:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

وهذه الآية الكريمة مسوقة في إطار عدد من الآيات تدل على وحدانية الله

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٥/ ٢١٤-٢١٧).

تعالى، وتنكر على المشركين اتخاذهم آلهة أخرى مع الله - جل وعلا. وهى من الآيات التي جاءت على صيغة التقرير للمشركين بما خلق الله - جل وعلا، وبما نشر من آياته، وبما أخرج من معجزاته، ليسلموا بأن الفاعل المبدع لذلك كله هو الله، فإذا أقروا بذلك - ولابد - فإن السؤال اللازم: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، أى: أفلا تتقون الله، أى: أفلا توحدونه وتنـزهونه عن الشرك؟ أو: أفلا تخافون على أنفسكم أن يعاقبكم باتخاذكم شركاء من دونه لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن أن يملكوا شيئاً مما ذكر الله في تقريره لكم؟

وبالنظر إلى الآية نجد:

أن الآية تنـزل منـزلة الاستدلال على أن الله هو المولى الحق، الواجب التوحيد والطاعة، وقد احتج - سبحانه - عليهم بمواهب الرزق الذي تقوم به قوام الحياة، وبمواهب الحواس التي تميز وتستمع بمواهب الرزق، وبنظام التوالد والتناسل الذي به بقاء الأنواع، وهذه تفصيلات لبعض أدلة التوحيد. ولما كانت الأدلة كثيرة غير منحصرة، وما سبق تخصيص لهذه الأدلة أتى بعدها بالعام في قوله: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾، ليشمل كل شىء في خلق الله تعالى يتبصره المرء أو يسمعه، ليرى فيه التدبير المحكم، والنظام المتقن، فهذه كلها مواهب من الله تعالى، إذ كان المخاطبون يعلمون أن كل ما ذكر لا يفعله إلا الله، فلا جرم أن كان هو المختص بالإلهية والولاية والتقوى الشاملة.

والاستفهام في ﴿ قُلۡ ﴾ تقريرى، وجاء الاستدلال على طريقة الاستفهام والجواب، لأنه صورة الحوار، ليكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، وهو من طريق التعليم فيما يراد رسوخه من القواعد.[1]

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ١٥٥).

والتقوى وأدلتها من أهم الأمور التي تستدعى إيصالها للسامعين والمخاطبين بكل ما من شأنه تثبيتها وترسيخها.

ويحبذ تلخيص كلام المفسرين في شرح هذه الأدلة على الوحدانية، المقررة للتقوى، وقد جمع الأستاذ/ سيد قطب معظم كلام المفسرين في ذلك، يقول - رحمه الله:

«﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : من المطر الذي يحيى الأرض، نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها، وما يحصلون عليه لأنعامهم. وما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى شيء من نواميس الكون عن رزق بعد رزق من السماء والأرض. حتى عفن الأرض كشف عن دواء وترياق.

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ : ﴿ أَمْ ﴾ هنا للإضراب الانتقالى من استفهام إلى آخر، وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام في الدلالة على المقصود من تقوى الله تعالى، لو تفكر الناس فيهما حق التفكر، وهما الأساس لغيرهما من بقية الحواس، أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة، من يهبها القدرة على أداء وظائفها مع حساسيتها لأدنى أذى، من يصححها أو يمرضها، من يصرفها إلى العمل أو يلهيها، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره.. ذلك ما كانوا يدركونه. وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر، ومن دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة. وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات أو تركيب الأذن وأجزاءها، وطريقة إدراكها للذبذبات، لعالم وحده يدير الرؤوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم الحديث، وإن كان الناس يهولهم جهاز يصنعه الإنسان لا يقاس إلى شيء من صنع الله، بينما يمرون غافلين بالبدائع الإلهية، لا يسمعون ولا يبصرون.

﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ : إن

مدلول السؤال عندهم مشهود في خروج النبتة، وخروج الفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ، إلى آخر هذه المشاهدات، وهو عندهم عجيب، وهو في ذاته عجيب. وإن وقفة أمام الحبة والنواة تخرج منها النبتة والنخلة، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منها الفرخ والإنسان، لكافية في استغراق حياة في التأمل. وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وأين كان يكمن العود؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق؟ وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء، والساق السامقة والعراجين والألياف؟ وأين كان يكمن الطعم والنكهة، واللون والرائحة، والبلح والتمر، والرطب والبسر؟ وأين في البيضة كان الفرخ؟ وأين كان يكمن العظم واللحم، والزغب والريش، واللون والشيات والرفرفة والصوات؟ وأين في البويضة كان الكائن البشرى العجيب؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته المنقولة عن وراثات موغلة في الماضي؟ أين كانت نبرات الصوت، ونظرات العين، واستعدادات الأعصاب؟

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ ﴾ : في هذا الكون الذي ذكر كله وفى سواه من شؤون الكون والبشر؟ من يدبر ناموس الكون الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق؟ من يدبر حركة الحياة، فتمضي في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق، والتي لا تخطئ ولا تحيد؟ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.(1)

تفرع على ذلك أن الله هو الإله الحق، فقال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢]:

وهذه هى الآية التالية لآية التقوى التي نحن بصددها. فبعد أن قررهم بما لا

---

(١) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٣/ ١٧٨١-١٧٨٢). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (٧/ ١٦٠-١٦١). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ٣٥٠).

يكون إلا من فعل الله وقدرته، وبعد أن أقروا بذلك، قال: أفلا يكون ذلك حاملاً لكم على تقوى الله؟ أفلا توحدونه وتطيعونه؟ ثم عقب في الآية الكريمة الأخرى بما معناه: فذلكم الذي يفعل ذلك هو الإله الحق، الذي لا يستحق سواه التقوى والعبادة، وإلا فكيف تُصْرَفون بعد هذه الأدلة البينة والبراهين الواضحة إلى الضلال؟ كيف تستسيغون ذلك أو تقبله عقولكم؟

وما زال حديث القرآن الكريم متصلاً عما يكون سبباً لتقوى الله تعالى، وبنفس الاستفهام التقريرى، فيقول: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]:

وهذه الآية التالية التي أمر الله تعالى بها نبيه ﷺ، ليوقف المشركين على الإقرار بهذه الأشياء التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها، ويلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا بالله، ويذعنوا لشرعه ورسالة رسوله ﷺ، أى أن الإقرار بأن هذه المخلوقات العجيبة لله تعالى لابد من أن يكون داعية لتقوى الله - جل وعلا، إذ خلق السموات وما فيها ومن فيها لاشك خلق عظيم يدل على التدبير والنظام، والترتيب البديع الذي لا يختل منه شىء، ولا يتقدم فيه شىء على شىء، ولا يتخلف عن عمله وسيره شىء، ليدل على خالق قادر، حكيم عليم، قوى مدبر، ينبغى أن تذعن له الحياة، وتسجد له العقول والقلوب، توحيداً له، وإيماناً به.

ونلاحظ على الآية:

- أن التعبير جاء برب السموات ورب العرش، لأن انفراد الله تعالى بالربوبية في السموات والعرش لا يشك فيه المشركون(١)، لأنهم لم يزعموا إلهية

---

(١) وفيه رد على سؤال هل كان الكفار يعرفون شيئاً عن العرش، والإجابة نعم بدليل تقريرهم على ذلك، وإقرارهم به، واعترافهم بأن ذلك لله، لأنهم كانوا يعرفون رباً في

أصنامهم في السموات والعوالم العلوية، فكان ذلك من أعظم الأدلة على بطلان شركهم، وعلى إثبات وجوده -سبحانه، وعلى وحدانيته، وانفراده بالملك المستلزم لانفراده بالطاعة والانقياد. وهو دليل على كل ملحد ومشرك في كل زمان ومكان على وجود الرب ووحدانيته، إذ لابد لمثل ذلك من خالق مدبر - جل وعلا.

- أن الإجابة على السؤال جاءت في قراءة جمهور القراء: (سيقولون لله)، بلام جارة لاسم الجلالة، وقرأ بعضهم: (سيقولون الله) بدون لام الجر، والمعنى واحد، فالثانى بالنظر إلى اللفظ، والأول بالنظر إلى المعنى، كقولنا: من صاحب الدار؟ فيقال: زيد، أو: لزيد. وقد جاء الجواب بالجر لأن المستفهم عنه لوحظ بوصف الربوبية، والربوبية تقتضى الملك، وقد أنشد القرطبى ومن تبعه:

إذا قيل: من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجُرد؟ قلت: لخالد[1]

وقد ختمت هذه الآية بالحث على التقوى بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، لأنه لما تبين من الآية قبلها أنهم لا يسعهم إلا الإقرار بأن ملك الأرض ومن فيها لله، دل على أنهم من ملكه - سبحانه، فهم مربوبون له، لا للأصنام. ولما أقروا في هذه الآية أن السماء والعرش كذلك - وهى أن السماء أعظم من الأرض وما فيها بما لا يقارن - ناسب حثهم على تقواه، لأنه حينئذ لا يستحق الطاعة سواه،

=

السماء وهى عرشه، وأن أصنامهم تقربهم إليه زلفى، وإلا لكان ردهم ما هذا الذي تسأل عنه؟ ولكان سبباً لطعنهم بأنه يخاطبهم بما لا يعلمون.

(١) انظر محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٦، (١٢/ ١٤٦). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٠)، (١٨/ ٨٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨/ ١١٠). والنسفى «مدارك التنـزيل»، (٣/ ٩٧).

وأن يطيعوا رسوله المخاطب لهم، لأن التقوى تتضمن طاعته كذلك ﷺ.(١)

وكان الختم بالتقوى في الآية أنسب في سياقه من التذكر الذي جاء في الآية السابقة لها، وهي: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾، لأن فيها الوعيد الشديد على ترك التوحيد واتخاذ الشركاء بعد الإقرار بها في السموات، مما يدل على ربوبيته - سبحانه - لما هو أعظم في نظرهم من الأرض وما عليها.

وحذف مفعول (تتقون) لتنزيل الفعل منزلة القاصر، لأنه دال على معنى خاص، وهو التقوى الشاملة التي تكون مطلوبة مع مثل هذا الإقرار من توحيده - جل وعلا - وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات.(٢)

وهكذا رأينا كيف ساق القرآن الكريم هذه الآيات التي يقر بها المخاطبون بدعوة الرسل، وسلك فيها سبيل الموعظة على لسان الرسل، لتكون من الأسباب والوسائل التي تحمل الناس على تقوى الله تعالى، وهي كذلك جديرة عند التأمل فيها أن تحمل كل أحد على تقوى الله تعالى، والقرآن الكريم ملىء بمثل هذه التقريرات التي لا يلتفت إليها أحد ولا يتعظ منها مبصر أو مستمع. وصدق إذ يقول - سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وهي في نفس الوقت زاد الدعاة المتفكرين في عظمة الله تعالى وحجتهم في الأخذ بأيدى الناس إلى طريق ربهم، ولكنها للأسف مع قوة برهانها ووضوح دلائلها طريق مهجورة لا يسلكها إلا النادر من العلماء العاملين.

وإذا كان كل ما سبق قد ذكره القرآن الكريم دلالةً على التقوى، فقد تبقى ما

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨/ ١١١).

(٢) المرجع السابق، (١٨/ ١١١).

وُصِفَ به القرآن من أنه هو نفسه بعربيته وما صرف فيه من الوعيد دليل على التقوى، وسبب لها، وبهذا المعنى جاءت الآيتان اللتان نختم بهما هذا المطلب.

الأولى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣].

وهذه الآية الكريمة تبين أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم بلسان عربى، المخاطبين به، ليفهموه، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، وليقطع عذرهم في عدم الإيمان به لو كان بغير لغتهم.

ولم يقتصر على ذلك بل ذكر لهم فيه ما ينبغى أن يكون سبباً لتقواهم، والتي هى طريق سعادتهم، من تكرار الوعيد وتنويعه.

وبالنظر في الآية نلاحظ:

١- منة الله تعالى في إنزاله القرآن الكريم، ليكون للناس نوراً يهتدون به في ظلمات الضلالة، وهادياً لهم من عمايات الجهل والغواية، وروحاً تحيا به قلوبهم لتسير على صراطه المستقيم، فتتحقق به سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]. متى التزموا تعاليمه ونفذوا أحكامه. وكان من تمام منته وعظيم حجته أن أنزله بلسان عربى مبين: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

٢- التنويه بشأن القرآن ونباهة قدره، حيث عطف ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ على ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه: ٩٩]، أى كما قصصنا عليك قصصاً لا يعادله في أسلوبه ومعناه ومقصوده قصص، أنزلنا إليك هذا القرآن العظيم، وأشار إليه بالضمير في ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ مع أنه لم يسبق له ذكر للإيذان

بنباهة شأنه، وكونه مركوزاً في العقول، حاضراً في الأذهان.[١] ونكر ﴿ قُرْءَانًا ﴾ ليفيد الكمال، أى أكمل ما يقرأ حيث يسرت تلاوته، وما ذلك إلا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه.

كل ذلك ليُتوصل منه إلى ما صرفه فيه مما يبعث على التقوى التي هى المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب، حيث قال بعد ذلك: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

أما التصريف فهو التنويع والتفنين، وذكر بعضهم أنه التكرار[٢]، فأفاد بذلك أنه كرر لهم من الوعيد، أى التهديد بأمور البعث والنشر والحساب والجنة والنار والصراط والميزان ومن أهوال القيامة وأخبار المكذبين من الأمم السابقة وما فعل بهم ما يحملهم بعضه على الخوف الباعث على الإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ، فلم يترك سبيلاً لتخويفهم حملاً لهم على التقوى إلا وعظهم به وصرفه إليهم، وأفادهم منه خبراً.

والآية الكريمة تفيد وجوب اتباع هذا الأسلوب من أساليب القرآن الكريم في دعوة الناس إلى الله تعالى، وحملهم على تقواه، وفطمهم عن المعاصى، لأن معنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ - بحذف مفعولها - أى يتقون الكفر والمعاصى، وأسلوب الترهيب عندما ينضم إلى ما ذكرنا من الترغيب قبل ذلك تكتمل به تربية النفوس، وتتوازن به الدعوة إلى الله تعالى، حيث جبلت النفوس على الانقياد لما يخوفها، وأنها إذا ما تركت بغير وعيد وتخويف انفلت زمامها، ولم

---

(١) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٤٩٢). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد٩، (١٦/ ٣٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤)، والألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١١١).

يسهل قيادها، فألفت المعاصي وركبت الشهوات، ولم ترعوِ إلا أن يأتيها النذير ويزلزلها التهديد، حينئذ تبدأ في التفكير والمراجعة، فالخوف يؤدب الجوارح، ويمنعها من الاستمرار في الغواية، ويكفها عن المحرمات.

فشمول الدعوة لهذا الأسلوب مما ينبغى المحافظة عليه، ولكن إلى الدرجة التي تؤتى ثمرتها، ويظهر فيه تأثير الموعظة، لا إلى الحال التي يعتاد فيها الناس سماع التخويف مع تبلد الإحساس وعدم الانتفاع به، خاصة عندما يقول الموعظة من لا يحسنها، أو لا تخرج من القلب، لذلك قال ابن مسعود ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة».(١)

٣- أما قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ ففيه:

أولاً: أسند التقوى لهم، وأسند أحداث الذكر للقرآن الكريم، لأن التقوى تسند للمكلف على أى معنى من معانيها، سواء الخوف أو ترك المعاصى، أو الالتزام بالأوامر والنواهى، أو الإيمان كما أشرنا إلى تلك المعانى، أما الذكر فلما كان هو الموعظة التي تحدث عند سماع القرآن، وكانت تتجدد بتكرار الوعيد، فناسب أن يسند إليه هذا الإحداث. وقد اختصر القاضى البيضاوى هذا المعنى في تفسيره، فقال: «﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ المعاصى، فتصير التقوى ملكة لهم. ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ عظةً واعتباراً حين يسمعونها، فتثبطهم عنها. ولهذه النكتة أسند التقوى إليهم والإحداث إلى القرآن».(٢) وعلى هذا الكلام جرى المفسرون من قبل البيضاوى وبعده(٣)، وإن خالفوا في بعض الألفاظ.

---

(١) البخارى (٧٠)، وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١/ ١٦٣). ورواه مسلم (٢٨٢١)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٧٩).

(٢) ناصر البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (٤/ ٧٢).

(٣) ذكر ذلك العلامة الألوسى «روح المعانى»، وقال: «على أن في القلب من التعليل شيئاً»، (١٦/ ٣٩٠).

ثانياً: تقديم التقوى على حدوث الذكر. فإن جعلنا ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى الواو للتنويع فيكون المعنى: لعلهم يتقون ويحدث لهم ذكراً، أى: يتقون المعاصى ويحدث لهم طاعة. على أن الذكر بمعنى الطاعة أو تذكراً يحمل على الطاعة، وهذا من باب التخلية والتحلية، حيث تقدم تخلية النفس عن المعاصى ثم تحليها بالطاعة، وهو معنى حسن أشار إليه العلامة الألوسى.(١) أو تكون ﴿ أَوْ ﴾ للتغاير، ويكون المعنى: لعلهم يؤمنون ويطيعون، أو يحدث لهم القرآن تذكيراً ونظراً فيما يحق عليهم أن يختاروه لأنفسهم.(٢) وتكون التقوى هنا أعم من ترك المعاصى فقط.

ثالثاً: قوله: ﴿يُحْدِثُ﴾ عبر به لأن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكراً لم يكن من قبل، قال ذو الرمة:

ولمـا جـرت في الجـزل جريـاً كأنـه ... سنا الفجر أحدثنا لخالقها شكراً (٣)

وهكذا رأينا كيف أنزل الله القرآن الكريم - المعجزة العظمى - وصرف فيه من الآيات - آيات الوعيد - ما يكون سبباً لتقواه - سبحانه، ليدل على عظيم منـزلة التقوى، ولزوم التحلى بها، والدعوة إليها.

والآية الثانية: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨].

أشارت الآية السابقة إلى أن الله تعالى أنزل القرآن عربياً، وصرف فيه من

---

(١) انظر: العلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ٣٩١). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٧/ ٣٨٦). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١١/ ٥٠). والثعلبى «عرائس التفسير» على هامش جامع البيان للطبرى، (١٦/ ١٣٦).

(٢) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤).

(٣) المصدر السابق، (١٦/ ٣١٥)، «ديوان ذى الرمة»، طبعة المكتب الإسلامى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً. أما في هذه الآية فقد امتن عليهم بالقرآن العربى نفسه لعلهم يتقون، ولكن بوصف جديد وهو كونه غير ذى عوج.

ونلاحظ على هذه الآية:

١- أن الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧] ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾. ومن ثم لم يصرح بالتذكر مرة أخرى، وإن كان هنا عبر برجاء التذكر ﴿ لَّعَلَّهُمْ ﴾، لأنه أنسب مع ضرب الأمثال، بخلاف التهديد في الأولى، حيث ناسب قوله: ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ إذ ذاك شأن الوعيد.

٢- ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾: جاءت ﴿ قُرْءَانًا ﴾ منصوبة على الحال من اسم الإشارة في الآية السابقة، أى حال كونه مقروءاً عربياً، مما يدل على منة الله تعالى في تيسير قراءته للناس باللسان العربى، حتى يفهموا عن الله تعالى مراده، ويكون عونهم في تحقيق أسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهناك معنى ثانٍ، وهو الثناء على القرآن باستقامة ألفاظه ونظمه، وإلا اختل المقصود من كونه ميسراً للتذكر أو مفيداً للتقوى.

وكذلك نزوله بلغة العرب نعى على المشركين الذين تلقوا القرآن تلقى من سمع كلاماً لم يفهمه كأنه بلغةٍ غير لغته لا يعيره بالاً، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان: ٥٨]، مع تحديهم بمعارضته وعجزهم عن ذلك.

وأما وصف القرآن الكريم في هذه الآية بأنه ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، فهو ثناء باستقامة معانيه. يقول الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» ما مختصره: «لأن العِوج (بالكسر) مختص بالمعانى دون الأعيان»، كما

ذهب إليه أئمة اللغة مثل: ابن دريد[١]، والزمخشرى، والفيروزابادى[٢]، وإن صحح المرزوقى في «شرح الفصيح» أنهما سواء. ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج أن عوج نكرة في سياق ما هو بمعنى النفى ﴿ غَيْرَ ﴾، فتفيد العموم، أى: ليس فيه عوج قط في أى معنى من معانيه، فيفيد ذلك استقامة معانيه وكمالها».[٣]

فاتضح بذلك أن القرآن الكريم قد أنزله الحق - جل وعلا - مستقيم اللفظ والمعنى، ومتى استقامت المعانى واتضحت كان العمل بما يدعو إليه أيسر، وهو تقوى الله - سبحانه، فكان مناسباً أشد المناسبة قوله: ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

---

(١) محمد بن الحسن أبو بكر بن دريد، له مجالس أدبية وعلمية، وله «ديوان ابن دريد»، تحقيق محمد بدر الدين العلوى، الجامعة الإسلامية، على كسره، ١٩٤٦م.

(٢) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن إدريس بن فضل الله الفيروزابادى ولد عام ٧٢٩هـ، ١٣٢٩م، لغوى مشارك في عدد من العلوم وتوفى عام ٨١٧هـ، ١٤١٤م، من تصانيفه الكثيرة القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط. انظر الضوء اللامع للسخاوى (١٠/ ٧٩-٨٦).

(٣) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/٣٩٨-٣٩٩). والزمخشرى «الكشاف»، (٣/٣٤٦). والفيروزابادى «بصائر ذوى التمييز»، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، تحقيق عبد العليم الطحاوى، (٤/١٠٧).

المطلب الرابع
مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك

اتفقت دعوة الرسل جميعاً في الدعوة إلى تقوى الله تعالى، وجاء بعض الخلاف في سياق دعوتهم التي ذكرها القرآن الكريم، وإنما كان ذلك لاختلاف المدعوين في وقوعهم في مخالفات أخرى غير الشرك، فقص القرآن ذلك عبرة لمن بعدهم وإرشاداً لهم في دعوتهم.

ونبدأ بقصة نوح عليه السلام فنلاحظ أنها ختمت بقوله تعالى مرة أخرى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٨] على خلاف بقية القصص التالية من قصة هود وصالح وشعيب - عليهم السلام - حيث أخرت هذه الجملة بعد جملة أخرى لها معانٍ متعلقة بطلب التقوى والحض عليها أيضاً.

أي أنه بعد أن قال تعالى في قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٩] قال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾، أما بقية القصص فقال في قصة هود: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٧] ثم جاء تعبير القرآن بقوله: ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، ثم جاءت جملة الأمر بالتقوى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾، ثم استأنف الأمر بها مع علته، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٢] إلى آخره. وفي قصة صالح وشعيب - عليهما السلام - فصل كذلك بينهما، وإن لم يعقبهما باستئناف الأمر بالتقوى، والسبب في ذلك أن دعوة نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى وإلى تقواه استغرقت زمناً طويلاً كما هو معروف، ولم يعلم عنهم ما أثر عمن بعدهم من الأمم من المعاصي والذنوب، سوى الشرك، لذلك كانت قصته عليه السلام

كلها في الدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك وعبادة الأوثان التي اشتهروا بها وقالوا فيها ما ذكره القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح: ٢٣]، فكان أن جاء التأكيد مرة أخرى على تقوى الله وطاعة رسوله، أو بمعنى فاتقوا الله أى خافوا الله من عاقبة الإشراك به مؤكداً مرة أخرى على توحيده.

أما الأمم التالية فقد ظهر فيها - علاوة على الإشراك بالله تعالى والتكذيب بالبعث والحساب - أمراض أخرى كالظلم والبغى واللواط وتطفيف الكيل، مما استدعى - إضافةً إلى دعوتهم إلى الإيمان بالله - أمرهم بترك المعاصى والمنكرات، وتحذيرهم مغبة ذلك، وهو ما يتضح في قصة هود وصالح وشعيب - عليهم السلام.

ففى قصة هود عليه السلام نراه بعد دعوته قومه إلى الإيمان به -سبحانه- وتوحيده، وبعد إشارته إلى أنه - كما قال نوح عليه السلام عن نفسه - أمين في ذلك ولا يبغى مالاً ولا غيره، منـزه عن الطمع في شيء من ذلك، رأيناه عليه السلام ينكر عليهم أموراً قبيحة يأتونها تستلزم أن يدعوهم فيها إلى تقوى الله مرة أخرى، وينذرهم العذاب الأليم إن لم يتركوا ذلك، وهى في قوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ أى أتبنون في كل طريق من طرق السائرين في هذه الصحراء المهلكة بناء تعبثون منه بأبناء السبيل، بدلاً من هدايتهم في طريقهم ومعاونتهم بالضيافة وغيره إلى أن يصلوا سالمين إلى بلادهم وأهليهم، كى تنالوا بذلك رضا الله تعالى في الأولى والآخرة، وكذلك دعاء الناس وثناءهم.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ : أى تشيدون تلك الصهاريج الضخمة تحت الأرض لتخزين الماء، على قول بعض أهل العلم، وعلى قول البعض الآخر أنها القصور المشيدة، تنسون بذلك الآخرة ولقاء الله تعالى، وترجون بذلك الخلود في الدنيا. وهو أسلوب تهكم بهم، إذ هم يرون

بأعينهم الموت وفعله بالناس، وأن ليس ثَمَّ أحد مخلد فيها.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ : وإذا بطشتم بالسيف أو السوط بطشتم جبارين: بغشم بلا رأفة، ولا قصد تأديب، ولا نظر في عاقبة، بل باعتساف وظلم، لا يقدر لكل ذنب ما يستحق من العقوبة، وقد كرر جواب الشرط بلفظه لإظهار المبالغة.(١)

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ : وكان الترتيب المنطقى لدعوة الحق، أنه بعد أن عدد لهم الموبقات التي يرتكبونها ونبههم إلى عاقبتها، أن يحذرهم منها، ويأمرهم بما يكون سبب نجاتهم من وبيل عذابها، وهو تقوى الله تعالى. فتقوى الله سبب النجاة وعنوان البقاء والظفر، وتركها سبب العذاب، حيث قال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٥]. وهكذا يتعلم الدعاة إلى الله تعالى من الأنبياء منهج الدعوة إلى تقوى الله، وكيفية الحث عليها والأمر بها، والتنبيه على ما يكون من منكرات تكون سبب غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة، وقد دل توبيخه عليه السلام إياهم بما ذكر من استيلاء حب الدنيا والكبر على قلوبهم، بأنه الذي أخرجهم عن عبوديتهم لله تعالى، ومقصود الدعوة والدعاة إرجاع الناس إلى عبودية الله تعالى.

لم يقف هود عليه السلام في أمرهم بتقوى الله عند حد الإنكار على المنكرات والمعاصى، بل تعدى ذلك إلى شيء مهم يدفع الناس إلى تقوى الله تعالى، وهو تذكيرهم بنعمته عليهم. فإذا كان قد خوفهم مغبة معصيتهم ليدفعهم إلى تقوى الله، فإنه هنا يذكرهم بنعمته سبحانه ليكون شكرها هو تقوى الله كذلك، خاصة وأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

---

(١) انظر الألوسى «روح المعانى»، (١٢/ ١٦٥). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٦٨). وغيرهما.

وإن شكر هذه النعم يكون بتصريفها في مرضاة مسديها والمتفضل بها سبحانه، وفي ذلك بقاؤها وزيادتها. وإن ترك الشكر يكون كفراناً بهذه النعم يستوجب العقاب منه، مع ذهاب تلك النعم: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

من ثم وجدنا الآيات الكريمة تذكر ذلك بعد قوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾، ولكنه بنى الكلام على عطف الأمر بالتقوى على الأمر الذي قبله، تأكيداً له واهتماماً بالأمر التقوى.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» بعد إيراده الكلام السابق: «وإنما أُتِي بفعل ﴿ اتَّقُوا ﴾ معطوفاً، ولم يؤت به مفصولاً، لما في الجملة الثانية من الزيادة على ما في الجملة الأولى من التذكير بإنعام الله عليهم فعُلق بفعل التقوى في الجملة الأولى اسمُ الذات المقدسة للإشارة إلى استحقاقه التقوى لذاته، ثم بفعل التقوى في الجملة الثانية اسم موصول بصلته الدالة على إنعامه للإشارة إلى استحقاقه التقوى لاستحقاقه الشكر على ما أنعم به».(١)

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن القرآن الكريم ذكر إمداده - سبحانه - لهم بالنعم إجمالاً: ﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ ليهيئ كذلك السامعين لتلقى ما يرد بعده، ثم فصّل تلك النعم مع إعادة الفعل «أمدكم» ليشعر بأهمية وعظيم هذا الإمداد منه تعالى، كي يتفكروا به في تقوى الله - جل علاه، ويكون عوناً لهم على ذلك.

وعلى عادة القرآن الكريم في ذكر الأمور المهمة تنبيهاً على غيرها، ذكر هذه النعم الثلاث: الأنعام والبنين والجنات والعيون من جملة النعم العظيمة عليهم.

وابتدأ بذكر الأنعام لأنها أجل النعم عليهم، لأن منها أقواتهم ولباسهم

---

(١) انظر محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٦٩).

وعليها أسفارهم وهى دليل الغنى عند العرب، حيث تحصل بها الرئاسة في الدنيا والقوة على من عاداهم. وعطف بالبنين لأنهم عونهم على الحياة وكثرة أمتهم وذكرهم من بعدهم، ولأنهم يستعينون بهم في حفظها والقيام عليها. وعطف بالجنات والعيون، لأنها رفاهيتهم ورغدهم بعد ذلك حيث اتساع رزقهم وعيش أنعامهم وإتمام النعمة عليهم.

وجاءت جملة: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ ﴾ [الشعراء: ١٣٥] مرة أخرى لتؤكد قيمة التقوى التي يدعوهم إليها وأهميتها، إذ أن هذه الجملة تعليل لإنكار عدم تقواهم، أى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إذا لم تتقوا، وهى في نفس لوقت أمر بتقوى الله تعالى.

ووصف اليوم بالعظيم مجاز عقلى، أى إن ما يقع فيه من أهوال سيكون عظيماً، بمعنى أنهم لن يستطيعوا له رداً ولا دفعاً، وهذا من شأنه أن يدفعهم دفعاً ويسوقهم بكل الطرق إلى تقوى الله.(١)

وضحت تلك الآيات الكريمة السبيل الذي سلكه أنبياء الله تعالى في دعوة الناس إلى تقوى الله، وهذا يحتاج منا إلى وقفة تأمل تبصرنا بهذا الطريق، لنهدى أنفسنا وغيرنا إلى تقوى لله، وتلك مهمة أتباع الرسل، التي يستنقذون بها أمتهم من الدمار الماحق الذي يحيط بهم.

وأما قصة ثمود فقد تكررت فيها الآيات الأولى الآمرة بالتقوى كقصة عاد، وهى تبين وحدة الرسل في الدعوة إلى توحيد الله - جل علاه - ونبذ الشرك مع الإنكار على كل معصية وقعت فيها كل أمة من هذه الأمم. ولكن في قصة عاد - كما ذكرنا - وبخهم هود ﷺ على منكراتهم، وفرع على ذلك أمرهم بالتقوى، ثم

---

(١) انظر أبا حيان الغرناطى «البحر المحيط»، (٨/ ١٧٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٧٠). وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ١٢٢).

أمرهم بالتقوى مرة أخرى لما أسدى لهم من نعم، إجمالاً وتفصيلاً. أما في قصة ثمود فقد أعلن رسولهم صالح ﷺ بالتوبيخ على منكراتهم، وحذرهم مغبة التمادى في ذلك ثم أمرهم بتقوى الله وفى طى الإنكار عليهم كان تذكيرهم بالنعم التي لم يشكروها، إذ كانت سبب بطرهم وتكبرهم، وخروجهم عن أمر الله تعالى، فلم يستأنف لشكر النعم الأمر بالتقوى كما حدث في قصة عاد إذ كانت في طيها، وكان حديثه مهتماً بالسبب الذي جعلهم كذلك وهو طاعة المسرفين فركز عليه، وهذه الآيات هى قوله تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

وهذه الأمور التي أنكرها عليهم منكرة في كل عصر وآن، وإن كان ظاهرها يوحى بالسؤال التالى: ما المنكر في ذلك؟ ولتقريب المعنى نسوق هذه الصورة المنكرة من عصرنا الحالى: فكلنا يعرف هذه الطبقة التي أغتنت فجأة في العقدين الأخيرين بشكل يثير التساؤل والحيرة، ثم بدأت في تصريف هذه الأموال في بناء القصور والفيلات الفخمة، وحشوها بما لم يسمع به معظم الناس، خاصةً على الشواطئ، وأحاطوا ذلك بالجنات والعيون؛ صناعية وطبيعية، وتفننوا في اقتناء كل وسائل المتع والترفيه. لقد قرع آذاننا وصكها صكاً عنيفاً الطرق السفيهة التي تنفق فيها تلك الأموال، وتصرف فيها الأوقات من لهو ومجون مما لا يخطر على بال.

وقد وقف أهل العقل والفكر والدين موقف المنكر، موقف المتحسر المتألم الذي يرى في ذلك وباءً شديداً ومنكراً خطيراً في محاولة منهم لوقفه أو حصر آثاره. كان موقف صالح ﷺ إذن ضرورياً لوقف هذا البلاء الذي يأخذ الصالح

والطالح.

وقف إذن صالح عليه السلام وقفة المنكر المحذر، الذي يدعو إلى تقوى الله، آمراً لهم كذلك بأن يطيعوا رسولهم، وألا يطيعوا أمر المسرفين السفهاء الماجنين، الذين يظنون أنهم بأموالهم وما هم فيه من أمن ورفاهية خالدون مخلدون.

ألا يطيعوا أمر المسرفين، إذ هو أمر بالفساد لا صلاح معه. ولقد كان يكفى أن ينهاهم عن طاعة المسرفين، ولكنه أعقبه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾، كأن فسادهم لا حيلة فيه، إذ لا وجه لأى خير أو صلاح منه، بل هو محض الفساد الذي يجب أن يجتنبوه، وأن يتوبوا إلى الله منه، حتى لا يحل عليهم غضبه، ويحيق بهم عذابه.

إن استمرارهم في شركهم، وركوبهم تلك المعاصى التي نسوا بها آخرتهم، ولهوا بها عن الموت والحساب والاستعداد له، جعلهم مستحقين لعذاب الله، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وأخذهم عذاب يوم عظيم، وما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

إن الدعاة إلى الله تعالى مكلفون بالدعوة إلى تقوى الله وعدم الكف عن ذلك، وإن الدعوة إلى الله – سبحانه – في مثل تلك الأحوال لهى من أهم الأمور لأن هذه الظواهر نذير شؤم ومقدمة سوء يخشى على الجميع من عاقبتها، كما أرشدت الآية الكريمة.

قصة شعيب عليه السلام:

بدأت قصة شعيب عليه السلام مع قومه كما بدأت القصص السابقة بأمرهم بتقوى الله تعالى وتوحيده، وترك الشرك به – سبحانه. والكلام فيها هو نفس الكلام في كل القصص.(١)

---

(١) يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

وكان قد انتشر فيهم ما ذكره الله تعالى عنهم من تطفيف الكيل، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، علاوة على ما ذكر من شركهم وهى منكرات غير منكرات سابقيهم، فاقتضى أمر الله أن ينهاهم عنها، يقول الله - جل ذكره - عن شعيب ﷺ وهو ينكر عليهم ويأمرهم بالحق بعد دعوتهم إلى توحيد الله: ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٤].

وقد رأينا في قصة هود ﷺ قوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ مكرراً لهم الأمر بالتقوى، وقد ناسب ما هم فيه من العظمة والأبهة ليتقوا الله، إذ هو مصدر ذلك.

أما هنا مع أصحاب الأيكة فلم يتكرر معهم ما ذكر في قصة «عاد» من قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ بل ذكرهم شعيب ﷺ بالمناسب لما هم عليه من الأوصاف السيئة السابقة ليردعهم عنها لأنهم لم يكونوا في شيء من هذا، بل كانوا يطففون الكيل، ويسرقون الناس، ويقطعون الطريق،

=

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ، والكلام في التقوى كما هو في الكلام في قصة نوح ﷺ، ولكن القرآن الكريم ذكر هنا شعيباً ﷺ بغير وصفه بأنه أخوهم. والعلة - كما يقول الإمام ابن كثير - أن الأيكة هى شجرة كانوا يعبدونها، فلم يناسب أن يذكرهم بأخوتهم في ذلك، ولما جاء ذكر مدين قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وهى أخوة النسب كما أسلفنا القول، وبناء على قول الإمام ابن كثير فإن أصحاب الأيكة هم أنفسهم أهل مدين، ولكن ذهب كثير من أهل العلم إلى أن أهل مدين غير أصحاب الأيكة، وأرسل شعيب ﷺ إليهما معاً. انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٦٩). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣/ ٣٤٥).

ويغيرون على الآمنين سلباً ونهباً، فكان أن ذكرهم شعيب عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ أى الأولين الذين كالجبال في قوتهم وظنهم البقاء والخلود قد دمرهم ومحاهم، وأنتم لستم في شيء مثل ذلك، فأولى بكم تقوى الله وطاعته، وهو ما يفيده لفظ الجبلة (المأخوذة من الجبل)، فانظروا ماذا فعل بهم، لتتقوا الله وترجعوا عما أنتم فيه، إذ يحمل الأمر بالتقوى هنا على التهديد بأن يلحقهم ما أصاب غيرهم ممن هم أشد منهم إذ لم يتقوا الله، ويتوبوا إليه ويتركوا ما يغضبه - سبحانه. وقد ذكرهم شعيب عليه السلام لذلك بقوم يعرفونهم يفعلون شيئاً من السوء مثلهم فأخذهم الله، وهم قوم لوط، فقال: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩] حيث كان من قبائحهم ما يفعل أهل مدين من الإفساد في الأرض، إذ يقول المولى عنهم: ﴿ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فارتقبوا عقاباً مثلهم إذا لم ترتدعوا وتتوبوا إلى هداية الله وتقواه.

وفى النهاية بينت الآيات منكرات ينبغى التنبيه عليها من أهل الدين والإصلاح والإرشاد في كل زمان، خشية مغبتها وسوء عاقبتها، وأن يميز الدعاة كذلك كل دواء ليداوه بما يناسبه من العلاج.

قصة لوط عليه السلام:

بدأت القصة بما بدأ به غيرها من القصص السابقة عليها بدعوة لوط عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى، ولكنها خالفتها في عدم تكرار الأمر بالتقوى البتة على خلاف كل القصص الأخرى، حيث قال الحق على لسان لوط عليه السلام بعد الآيات الأولى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. فبعد أن أمرهم بتوحيد الله وتقواه ثنى - كما رأينا من قبل - بإنكاره عليهم ما اختصوا به

من منكرات، وهى: مخالفتهم الفطرة بإتيانهم تلك الفعلة الشنيعة، فعلة إتيان الرجال من دون النساء، وهى جريمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، مع إفسادهم في الأرض، وإتيانهم المنكر في ناديهم ومجتمعاتهم. وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ولم يعد لوط ﷺ إلى أمرهم مرة أخرى بتقوى الله تعالى، كما رأينا في قصص بعض الأنبياء قبله، ولعل ذلك يبينه سياق هذه الآيات وغيرها من الآيات في سور أخرى.

أما سياق هذه الآيات، فقد قال لهم ﷺ بعد الأمر بالتقوى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾، فلم يكن مناسباً بعد مجابهتهم بأنهم معتدون يستحقون العقاب على عدوانهم أن يقول: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾، خاصة وأن ردهم الفورى على ذلك كان: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، أما الرد الثانى، الذي قطعوا به كل سبيل في الطمع في تقواهم ورجوعهم إلى الله تعالى، والذي يمتنع معه أن يقول لهم مرة أخرى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ فهو قولهم الآثم: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فكان جزاؤهم أسوأ جزاء أوقعه الله تعالى بقوم كافرين فاسقين، ولم يمهلهم - سبحانه - أكثر من ذلك، لأن أمثالهم لا يستحقون إلا سوء العذاب في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١]، علاوة على سخرية هؤلاء الأبخاس بأهل الطهارة والعفاف، والتي كانت سبباً كذلك في زيادة وطأة العذاب عليهم، حيث قالوا مستهزئين: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

وقد ذكر الله تعالى أن هذا العذاب ليس بعيداً عن كل من يفعل هذه الفعلة

الشنعاء، خاصة أولئك المستهزئين اليوم بأهل الطهارة والعفة والصيانة فقال - جل ذكره: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]. ففى الآية الكريمة التحذير الشديد من هذه الجريمة النكراء، وأن عذاب الله ليس بعيداً من أصحابها في أى زمان ومكان.

الفصل الرابع

أسباب التقوى

بعد أن تبينت لنا أهمية التقوى، ورأينا الأمر بها بكل الأساليب التي تحض عليها، وتحمل المرء على التزامها، وأنها دعوة الرسل، والتي سلكوا كل السبل لدعوة الناس إليها، جاء هذا الفصل ليوضح لنا الطريق إلى تحقيق هذه التقوى. وها هى ذى هذه الأسباب.

المطلب الأول : الإيمان.
المطلب الثانى : العبادة.
المطلب الثالث : الأخلاق والسلوك.
المطلب الرابع : التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة.
المطلب الخامس : صفات المتقين.

المطلب الأول
الإيمان

لاشك أن الإيمان بالله هو أول أسباب تقوى الله تعالى، خاصة وأن دعوة الرسل كانت للإيمان بالله - سبحانه، وقد رأينا أن عمادها الأول الدعوة إلى تقوى الله تعالى، وبها تبين أن الدعوة إلى التقوى هى الدعوة إلى الإيمان، وعليه فلا تقوى إلا بترك الشرك وعبادة غير الله تعالى، وهى أولى مراتب التقوى.

هذا هو الأمر الأول. والأمر الثانى أن الآيات قد دعت المؤمنين بعد ذلك إلى تقوى الله، مما يبين أن الإيمان المقصود لتحقيق التقوى إنما هو درجة فوق ترك الشرك، وهو المقصود الأصلى هنا، وهو الإيمان الذي يباشر القلب، ويخالط شغافه، فيفيض على الجوارح الطاعة والالتزام، والمسارعة إلى الخير. هذا الإيمان الذي يزرع في القلب محبة الله تعالى، والخوف منه، والرجاء فيه، والطمأنينة بذكره، والأنس به، والشوق إلى لقائه. الإيمان الذي يملأ القلب بالتوكل والرضا، والثقة فيما عند الله، والصبر واليقين في الله تعالى، فيعصم الجوارح عن المخالفات والمعاصى، ويحملها على طاعة الله تعالى والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والاستعداد للآخرة. وقد دل على مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفى حصر أسباب التقوى، أى الآيات التي تبين تلك الأسباب، وجدتها محصورة في صفات المتقين الذين ذكر الله تعالى في كتابه الكريم، فكان لزاماً رصد ذلك، وتفصيل القول فيه. وكان نصيبه المطلب الأخير في هذا الفصل، وكانت

هذه المطالب كالمقدمة له.

وكما نوهنا أكثر من مرة فإن الإيمان هو الدرجة الأولى في التقوى، إذ لا يتقى المشرك النار إلا بالإيمان، ثم يرتقى بعد ذلك في درجات التقوى، ودرجة الدين العليا هى الإحسان، كما صرح ﷺ في حديث جبريل لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ولما كان الإيمان والإحسان مرتبطين بالتقوى، كان لابد من توضيح ذلك.

ونبدأ بتعريف الإيمان والإحسان لغةً وشرعاً واصطلاحاً.

والإيمان لغةً: التصديق[١]، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧]. وأما شرعاً: فهو تصديق النبى ﷺ فيما جاء به عن ربه، وقد عرفه النبى ﷺ كذلك بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره». وأما اصطلاحاً: فقد اصطلح أهل السنة على كونه قولاً وعملاً يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

أما الإحسان في اللغة فهو على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثانى: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً.[٢] وأما في الشرع، فقد عرفه النبى ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهو متوافق مع المعنى الثانى في اللغة، وهو الإحسان في الفعل، وهو أن يصل في عبادته إلى تلك الدرجة الحسنة.

وأما عن حد الإيمان عند أهل السنة وعلاقته بالإسلام والإحسان، وأنْ ذلك اعتقاد المتقين، فقد ذهب جمهور أهل السنة إلى أن الإيمان قول وعمل، والمقصود بالقول: النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل

---

(١) انظر الرازى «مختار الصحاح»، مادة أ م ن. والاصبهانى «المفردات في غريب القرآن».

(٢) الأصبهانى «المفردات في غريب القرآن»، مادة ح س ن.

القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات، وبذلك يكون الإيمان تصديقاً بالجنان ونطقاً باللسان وعملاً بالأركان، ولكن العمل شرط في كمال الإيمان، ومن ثم كان الإيمان يزيد وينقص، ويعلم المرء ذلك من يقينه وتوكله وعبادته في اختلاف الأحوال.

وعليه لا يكون المرء مسلماً حتى يقر بلسانه مع التصديق بالقلب، فمن آمن بقلبه ولم يقر بلسانه فهو كافر في أحكام الدنيا، ومن أقر لسانه ولم يعتقد بقلبه فهو منافق تجرى عليه أحكام الإسلام في الدنيا، وهو في الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ومن اعتقد الإيمان وأقر بلسانه دخل الإسلام ظاهراً وباطناً، ثم يرتقى في أعمال الإيمان بما يظهر صحة هذا الإقرار، ولكن انتفاء الأعمال لا ينتفى بها الإيمان بالكلية، لأن الرسول ﷺ كان يقبل الإسلام ممن جاء مقراً به، ثم يتعلم الإيمان ويتدرج في مراتبه.

فارق بذلك أهل السنة فرق الضلال من المعتزلة والخوارج والمرجئة، أما المرجئة فقد قالوا الإيمان اعتقاد ونطق فقط، وإيمان من أتى بذلك كإيمان جبريل عليه السلام، وهو كما يظهر بين الخطأ، أما الخوارج والمعتزلة فقد اشترطوا العمل، فمن أقر بالشهادتين وترك العمل فهو كافر عند الخوارج مخلد في النار، وهو عند المعتزلة في منـزلة الفسق بين المنـزلتين، لا كافر هو ولا مؤمن، ولكنه مخلد في النار كاعتقاد الخوارج(١)، وهو كلام ممعن في الضلال كما يظهر.

أما عند أهل السنة فإن مرتكب الكبيرة لا ينتفى عنه اسم الإيمان بالكلية، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، ومن ثم قال الرسول ﷺ : «شفاعتى

---

(١) انظر ابن أبى العز «شرح العقيدة الطحاوية»، (ص٣١٣-٣٢٨). وابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ٤٦-٤٧).

لأهل الكبائر من أمتى».[(١)]

هذا الاعتقاد هو اعتقاد المتقين، بمعنى أن أهل التقوى كما ميزتهم الأعمال ميزهم الاعتقاد الحق، وإلا كانوا من أهل البدع، وهم كلاب أهل النار، لذلك كان مهماً ذكر هذا الاعتقاد، لأن من درجات التقوى تقوى البدعة، والتي شدد فيها العلماء تشديداً عظيماً، إذ هى خروج عن اعتقاد النبى ﷺ والسلف الصالح، والتي تبين أن أصحابها مهما أوتوا من علم وعمل فليسوا متقين، ولا يخفى ما قال النبى ﷺ في الخوارج مع ما كانوا عليه من الاجتهاد في العبادة، وفى القدرية وهم نفاة القدر «المعتزلة» مع كانوا عليه من العلم والعمل.

أما علاقة الإسلام والإحسان بالإيمان فتقدم تعريف الإسلام، ثم نوضح العلاقة بينهم بعد ذلك.

هذا تعريف الإسلام، وقد عرفنا الإيمان والإحسان من قبل، فحسب تعريف النبى ﷺ في حديث جبريل فإن كل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، وليس العكس، ولأن الله تعالى قال: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وكذلك: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، فإنه نفى عنه الإيمان الذي لا يبقى معه الإسلام، أى وهو مسلم، لأنه لو نفى أصل الإيمان لكان كافراً، وهذا ليس اعتقاد أهل السنة، إذ الزانى له حد في الشرع ولا يكفر.

فإن قيل: قد عرف النبى ﷺ الإيمان بما عرف به الإسلام، فقال لوفد بنى عبد القيس: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

---

(١) الحديث رواه الترمذى (٥٥٩٨) من حديث أنس، وابن ماجه (٥٥٩٩) من حديث جابر. انظر الإمام محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى «مشكاة المصابيح»، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط. المكتب الإسلامى، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

«شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»[١]، فما علاقة الإسلام بالإيمان؟

أجاب أهل العلم بأن الإسلام والإيمان من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، بمعنى إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان والإحسان، كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، والدين كما في حديث جبريل هو الإسلام والإيمان والإحسان. وإذا اجتمعا افترقا، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فإن الإيمان غير الإيمان هنا، وتفسيرهما في حديث جبريل.

تلك هى العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان. فإن قيل: ما دخل ذلك بالتقوى؟ قلنا: المتقون لهم اعتقادات نظرية وأعمال ظاهرة، هذه هى اعتقاداتهم الباطنة التي لابد من اعتقادها، لأن أى خروج عنها زيغ عن الصراط المستقيم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فبينت الآية أن اتباع هذا السبيل وعدم الزيغ عنه إلى تلك السبل الخارجة يرجى به تقوى الله تعالى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعلم الحق فيه.

ولا شك أن للإيمان نواقض، إذا أتاها المرء عالماً قاصداً مختاراً كفر وخرج عن الدين، ولما كان اختيار الباحث في فصل «التقوى ودعوة الرسل» أن التقوى هى الإيمان وترك الشرك، وأن الرسل عليهم السلام، دعوا أقوامهم أول ما دعوا إليها، فمعنى ذلك أن الكفر نقيض التقوى، وقد جاءت فعلاً آيات قرآنية عديدة تبين أن الكفر مقابل للتقوى، وأن الكافرين في مقابل المتقين، وها هى أمثلة لتلك المواضع دليلاً لهذا القول، وتعظيماً للتقوى وخطر شأنها:

---

(١) رواه البخارى (٥٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (١/ ١٢٩).

١. ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].
٢. ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].
٣. ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].
٤. ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].
٥. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وضحت هذه الآيات الكريمات أن الكفر والظلم والفجور والإجرام واللدد كل ذلك في مقابلة التقوى، وكأن ذلك دليل على ما وراءها من الصفات، وأن كل ذلك في مقابل التقوى وأن المرء لا يكون تقياً إلا بأن يتخلص من تلك الصفات. وقد بينت أيضاً أن عاقبة المتقين في مقابل عاقبة الكافرين المجرمين. كل ذلك حثاً على الإيمان والتقوى، وتحذيراً للكفار من التمادى في شركهم وظلمهم.

أما الآية الأولى فسياقها: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

فبعد أن مثل القرآن الكريم الجنة التي وعد المتقون، أكد بقوله تلك عقبى أى العاقبة الحسنة للذين اتقوا، وأظهر في مقام الإضمار حيث كان يمكن أن يقال تلك عقباهم، وذلك لإظهار شرف أهل التقوى، وليميزهم في مقابل الكافرين، فيظهر بذلك فضل التقوى وعاقبتها.

وأما الآية الثانية فهى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]، وكذلك بينت هذه الآية عاقبة المتقين في النجاة من النار، وعاقبة الكفرة في بقائهم فيها، ووصفتهم بصفة من

أسوأ صفاتهم وهى الظلم تنبيهاً على أن الظلم كذلك في مقابلة التقوى وإن كان الظالمون هنا هم الكافرين وقد بسطنا شرح هذه الآية في موضعه.

وصفت سورة مريم الكفار قرب نهايتها بصفتين أخريين غير الظلم وكل ذلك في مقابل صفات التقوى هما الإجرام واللد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

والآية الأولى تبين شرف أهل التقوى وحسن ورودهم على الله تعالى، وأنهم يحشرون راكبين على هيئة الوفود المكرمة، والمجرمين يساقون إلى جهنم على هذه الهيئة المزرية عطاشاً.(١)

والثانية تبرز البشارة لأهل التقوى، والإنذار الشديد لمقابلهم من أهل الخصومة الشديدة والعناد، وهى كذلك صفة الكفرة الذين تأبوا أشد الإباية على الإيمان.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية ما حاصله: وعبر عن الكفار بقوم لد ذماً لهم بأنهم أهل إيغال في المراء والمكابرة، والتصميم على الباطل وفى الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»، وقد حسن مقابلة المتقين بقوم لد، لأن التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولد.(٢)

والموضع الأخير في سورة «ص» هو قوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

---

(١) انظر صديق خان «فتح البيان»، (٦/ ٥٦-٥٧).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ١٦٧-١٧٧). و الحديث رواه البخارى (٢٤٥٧) من حديث عائشة، ومسلم (٢٦٠٧).

وهذه الآية الكريمة سيقت مساق الرد على منكري البعث والحساب والثواب والعقاب، و«أم» منقطعة والاستفهام فيها للإنكار، والمراد لو بطل الجزاء كم يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر، ومن سوى بينهما كان سفيهاً.(١)

وهذا ما يبين خلاف التقوى من الكفر والفجور إذ الفجار من شعارهم الفجور وهو أشد المعصية، والمراد به: الكفر وأعماله التي تراقب أصحابها التقوى، كان تبيين حقيقة التقوى، وكذلك تبيين أن من أضداد التقوى الكفر والظلم ... إلى آخره ليكون دافعاً جديداً لتقواه سبحانه، وتصحيح الإيمان، والترقي في درجات الإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٤٢].

---

(١) انظر الزمخشري «الكشاف»، (٣/ ٣٢٦).

المطلب الثاني
التقوى والعبادة

لاشك أنه بعد الإيمان بالله تعالى وتصحيحه اعتقاداً وعملاً، لابد للمؤمن من سلوك طريق العبادة ليتحقق بأسباب التقوى المفضية إليها، وليظهر بذلك حقيقة إيمانه، إذ لكل شيء حقيقة وحقيقة الإيمان أن يظهر على الجوارح أعمال الطاعة وأنوار العبادة لتصدق هذا الإيمان، فكانت العبادة السبب الرئيسى بعد الإيمان للوصول إلى تقوى الله تعالى.

وقد أشرنا في نهاية المطلب الأول أن قد أخرنا صفات المتقين لنهاية الفصل لنجمع بذلك كل ما أشار إليه القرآن الكريم من أسباب التقوى، ونفصل القول فيها. ولكن لابد مع ذلك من الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

وبالنظر في الآية الكريمة لأول وهلة يرى المرء ما ظاهره التناقض عند تفسير الآية، إذ التقوى كما عرفناها في أول البحث إنما جانبها الأهم هو العبادة، فيكون معنى الآية الكريمة الأولى التي معنا: يا أيها الناس اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو: اتقوا ربكم لعلكم تتقون، على حد تعبير الفخر الرازى في تفسير الآية[(١)]، وكذلك في مفردات العبادة، كقوله تعالى في الصيام: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أو في الأمر بما هو أعم من العبادة على حد التقسيم الفقهى: العبادات والمعاملات.. الخ، كقوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ٦٣]. ومن فروع ذلك قوله - جل وعلا: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

---

(١) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٤٩٠-٤٩١).

ونطالع كلام أهل العلم الذين أشاروا إلى توضيح ما سبق، لأن بعض المفسرين قد ترك الحديث رأساً على التقوى ولم يشر إلى معناها، ظناً مثلاً أنها واضحة المعنى، كالحافظ ابن كثير.(١)

ونبدأ بكلام الإمام الفخر الرازى، حيث هو من قد علمنا الذي أثار السؤال السابق، أعنى قوله: «اعبدوا الله لعلكم تعبدون»، وأجاب عليه، وها هو رده - رحمه الله تعالى، يقول:

«والجواب من وجهين: الأول: لا نسلم أن العبادة نفس التقوى، بل العبادة فعل يحصل به التقوى، لأن الاتقاء هو الاحتراز عن المضار، والعبادة فعل المأمور به، ونفس الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضار، بل يوجب الاحتراز، فكأنه تعالى قال: اعبدوا ربكم لتحترزوا به عن عقابه، وإذا قيل في نفس الفعل إنه اتقاء فذلك مجاز لأن الاتقاء غير ما يحصل به الاتقاء، لكن لاتصال أحد الأمرين بالآخر جرى اسمه عليه. والثانى: أنه تعالى خلق المكلفين لكى يتقوا ويطيعوا على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكأنه تعالى أمر بعبادة الرب الذي خلقهم لهذا الغرض، وهذا التأويل لائق بأصول المعتزلة».(٢)

ونلتقط كلام الإمام الرازى في الوجه الثانى لنستكمل به توضيح المسألة، حيث إن قوله هذا التأويل لائق بأصول المعتزلة، ليس لائقاً فقط، بل هو كلام

---

(١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير، (١/)، عند تفسير قوله تعالى: (اعبدوا ربكم.. الآية). وفتح البيان، صديق خان، حيث لم يذكر كذلك معنى التقوى، (١/ ٨٥). وكذا المحرر الوجيز، ابن عطية، (١/ ١٠٥)، وغيرها.

وكأن قصد المفسرين جميعاً بتبيين معنى «لعل» التي للترجى، حيث لا تجوز في حق الله تعالى، وأهمل أكثرهم في غمار هذا البحث الكلام على التقوى والعبادة إلا من سنرى لهم ذلك.

(٢) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٤٩٠، ٤٩١).

الزمخشرى نفسه في «الكشاف»، وهو قد رد كذلك عليه في الوجه الأول بغير التصريح باسمه، إذ قد أورد الزمخشرى أن التقوى هى العبادة. وأن (لعلكم تتقون) متعلق بـ(خلقكم)، لا بقوله تعالى: (اعبدوا)، الذي عليه جمهور المفسرين. وقد كفانا الإمام أبو حيان المسألة ذكراً ورداً، فبدل الخوض فيها، نشير إلى كلامه - رحمه الله، خاصة وقد استعان بكلام الفخر الرازى في الوجه الأول في رد كلام الزمخشرى. يقول الإمام أبو حيان - رحمه الله: «ولما جعل الزمخشرى (لعلكم تتقون) متعلقا بالخلق قال: فإن قلت: فهلا قيل: تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا لمكان (تتقون) ليتجاوب طرفا النظم؟(١) قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدى ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاماً لها وأثبت لها في النفوس. انتهى كلامه. وهو مبنى على مذهبه في أن الخلق كان لأجل التقوى، وقد تقدم ذلك.

وأما قوله: ليتجاوب طرفا النظم، فليس بشيء، لأنه لا يمكن هنا تجاوب طرفى النظم، لأنه يصير المعنى: اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو اتقوا ربكم لعلكم تتقون، وهذا بعيد في المعنى، إذ هو مثل: اضرب زيداً لعلك تضربه، أو: اقصد خالداً لعلك تقصده، ولا يخفى ما في هذا من غثاثة اللفظ وفساد المعنى، والقرآن متنـزه عن ذلك. والذي جاء به القرآن هو في غاية الفصاحة، إذ المعنى أنهم أمروا بالعبادة على رجائهم عند حصولها حصول التقوى لهم.

ثم ذكر الوجه الأول الذي ذكره الإمام الرازى في أن التقوى ليست

---

(١) كأن تجاوب طرفى النظم عند الزمخشرى هو اعبدوا لعلكم تعبدون، أو اتقوا لعلكم تتقون، ولكن لما كانت العبادة هى التقوى، فلا تنافر!

العبادة.. إلى آخره بحروفه، وإن لم ينسبها للإمام الرازى.(١)

نصل حتماً، بعد هذه المقدمة، إلى تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً في محاولة للمقارنة بين كلام الرازى وكلام غيره ليتضح الفارق، والقول المختار لنا في هذا الاختلاف.

يقول في مختار الصحاح: «العبد ضد الحر، وأصل العبودية الخضوع والذل والتعبيد: التذليل. يقال: طريق معبد، والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك».

ويضيف الراغب الأصبهانى في «المفردات»: «والعبادة أبلغ منهما - أى من العبودية - لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى».

ويقول الإمام ابن تيمية، مضيفاً على المعنى السابق: «لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب». فأضاف معنى الحب لله تعالى على أن ذلك من لوازم العبادة، لذا يقول: «ومن خضع لإنسان مع بغضه له فلا يكون عابداً، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له كما قد يحب ولده وصديقه. ولهذا لا يكفى أحدهما في عبادة الله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شئ، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شئ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً».(٢)

فكانت العبودية إذن اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال في الظاهر والباطن والبراءة مما يخالف ذلك.

---

(١) أبو حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (١/ ١٥٦).

(٢) شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيميه «العبودية في الإسلام»، سنة ٧٢٨هـ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ، دار الفتح، نشرها قصى محب الدين الخطيب.

وهذا ما يختاره الباحث من هذه التعريفات، وبالنظر فيما عرفنا به التقوى في أول البحث من دخول ترك الشبهات، وترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فإن تعريف «الزمخشرى» للعبادة بأنها التقوى لا يدخل فيه ذلك لكون العبادة كما أشرنا.

وبالنظر لتعريف «الرازي» ومن تبعه بأنها طاعة الأمر، فإن التعريف بذلك يكون قاصراً عن لزوم المحبة للطاعة لتكون عبادة، وكذلك البراءة مما ينافى ذلك، وغاية تعريف الرازى أن الطاعة اتباع الأمر أن يشمل الواجب والمستحب، والعبادة كما رأينا أعم من ذلك.

وللزوم العبادة للتقوى، وأن المرء المؤمن لابد. وأن يلزم العبادة وأن يستقيم عليها، وأن يسارع إليها ويزداد منها. لتحصيل درجات التقوى العالية، كان لابد من بعض تفصيل في الكلام على العبادة، وهو ما تركناه لصفات المتقين، إذ شملت أنواع العبادات المطلوبة للتقوى.

وإن كنا لابد أن نضرب مثلاً لكون العبادة سبباً للتقوى، فقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] هو الدليل على ذلك، لأنها تدخل إلى موضوعنا مباشرة، حيث تبين أن الصيام، وهو أحد العبادات التي أمر الله سبحانه وتعالى بها، وندب إليها، بل وجعلها كفارة لكثير من المخالفات للشرع الشريف، تبين أنه سبيل لتقوى الله عز وجل، وهو دليل كذلك على أن غيره من العبادات طريق للتقوى بلا شك، حيث هناك مثلاً الصلاة وهى أهم منه، فتكون من باب الأولى سبباً لتقوى الله تعالى، وبقية العبادات سبيل إلى التقوى إذن.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله يخاطب المؤمنين بأنه قد فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الذين من قبلهم على ألسنة رسلهم، يرجون بتنفيذهم هذه

الفريضة أن يصلوا إلى مرتبة التقوى[1]، وفى الصيام معان مهمة توصل إلى التقوى، من حيث كونه تهذيباً للنفس، وقمعاً للشهوات، وتصفية للروح والبدن بحيث تكون أقرب إلى الله سبحانه، وأسرع استجابة إلى أوامره، وبعداً عن نواهيه، مع إحساس الصائم بالفقراء والمساكين، فيكون أبر بهم، وأكثره إحساناً إليهم، كل ذلك تقوى الله الذي يؤدى إليه الصوم إلى غير ذلك من المعانى التي فيه التقوى.

وقبل أن نبين صفات المتقين هناك ملحوظة في آيات العبادة والتقوى، وهى في قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهى أن يأخذ المؤمنون ما آتاهم من ربهم بقوة رجاء التقوى.

وتكررت كذلك في الآية الواحدة والسبعين بعد المائة من سورة الأعراف وهذه الآية الكريمة نزلت في اليهود بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ... ﴾ [الأعراف: ١٧١].

والمعنى أن الله تعالى أخذ عليهم العهد بطاعته والوفاء بما ألزمهم به من شريعته، ورفع فوقهم الطور آية لهم على ذلك، وتهديداً لهم إن لم يوفوا بالعهد، ثم أمرهم بأن يأخذوا ما أتاهم به موسى - عليه السلام - من عند ربهم بالقوة أى بالجد والعزيمة وترك التكاسل والتباطؤ رجاء أن ينتظموا في سلك المتقين[2] فيفوزوا في الدنيا والآخرة، والآية الكريمة تبين أخلاق اليهود، ونبذهم العهد، واعتراضهم على شريعة الله - سبحانه، ومحادتهم لرسوله عليه السلام إيذاءهم

---

(١) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٣٤): وصديق خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (١/ ٢٩٠).

(٢) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ١٣٣). وكذلك الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٢/ ١٥١).

له، حتى هددهم هذا التهديد الشديد برفع الجبل عليهم ليعاينوا بأنفسهم ما يجعلهم يسارعون بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى، والوفاء بعهودهم، ويحملهم على أخذ كتاب الله - جل وعلا - بقوة.

والآية فيها تعريض كذلك باليهود، بأنهم لا يأخذون شرع الله بالجد والعزيمة، وهو تنبيه لأهل الإسلام ألا يكونوا كمثلهم، لأن التقوى لا تتحقق بمثل هذه الأخلاق السيئة، والصفات الرذيلة.

ويكون المعنى المسوق لأهل الإيمان أن أخذ أوامر الله تعالى، وما أتى به النبى ﷺ بالجد والعزيمة وترك الكسل هو علة التقوى، فيجب عليهم، وهم أرق قلوباً، وأوفى عهوداً أن يسارعوا إلى ما يرجى به أن ينتظموا في سلك المتقين.

المطلب الثالث
الأخلاق والسلوك

وإذا كان الإيمان والعبادة سبيل بين لتحصيل التقوى، فإن مما يكمل ويرفع درجتها، السلوك الراشد والخلق القويم في ظاهر المرء، وباطنه، وكذلك في سره وعلانيته، حيث كانت الدرجة العليا من الخلق للنبي ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، وهو أتقى العالمين لله تعالى فدل على ارتباط الخلق بالتقوى، ومن ثم قال ﷺ: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً».(١)

فكان السلوك الرشيد والخلق الحميد سبيلاً إلى تقوى الله ﷻ يجب، ويندب للمؤمن أن يترقى في سلوكه، وأن يجاهد نفسه على الأخلاق الحسنة، فكلما ترقى سلوكه، وحسن خلقه ازداد تقوى لله تعالى، وقرباً من النبي ﷺ ومحبة منه. فكان هذا المطلب لجعل السلوك أيضاً والخلق من سبل تحصيل التقوى وكما ذكرنا في المطلبين السابقين نذكر في هذا المطلب بأن صفات المتقين والتي منها ما يتعلق بالسلوك والأخلاق قد حصرناها في نهاية الفصل لنستوفى الكلام عليها.

ولذلك فإن المؤمن باستعماله الأخلاق الحسنة، ورياضة نفسه عليها يتدرج في مدارج التقوى، وذلك كرياضة نفسه على الصبر والحلم، والسماحة وكظم الغيظ والعفو وغيرها من الأخلاق الحسنة، وأما السلوك الراشد: فمن تعود الصدق، فإن الرجل يصدق ويصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وكذا أداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والإحسان إلى الفقراء والعطف على اليتامى والأرامل، والسعي في مصلحة المسلمين، كل ذلك السلوك وغيره مما ينزل به المرء منزلة التقوى، وكلما ازداد تخلقاً بذلك وسلوكاً

---

(١) الحديث رواه الترمذي (٢٠١٩) عن جابر بن عبد الله ﷺ،

ارتفعت درجته، وعلت رتبته بين المتقين الأخيار.

ذكر القرآن الكريم كل هذه الأخلاق والصفات، التي وُصِف بها المتقون لتكون مناراً للدارس، والسالك لهذه ليعلمها، ويتحقق بها.

المطلب الرابع
التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة

لما ذكرنا أن التقوى ملاك الأمر، وأنها يجب أن تكون مقصد المرء في الدنيا، وأن يأخذ بالأسباب التي توصله إليها، فإنما ذلك لطلب، آخر، الذي نحن فيه، وهو أن التقوى إن صح التعبير سبب لمزيد التقوى، وأنه كلما أخذ المؤمن بأسبابها هيأته لدرجة أعلى من درجاتها.

فإذا ما حصل المرء شيئاً من الأسباب الآنفة في المطالب تلك، فتحصل له بذلك درجة من التقوى، من الإيمان، والعمل الصالح أو السلوك الراشد، والخلق القويم، كان تحققه بذلك طريقاً جديداً، وسبيلاً قوياً لجنى ثمرة درجة أكرم من درجات التقوى، ورتبة أفضل من رتبها.

ومن ثَمَّ كانت التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة من المرء المؤمن؛ لأنه كما ذكرنا كلما حصل شيئاً من التقوى بعثه ذلك على مزيد من الإيمان والعمل الصالح، هداه إلى كثير من الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، وفى نفس الوقت إذا إزدادت أخلاقه الحسنة، وسجاياه الكريمة خفت منه الأخلاق السيئة والصفات المرذولة، وكان أفضل من ذى قبل، وأحب إلى الله تعالى، وهكذا يترقى المرء في درجات الكمال الإنسانى، في اعتقاداته، وعباداته وسلوكه وأخلاقه، وبالتالى معاملاته، وصلاحه، مع الله - جل وعلا، ومع الناس، ويكون عنصراً صالحاً حينئذ لنفسه ومجتمعه فينشأ من ذلك صلاح المجتمعات الإسلامية، والإنسانية.

ويدل لذلك ويؤيده أن المرء إذا تخلف عن التقوى، وضعفت في قلبه مادتها، ظهر ذلك على الجوارح، فضعف الإيمان، وفقدت العبادة هيبتها ولم تؤت ثمرتها، وساءت الإخلاق، وأعوج السلوك. فانتشرت بذلك كافة الرذائل والموبقات، ومجتمعات المسلمين اليوم أجل شاهد وأصدقه على تلك الحال

المتردية، والتي وصلت إليها بجدارة بسبب التفريط في تقوى الله تعالى، وذلك على جميع الأصعدة وكافة المستويات.

كان هذا المطلب كذلك دليلاً على لزوم حصر صفات، المتقين، لتوضح بها ما ذكره القرآن الكريم من سبل تحقيق التقوى، فكان ذلك المطلب وهو المطلب الأخير.

المطلب الخامس
صفات المتقين

ونبدأ بهذه المقدمة، وهى كذلك قائمة على موضع من مواضع التقوى، ألا وهو قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ ﴾ [الشمس: ٧-٨].

كان من رحمة الله تعالى بالإنسان أن بين له طريق الخير وطريق الشر، ولم يتركه حتى هيأ نفسه لقبول أى الطريقين، فألهم نفسه الفجور والتقوى، ومع ذلك لو تركت بغير تأثير الفجور عليها لاختارت التقوى وأرادتها؛ ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، ثم أرسل إليه الرسول ليبين له الطريق ويأخذ بيده فيه، ويقطع عنه العذر والحجة أمام الله تعالى.

كانت هذه الآية هى المدخل لأن يتصف المرء بالتقوى، ويجاهد نفسه على التخلق بصفات المتقين، يرجو بذلك الفلاح، ولذا جاء بالآية بعدها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۞ ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

ونستفتح من صفات المتقين بما استفتح به القرآن الكريم في أول آياته، وذلك في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ ﴾ [البقرة: ١-٥].

حيث نبدأ رحلتنا في التعرف على صفات المتقين بتلك الآيات؛ بدءاً بما بدأ الله به، ولما في هذه البداية التي بدأ الله بها من تنويه بفضل التقوى والإشادة بقيمتها وعلو مكانتها، حيث افتتح الله بها كتابه الكريم، حتى تكون هدف المرء من أول لحظة، وسلوكه حتى آخر لحظة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآيات المباركات قد جسدت معالم الدين بما

انطوت عليه من معان وأحكام، فقد بينت أولاً: أن هذا الكتاب كتاب هداية بما احتوى من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، من تمسك بها هُدىَ إلى صراطٍ مستقيم، وهى الغاية التي أرسل الله تعالى بها رسله، وأنزل لها كتبه. ثم بين أن تلك الهداية إنما تكون لمن اهتدى بها إيماناً وعملاً وهم المتقون، ثم بين للناس صفاتهم ليهتدى بها الخلق ويتسابقوا إليها، وقفَّى بعد ذلك بذكر عاقبتهم وثوابهم في الأولى والآخرة؛ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾، أي في الدنيا والآخرة.(١)

ولذلك كانت هذه الآيات من عجيب النظم ومحكم الكلام في الدرجة العليا من البلاغة والوصف، كما قال الزمخشري في النص التالي في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾:

«وقد أصيب بترتيبه مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف، نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحددة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بالكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريراً لجهة التحدى وشداً لأعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادةً وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق

---

(١) الأستاذ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، يقول مجملاً: «إن السمة الأولى للمتقين هى الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض والإيمان بالرسل كافة واليقين بعد ذلك بالآخرة.. هذا التكامل تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتمتاز النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقى عليها الناس جميعاً ولتهيمن على البشرية جميعاً، وليعيش الناس في ظلالها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة، شاملة للشعور والعمل والإيمان والنظام»، (١/ ٣٩). سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (١/ ٣٩).

واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبن هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة، ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفى الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر - الذي هو هدى - موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكراً والإيجاز في ذكر المتقين. زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه وتبييناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه».(١)

وهنا سؤال، وهو لم خص المتقين بالهداية والقرآن هدى للناس أجمعين؟ كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ وكذلك المتقى مهتدى فكان تحصيلاً للحاصل.

والجواب: ذكر عدد من أهل التفسير أجوبة على هذا السؤال استوفاها منهم جمعاً واختصاراً نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى في كتابه «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» على هامش من تفسير الطبرى، فقال - رحمه الله تعالى: «إن المتقين لّما كانوا هم المنتفعين بالهداية خصوا بالذكر مدحاً لهم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾، وقوله - سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ مع أنه ﷺ منذر كل الناس وأيضاً قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ كقولك للعزيز الكريم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة واستدامة ما هو ثابت، وبوجه آخر سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى «متقين» نحو «من قتل قتيلاً فله

(١) جار الله محمود بن عمر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢).

سلبه»، فهذا من باب تسمية الشيء بما هو آيل إليه، واللطف فيه أنه لو قال: هدى للصائرين إلى التقوى بعد الضلال، كان إطناباً في غير موضعه، فإن تصدير السورة - التي هى أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثانى - بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده هو اللائق بالمقام فاختص الكلام بإجرائه على الطريقة المذكورة».(١)

---

(١) انظر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٠)، فقد بدأ الإجابة على هذا السؤال الزمخشرى وتبعه معظم المفسرين وزاد بعضهم كالفخر الرازى، (١/ ٣٨٢). ثم جمع ذلك النيسابورى كما ذكرنا حيث نقل كلام الكشاف بحروفه، انظر النيسابورى «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، (١/ ١٢٨)، على هامش الطبرى. وانظر النسفى «مدارك التنزيل»، (١/ ١٠). ود. محمد أديب الصالح «التقوى»، (ص٢٢٢). والبيضاوى «أنوار التنزيل»، (١/ ١٠٣-١٠٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٩).
وأنهما «الزهراوان» ورد في حديث النبى ﷺ عن أبى هريرة ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين، واقرؤوا سورة البقرة..» الحديث، أخرجه البزار، والطبرانى في «الأوسط»، وهو حديث حسن.
وسنام القرآن ورد في حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ: «إن لكل شيءٍ سناماً وسنام القرآن سورة البقرة..»، وقد رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى، وذكره الألبانى في الصحيحة (٢/ ١٣٥). وانظر كتاب «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم»، دراسة ونقد للدكتور/ إبراهيم على السيد، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار السلام للطباعة.
أما قول الزمخشرى أنها أول المثانى فلعله سبق قلم؛ لأن البقرة أول الطوال السبع، ثم المئين ثم المثانى ثم المفصل. انظر السيوطى «الاتقان في علوم القرآن»، وكذا الزركشى في «البرهان»!!
ونعود إلى تعريف الهدى كما وعدنا. ولصاحب «التحرير والتنوير» العلامة محمد الطاهر بن عاشور فيه كلام نفيس، نشير إلى عيونه:
«وهو على التحقيق الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البُغية، والهدى الشرعى هو الإرشاد

=

إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقص صلاح الآجل، ويكون الإخبار عن الكتاب بأنه هدى إشارة إلى بلوغه الغاية في إرشاد الناس حتى كان هو عين الهدى على ما يقتضيه الإخبار بالمصدر من المبالغة. وفى بيان كون القرآن هدى للمتقين معان ثلاثة:

الأول: أن القرآن هدى في زمن الحال لأن المتقين هم المتقون في الحال لأن زمن الحال هو الأصل في اسم الفاعل، والمراد حال النطق والمصدر عوض عن الوصف باسم الفاعل، ومعنى ذلك أن جميع من نزه نفسه وأعدها لقبول الكمال يهديه هذا الكتاب أو يزيده هدى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾.

الثانى: أنه هدى في الماضى بما نزل من الكتاب، فيكون المراد من المتقين من كانت التقوى شعارهم أى أن الهدى ظهر أثره فيهم فاتقوا، وعليه فيكون مدحاً للكتاب بمشاهدة هديه وثناءً على المؤمنين الذين اهتدوا به، وإن كان غير الغالب الوصف باسم الفاعل فيما مضى فإن قرينة السياق بمدح الكتاب تدل عليه.

الثالث: أنه هدى في المستقبل للذين سيتقون وتُعين عليه قرينه الوصف بالمصدر الذي لا يدل على زمان.

حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعانى ما لا يحصل لو وصف باسم الفاعل، فقيل: هادٍ للمتقين، فهذا ثناء على القرآن، وتنويه به، وتخلص للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه، فالقرآن لم يزل ولن يزال هدى للمتقين، فإن جميع أنواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوى، وفى سائر أزمانه وأزمانهم على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم، فمن منتفع بهديه في الدين، ومن منتفع به في السياسة وتدبير أمور الأمة، ومن منتفع به في الأخلاق والفضائل، ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين، وكل أولئك من المتقين، وانتفاعهم به على حسب مبالغ تقواهم. وقد جعل أئمة الأصول الاجتهاد في الفقه من التقوى، فاستدلوا على وجوب الاجتهاد بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾، فإن قصر بأحد سعيه عن كمال الانتفاع به، فإنما دل ذلك لنقص فيه لا في الهداية، ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل على أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن»، الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٢٦).

فكأن البداية في كلام الله تعالى كانت بمدح المتقين، وتخصيصهم بالهداية، وذكر صفاتهم، ليكون كل أحد على ذكر من ذلك، وحضّاً للناس على سلوك هذا السبيل، ليفلحوا وليظفروا في الآخرة الأولى.

أما بقية السؤال، وهو كون القرآن الكريم هدى للناس كافة وفى الآية الكريمة هدى للمتقين خاصة، أو كما قال الزمخشرى: هل قيل هدى للضالين؟ فالجواب أن الهدى يطلق في القرآن الكريم ويراد به معنيان: الأول: ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه إلا الله ﷻ. والثانى: يراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه. فعلى الثانى يكون القرآن الكريم هدى للناس أجمعين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، وعلى الأول يكون هدى للمتقين خاصة، وفيه قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله - جل ذكره: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾.(١)

وقد ذكر بعض أهل العلم لطيفة أشارت إليها الآية، وهى قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ مع قوله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أن الناس هم المتقون، وفيما عدا المتقين فليسوا أناساً، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.(٢) لنتبين المكانة السامقة التي أعطاها ربنا ﷻ للمتقين، فيكون باعثاً للمؤمنين أن يغذوا السير في طاعة

---

(١) وانظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢). والإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندرى المالكى «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال»، طبعة دار المعرفة، بيروت، على هامش الكشاف، (١/ ٢٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (١/ ١٦٠).

(٢) الحسن بن محمد النيسابورى «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، على هامش تفسير ابن جرير، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (١/ ٢٨).

الله، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو السلوك إليه - سبحانه، كيما يفوزوا بما فاز به المتقون، فينتفعوا انتفاعاً حقيقياً بهدى الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبى ﷺ ولابد لذلك - بعد عون الله ﷻ - من عزائم الرجال وتشمير الصادقين.(١)

ونشرع الآن في تفسير ذكر صفات المتقين التي ذكرتها الآيات، إذ هى المقصود الأعظم التي تتطلع إليه النفوس، وتهفو إليه الأفئدة، إذ فلاح الأشخاص وسعادة الأمة إنما تتحقق بذلك، لتعود سيرتها الأولى التي ما برحت أمل المخلصين ونشيد الداعين إلى الله تعالى.

وأول ما يصادفنا من صفات المدح للمتقين قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وهى إما صفة للمتقين - أى الذين - في محل جر، أو خبر لمبتدأ محذوف هم أو على تقدير -أعنى الذين- وهو على ارتباط هذه الآيات بالمتقين، وهو رأى جمهور المفسرين.(٢) ويكون المعنى: المتقون هم أولاء الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.. إلى آخر الصفات. وقد ذكرنا صفة إيمان المتقين في

---

(١) د. محمد أديب الصالح «التقوى من هدى الكتاب والسنة»، (ص٢٢٣-٢٤٤).

(٢) انظر الزمخشرى «الكشاف» مثلاً (١/ ٢١)، وتبعه جمع على ذلك، أما الوجه الثاني فجوز كون ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ... ﴾ الخ مقتطعاً عن المتقين مبتدأ مُخبر عنه بقوله تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ... ﴾، ورده صاحب «التحرير» بقوله - رحمة الله: «وجوز صاحب الكشاف كونه كلاماً مستأنفا مبتدأ، وكون ﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى ﴾ خبره. وعندى أنه تجويز لما لا يليق، إذ الاستئناف يقتضى الانتقال من غرض إلى آخر، وهو المسمى بالاقتضاب. وإنما يحسن في البلاغة إذا أشبع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب أو خيفت سآمة السامع، وذلك موقع أما بعد أو كلمة هذا ونحوهما، وإلا كان تقصيراً من الخطيب والمتكلم، لا سيما وأسلوب الكتابة أوسع من أسلوب الخطابة، لأن الإطالة في أغراضه أمكن». «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٢٩).

مطلب «الإيمان» في أول الفصل.

﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: والمراد بالغيب مالا يدرك بالحواس مما أخبر الرسول ﷺ صريحاً بأنه واقع أو سيقع، مثل وجود الله وصفاته، ووجود الملائكة والشياطين، وأشراط الساعة وما استأثر الله بعلمه.(١)

وقد عبر القرآن الكريم بالفعل المضارع ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ وجعله صلة الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ لإفادة استمرار إيمانهم وتجدده وأنه لذلك لا يطرأ عليه شك ولا ريب مما يمدح به هؤلاء المتقون ويثنى عليهم به، وهى صفة لازمة للمتقين تعنى أن إيمانهم شامخٌ ثابتٌ راسٍ لا يزلزله شيء، ولا يفت في عضده شبهة، ولا تردد ولا تعصف به عوادى الفتن، ولا مضلات الهوى، وهو ما يحمل غيرهم على

---

(١) والغيب مصدر بمعنى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾، وربما قالوا: بظهر الغيب، قال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لام بظهر الغيب تأتيني

وفى الحديث «دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة». انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٢٩-٢٣٠).

قال الإمام ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤١): «وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة، ترجع إلى أن الجميع مراد». وهو ما سبق إليه ابن جرير، ولخصه ابن عطية في «المحرر الوجيز»، (١/ ٨٤)، فقال: «واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله – عز وجل، وقال آخرون: القضاء والقدر، وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب، وقال آخرون: الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، قال القاضى أبو محمد: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها.»، وانظر الإمام فخر الدين الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٠)، وصديق حسن خان «فتح البيان»، (١/ ٦٩)، وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٧٨).

التأسى بهم، والسير في طريقهم، استمطاراً للهدى والرحمة والفلاح من الله - جل وعلا.

ونلاحظ أن القرآن الكريم خص الإيمان بالغيب دون غيره من مواضع الإيمان بالذكر والتقدم لحكمة جليلة، وهى أن الإيمان بالغيب أصل في اعتقاد صحة ما تخبر به الرسل، وإمكان وجوده سواء ما يتعلق بوجود الله أو العالم العلوى، فإذا آمن بذلك تصدى لسماع دعوة الرسول، والنظر فيم يبلغه عن الله تعالى.

وأما من يعتقد بأن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر ما وراء الطبيعة، كهؤلاء الدهريين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فهؤلاء وطنوا أنفسهم وأغلقوا قلوبهم على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله تعالى وعالم الآخرة، ومن ثم رأينا إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله بعد الإيمان بالغيب.

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: الصفة التالية للمتقين هى أنهم يقيمون الصلاة(١)،

---

(١) والإقامة في اللغة مصدر أقام الذي هو معدى قام، عدى إليه بالهمزة الدالة على الجعل، أى جعلها قائمة مأخوذ من: قامت السوق، إذا نفقت وتداول الناس فيها البيع و الشراء. وأما الصلاة المقصودة في الآية فهى العبادة المخصوصة، المشتملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم. والصلاة اسم جامد بوزن فَعلَة، محرك العين، وقد جاء هذا اللفظ في كلام العرب بمعنى الدعاء، كقول الأعشى:

تقول بنتى وقد يممت مرتحـلا ... يا رب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضى ... جفنا فإن لجنب المـرء مضطجعا

يقول: عليكِ من الدعاء مثل الذي دعوتيه لى.

ويقول الرسول ﷺ: «إذ دعى أحدكم إلى طعام فليجب، وإن كان صائما فليُصلِّ»، أى ليَدْعُ لأهله، وإنما أطلقت على الدعاء لأنه يلازم الخشوع والانخفاض والتذلل. انظر الطاهر

وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، فبعد أن مدحهم بأخص خصائص الإيمان -وهو الإيمان بالغيب- وصفهم برأس العبادات البدنية، التي هى العلاقة الخاصة بين المرء وربه -سبحانه، وهى الصلاة، إذ هى عمود الدين، والفارق للإنسان بين الإيمان والشرك والكفر.

أما إقامة الصلاة فقد ذكر الإمام ابن كثير[(١)] عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله: «إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها»، وعن قتادة قوله: «إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها». ويوضح ذلك الإمام ابن القيم فيقول في كتاب «الصلاة وحكم تاركها»: «وأقيموا الصلاة» فأمرنا بإقامتها، وهو الاتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علق سبحانه الفلاح بخشوع المصلى في صلاته، فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً. بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً. وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية ولا معرفة بحقيقة

=

بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٣). وقد تردد أئمة اللغة في اشتقاقها: ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢-٤٣)، والرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٢-٣٩٤)، والبيضاوى «أنوار التنزيل»، (١/ ١١٨-١١٩)، والألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٢-١٩٣)، وابن جرير «جامع البيان»، (١/ ٨٠-٨١)، والزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٢-٢٣)، والراغب الأصبهانى «المفردات»، (ص٤٢١).

(١) الحافظ إسماعيل بن كثير القرشى «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢). وقد ذكر الراغب الأصبهانى في «المفردات» سبب تخصيص الصلاة بالإقامة، فقال: «وإنما خص لفظ الإقامة تنبيهاً أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط، ولهذا روى أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل». المفردات، (ص٤٢١).

العبودية، والله -سبحانه وتعالى- قد قال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾، وقال لموسى عليه السلام: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِىٓ ﴾ فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقروناً بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل».(١)

وهذا يبين أهم ما يكون عليه المتقون بعد الإيمان من صلة عميقة بالله تعالى، تظهر في سرعة إقبالهم على الوقوف بين يدى ربهم، بمجرد أن ينادى عليهم بذلك، فيأتون متطهرين، ويقفون خاشعين يناجون ربهم، ويتلون كتابه، ويتدبرون آياته، ليعلنوا بذلك خضوعهم له، ومحبتهم إياه، وأن صلاتهم له هى قرة أعينهم، وسكينة نفوسهم، وطمأنينة قلوبهم، وسكون أفئدتهم، بها يواجهون حياتهم بهمة وقوة وانشراح، مع ما ينتظرهم من نعيم الله في الآخرة.

وقد استعمل القرآن الكريم كذلك الفعل المضارع يقيمون ليدل على محافظتهم على صلاتهم، وتكرر ذلك منهم، وليكون الثناء عليها بالمواظبة على الصلاة أصرح.(٢)

وقد صرح بالثناء عليهم في مواضع شتى، لمحافظتهم على الصلاة فقال: ﴿

---

(١) الإمام محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية «الصلاة وحكم تاركها»، المكتبة القيمة، (ص١٢٣).

(٢) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٢). وجاءت بصيغة الجمع ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ و﴿ أَقَامُواْ ﴾ و﴿ يُقِيمُونَ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، كل ذلك ليدل على شرعية وأهمية الجماعة فيها، ليستشعر المرء منها تلك الحكم والعظات المقربة لله تعالى، الحاملة للمؤمنين على الوحدة والمساواة، وما يبنى على ذلك من التعارف والتآلف والمودة والتكامل.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ٩]، و﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝ ﴾ [المعارج: ٣٤-٣٥]، فلا يسع امرأً يتقى الله أو يدعى ذلك إلا أن يكون على ذلك العهد مع الصلاة.

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ : كثيراً ما يقرن القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة، آمراً بهما، مادحاً أصحابهما، معبراً بتعبيرات مختلفة عن حسن ذلك. والحث عليه ليكون المرء مؤمناً حقاً، وحكمة ذلك كما يشير الإمام ابن كثير أن الصلاة حق الله وعبادته، وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي»[١] أى التكامل الذي يصلح به حال الناس في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. فما إن يقوم المسلم بحق الله وبحق الناس، حتى يحوز بذلك الكمالات التي يستحق بها رضا الله تعالى، ويحصل بذلك سعادة الدنيا في مجتمع يسوده التكافل والتراحم، وهو نعيم الدنيا، مع ما يرجوه من نعيم الآخرة.

وأول ما تشير إليه الآية أنهم - هؤلاء المتقون - يعتقدون أن المال مال الله تعالى ﴿ رَزَقْنَٰهُمْ ﴾، وأنهم مستخلفون فيه، ينفقونه فيما يرضى واهبه، ويصرفونه فيما أمرهم به من وجوه الإنفاق التي يحبها، ثم بفضله يزيدهم منه في الحياة الدنيا «ما نقص مال من صدقة»[٢]، ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

---

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢): «وأصل الإنفاق إخراج المال من اليد، ومنه نفق البيع إذا كثر المشترون له، ونفقت الدابة إذا خرجت روحها، نفق كنفد، وكل ما كان فاؤه نوناً وعينه فاءً يدل على الخروج والذهاب». وانظر الزمخشرى «الكشاف» (١/ ٢٣). والزمخشرى «أساس البلاغة»، مادة نفق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م. والرازى «التفسير الكبير» (١/ ٣٩٥). وصديق حسن خان «فتح البيان (١/ ٦٨).

(٢) رواه مسلم(٢٥٨٨)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٨٦)، بلفظ: «ما

[إبراهيم: ٧]، ثم يثيبهم عليها أجزل الثواب وأكمله أحوج ما يكونون إليه: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ ﴾ [الحديد: ٧].

يقول الأستاذ/ سيد قطب - رحمه الله تعالى: «ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق والتضامن بين عيال الخالق، والشعور بالأسرة الإنسانية وبالأخوة البشرية، وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح وتزكيتها بالبر. وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، وأنها تؤمِّن العاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب».(١)

نرجع إلى الآية ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ صلة ثالثة في وصف المتقين، مما يحقق معنى التقوى وصدق الإيمان، من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله، لأن الإيمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان، كان محتاجاً إلى دلائل صدق صاحبه، وهى عظائم الأعمال، من ذلك التزام آثاره في الغيبة الدالة عليه ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ومن ذلك ملازمة فعل الصلوات، لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به. ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله بذلك، وعبر كذلك بالمضارع لاستمرار ذلك وتكرره، حتى صار صفة لازمة لهم يثنى عليهم بها.

وأريد بالإنفاق هنا بثه - أى المال - في الفقراء وأهل الحاجة، وتسديد نوائب المسلمين بقرينة المدح، ولا يمدح المرء بالإنفاق على نفسه وعياله، فلا يعتنى الدين بالتحريض عليه.(٢)

=

نقصت صدقة من مال».

(١) الأستاذ سيد قطب، «فى ظلال القرآن»، (١/ ٤٠).

(٢) والرزق ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم، يسد بها ضروراته وحاجاته، وينال به

ومن الإنفاق ما هو واجب وهو حق صاحب الرزق، للقرابة وللمحاويج من الأمة ونوائب الأمة كتجهيز الجيوش والزكاة وبعضه محدد وبعضه تفرضه المصلحة الشرعية.

ومن الإنفاق ما هو تطوع من نفع ما دعا الشرع إلى نفعه لقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ وأراد به الصدقة لقوله تعالى: ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

وكل هذه الإنفاقات داخلة تحت الآية، وإليه أشار ابن جرير - رحمه الله - بعد ذكر الأقوال الواردة في ذلك فقال: «فكان معلوماً أنه إذا لم يخصص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع بخبر ولا غيره

=

ملائمه، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة من الطعام والثياب والحيوان والشجر والنقد وبما يزيد على ذلك. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ أي مما تركه الميت، وقال في قصة قارون: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ وذلك في كنوز قارون، وقوله: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ والرزق شرعاً عند أهل السنة كالرزق لغة فيطلق على الحلال والحرام، وخالف الزمخشري في ذلك ممثلاً لرأى المعتزلة الباطل في المسألة. والإنفاق إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال، ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. وعرَّف الفخر الرازى الرزق، (١/ ٣٩٤)، من «التفسير الكبير»، بأنه الحظ ولم يرتض رأى الجمهور. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٤-٢٣٦). والألوسى «روح المعانى» (١/ ١٩٣-١٩٦). وصديق خان «فتح البيان» (١/ ٦٨). وانظر البيضاوى، «أنوار التنـزيل» (١/ ١١٩)، حيث وافق الفخر في المعنى اللغوى ووافق الجمهور من المفسرين على كون العرف خصصه بما ينتفع به، وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٤٣).

أنهم موصوفون بجميع معانى النفقات المحمود عليها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم».[(١)]

واهتماماً بالرزق في عرف الناس وماله من المعزة على النفس قدم المفعول على الفعل ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ كقوله تعالى في إظهار تلك المعزة: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ إيذاناً بأنهم ينفقون مقدمين رضا الله - سبحانه - على ميل أنفسهم وهواها، مما يستحقون معه المدح بالتقوى.

ولما كان مبنى الشريعة على رفع الحرج النفس وعدم تكلفتهم إياه جئ بمن التبعيضية إشارة إلى أن المطلوب شرعاً إنفاق بعض المال وهو يقل ويزداد بحسب حال المكلفين فالواجب ما قدرت الشريعة مقاديره، وأنصبته من الزكاة، والإنفاق على الزوجة والولد، وما زاد على الواجب لا ينضبط، بل كلما زاد فهو خير.[(٢)] وهو متروك لحبهم للخير ومسارعتهم إليه تشبهاً بالنبى ﷺ حيث كان

---

(١) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/). وانظر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٤-٣٩٦). والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٥).

(٢) هذا ما رجحه بعض المفسرين وهو ما نعتقده حقاً في من التي للتبعيض، وإن ذهب بعضهم أنها للتبعيض نعم ولكن فائدتها الكف عن الإسراف والتبذير المنهى عنه، وهو قول الزمخشرى ومن تبعه كالفخر الرازى والنسفى والبيضاوى. وإن قال باحتمال العموم كذلك فقال: «ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعادن التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده قوله ﷺ: «فإن علماً لا يقال به ككنز لا ينفق منه». وإليه ذهب من قال ومما خصصناهم به من أنواع المعرفة يفيضون»، وذهب الأكثرون إلى العموم كابن جرير وابن كثير وصديق خان وابن عطية والألوسى حيث رد القول الأول صريحاً في «روح المعانى» فقال: «وأما إذا كان المراد الإنفاق مطلقه الأعم ففائدة إدخالها الإشارة إلى أن إنفاق بعض المال يكفى في اتصاف المنفق بالهداية والفلاح، ولا يتوقف على إنفاق جميع المال، وقول مولانا البيضاوى تبعاً للزمخشرى: «إنه للكف عن الإسراف المنهى عنه» مخصوص بمن لم يصبر على الفاقة ويتجرع مرارة الإضافة! وإلا

أجود بالخير من الريح المرسلة، ويعطى عطاء من لا يخشى الفقر.[(١)] فأريحية المتقين وحبهم للإنفاق لا يقف عند حد. وهم درجات عن الله.

ونختم هذه الصفات بشيء مما ختمه بها أهل العلم ونلخص ما ذكره العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى - في «التحرير والتنوير» حيث هو أوفاها، فقال - رحمه الله - ما ملخصه: وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهى الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولأن هذه الصفات دلائل إخلاص الإيمان، لأن الإيمان بما لا يصل إليه الحسُّ أدل دليل على قوة اليقين حتى إنه يتلقى من الشارع مالا قبل للرأى فيه. وشأن النفوس أن تنبو عن الإيمان به لأنها

=

فقد تصدق الصديق ﷺ عنه بجميع ماله ولم ينكره عليه ﷺ لعلمه بصبره واطلاعه على ما وقر في قلبه». ومن ها هنا لما قيل للحسن بن سهل: لا خير في الإسراف. قال: «لا إسراف في الخير»، وإن كان احتجاجه بالصبر على الفاقة فيه نظر لأن الصديق لم يكن كذلك بل كان مستيقناً بما عند الله أكثر مما في يده.

انظر جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف» (١/ ٢٣)، وعبد الله بن عمر البيضاوى «أنوار التنـزيل»، (١/ ١٢١-١٢٢). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٥). وعبد الله بن أحمد النسفى «مدارك التنـزيل»، (١/ ١٢). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١)، وإسماعيل ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢)، والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٦). والألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٥-١٩٦). صديق خان «فتح البيان»، (١/ ٦٨). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٣٨) بنفس حروف البيضاوى.

(١) أما حديث «كان أجود بالخير من لريح المرسلة» فقد رواه البخارى (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨)، وحديث «يعطى عطاء من لا يخشى فاقه» رواه مسلم (٢٣١٢). وانظر القاضى عياض اليحصبى «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وشرحه لملا على القارى، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/ ٢٥٠-٢٥١).

تميل إلى المحسوس فالإيمان به على علاته دليل قوة اليقين بالمخبر وهو الرسول ﷺ، ولأن الصلاة كلفة بدنية في أوقات لا يتذكرها مقيمها أى محسن أدائها، إلا الذي امتلأ قلبه بذكر الله تعالى على ما فيها من الخضوع وإظهار العبودية ولأن الزكاة أداء المال وقد عُلم شح النفوس، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج: ٢١].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤]: ومازلنا نتشرف بكلام الله تعالى في ذكر صفات المتقين(١)، فبعد أن بين - سبحانه - دلائل تقواهم بأركان الإيمان، عطف بصفة أخرى لا يتم إيمانهم إلا بها، وهى الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ من عند الله - جل وعلا، وكذلك بما أنزل من قبل على رسل الله المتقدمين، تنبيهاً على وحدة المصدر وعلى وحدة أصول العقيدة المنـزلة على جميع الرسل، وأن الدين الذي ارتضاه الله للناس كافة دينٌ واحد ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ شَرَعَ لَكُم

---

(١) يقضى المقام أن يُذكر أن الإمام ابن جرير اعتمد وجهاً آخر غير ما ذهبنا إليه من أقوال أهل العلم في تفسير الآية في كونها صفة للمتقين، من قبل وتبعه على ذلك جمع من أهل العلم، حيث ذكر أنها نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتاب المنزل من قبل، كعبد الله بن سلام من يهود، وصهيب الرومى من النصارى، ثم آمنوا بالنبى ﷺ. ونسب هذا القول لابن عباس - رضى الله عنهما - ورجحه ونصره بالأدلة وذكره الفخر الرازى قولاً واحداً، وذكره الزمخشرى، وإن قال: «يحتمل الوجه الذي ذكرنا»، ورجحه الألوسى، وكذلك هو ترجيح العلامة الطاهر بن عاشور، وذهب ابن كثير وغيره من المحققين إلى الذي ذكرنا، وهو قول تؤيده الأدلة. انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤) وما بعدها. والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٦). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٧). وإسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٣-٤٤). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠-٧١). وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٣).

مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣]، وأنه لا يتم إيمان المرء إلا أن يؤمن بهم جميعا ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] وأن تكذيب أحدهم أو التفريق بينهم تكذيب لجميعهم ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. ولم يكن لهم رسول إلا هو، فدل على أن تكذيبه تكذيب لجميع المرسلين، وكأنه كان تنبيهاً منذ فجر الدنيا على هذه الحقيقة الخالدة والباقية ما بقيت البشرية، والتي تبين سمو الإسلام وارتفاع عظمته وأنه فعلاً الدين الخالد والرسالة الخاتمة الصالحة لكل زمان مكان.

﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ : ختم بهذه المنقبة العظيمة الحاملة على فعل الخير والمسارعة إلى أبواب البر المانعة من الشر والعدوان والإثم. فالمؤمن بلقاء الله – سبحانه – الذي وصل إيمانه إلى درجة اليقين، لا شك يخاف ربه، قد قام في قلبه رقيب عليه من نفسه يحسن له صورة الخير والطاعة والأخلاق الفاضلة، ويقبح له صورة المعصية والمخالفة والأخلاق السيئة، فكان بلزومه ذلك تقياً ممدوحاً عند الله – جل وعلا.

والآخرة صارت علماً بالتغليب على الدار الآخرة، وهى وصف مؤنث لمقدَّر هو الحياة، وسميت كذلك لإتيانها بعد الحياة الدنيا متأخرة عنها. والمعنى أنهم يوقنون بالبعث والحياة بعد الموت[1]، وما يترتب على ذلك من الحساب والجزاء،

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠١). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠). والنسفى «مدارك التنزيل»، (١/ ١٢). والزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٤)، والطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١-٨٢).

وأمور الآخرة الثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما: «أى يصدقون بما جئت به مِن الله، وما جاء به مَن قبلك مِن المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءهم من ربهم ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾، أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان».(١)

التعبير بـ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ دون يؤمنون وبناؤه على الضمير ﴿ هُمۡ ﴾ له معان جميلة يفيدها هذا التركيب القرآنى البديع:

فاليقين أولاً هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال، أو بعد شك سابق مشترك بين ذلك، أو هو ما غلب على القلب واستولى عليه، على اختيار الغزالى في الإحياء(٢)، فيكون اليقين أخص من الإيمان والعلم، لذلك لا يطلقونه على

---

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٣). والطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨٢). وكأنه إشارة ما سينـزل أيضا لصحة يقينهم وقوة إيمانهم: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).

(٢) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠). والألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠١). والإمام الغزالى حجة الإسلام (ت: ٥٠٥) «إحياء علوم الدين»، طبعة الشعب، (١/ ١٢٣-١٢٤). والرازى «التفسير الكبير» (١/ ٣٩٨). أمَّا اختيار الغزالى في الإحياء فقال في «روح المعانى»: والقلب يميل إليه (١/ ٢٠١). أما العلامة ابن عاشور فقال مستطرداً في تعريف اليقين: «وقد يطلق على الظن القوى إطلاقاً عرفياً حيث لا يخطر بالبال أنه ظن ويشتبه بالعلم الجازم، فيكون مرادفاً للإيمان والعلم.«التحرير والتنوير». (١/ ٢٤٠). ولهذا التعريف الأخير قال محمود الألوسى في «روح المعانى»: «فعبر باليقين بدل الإيمان دفعاً للتكرار» والتعريف الذي أشرنا إليه هو ما اعتمدنا، لكونه اللائق بالتعبير القرآنى الحكيم. محمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠١).

علم الله ولا على العلم الضروري.

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بـ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ المضارع لثبات ذلك ودوامه، ثم استخدم لفظ اليقين يشعر بأنه علم حاصل عن طريق التأمل وغوص الفكر في الاستدلال، لأن الآخرة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف، فلكثرة غرائب متعلقات الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب وتفاصيل أنواع النعيم والتعذيب، ونشأه أصحابها على خلاف النشأة الدنيوية مع إثبات المعاد الجسماني مما هو أغرب من الإيمان بالكتب المنزلة حتى أنكره ونفاه كثير من الناس كالمشركين والدهريين، ناسب أن يقرن هذا الأمر المهم الغريب الذي حارت عقول الكثيرين في إثباته بالإيقان، إظهاراً لكمال المدح وإبداءً لغاية الثناء لهؤلاء المتقين الأبرار.(١)

أما تقديم المجرور ﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ ﴾ على ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ وهو عامله للاهتمام بهذا الأمر الجلل كما أشرنا ورعاية للفاصلة، ويقول العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» رداً على ما ذكره الزمخشري ومتابعوه من أن التقديم يفيد الحصر أي حصر اليقين على حقيقة الآخرة لا يتعداها إلى خلاف حقيقتها كما يزعم اليهود مثلاً حيث قالوا: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١] وقولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وزعموا أن التلذذ حسي بالنسيم والأرواح، يقول - رحمه الله تعالى: «وأرى أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن. فليس هذا التقديم بمفيد حصر، إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا بأن يكون المعنى أنهم يوقنون بالآخرة دون غيرها، وقد تكلف صاحب الكشاف

(١) انظر محمود الألوسي «روح المعاني»، (١/ ٢٠٢).

وشارحوه لإفادة الحصر». (١)

أما تقديم ﴿ هُمْ ﴾ على ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ أى تقديم المسند إليه على المسند، فهو لإفادة تقوية الخبر، أى يوقنون إيقاناً قوياً جازماً، لا مرية فيه ولا تردد ولا شك، وهو كذلك من علامات الثناء.

كما أنه إشارة إلى أن اعتقاد مخالفيهم في الآخرة جهل محض، أى أن اعتقادهم هم يقين، فغيرهم ومخالفوهم ليسوا على يقين، بل هم في أدنى درجات الشك جهلاً وتخييلاً. (٢)

ونختم الكلام في هذه الآية بقول الفخر الرازى: «إن الله تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار. رُوى عنه ﷺ : «يا عجباً كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وعجباً ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا - يعنى النوم واليقظة - وعجباً ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور، وعجباً من المتكبر الفخور وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة». (٣)

ونتتقل إلى الموضع الثانى من مواضع ذكر صفات المتقين، وهو قوله تعالى:

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠).

(٢) بتصرف من الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠٢). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤١). وقال في الكشاف: «هو تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان»، (١/ ٢٤).

(٣) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨).

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن غيرت القبلة من بيت المقدس - حيث كان يصلى المسلمون إليه - إلى الكعبة المشرفة، وشغب سفهاء أهل الكتاب على هذا الأمر، وشق على نفوس طائفة من المسلمين.

نزلت ليبين لهم المولى سبحانه أن البر ليس في التوجه شرقاً أو غرباً، وإنما البر والتقوى في طاعة الله وامتثال أوامره مما أشار الله - جل وعلا - إلى تفصيله في الآية كما قال - سبحانه وتعالى - في شأن الأضاحى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

يقول الإمام ابن كثير فيما يرويه عن الإمام سفيان الثورى - رحمه الله - في تفسير الآية: «هذه أنواع البر كلها»، ثم يعقب فيقول: «وصدق - رحمه الله - من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله».[1] ومعنى هذا القول قد ذكره الإمام القرطبى من قبل حيث يقول: «الخامسة: قال علماؤنا هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته - وقد أتبنا عليها في «الكتاب الأسنى» - والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار - وقد أتينا عليها في كتاب «التذكرة» - والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من

---

(١) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٢٠٧).

عند الله كما تقدم والنبيين وإنفاق المال فيما يَعِنُّ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل - قيل: المنقطع به وقيل الضيف - والسّؤّال وفك الرقاب والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب».[1]

ولم يترك أحد من المفسرين وأهل العلم ممن تكلم في الآية من الإشارة إلى كونها جامعة لكل الكمالات البشرية تصريحاً أو تلويحاً. ونذكر قول بعض منهم لنفاسته - وإن كان كله نفيساً - ونشير إلى الباقي في مواضعه - إن شاء الله تعالى.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى: «فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع، من أصول العقيدة وصالحات الأعمال، فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها جانب الأخوة والاتحاد، وتسدد مصالح للأمة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع، حتى يصير الناس كلهم أحرارا، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهى عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية، وهى ثقة الناس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة، ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم، لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين،

---

(١) الإمام أبو عبد الله محمد أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤١).

ولأنهم حرموا كثيراً من الناس حقوقهم، ولم يفوا بالعهد، ولم يصبروا، وفيها أيضاً تعريض بالمشركين، إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر والنبيين والكتب، وسلبوا اليتامى أموالهم ولم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة»(١).

وبعد.. نبدأ في التعرف على هذه الجوانب المضيئة للمتقين، والتي ذكرتها الآية حتى يُتبع المؤمن القول بالعمل، ليتصف بهذه الصفات، فيتحقق له صدقُ إيمانه وأسبابُ سعادته في الدنيا والآخرة، وليتحقق للمجتمع ما يرجو من تقدم ورقى ورحمة وتكافل.

وكلمة البر عند ذكر صفات المتقين في هذه الآية الكريمة تذكر بما أسلفنا من القول بأن البر عند إفراده هو التقوى كما ذكر الله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ فكان الآية معناها: ولكن من اتقى صفته كيت وكيت، بدليل ختم الآية بقوله - جل وعلا: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

وأول ما تعودنا عليه أن يصادفنا من صفات المتقين هو الإيمان الحق، الذي بنى عليه بعد ذلك الإتيان ببقية الأوصاف، تصديقاً لهذا الإيمان، ودليلاً على ثباته وقوته، حيث لا يقبل عمل إلا بعد الإيمان، فهو أساس الأعمال وقاعدتها، وقد ذكرنا معناه في الآية الأولى.

وإن كان في هذه الآية ذكر تفصيل الإيمان الوارد في حديث جبريل أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان. وفى هذه الآية هنا قدم اليوم الآخر بعد الإيمان بالله مباشرة، على غير ما ورد في آيات أخرى، وعلى غير ما ورد كذلك في حديث جبريل، لأنه المناسب لحال المتقين الأبرار. يقول الراغب الأصبهانى في «المفردات»: «ولما ذكر حال المؤمنين، والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة، فكل ما يفعله ويتحراه فإنه يقصد به

(١) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٢).

وجه الله تعالى، ثم أمر الآخرة، فقدم ذكره تنبيهاً على أن البر مراعاة الله، ومراعاة الدار الآخرة، ثم مراعاة غيرهما».[(١)]

والتفصيل مناسب هنا دون آية البقرة، لأنه لما نفى أن يكون التوجه في ذاته قبل الشرق والمغرب براً، شرع في ذكر البر الحق، الذي ينبغي أن يحرص عليه المؤمنون، فكان لائقاً أن يوضحه لهم بهذه الطريقة، التي تزيل عنهم ما اعتقدوا مما لا ينبغي، وتفصل الحق وتبينه فيما يجب أن يعتقدوا.

ولذلك كان قوله: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ﴾[(٢)] تحقيقاً للحق بعد إبطال الباطل، وتفصيلاً لخصال البر، مما يختلف باختلاف الشرائع، ومما لا يختلف، أي ولكن البر برُ من أمن بالله وحده إيمانا بريئا من شائبة الإشراك،لا كإيمان اليهود والنصارى والمشركين... إلخ ما ذكر، وكلها تعريض بالإيمان الباطل لبقية الفرق.

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ : فبعد أن ذكر ما ينبغي في حق الله تعالى من

---

(١) انظر أبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ١٣٤)، حيث ذكر كلام الراغب.

(٢) والبر هنا منصوب خبر ليس مقدم كما في قوله:

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وأخر الاسم وهو المصدر المؤول؛ لأن فيه طولاً، لو روعى الترتيب لفات تجاوب أطراف النظم الكريم. وعبر بالبر للمبالغة، أى البر كل البر يؤدى إلى الثواب العظيم هو بر من آمن. والبر أشرنا إليه من قبل، وهو سعة الإحسان وشدة المرضاة والخير الكامل الشامل، ولذلك توصف به الأفعال القوية الإحسان، فيقال: بر الوالدين، وبر الحج، وقال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾، وذكر أهل التفسير واللغة وجوه القراءات والبلاغة والنحو في الآية وترجيح كلٍ. انظر محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٢٨-١٢٩)، والفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٣-١٤)، والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم» (٨/ ٢٢٧-٢٢٨)، والزمخشرى «الكشاف» (١/ ١٠٩)، والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٣٨-٢٣٩).

الإيمان الصحيح بأن يعبدوه لا يشركوا به شيئا وأن يؤمنوا بسائر مواضيع الإيمان انتقل إلى حق الخلق يستكمل معانى البر وصفات المتقين وهو إتمام الكمالات البشرية التي يسعد بها الناس أفرادا وجماعات وتستقيم بها أحوالهم مع ما يرجون بذلك من ثواب الله في الآخرة.

فأول ما بدأ به قوله: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ وهو إعطاؤه المال، وبذله مع حب المال إذ الضمير يعود عليه[1]، وتمكن هذا الحب من سويداء القلب بدليل المجاز في قوله على حبه التي تدل على التمكن من هذا الحب كقوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥] فيكون هذا الإعطاء مع الحب وعدم الزهادة فيه ثناء عليهم بأنهم يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى ورجاء أجره،إذ لا يُقَدِّم على حب المال إلا محبوبا أعظم ومطلوباً أجل وهو حب الله تعالى وطلب رضوانه. وبهذا نفهم كيف صدقوا وصاروا متقين؟ وكيف كان فعلهم براً؟ وفيه حث لغيرهم أن يتخلقوا بأخلاقهم، ويبادروا إلى الاتصاف بشمائلهم وسجاياهم.

وقوله: ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ في الآية التي معنا مثل قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا ﴾، ويسمى في البلاغة احتراساً وتتميماً يحسن المعنى، كقول زهير:

---

(١) الضمير يعود على المال لا محالة كما ذكر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٠)، وذكر الرازى والقرطبى والألوسى وغيرهم وجهين آخرين معه، والأول قول ابن عباس - رضى الله عنهما. راجع الفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٦)، والإمام محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤٢-٢٤٣)، والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧٠)، وصديق حسن خان «فتح البيان» (١/ ٢٨٠)، وأبو حيان «البحر المحيط» (٢/ ١٣٥-١٣٦) وغيرها.

مـن يلـق يومـا عـلى علاتـه هرمـاً   يلـق الـسماحة فيـه والنـدى خلقـا

وكقول عنترة:

أثنـى عـلي بـما علمـت فـإنني   سـهل مخـالفتى إذا لم أظلـم

والشاهد في الأول قوله: «على علاته»، وفى الثانى قول عنترة: «إذا لم أظلم».

وقد ثبت من قوله ﷺ :«أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر».[(١)] والشاهد في قوله ﷺ : «وأنت صحيح شحيح».

بدأت الآية بذكر أصناف هؤلاء الذين يُؤْتَون المال على حبه لأن إتيانهم المال لا شك يأتى بخير ومصالح، فكانت أن افتتحت بذوى القربى، أى ذوى قرابة المعطى، فالألف واللام في القربى عوض عن المضاف إليه، وقدم ذوى القربى لأن إيتاءهم أفضل، كما قال - عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك اثنتان صدقه وصلة».[(٢)] وهذا على قول من قيد ذوى

---

(١) انظر الإمام محمد بن أحمد جرير الطبرى «جامع البيان» (٢/ ٥٦)، والحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، والحديث أخرجه البخارى (١٤١٩).

(٢) قال صديق خان في « فتح البيان »: «أخرجه ابن أبى شيبه، وأحمد، والترمذى وحسنه، والنسائى، وابن ماجه والحاكم، والبيهقى في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبى». وقد ذكره الإمام أبو زكريا يحى بن شرف النووى في «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين»، دار إحياء الكتب العربية، ص١٥٩)، باب بر الوالدين وصلة الأرحام، وقال: رواه الترمذى وقال: حديث حسن. وبذلك يتبين وهم محقق تفسير البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، حيث نسبه للصحيحين، وبالمراجعة تبين أنه حديث آخر. انظر فتح البيان (١/ ٢٨٠)، رياض الصالحين (١٥٩)، أنوار التنزيل (١/ ٤٥٣)، روح المعانى (٢/ ٧٠)، أما حديث الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزئ عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها فقال:«لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة»، وأخرج الطبرانى والحاكم والبيهقى في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ

القربى بالمحاويج منهم، وإن كانت الآية عامة لا تختص بمساكينهم على رأى بعض أهل العلم، لما في ذلك من التحابب والتئام الشمل وتحقيق مقصود الشرع من المودة، يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «أمر بالإحسان إليهم لأن مواساتهم تكسبهم محبتهم إياه والتئامهم. وهذا التئام القبائل الذي أراده الله بقوله: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ فليس مقيداً بوصف فقرهم كما فسر به بعض المفسرين، بل ذلك شامل للهدية لأغنيائهم وشامل للتوسعة على المتضائقين وترفيه عيشتهم إذ المقصود هو التحابب».[(١)]

وذوى القربى، وما عطف عليه من بقية المعطوفات هو المفعول الأول، والمال هو المفعول الثانى، وقدم الثانى اعتناءً به، لأن المقصود الأعظم إيتاء المال على حبه.[(٢)] وذهب بعضهم إلى أن المال هو المفعول الأول.

﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم، وهم ضعفاء صغار دون البلوغ، وكذلك لا قدرة لهم على التكسب، وهم الصنف الثانى الذي وصى الله - سبحانه - به لنرى بذلك مجتمع المؤمنين لا يضيع فيه أحد لضعفه وصغره بل الكل مكفول له حقه في حياة كريمة ملؤها الرحمة والإحسان، حقا واجبا، وفضلا لازما، لا مِنة فيه ولا تكبر.

وبذلك ترى الإسلام قد سبق دعاة حقوق الإنسان بقرون متطاولة، في إقامة مجتمع الود والتراحم، الذي لا حقد فيه ولا تناحر ولا صراع بين طبقاته ولا تفكك وأنانية بين أبنائه، بل كلهم جسد واحد، إذا اشتكى فيه عضو تداعى

=

يقول: «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح». انظر فتح البيان لصديق خان (١/ ٢٨٠)، وروح المعانى للعلامة محمود الألوسى (٢/ ٧٠).

(١) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٠-١٣١).

(٢) انظر أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط» (٢/ ١٣٦).

له سائر الجسد بالحمى والسهر.

بل رأى بعض العلماء إعطاء اليتيم ولو لم يصل إلى حافة الفقر لفقده ما كان ينيله أبوه من رفاهية عيش فإيتاؤهم المال يجبر صدع حياتهم.(١)

وقد حمل بعضهم - كما قال في «البحر المحيط» - اليتامى على حذف أي ذوى اليتامى إذ لا يحسن إعطاء المال اليتيم الصغير الذي لا يميز، ولا يعرف مصلحته، أما إن كان مراهقا والصدقة مما يؤكل أو يلبس وهو يعرف مواقع حقه جاز دفعها إليه هذا لمن خص اليتيم بغير البالغ.أما من لم يخص فإن الصدقة تدفع للبالغ أو لوليه.(٢)

﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ : ومازال البر يأتى على كل ما يمكن أن يوجد في مجتمع الإيمان، مما يعكر صفوه، ويذهب سلامه، فجاء دور المساكين لينتشلهم من الحاجة، ويسد خلتهم، ويقيم أودهم، ويجعلهم أفراداً صالحين، يخافون على وطنهم، ويفتدونه بأرواحهم، لما رأوا من قيامه بحقوقهم وعدم تركهم نهباً للجوع والذل، بينما يرفل غيرهم في الشهوات والملذات في حياة ناعمة، خاصة وأن المسكين لا يُفطن له ولا يسأل كغيره ممن ستأتى صفته فإذا وجد من يسأل عنه ويتفطن له ويواسيه ويهئ له الحياة الكريمة، فانظر إلى صلاح مثل هذه النفس واستقامتها.

يقول الرسول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عن ﷺ: «ليس المسكين الذي

---

(١) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧٠)، وأبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط» (٢/ ١٣٦)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١).

(٢) أبو حيان الأندلسى «البحر المحيط» (٢/ ١٣٦)، الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٩).

يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه».

فالمسكين من السكون أى أسكنته الحاجة، وهى كذلك من الذلة والضعف، أى الذي أذله الفقر، وهو على وزن (مفعيل) للمبالغة، ولم يكن ليتركه الإسلام على هذا النحو فراعى الإسلام هؤلاء ولم يطق أن يرهم في مجتمع المسلمين حتى أخرج لهم حقوقا غير الزكاة - إذا لم تكف الزكاة - ليكفل لهم حياة كريمة وعيشة مستقرة بين هؤلاء الأبرار الأتقياء ليصير المجتمع كله مجتمع الأبرار الأتقياء.[1]

﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ : جمع سائل، والسؤال عنوان الحاجة، لأن شأن المرء أن تمنعه نفسه أن يسأل من غير حاجة غالباً، والبر ألا يترك السائل هكذا يريق ماء وجهه، يتكفف الناس، يعطونه مرة ويردونه أخرى، بل من صفات المتقين أن يعطوه مما يحبون من أموالهم بمجرد أن يعلموا بحالة وقد كنى بالسائل هنا عن الفقير لأن آيات القرآن الكريم كثيراً ما تجمع بين الفقراء والمساكين في لزوم رعايتهم ومواساتهم، وإنما قدم المسكين لأنه لا يُتفطن إليه كما ذكرنا والسائل قد عرفنا حاله من سؤاله وكذلك لان المسكين في رأى جمهور أهل اللغة أسوأ حالا

---

(١) انظر العلامة محمود الألوسى، «روح المعانى» (٢/ ٧٠-٧١)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١)، و الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى «مختار الصحاح»، عنى بترتيبه محمود خاطر بك، المطبعة الأميرية، ١٣٤٠هـ، باب سكن، والحافظ أبا الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى «زاد المسير» (١/ ١٠٩). أما الحديث «ليس المسكين..» فقد رواه البخارى (١٤٧٦)، وانظر الحافظ ابن حجر العسقلانى، «فتح البارى» (٣/ ٣٤٠-٣٤١)، ورواه مسلم (١٠٣٩)، انظر الإمام النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٣٩).

من الفقير فوجدنا الآية الكريمة تراعى كل حال ليتحقق مقصود الشرع الشريف.

﴿ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ : هو المسافر كما قال مجاهد في تفسيره، وسمى بذلك لملازمته الطريق في السفر، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته، ويطلق كذلك على الضيف ينـزل على المسلمين كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما، وأفرد في السياق لانفراده عن أحبابه وطنه وأصحابه.[١]

وها قد رأينا عظمة الإسلام في هذا التشريع، كما هو الحال في كل تشريع، أن لابن السبيل حقا في أموال المسلمين يبلغه داره ووطنه سليما معافاً مطمئناً، له في كل طريق أهل وأخوان يقومون بمؤنته، ويؤنسون وحشته، ويخففون عنه آلام الغربة وأوجاع الفراق،علاوة على بذلهم أموالهم ليصل إلى مقصوده.

وقد قام بهذا الخلق النبيل الأوائل من أهل الإسلام، حيث، كانت دولته تسهر على شئون أبنائها وشئون رعاياها، كما ذكره د. يوسف القرضاوى[٢]،

---

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧٠)، والحافظ بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، والعلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١).

(٢) يقول د. يوسف القرضاوى: «إن عناية الإسـلام بالمسافرين الغرباء والمنقطعين هى عناية فذة لم يعرف لها نظير في نظام من الأنظمة أو شريعة من الشرائع.وهى لون من ألوان التكامل الاجتماعى فريد في بابه..، وفى الواقع العملى نجد أبن سعد يروى لنا أن عمر بن الخطاب ﷺ اتخذ في عهده داراً خاصة أطلق عليها «دار الدقيق» وذلك أنه جعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يُحتاج إليه، يعين به المنقطع به، والضيف ينزل بعمر، ووضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به،ويحمل من ماء إلى ماء.

وفى عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز كتب ابن شهاب الزهرى له السنة في الصدقة فكان منها ابن السبيل حيث يقول: «وسهم ابن السبيل يقسم لكل طريق على قدر من يسلكها ويمر بها من الناس،لكل رجل راحل من ابن السبيل ليس له مأوى ولا أهل يأوى

فكانت الخانات والنُّـزل موجودة في كل طريق المسلمين، مفتوحة ليلاً ونهاراً، تستقبل الطارقين، وتأوى النازلين، تستضيفهم، وتزودهم بما يتمكنون به من مواصلة السير وإكمال الرحلة، كل ذلك من بيت المسلمين حقاً لهم مبذولا بروح المحبة والمودة، بل كذلك يستقبلون ويستضيفون كل أحد ولو كان على غير ملتهم،وانظر حالنا الآن! وحتى لما أن اندثرت تلك المعالم كان واجبا على المسلمين في البوادى وغيرها حق الضيافة لمن مر بهم ممن هذا شأنه.

ويقول العلامة الألوسى في «روح المعانى»: «ولأنه لما لم يكن بين أبناء السبيل والمعطى تعارف غالبا يهوِّن أمر الإعطاء ويرغِّب فيه، أفْرَدَهم ليهون أمر إعطائهم وليشير إلى أنهم وإن كانوا جمعاً، ما ينبغى أن يُعتبروا كنفسٍ، فلا يُضجر من إعطائهم لعدم معرفتهم، وبُعْد منفعتهم»[(١)].

﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ : ولما كانت الحرية هدفا مقدسا من أهداف الإسلام - ليخرج الناس من عبادة الناس لعبادة رب الناس، وليكون الناس أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم - كان أنْ أمر بإيتاء المال على حبه في تخليصهم من رق العبودية المنتشر تلك الأيام، بعد أن أكد بتشريعات كثيرة على فك الرقاب وإعتاقها كالكفارات وغيرها بل بين في تلك الآية الكريمة أن شأن المتقين ومن أحاسن صفاتهم بذلهم محبوب أموالهم في إعتاق الرقاب وتحرير الأسرى بل وفى شراء العبيد وعتقهم وجعلهم أحراراً ابتغاء وجه الله - تعالى، وقد رأينا مثالا لذلك أبا

=

إليهم فيطعم حتى يجد منزلا أو يقضى حاجته ويجعل في منازل معلومة على أيدى أمناء،لا يمر بهم ابن سبيل له حاجه إلا آووه وأطعموه وعلفوا دابته حتى ينفد ما بأيديهم إن شاء الله». د. يوسف القرضاوى «فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة»، طبعة دار الرسالة، ١٤١٢-١٩٩١)، (٢/ ٦٧٤-٦٧٥).

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧١).

بكر الصديق.

و﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ ءَاتَى ﴾ أى آتى المال في تخليص الرقاب والرقبة مجاز عن الشخص إذ هى مؤخر أصل العنق وإيراد كلمة ﴿ فِي ﴾ للإيذان بأن ما يعطى لهؤلاء مصروف في تخليصهم لا يملكونه كما في المصارف الأخرى؛ إذ المقصود للشرع هو حصولهم على حريتهم.(١)

﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ : وقد تكررت لأنها أهم صفات المتقين بعد الإيمان إذ منها تخرج الأعمال الصالحة ويكف بها المؤمن عن الأعمال السيئة إذ هى صلة العبد بربه وعبوديته وخضوعه ومظهر استسلامه لأوامره ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] علاوة على طمأنينته وسكونه وانشراح صدره «وجعلت قرة عينى في الصلاة» وقد ذكرنا معنى إقامتها في الآية الأولى.

﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ : والزكاة في الإسلام قرينة الصلاة إذ تلك رأس علاقة الإنسان بخالقه والزكاة رأس علاقة المسلم بأخيه، ودليل العدالة الاجتماعية

---

(١) ذكر أبو حيان سبب اختيار ترتيب الأصناف المذكورين في الآية على هذا النحو الحسن ثم أردف ملخصا: قال الراغب: اختير هذا الترتيب لما كان أولى من يتفقد الإنسان لمعروفه أقاربه فكان تقديمه أولى، ثم عقبه باليتامى والناس في المكاسب ثلاثة: معيل غير معول، ومعول معيل، ومعول غير معيل. واليتيم معول غير معيل فمواساته بعد الأقارب أولى، ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضرا ولا غائبا، ثم ذكر ابن السبيل الذي يكون له مال غائب، ثم ذكرا السائلين الذين منهم صادق وكاذب، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم فكل واحد ممن أخر ذكره أقل فقراً ممن قدم ذكره عليه ا.هـ »، ثم قال: «وأجمع المسلمون على أنه إذا نزل بالمسلمين حاجة وضرورة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها. وقال مالك:«يجب على الناس فك أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم.» انظر أبا حيان، «البحر المحيط»، (٢/ ١٣٨).

ومصدر السلام الاجتماعى وينبوع تكافل الأمة وتماسكها وعنصر هام من عناصر تطورها ورقيها.ولقد أتى بها بعد ذكر إيتاء المال على حبه ليبين أن في المال حقا سوى الزكاة،(١) ولأن من آتى بتلك المكرمات من أنواع البر فلأن يأتى بالزكاة الواجبة أوكد. فجعل ذلك مقدمة لإيتاء الزكاة والحرص عليها إذ تلك شيم المتقين وبهم.

يقول أبو حيان، في «البحر المحيط» - يعقب على هذه الآيات من كلام الحق سبحانه - يبين مناسبة ترتيبها، وكيف ذكر إيتاء المال بعد الإيمان: «وثنى بإيتاء المال لأن ذلك من آثر الأشياء عند العرب ومن مناقبها الجلية ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يفتخرون بذلك حتى هم يحسنون للقرابة وإن كانوا مسيئين لهم».(٢)

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ﴾: وحادى الإيمان لازال يحدونا بصفات المتقين، ويظهر كرم النفوس وسيرها على الجادة ويطهرها من النفاق

---

(١) الأصح من قول أهل العلم أن في المال حقا سوى الزكاة لحديث فاطمة بنت قيس الذي أخرجه ابن ماجه والترمذى والدارقطنى وإن كان إسناده ليس بذاك ولكن تؤيده الآية الكريمة التي معنا،وذهب الآخرون إلى حديث على ﷺ :«نسخت الزكاة كل صدقة» وكذلك هو ضعيف ويرجح القول الأول قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾، وقوله ﷺ :«لا يؤمن بالله واليوم الأخر من بات شبعا وجاره طاو إلى جنبه»، وكذلك احتجوا بالإجماع أنه إذا انتهت الحاجة إلى الضرورة وجب على الناس أن يعطوا مقدار دفع الضرورة وذلك بعد الزكاة.، انظر للإمام محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، للعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧١-٧٢)، والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٧)، وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، وجار الله محمود الزمخشرى «الكشاف» (١/ ١٠٩-١١٠)، وفى المسألة بحث طويل، انظر للدكتور يوسف القرضاوى فى« فقه الزكاة»، (٢/ ٩٦٤-٩٩٢).

(٢) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٢/ ١٣٨-١٣٩).

ومقبوح الأخلاق.«آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان».[(١)]

﴿ وَٱلْمُوفُونَ ﴾ معطوف على ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ أى البر المؤمنون والموفون وغير أسلوب الوصف فلم يقل: من أوفى للدلالة على مغايرة الوصفين فالأول متعلق بحقوق الله تعالى وأصول الدين. والثانى من حقوق العباد هذا ما ذهب إليه العلامة ابن عاشور.[(٢)]

لكن ذهب الفخر الرازى وتبعه جماعة إلى كون الآية عامة تشمل الوفاء بكل الحقوق: حقوق الحق سبحانه، وحقوق الخلق. يقول - رحمة الله تعالى: «واعلم أن هذا العهد يكون بين العبد وبين الله، أو بينه وبين رسول الله ﷺ أو بينه وبين سائر الناس،أما الذي بينه وبين الله فهو ما يلزمه بالنذور والإيمان.وأما الذي بينه وبين رسول الله ﷺ فهو الذي عاهد عليه الرسول ﷺ عند البيعة من القيام بالنصرة والمظاهرة والمجاهدة وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وأما الذي بينه وبين سائر الناس فقد يكون ذلك من الواجبات مثل ما يلزمه في عقود المعاوضات من التسليم والتسلم وكذا الشرائط التي يلتزمها في السلم والرهن، وقد يكون ذلك من المندوبات مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال والإخلاص في المناصرة.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ يتناول كل هذه الأقسام فلا معنى لقصر الآية على بعض هذه الأقسام دون بعض وهذا الذي قلناه هو الذي عبر عنه المفسرون فقالوا: هم الذين إذا وعدوا أنجزوا،وإذا

---

(١) الحديث: «آية المنافق..» رواه البخارى (٢٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ٨٩)، ومسلم (١٠٧)، انظر الإمام النووى، «شرح صحيح مسلم»، (١/ ٣٢٢).

(٢) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ١٣١)

حلفوا ونذروا وفوا، وإذا قالوا صدقوا،وإذا ائتمنوا أدوا».[١]

وكذلك هم أسرع الناس وفاءً بما عاهدوا لذلك قيده بالظرف ﴿ إِذَا ﴾ ليدل على عدم تأخرهم عن الوفاء طرفة عين، وإشارة أخرى في قوله: ﴿ إِذَا عَـٰهَدُواْ ﴾ أنهم ما يعاهدون إلا وقد تحققوا بأنهم يستطيعون الوفاء بالعهد فإن علموا ألا يفوا فلا يعاهدوا فكان خلقهم على كل حال من أعظم أخلاق المتقين.[٢]

﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ : وصلنا في صفات المتقين إلى جماعها والتي بغيرها لا يتحقق شئ ذا أثر مما سبق من الخلال العظيمة وتلك المكرمات الجليلة.

والصبر عرفه الغزالى في الإحياء[٣] بأنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. والصبر لغةً: حبس النفس عن الجزع[٤]، وزاد بعضهم: وحبس اللسان عن التشكى، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

أما أنواع الصبر: فهو على ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار من

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ٢١-٢٢) وممن تبعه الألوسى في «روح المعانى»، حيث يقول: «والظاهر حمل العهد على ما يشمل حقوق الحق وحقوق الخلق وحذف المعمول يؤذن بذلك»، الألوسى «روح المعانى» (٢/ ١٧٧).

(٢) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١).

(٣) انظر الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى، «إحياء علوم الدين»، مجلد٤، (١٢/ ٢١٧٣).

(٤) انظر الزمخشرى، «أساس البلاغة» مختار الصحاح مادة «صبر»، لسان العرب «صبر»، (٢/ ٣). والإمام ابن القيم ابن محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى (ت٧٥٩) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»:دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، (ص١٢).

المصائب والآلام حتى لا يتسخطها.(١)

أما حكم الصبر فإنه واجب على المؤمن أن يصبر على ما يصيبه، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧]، يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم»: «والصبر واجب على المؤمن حتم، وفي الصبر خير كثير، فإن الله ﷻ أمر به ووعد عليه جزيل الأجر، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾».(٢)

والشكوى والتسخط والتبرم مما نزل بالمرء ينافي الصبر ولما كان الأصل في الكلام على الصبر منبن على الإختصار حيث المقصود علاقته بالتقوى فنشير فقط إلى مهم من آيات الصبر توضح أهميته، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فجعل الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، وبشر الصابرين بثلاث، كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٧٥]، ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو به - سبحانه - وبذلك تهون جميع المصائب، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

اقتصرنا على هذه المواضع الثلاث من أكثر من نيفٍ وسبعين موضعاً

---

(١) انظر ابن القيم «الوابل الصيب من الكلم الطيب»، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ، (ص٣).

(٢) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٨).

للصبر[(١)] تبين قيمة التقوى عند الكلام على العلاقة بينهما.

أما علاقة التقوى بالصبر فإن دراسة مواضع التقوى توضح أن الصبر من صفات المتقين، ولكن نبادر فنفرد تلك المواضع هنا للنظر فيها، وها هي ذي:

١. قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

٣. قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

ذكرت الآية الأولى - وهى الآية التي معنا - أن من المتقين أولئك الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، يعنى أن من التقوى صبراً مخصوصاً وهو الصبر في البأساء، أى في الفقر والشدة، والضراء أى المرض والزمانة، وحين البأس أى حال جهاد العدو، وإذا كان الصبر لاشك أعم من ذلك كما عرفناه، فما وجه مدح المتقين بذلك؟ خاصة والسياق يذكر صفات أخرى كثيرة أهم من ذلك للمتقين، كالإيمان والصلاة، وهى تحتاج لصبر كذلك أعم مما ذكرنا.

والإجابة أن مدح القرآن الكريم لهم على صبرهم في هذه المواطن في الشدة والمرض وقتل النفس وفى ملاقاة العدو دليل على مدحهم فيما دونه، لأن الصابرين في مثل ذلك يسهل عليهم الصبر فيما هو أخف من المواطن والأعمال، فمثلهم لا يشق عليه الصبر في العبادات وبذل الأموال وسائر أعمال الطاعة،

---

(١) أبو حامد الغزالى «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤، (١٢/ ٢١٧٣).

فضلاً عن الصبر في كافة مواطن المعصية، لذلك كانوا داخلين في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فكان اختيار القرآن الكريم للتعبير عن صبرهم بهذه الصفات دقيقاً وبديعاً، ليدل على أن صبرهم أكد في السراء والغنى والصحة وحال السلم والراحة. أى يدل بذلك على أنهم متحققون بالصبر في كافة أحوالهم، وكافة مواطن الصبر.

أما الآية الثانية في سورة آل عمران عند وصف المتقين قال: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهى من صفات المتقين، ولكن جاء الوصف هنا على إطلاقه، يشمل كل أنواع الصبر، وأن الصبر صار صفة لازمة لهم، وهيئة راسخة فيهم، وأنهم قد بلغوا كذلك الدرجة العليا في تلك الصفة على ما ذهب إليه الزمخشرى(١)، وهذه الآية ستأتى في موضعها فيما بعد.

أما الموضع الأخير فقوله ﷻ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

وظاهر الآية الكريمة أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر، واعلمه أن صبره إنما يكون بعون الله له ومدده إياه، والا لم يستطع، ونهاه عن الحزن على الكفار ولا الضيق من مكرهم، لأن ذلك من صفات المتقين، الذين فازوا بمعية الله لهم، والتي من مقتضاها حفظهم والذود عنهم، وتأييدهم ونصرهم.

يقول العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير» في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨]:

تعليل للأمر بالاقتصاد على قدر الجرم في العقوبة، وللترغيب في الصبر على

---

(٢) انظر جار الله الزمخشرى « الكشاف»، (١/ ٢٧٨)

الأذى، والعفو عن المعتدين، ولتخصيص النبى ﷺ بالأمر بالصبر، والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى، ولصرف الكدر عن نفسه من جراء أعمال الذين لا يؤمنون به.(١)

وهذا التعليل السابق دليل على الصبر وما تبعه من صفات المتقين، لذا أتى بجانب التقوى بصلة فعلية ماضية ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ للإشارة إلى لزوم حصولها وتقررها من قبل.(٢)

وقد رأينا آيات لعاقبة التقوى المحمودة معطوفة على الصبر، مرتبطة به، وما ذلك إلا لتبين قيمة الصبر من صفات المتقين، وأهميته في ذلك الموضع حتى نص عليه بخصوصه، وهاكم هذه المواضع - وقد جاءت في مواضعها:

١. قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٣. قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٤. قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقد ذكرنا التفصيل لهذه المواضع في أماكنها.

فمعظم الفضائل ملاكها إذاً الصبر، إذ تنبعث عنه مكارم الأخلاق والمكارم

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٣٨).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٣٨).

راجعة إلى قوة الإرادة وكبح جماح النفس في الاسترسال مع شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالاً أو عما يورث نقصاناً فكان الصبر ملاك الفضائل في التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر. ومما يُؤثر عن علي ﷺ: «الشجاعة صبر ساعة».

وإذا رجعنا إلى الآية نستوضح هديها ونستجلي معانيها نرى عند أول تأمل:

نصيب الصابرين بالمخالفة للمعطوفات قبلها بما يوحي بمزيتها والاهتمام بها وذلك من عادة العرب في كلامها تخالف في مثل ذلك للاختصاص بالمدح أو الذم والسياق هو الذي يحدد. والمعنى: وأخص بالمدح الصابرين.(١)

فبينت الآية الكريمة أن المتقين في أعلى درجات الصبر وأنه ملازم لهم لذلك اختصهم بالثناء والمدح في نفس الوقت الذي بين فيه قيمة صبرهم وعلو مرتبتهم. فكان المدح والثناء داعياً أهل الإيمان لتفقد صبرهم في تلك المواطن وحضاً لهم على التخلق بتلك الأخلاق والتشبث بكل الصفات وبترويض النفس عليها رجاء تحصيل مكارم الأخلاق، فكانت الآية دقيقة في اختيار صفات بعيدة عن السياق لتدل على صفات السياق من باب الأولى.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾: صح لأولئك السابقين أن يشار إليهم بالصدق وأن يوصفوا به، والصدق يشمل الصدق في القول والصدق في الأحوال فالصدق في القول مقابل الكذب أى طابقت أقوالهم ما انطوت عليه قلوبهم من الإيمان والخير فإذا أخبروا بشيء كان صدقاً

---

(١) راجع جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١١٠). والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١/ ١٣٣)، (٢/ ١٣).

لا يتطرق إليه الكذب وهو مثل قوله ﷺ: «لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» والصدق في الحال مقابل الرياء فعملوا أعمالهم لله تعالى لا رياء فيها ولا سمعة، قصدوا بها وجه الله تعالى وكانوا عند الظن بهم[(١)].

يقول أبو حيان: «وقد أخبر عن أولئك الأولى بالماضي ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ لتحقق اتصافهم به وأن ذلك وقع منهم وثبت واستقر. وأخبر عن أولئك الثاني بموصول صلته اسم الفاعل ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ليدل ذلك على الثبوت وأن ذلك وصف لهم لا يتجدد بل صاشر سجية ووصفاً لازماً»[(٢)].

الموضع الثالث من صفات المتقين في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

وإذا كان للشهوات المزينة من النساء والأولاد وأنواع الأموال والمتاع المختلف في هذه الحياة الدنيا بريقها الجذاب وسحرها الأخاذ، الذي يجعل الناس يلهثون في تحصيلها ويقتتلون على حوزها وجمعها، ولا يبالون بأى وسيلة يركبون في الازدياد منها، مع علم العقلاء بل قل علمهم هم بقلة هذا المتاع مهما جمعوا، وبقصر وقت الاستمتاع به مهما عاشوا فيها وعمروا، وأنهم سرعان ما يتركونها

---

(١) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ١٤١-١٤٢). وأما الحديث «ولا يزال الرجل يصدق.. » فقد رواه البخارى (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ١٤٢). والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ٧٢).

إلى مثواهم الأخير بغير أهل ولا ولد أيضاً. إذا كان ذلك كذلك فإن للمتقين شأناً آخر، شأن من لم تلهه الدنيا عن الآخرة، شأن من لم يشغله الحطام الفانى عن تحصيل الزاد الباقى.

وقبل أن يذكر المولى صفات المتقين أولئك في هذه الآيات الجديدة، أمر النبى ﷺ أن يخبر الناس بصيغة الاستفهام عن جزاء المتقين، وما أُعد لهم أولاً بهذه الصيغة المشوقة للناس لهذا الجزاء العظيم من الجنات والأزواج المطهرة، وأعلى ذلك كله رضوان الله الذي لا يسخط عليهم بعده أبداً، حتى يحثهم على السؤال عن صفاتهم ليتخلقوا بها، وعن أحوالهم المرضية ليسيروا عليها، وأشار إلى شيء آخر أن ما ذكر من حسن جزائهم خير مما ذكر من قبل بلا شك من ملذات الدنيا، وهى كقوله سبحانه: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧]، خير مما هو كائن في الدنيا من أنواع النعيم كما قال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: قال الله تعالى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١)، حتى يعظموا هذا النعيم ويعملوا له ويستصغروا في جنبه كل نعيم فلا يلهيهم عنه.

وحينئذ يبحثون عن صفات أصحاب النعيم المقيم والسرور الدائم، فيقال لهم في هذه الآية الكريمة أول صفاتهم الإيمان.

ونلاحظ بمقارنة ما ورد عن الإيمان هنا بالآيتين من قبل؛ نرى في الأولى الإيمان بالغيب والإيمان بالآخرة، والثانية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

---

(١) الحديث رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (٣٢٤٤)، وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد٦ (ص٣١٨) وما بعدها، ورواه مسلم من حديث أبى هريرة أيضاً (٢٨٢٤)، وانظر شرح أبى زكريا النووى على مسلم، مجلد٩، (ص١٨٢) وما بعدها.

واليوم الآخر. والأولى في المضارع والثانية في الماضى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ... ﴾ أما هنا فقد جاء التعبير بقولهم: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ... ﴾ مطلقة هكذا عامة تشمل الإيمان بكل مواضيع الإيمان فكأنهم يقولون ربنا إننا آمنا بكل تأكيد ويقين، بكل ما أمرتنا أن نؤمن به.

ونرى دوام لهجهم بذلك من المضارع ﴿ يَقُولُونَ ﴾ كأنهم لا يفترون عن هذا القول، ولا يملون من ترديده مؤكدين ذلك بالنداء، وإنَّ المفيدة لتوكيد هذا الإيمان.

وهم يرفعون أيديهم بذلك ضارعين إلى مولاهم وربهم كأنهم يتلون الآية الأخرى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ونحس من ندائهم بهذا الإيمان المطلق الاستسلام التام منهم لربهم جل وعلا فيما أمرهم به، فكان مناسباً في هذه الآية الكريمة أن يدعوا ربهم بعدما استجابوا له أن يستجيب لهم، فكان دعاؤهم بالمغفرة والنجاة من النار أنسب الأدعية بعد الإيمان ﴿ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ لذلك يتضرعون إلى الله ﷻ وهم ينسبون ويضيفون أنفسهم إلى ربهم ﴿ رَبَّنَآ ﴾ تحنناً واستعطافاً أن يغفر لهم ويقيهم عذاب النار، إذ تلك رحمته وذلك فوزهم ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ونبظر في الآيات:

فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ مازال فيه معنى وهو أنه ليس قولاً باللسان وإنما إخبار عن واقع صحيح لهذا الإيمان يستدعى الأخذ بالأسباب الداعية لطلب المغفرة والنجاة من النار. يقول العلامة بن عاشور: « ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ عطف بيان للذين اتقوا. وصفهم بالتقوى وبالتوجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة. ومعنى القول هنا الكلام المطابق للواقع في الخبر، والجارى على

فرط الرغبة في الدعاء في قولهم: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ... إلخ، وإنما يجرى كذلك إذا سعى الداعى في وسائل الإجابة وترقبها بأسبابها التي ترشد إليها التقوى،فلا يجازى هذا الجزاء من قال ذلك بفمه»(١).

ويؤيد هذا القول ما ذكر من صفاتهم بعد ذلك الصابرين والصادقين... إلى آخره. إذ تلك الصفات تؤكد تحققهم وليس تلفظهم فقط بهذا القول.

زادت صفات المتقين هنا عن الآيتين السابقتين صفات، الأولى: الدعاء بالمغفرة والوقاية من النار، والثانية: القنوت، والثالثة: الاستغفار بالأسحار. أما الأولى فهى أنهم دائمو الدعاء إلى الله تعالى أن يغفر لهم، وأن يقيهم عذاب النار، وتلك من أهم صفات المتقين التي تبين خوفهم من لقاء ربهم، الخوف المحمود، الذي يلازم الأخذ بالأسباب ليتحقق الدعاء، ويبين دعاؤهم كذلك عبوديتهم لربهم ودوام صلتهم به سبحانه مع لزوم الخشية والتضرع وطول الوقوف بباب الله تعالى لا تغرهم عبادتهم عن خوفهم من العاقبة والمصير، بحيث يظلون ناظرين إلى فضل الله ورحمته لا إلى أعمالهم وهو مصداق قول الرسول ﷺ : «واعلموا أنه لن ينجىَّ أحداً منكم عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»(٢).

ويحتمل كذلك هذا الدعاء المبارك بالنجاة من النار طلب الجنة من الله تعالى إذ هو تمام المراد وأعلى المقاصد وهو ما يدندن حوله المتقون في كل تصرفاتهم ظاهراً وباطناً داعين به في كل حين. يقول الإمام القرطبى: «ويحتمل أن يكون

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٤/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) رواه البخارى في كتاب «الرقائق»، (٦٤٦٧). وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد١١، (ص٢٩٤). ومسلم (٢٨١٦) كتاب «المنافقين». وانظر النووى «شرح صحيح مسلم» (٩/ ١٧٤) وما بعدها.

دعاءً مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين، وهو كما قال بعض أصحاب النبى ﷺ عندما سأله ﷺ : كيف تقول في صلاتك؟ قال: أتشهد وأقول: اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما أنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال ﷺ : «حولها ندندن»[١]، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

جاءت بعد ذلك الصفات الطيبات التي يزدان بها سلوك المتقين ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾، وجاءت باسم الفاعل مع العطف لتدل على أن هذا المعنى صار عادتهم وخلقهم وأنهم لا ينفكون عنها وبذلك كان التعبير به أكمل من قوله الذين يصبرون ويصدقون... إلخ[٢]، لأن يصبرون تفيد التكرار فقط، أما اسم الفاعل كونها صارت عادة لهم وسجية فيهم.

أما العطف فللزمخشرى - وتبعه جمع - رأى في أن عطف الصفات الأصل فيها ترك الواو، لأنها لذات واحدة فإذا عطفت بالواو كانت كل صفة كأنها ذات مستقلة، ولا يعدل إليها البليغ إلا لنكتة، وهى كون المرء قد بلغ الكمال في هذه الصفة ومعنى ذلك أن المتقين قد بلغوا الكمال في هذه الصفات التي اتصفوا بها لهذا كان التعبير بهذه الصيغة أبلغ.[٣]

---

(١) الإمام محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٤/ ٣٨).

(٢) انظر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٢٩).

(٣) انظر جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١٣٨). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٣٣٩)، وزاد: أو لتغاير الموصوفين. والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٣)، وقال: «كل من كان معه واحد من هذه الخصال دخل تحت المدح». وأبى البركات النسفى «مدارك التنزيل»، (١/ ١٦). واعترض أبو حيان قول الزمخشرى ومن تبعه بقوله: «ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال،

أما مقارنة الصبر بما ورد قبل ذلك فهنا ذكر الصابرين كما ذكرنا مطلقاً أى الصابرون على كل ما يكون الصبر فيه مدحاً وكمالاً وهو أشمل من قوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ إذ الصابرون يشمل صبرهم على الطاعة وصبرهم عن المعصية كذلك.

وقد وردت هنا كلمة ﴿ ٱلْمُنفِقِينَ ﴾، وفى الآية الأولى ﴿ يُنفِقُونَ ﴾، وفى الثانية ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾، فكانت ﴿ ٱلْمُنفِقِينَ ﴾ هنا كذلك شاملة لكل وجوه الإنفاق من واجب ومستحب، فيدخل في ذلك إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه وفى الزكاة والجهاد وسائر وجوه البر(١)، مع كون الإنفاق صار سجية لهم.

وجدنا بذلك حسن التعبيرات القرآنية واتساقها في كل موضع لتحمل تلك المعانى المضيئة.

وأما الصفة الثانية في الآية ولم تذكر في الآيتين من قبل وزادتنا علماً بصفة جديدة من صفات المتقين فهى القنوت(٢)، والقنوت كما يقول ابن عطية - رحمه

=

«البحر المحيط»، (٣/ ٥٨)، وإليه مال الطاهر بن عاشور حيث يقول: «ولا أحسب لهذا الكلام تسليما»، ونبه كذلك على أن الزمخشرى قد أحال على تفسير آية البقرة حيث ذكر ذلك هنا، ولم يذكر هنالك شيئاً. العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ١٨٥).

(١) الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ١٢٨). ولما كان ذكرهم على سبيل المدح دل كذلك على أنهم منفقون للمال على حبه لا يتركون باباً يجب أن ينفق فيه لله إلا أنفقوا.

(٢) يقول أبو حيان في «البحر المحيط»، (٣/ ٥٨): «وقالوا في القانتين: الحافظين للغيب. وقال الزجاج: «القائمين على العبادة. وقيل: القائمين بالحق. وقيل: الداعين المتضرعين. وقيل: الخاشعين. وقيل: المصلين».

الله: «الطاعة والدعاء وبكل ذلك يتصف المتقي».(١) وبالجملة فهى كما يقول الفخر الرازى: «عبارة عن الدوام على العبادة والمواظبة عليها».(٢) وكل ذلك حق في القنوت. فأهل التقوى لا شك وصلوا بتقواهم إلى ذلك وإلا لما سموا متقين فخضوعهم لربهم ودوام صلتهم به سجية وخصلة فيهم غير منفكين عنها ارتباطاً بربهم ومحبة له طالما أرواحهم في أجسادهم كما قال الحق: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩].

والصفة الثالثة المزيدة عما قبل من صفات المتقين هى الاستغفار بالأسحار و«الاستغفار» طلب المغفرة من المولى الكريم الغفار سبحانه. و«السحر» الثلث الأخير من الليل. فالمتقون دائمو الاستغفار يلحون على ربهم في أن يغفر لهم وليس ذلك حال كونهم متصفين بالمعاصى قائمين عليها، وإنما رغم اتصافهم بهذه الأوصاف الشريفة المتقدمة، لا يرون اتصافهم بهذه الصفات مما يسقط عنهم طلب المغفرة. ولا يسقط عنهم استغفارهم في كل وقت كما ورد عن الرسول ﷺ، وإنما خص السحر بالذكر وإن كانوا مستغفرين دائما، لأنه مظنة الإجابة حيث صح في الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «ينـزل ربنا ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الليل الآخر فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر».(٣)

---

(١) انظر أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٤١١).

(٢) انظر الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٢٨).

(٣) انظر أبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٣/ ٥٧-٥٨). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٤١١). والحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٥٣). والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٣/ ١٦٥-١٦٦). والحديث أخرجه البخارى (١١٤٥). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد٣ (ص ٢٩). ورواه مسلم رقم (٧٥٨) (١٧٠) و (١٧٢) في «صلاة المسافرين».

أشرقت الآية الكريمة بحرص أهل التقوى على التعرض لهذا العطاء الربانى المتجدد في كل ليلة، وأنه ديدن كبار الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضوان الله عليهم تأسياً بسيدنا محمد ﷺ في حضور هذه النفحات القدسية الغامرة بمعانى القرب والأنس بالله تعالى في هذه الساعات من ساعات الصفاء، والتي تكون العبادة فيها أشق إذ إغفاءة الفجر ألذ النوم، فإذا ما قام المرء لربه في هذا الوقت تكون النفس أصفى والبدن أقل تعباً والذهن أرق، وذلك دليل محبتهم لربهم وتقديمها على راحتهم، ولا جرم أنهم يقدمون بين يدى استغفارهم قيامهم الطويل لله تعالى يناجون ربهم ويتلون آياته ويتضرعون له، كما قال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

قال الزمخشرى: «لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾»[١].

إن وقوفهم بباب الله في السحر دليل من أكبر الأدلة على اهتمامهم بأمر آخرتهم، وعلى إدراكهم أثر الاستغفار في زيادة قوة الإيمان وكمال العبودية، حيث يهتم الكثير براحة بدنه وشهواته في هذا الوقت، وهم في واد والمتقون يستقون من معين الرحمة ونفحات القدس حيث العبادة أشد إخلاصاً ومكابدة[٢]، وحيث ربهم أقرب إليهم، وجوده أغدق عليهم.

وهكذا شاركت الآية الثالثة في إضافة صفه للمتقين، ولنا عود إلى مثلها.

---

(١) انظر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١٧٨)، والآية من سورة فاطر: آية ١٠).

(٢) وانظر الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٢٩)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ١٨٥)، ود. محمد أديب الصالح «التقوى»، (٢/ ٥٦٦).

وأما الموضع الرابع فهو قوله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦]:

مازال القرآن الكريم يستحث الهمم للتخلق بصفات المتقين. فإذا كانت الآية السابقة قد بينت بعض صفات المتقين، مقدمة لهذه الصفات بأنواع النعيم الجسدى، والروحى الذي أعده عنده - سبحانه - لهم، مسوقاً في صيغة الاستفهام، ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم ﴾ المشوقة لهذا النعيم، ليكون دافعاً للناس، وملهماً لهم للاتصاف بهذه الأخلاق، فإنه سبحانه في هذه الآية الكريمة التي معنا أمر الناس بالمسارعة إلى هذا الثواب العظيم بصيغة الأمر التي لا تحتمل إلا الطاعة والاستجابة، بل والمسابقة والمبادرة إليه، التي تتضمن في نفس الوقت التحذير من مغبة مخالفة هذا الأمر، إذ في مخالفة أمر الله تعالى سخطه وعذابه. وعدم المسارعة إلى الاتصاف بصفات المتقين مخالفة لأمره، وبالتالى التعرض لعذابه، لأنه إعراض عن سبيل الجنة التي هى مستقر رحمته - جل وعلا.

وقد عرضت الآية السابقة ثواب الله تعالى متمثلاً في الجنات، والأزواج المطهرة، والرضوان الأكبر من الله تعالى، أما هذه الآية فذكرت أن الجزاء الذي يجب المسارعة إليه هو المغفرة والجنة، هكذا مجملاً، وبالنظر فيه، نجد أن المغفرة أحد أسباب دخول الجنة، وأن الجنة هى مستقر رحمة الله - جل وعلا، التي فيها يكرم عباده المتقين بكافة أنواع النعيم، بما في ذلك الأزواج المطهرة، الممثلة لغاية

السعادة الحسية، ورضوان الله الذي هو نهاية نعيم الروح وسعادتها.

فكان الإجمال في الآية الكريمة التي معنا متناسباً مع صيغة الأمر، وكان تفصيل النعيم في الآية السابقة متناسباً مع صيغة الاستفهام ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ كذا، وكذا، وكذا مما أعد الله تعالى. مما يبين دقة التعبير القرآني، وجماله، مع حسن التأثير الذي يحمل النفس على الاستجابة له، والتفاعل معه بسبب تنوع الأساليب، وتعدد المعاني.(١)

ونستكمل مقارنة الآيات:

---

(١) وتنكير مغفرة ووصلها بقوله: «من ربكم»، مع تأتى الإضافة بأن يقال مغفرة ربكم، لقصد الدلالة على التعظيم. أى المغفرة العظيمة المتناهية في العظم، فحسن حينئذ أن تطلب بالمسارعة. والمسارعة وإن كانت بصيغة المفاعلة من الجانبين، إلا أنها جاءت مجردة من ذلك، أى مطلوبة من جانب واحد، للمبالغة في طلب الإسراع، والتأكيد عليه. انظر الإمام فخر الدين الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٣). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٨٩)، وذلك ما يؤكد قيمة التقوى، وأهمية الاتصاف بصفات المتقين، والإسراع المؤكد لتحقيق ذلك، خاصة وأن الإسراع المطلوب مجاز في الحرص والمنافسة، الذي يجب أن يكون عادة المؤمنين، وشأن عباد الله المخلصين. ويمكن أن تكون السرعة هنا حقيقة، وهى سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير، كقوله ﷺ في الحديث: «وإذا استنفرتم فانفروا ».والمسارعة بعد ذلك على كل التقادير تتعلق بأسباب المغفرة، لا بذاتها. فعدنا مرة أخرى إلى المسارعة إلى التقوى بتعريفها الذي ذكرناه.

ملحوظة: وردت ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ ﴾ بإثبات الواو وبحذفها في القراءات القرآنية، فتكون بإثبات الواو عطفاً على ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ ﴾، على تأويل المسارعة إلى المغفرة والجنة بالمسارعة إلى أسبابها، وهى طاعة الله ورسوله ... إلخ. وبحذف الواو، تنزل جملة ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ ﴾ منزلة البيان، أو بدل الاشتمال لجملة ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، لأن طاعة الله ورسوله مسارعة إلى المغفرة والجنة فلذلك فصلت. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٨٨).

فنلاحظ هنا عدم التصريح بذكر الإيمان في صفات المتقين، كما جاء مصرحاً به في الآيات السابقة، والظاهر أنه قد استغنى عن ذكره بذكر المسارعة إلى الجنة والمغفرة، لأنه لا يعمل لذلك فضلاً عن المسارعة إليه إلا خيار أهل الإيمان، الذين امتلأت قلوبهم منه، إلى درجة المسارعة إلى الفوز بنعيم الله - جل وعلا - ورضائه.

ونلاحظ كذلك أن الصفات التي أجريت على المتقين تنويهاً وثناءً، ليست جماع التقوى، ولكن اجتماعها مؤذن بأن هؤلاء قد استكملوا ما به التقوى، لأن هذه الصفات من الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ ... إلى آخره، إذا تحققت في شخص فمن باب الأولى أن تكون قد سبقتها صفات التقوى الأصلية، والتي هى الأساس لمثل هذه الأخلاق، والباعث عليها.

ثم رأينا أن أول صفة من صفات المتقين هنا هى الإنفاق وقد تقدم غير مرة ولكن بتعبيرات مختلفة: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾، ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ وقد ذكرناها في مواضعها، وفى نفس الوقت لم تكن مذكورة كهنا أول صفة.

وننظر أولاً في كونها جاءت بهذا التعبير، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، أى إن هؤلاء المتقين مداومون على الإنفاق في حالتى الاتصاف بالفرح والحزن، والرخاء واليسر، وحال الضيق والعسر، فلا يخلون في كلتا الحالتين من الإنفاق بما قدروا عليه كثيراً كان أو قليلاً، أو أنهم ينفقون في جميع أحوالهم، لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس، أو في حبس فإنه لا يدع الإحسان، وكأن الجمع بينهما أن السراء فيها ملهاة عن الفكر في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، منكباً فيها

على نفسه، ما يحتاجه البيت يحرم على المسجد[١]، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خلقاً لا يحجبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.[٢] وأما كون صفة الإنفاق قد ذكرت هنا أولاً، فقد ذكر الزمخشرى ومن تبعه سبب ذلك فقال: «وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق على النفس، وأدَّله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين».[٣] وفى هذا الكلام من الزمخشرى نظر، لأنه لو كان كذلك لافتتح بذكر الإنفاق في الآيات السابقة، لأن العلة في تقديمه المشقة على النفس، والدلالة على الإخلاص، ومواساة الفقراء، كل ذلك كان موجوداً لم يتخلف في أى وقت، والآيات الأولى كان الإيمان مذكوراً فيها وهو الأحق بالتقديم، لأنه الأصل في قبول هذه الأعمال. ولعله يقصد هذا السياق بالذات، ولكن السياق يعكر على هذا التعليل.

وهناك تعليل آخر لتقديم الإنفاق على بقية الأوصاف وهو سياق الآيات

---

(١) قال ابن الجوزى: «ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يبطرهم الرخاء، فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فيبخلوا». جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى «زاد المسير في التفسير»، (١/ ٤٦٠).

(٢) انظر جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩١). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٤٥٦). وذكر كما سبقه الزمخشرى عن بعض السلف: أنه ربما تصدق ببصلة أو روى عن عائشة – رضى الله عنها – أنها تصدقت بحبة عنب.

(٣) انظر جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٧). وأبا حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٧). وذكر بنصه لأبى البركات النسفى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (١/ ١٤٢).

قبل هذه الآية ذلك أن الله - جل وعلا - نهى المؤمنين عن أكل الربا بقوله: ﴿ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾، ثم قوله - جل اسمه: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فأمر - سبحانه - بالحذر من النار التي أعدت للكافرين، والمسارعة إلى الجنة التي أعدت للمتقين. وكان من صفات أهل النار أكل الربا الذي يدل على الحرص والشح، واستغلال حاجة الآخرين، وامتصاص دمهم بغير رحمة ولا شفقة، الأمر الذي يصل إلى تدميرهم وخراب بيوتهم. وكان من صفات المتقين الإنفاق في السراء والضراء، وكأنه نعى على آكلى الربا الذين ينهبون أموال الناس في الضراء، وهم - أي آكلى الربا - ميسورون يزدادون غنى على حسب هؤلاء المضرورين، أما المضرورون المتقون فهم ينفقون ويبذلون لله تعالى فهذه صورة جميلة، وتلك صورة في نهاية القبح.

كانت المقابلة إذن بين آكلى الربا، والمنفقين في السراء والضراء كما أشرنا السبب في تقديم الإنفاق، على عادة القرآن الكريم في المقابلة ليتمايز العمل، والتقدير والنتيجة.

لم أر لمن قرأت من المتقدمين الالتفات إلى هذا المعنى، حتى رأيت الأستاذ سيد قطب أشار إليه رحمه الله سريعاً في الكلام على الآية بقوله: «فبعد النهى عن أكل الربا والتحذير من النار التي أعدت للكافرين، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح، بعد هذا يجئ الأمر بالمسارعة إلى المغفرة، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، ثم تجئ بقية الصفات والسمات»(١).

---

(١) انظر سيد قطب «ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٤). وفى «التفسير الوسيط» بإشراف مجمع

وإذا كان القرآن الكريم قد أثنى على المتقين بإنفاقهم في كل الأحوال كما رأينا، فقد أثنى عليهم كذلك بأنهم ينفقون كل شئ يصلح للإنفاق، وهو ما يدل عليه حذف مفعول ينفقون. فلو قيل ماذا ينفقون في السراء والضراء؟ لكان الجواب ينفقون كل شئ، وما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال وبكل شئ إلا دافع أقوى من شهوة المال، وربقة الحرص، وثقلة الشح، دافع التقوى. ذلك الشعور العميق الذي تشف به الروح، وتخلص، وتنطلق من القيود والأغلال.(١)

وكان الصحابة - رضى الله عنهم - المثل الأعلى، فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، قدوتهم في ذلك صاحب الخلق العظيم، سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث وصفه بهذا كل من عرفه معرفة مشاهدة ومعاينة، أو معرفة شهرة ومطالعة. فقد قال جابر ﷺ : «ما سئل النبى ﷺ شيئاً فقال: لا»، بل كان يعطى أو يعد بالعطاء، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، على عادة العرب في ضرب المثل بها.(٢)

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ : وهى صفة جديدة تضاف إلى صفاتهم، تمدنا بها الآيات، حيث لم تذكر من قبل، وهى سمة في غاية الأهمية، بها تظهر إرادة النفس وقوتها، في كبح جماح القوة الغضبية. إذ هى أصعب قوى النفس وأشدها، لأن أثرها يظهر في الانتقام والعدوان، أو يخفى ويكتم في الضغن والحقد، والثانى شر

=

البحوث الإسلامية، (٢/ ٦٥٨)، إشارة إلى ذلك بقوله: «ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلاً عنه. ولذلك يقترن النهى عن الربا - في القرآن - بالحث عن الصدقة».

(١) وانظر كذلك العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤١٦).

(٢) وحذفنا ما كنا ذكرنا من آيات كرمه ﷺ وثوقاً بمعرفة القارئ.

من الأول وأسوأ.(١)

وكظم الغيظ: إمساكه حتى لا يظهر عليه، مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها. قال المبرد: «فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء».(٢) أى أن المتقين أخذوا بحظ وافر من هذا الخلق الجميل، إذ قد امتلأت صدورهم غيظاً يريد التنفيس والانتقام مع قدرتهم على إنفاذه، ولكنهم أمسكوا وصبروا ووقفوا عند حدود الله تعالى، يرجون ما أعد الله - جل وعلا - من ثواب على ذلك. وإن دل ذلك على شيء دل على عزيمة راسخة في النفس، من تقوى الله تعالى، وخشية غضبه وخوف انتقامه، وهو من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة. ويروى عنه ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً». وعن عائشة - رضى الله عنها - أن خادماً لها غاظها فقالت: «لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء». وروى عنه ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله».(٣)

---

(١) ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ معطوف على الموصول الذين ينفقون، وعدل عن العطف بالفعل يكظمون ويعفون إلى اسم الفاعل مع أنه السياق للدلالة على الاستمرار وأن الكظم والعفو صارت حالة لا تفارقهم كأنها خلق وسجية متأصلة فيهم، وأما الإنفاق لما كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والتكرار. بتصرف من: العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤١٦).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩١).

(٣) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٤/ ٥٩). وقد ذكرت حديث «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه...الخ) مع ضعفه كما سنبين لاتفاق معظم المفسرين على إيراده وعلى تلك المعانى كما ذكر ابن جرير من قبل وكذا الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٧). والبيضاوى «أنوار التنزيل»، (٢/ ٩٣). والألوسي «روح المعانى»، (٤/ ٩٢). وأبو حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٧). و صديق حسن خان «فتح البيان» (٢/ ١٣٢)، ولكن أورده برواية

﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ : وهى الصفة الثالثة في هذا السياق من صفات المتقين، وهى كسابقتها صفة جديدة تضاف إلى جملة صفات المتقين، لتزداد تلك الصورة للتقوى وضوحاً حتى تكتمل هذه اللوحة المضيئة لهم.

وكظم الغيظ وإن كان من أعظم الأخلاق - كما أشرنا - إلا أنه المرحلة الأولى[1] التي تكمل بالعفو، لذلك يستمر النص الكريم ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسماحة والانطلاق.

﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ أى المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا العقاب

= الترمذى وأبى داود هكذا: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أى الحور شاء». وغيرهم من المفسرين. أما الحديث السابق فقد ذكره ابن الجوزى في العلل المتناهية (٢/ ١٣٢)، والعقيلى في الضعفاء (٣/ ١٠٣)، وذكره في كنز العمال المتقى الهندى رقم (٥٨٢٢) وعزاه لابن أبى الدنيا في ذم الغضب من حديث أبى هريرة. وانظرها من البيضاوى (٢/ ٩٣).

(١) يقول الأستاذ سيد قطب: «وهى وحدها لا تكفى، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضغن، فيتحول الغيظ إلى أحنة غائرة..» إلى آخر ما قال. وهذا كلام فيه نظر، مع أنه يبدو مقبولاً لأول وهلة، ولكن ليس كذلك مع التدقيق، لأنه مخالف لما قبله، بل ومخالف للمعنى الصحيح، لأن كظم الغيظ سيق مساق المدح، وعظم الشارع أمره، وأثنى على أصحابه، فكيف لا يكفى، وكيف يتحول إلى أحنة غائرة تخالف ما عليه المتقون من سلامة الظاهر والباطن، لذلك عبرت بهذا التعبير على أنه الأصح. وانظر الأستاذ/ سيد قطب، «فى ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٥).

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في كتابة «التحرير والتنوير»: « الصفة الثالثة: العفو عن الناس فيما أساءوا به إليهم، وهى تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس، لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدى على من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل على أن كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمر معهم، وهو كلام قوى يؤكد ما ذهبنا إليه في كلام الأستاذ/ سيد قطب.

إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، وقيل العفو عن الخدم والأرقاء إذا أساءوا وذلك لجهلهم وملازمتهم، والعموم في الآية أولى، ليكون ذلك مناسباً للتعبير أى العافين عن كل أحد ليبين سلامة صدورهم وسماحة أنفسهم.

هذا وقد نظر بعض أهل العلم - كما ذكر الإمام الفخر الرازى عن الإمام القفال - إلى سياق الآيات ليبين شيئاً من خصوصية العفو، حيث نزلت الآيات في ذكر موقعة أحد، وتضمنت كذلك الحديث عن الربا فقال ما حاصله: يحتمل أن يكون مدح العفو هنا بعدما ذم المشركين في أكلهم الربا أضعافاً مضاعفة، فنهى المؤمنين عن ذلك، بل ودلهم إلى العفو، كما جاء ذلك عقيب قصة الربا والتداين في سورة البقرة، حيث قال - جل وعلا: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

والمثل الثانى في غزوة أحد تتمة السياق لما مثل المشركون بحمزة بن عبد المطلب ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «لأمثلن بهم»، فندب إلى العفو، فكان تركه التمثيل بهم عفواً منه - صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ : ختمت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وهو تذييل معناه أنهم بتحقق هذه الصفات فيهم يكونون محسنين، وهو دال على أنه بجمع هذه الصفات يجتمع كمال الإحسان ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.(١)

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أن (ال) في (المحسنين) يمكن أن تكون للجنس، فتكون محبة الله تعالى لكل المحسنين والمذكورون منهم، أو أنها للعهد إشارة للمذكورين فقط مع توضيح معنى كلٍّ.

يقول العلامة محمود الألوسى في «روح المعانى»: (ال) في (المحسنين): إما

---

(١) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٩١).

للجنس والمذكورون يدخلون فيه دخولاً أولياً، وإما للعهد، وعبر عنهم بالمحسنين على ما قيل إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان، الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى، وقد فسره النبى ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن تكن تراه فإنه يراك». ويمكن أن يقال: إن الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجه القبح، وعبر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط»(١).

وفى نهاية الآية، لا يسعنا إلا أن نقف مشدوهين لهذا التعبير القرآنى البليغ الفذ، إذ جمعت هذه الآية جميع وجوه الإحسان إلى الغير في الدنيا والآخرة.

يقول الفخر الرازى في «التفسير الكبير»:

«واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضرر عنه، أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، ويدخل فيه إنفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات.

وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا، وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته في الدنيا عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر ثوابها فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فإن محبة الله للعبد أعم

(١) انظر العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٤/ ٩٣-٩٤).

درجات الثواب».(١)

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين، وهى في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾:

ذكرنا أن هذه الآية من صفات المتقين، وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبرى، والفخر الرازى، وأطال في الاستدلال له الأستاذ/ سيد قطب، وهو قول الدكتور/ أديب الصالح(٢) وغيره. وسنذكر ترجيح هذا القول - إن شاء الله تعالى - مما يقتضينا الآن ذكر بقية أقوال أهل العلم في الآية، لتتضح قوة القول الأول، ولتكتمل وجوه التفسير للآية الكريمة. وهاهى أقوالهم:

ذهب الزمخشرى إلى أن قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ ...﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، أى أن الجنة أعدت للمتقين وللذين إذا فعلوا..، أى أعدت للمتقين وللتائبين، وجوز أن يكون ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾.

ذكر ابن عطية أن هؤلاء - أى الذين إذا فعلوا.. - صنف دون الأول، ولكن الله تعالى ألحقهم بهم برحمة منه، وهو قول القرطبى بحروف ابن عطية ذاتها.(٣)

وأما العلامة أبو السعود فذكر في تفسيره «إرشاد العقل السليم» أن ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ مرفوع على الابتداء، فوافق وجهاً عند الزمخشرى، ثم أردف

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٨).

(٢) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٤/ ٦٢). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٩). والأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٦). ود/ أديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص٥٦٩).

(٣) عبد الحق بن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٥١٠). وأبو عبد الله محمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٤/ ٢٠٩).

قائلاً: «وقيل: مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين. وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ اعتراض بينهما يشير إلى ما بينهما من التفاوت، فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أوفى من حظهم». فيكون بذلك موافقاً لابن جرير ومن أخذ برأيه في كونهم متقين، ولكن خالفهم في أن درجتهم وحظهم من التقوى دون الأولين، ثم زاد وجهاً ثالثاً وهو: «أو معطوف على المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر». فوافق بذلك قول الزمخشرى وإن زاد عليه كون البون بينهما - أى المتقين والتائبين - أوضح وأكثر أى كأنهما مشتركان في التقوى، وهو ما لم يذكره الزمخشرى. وقد ذكر الألوسى كلام أبى السعود بنصه كأنه نقله.(١)

وفسر الآية على أنها جملة مستأنفة وجهاً واحداً الإمام ابن كثير، والبيضاوى، وصديق حسن خان(٢)، وغيرهم.

ونعود إلى الوجه الأول لنتبين أسباب ترجيحه، ونبدأ بكلام الفخر الرازى، حيث نص صراحة على وجه الترجيح، يقول - رحمه الله:

«الوجه الأول: أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين، بين أن المتقين قسمان؛ أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس. وثانيهما: الذين إذا أذنبوا ثم تابوا وهم المراد بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾...،

---

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤١٦). والأولسى «روح المعانى»، (٤/ ٩٥).

(٢) انظر الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٠٦). والبيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (٢/ ٩٣). وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٢/ ١٣٣).

وبين تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط، في استحقاق المنـزلة والكرامة عند الله».[(١)]

وإن كان في هذه المسألة خلاف نذكره أولاً - وهى مسألة: هل يرجع العبد إلى الدرجة التي كان عليها قبل الذنب، أم لا؟ - لنتبين ترجيح الفخر الرازى من عدمه.

يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين ما ملخصه: اختلف في ذلك، فقالت طائفة: يرجع إلى درجته، لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن، والمقتضى لدرجته ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه حطه عن درجته، فحسنته بالتوبة رقته إليها، وهذا كمن سقط في بئر، وله صاحب شفيق أدلى إليه حبلاً، تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه. فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقى، وكذلك الأول، يسير بقوة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد قوته، وذلك الراجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالرجوع.

ويقول الإمام ابن القيم إنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية يحكى هذا الخلاف ثم قال: والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وجده وعزمه وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم عاد بعد الذنب خيراً مما كان، أو

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٩).

كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد لدرجته. يقول الإمام ابن القيم: «وهذا فصل النـزاع في هذه المسألة»[1]، والواقع من حال المرء مع الله تعالى يؤيد ما ذهبا إليه.

فإذا عدنا لكلام الفخر الرازى رأيناه اختار رجوع التائب بعد الذنب إلى درجته قبلها. وأوصاف هؤلاء التائبين، التي ذكرها الله تعالى في الآية، تقوى ما ذهب إليه، بل ولعل هذه الأوصاف تصل بهم أو ببعضهم إلى أعلى من درجته، خاصةً وأن الله تعالى ذكر ثوابهم، وعاقبتهم بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ فلم يكن ليصلوا إلى هذا الجزاء إلا وقد تحققوا بتوبة صادقة تجب ما قبلها، ويمكن أن تزيد عليه، يرجع بها التائب إلى درجته أو أعلى منها.

ونبين معنى التوبة، ومدى انطباقها على التائبين، والتي ساقتها الآية ليكون دليلاً وبرهاناً على صحة هذا القول وترجيحه من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون تفسيراً للآية الكريمة، حيث أننا سنفسرها على كل حال، فكان إلحاقها بهذا الكلام أولى وألصق.

لقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالى في كتاب «إحياء علوم الدين» معنى التوبة، فقال: «وهى علم وحال وفعل، فالعلم هو معرفة ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين ربه، فإذا علم ذلك بيقين ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات ما يحبه من القرب من ربه ورضاه عنه، وذلك الألم يسمى ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث من القلب حالة، تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضى والمستقبل، فتعلقه بالحال هو ترك الذنوب «الإقلاع»،

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، طبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى الحلبى، (١/ ٣١٧-٣١٨).

وتعلقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل «نفى الإصرار» وتعلقه بالماضى بتلافى ما فات».(١)

ويشرح العلامة ابن عاشور كلام الإحياء مع تطبيقه على الآية، فيقول ما ملخصه: وقد انتظم تلك الأركان الثلاثة لمعنى التوبة في كلام أبى حامد قوله تعالى في الآية: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾، وقوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ إشارة إلى انفعال القلب الذي هو التألم والندم، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، وذكر الله هنا ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهى، أو ذكر جلاله الموجب للحياء منه.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾ إشارة إلى الفعل، وهو الإقلاع والعزم على عدم العود، لأن الإصرار هو الاستمرار على الذنب فنفيه، هو الإقلاع والعزم، إذ لا يستقيم الإقلاع مع البقاء على الذنب أو العزم على العود، فكان التعبير على قصره مفيداً للمعنى من كل جوانبه.

وأما قوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فهو إشارة إلى العلم المثير للانفعال النفسانى، وهو واقع قبل حصول الذنب، إذ لولاه لما كانت الفعلة معصية، وهذا العلم المثير للانفعال هو العلم بقبح الذنب في حق الله سبحانه وأن الإصرار ضار به، وأن الذنوب حجاب عن ربه ورضاه ومحبته.

وإن تأخر ذكر العلم في الآية، مع أنه متقدم على الذنب، لأن ترتيب الأركان في الآية بحسب شدة تعلقها بالمقصود، لأن ذكر الله يحصل بعد الذنب، فيبعث على التوبة والندم، وهذا هو المقصود المطلوب.(٢)

---

(١) حجة الإسلام الغزالى «إحياء علوم الدين»، مجلد٣، (١١/ ٢٠٧٠) وما بعدها.

(٢) وانظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩٣-٩٤).

فكانت دلالة الآية على تحقق أركان التوبة الصادقة من أوضح الأدلة التي تبين أن هؤلاء قد تابوا توبةً نصوحاً، عادوا منها إلى سابق حالهم، لأن الآية الكريمة لم تذكر أى صنف من التائبين، ولكن من تحققت بتوبتهم مغفرة الله وجناته، وهى أعظم التوبة التي يكون أصحابها فعلاً وحالاً من المتقين.

وهذا الدليل والبرهان يدعم كلام الإمام الفخر الرازى، ومن ذهب مذهبه.

وثمة دليل آخر يرجح كونهم متقين، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾، وهؤلاء الذين غفر لهم وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومدح عملهم بمدح أجرهم وثوابهم، لاشك هم أولئك الذين يحبهم المولى - جل وعلا، فإذا كان جزاء التوابين المحبة من الله تعالى، وكان هو نفس جزاء المتقين في الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ دل ذلك على أنهما سواء، وهذا الدليل يؤكد كذلك ما نحن بصدده من ترجيح القول الآخر.

ونعود إلى تفسير الآية:

ذكرنا أن العطف في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ على ﴿ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ويكون المعنى: ومن صفات المتقين أيضاً أنهم إذا فعلوا فاحشة - وهى الفعلة المتجاوزة للحد من الفساد - أو غيرها من الذنوب ظلموا بها أنفسهم، ذكروا الله سبحانه وتعالى ذكر القلب الذي يتفرع عنه طلب المغفرة، الذي معناه: ذكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده وما أوصاهم به، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، حيث استشعروا عظيم ما اقترفوا وشدة عذابه سبحانه، وموقفهم بين يديه، وسؤالهم عما قدموا وأخروا، مع تعظيمه - جل وعلا، وكمال جلاله الباعث على الخوف والخشية والحياء - دفعهم ذلك إلى استغفار ربهم، أى طلب المغفرة منه، وترك المؤاخذة على ما جنوا وركبوا من المعاصى، وقد حلوا عقدة الإصرار على تلك الذنوب الخطايا، وتوجهت نياتهم إلى الله ﷻ بالعزم على عدم العود إليها، عالمين بقبح جرائرهم ومضرتها عليهم في الدنيا والآخرة، مستيقنين بإطلاع الله ﷻ عليهم،

خائفين من حجبهم عن ربهم، وتعذيب الله ﷻ لهم.(١)

وجملة ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقوله ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾، والاستفهام مستعمل في النفى، بدليل الاستثناء منه.

ونختم الآية بمختصر لكلام الأستاذ/ سيد قطب، حيث يقول - رحمه الله تعالى - ما حاصله: يا لسماحة هذا الدين! إن الله - سبحانه وتعالى - لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم، حتى يطلعهم على جانب من سماحته - سبحانه وتعالى - معهم، ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا، إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين، ولكن سماحة هذا الدين تسلك في عدادهم: الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها، ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله، إنما ترتفع بهم إلى مرتبة المتقين، على شرط واحد يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته: أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء، إلى آخر ما قال.(٢)

---

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩٢). وانظر مختار الصحاح، مادة: ف ح ش.

وذكر المفسرون معنى الفاحشة، فقيل: الفاحشة المعصية الكبيرة، وظلم النفس الكبيرة مطلقاً، وقيل: الفاحشة المتعدية للغير، وظلم النفس الكبيرة القاصرة، وقيل: الفاحشة الزنا، وهذا تفسير لها بالمثال والذنب ما دون الزنا، وقيل غير ذلك. وانظر الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢١٧). وصديق خان «فتح البيان»، (٢/ ١٣٣). وأبو حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٨). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩٢).

(٢) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن» (١/ ٤٧٦).

الموضع التالى من صفات المتقين هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]:

قدمنا هذه الآيات عن ترتيبها في آيات المصحف الشريف المتعلقة بصفات المتقين، لأنها متعلقة بما سقنا من قبل من آيات، ولتكتمل الصورة بضم الصفات المتشابهة، حتى تستضئ صورة المتقين، وتتم معالم التقوى.

بدأت الآيات بجزاء التقوى، وما أعده الله - جل وعلا - للمتقين، كما بدأت بذلك الآيتان السابقتان، وإن كان التعبير عن الثواب يحمل مفردات جديدة، سنشرحها - بإذن الله تعالى - في موضعها من فصل جزاء التقوى وعاقبتها.

عللت الآيات استحقاق المتقين لموعود الله تعالى بالجنات والعيون، وما آتاهم فيها من نعيم بكونهم كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين، ثم فسرت الآيات الكريمات إحسانهم بأنهم كانوا قليلى الهجوع «النوم» من الليل، وأنهم يستغفرون في الأسحار، وقد جعلوا من أموالهم حقاً يبذلونه للسائل و المحروم.

وقد بينت الآية السابقة الإحسان بأنه الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ، والعفو عن الناس أى أن الآية أتت بجماع الإحسان المتعلق بالناس، وكذلك أفادت المعنى العام بأن يعبد المرء ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه، وهو الإحسان المطلوب في كافة الأعمال، على تفسير بعضهم كما أشرنا إليه.

وأما هذه الآيات فإن المعنى أنهم كانوا في الدنيا محسنين في الدرجة العليا من عباده الله، وهى الإحسان في الحديث السابق، ثم ذكر بعض طاعتهم وهو القيام بالليل، والاستغفار بالأسحار، والبذل للسائل والمحروم.

ولما لم تكن هذه الأعمال هى كافة الحسنات والطاعات التي يجب على المرء

أو يستحب أن يأتيها ليكون تقياً، كان قوله تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ... إلى آخره، بدلاً من ﴿ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ بدل بعض من كل. وإنما عبر بالإحسان ليبين أنهم في هذه الصفات في الذروة والدرجة العليا، بمعنى أنهم تحققوا فيها بما يحب الله من الإحسان، وهو عبادته كأنه يراه.

أما تخصيص هذه الأعمال بالذات لتكون سبب إحسان المتقين، وكونهم يستحقون بفضل الله جزاءه، مع أنها ليست كل الحسنات ولا عظيمها فللآتى:

أولاً: أنها دليل على غيرها من الأعمال الصالحة، فهذا الذي يكابد الليل بمشقته قياماً لله تعالى، وهو مستحب، لاشك أنه محافظ على صلاة الفرائض وبقية أمور الدين من باب الأولى، إذ لا يَمْدَحُ اللهُ – جل وعلا – على المحافظة على النوافل والنصب فيها، مع تضييع ما هو أهم منها من الفرائض، بل هم في الدرجة العليا من إحسان الفرائض التي بينتها درجتهم العليا في إحسان النوافل، وكذلك إن كان يبذل للسائل والمحروم، بل ويجعل له حقاً في ماله تطوعاً – لأن هذه السورة مكية فلم تكن قد فرضت الزكاة بعد – فمن باب الأولى أن يسارع إلى الزكاة الواجبة.

وكذلك استغفارهم بالأسحار بعد طول صلاتهم بالليل يبين تقواهم، وحسن صلتهم بالله تعالى، لأنه إذا كان العبد بعد الصلاة والقيام وطول النصب لله تعالى ساجداً وقائماً يستغفر، ويديم الاستغفار في أفضل وقت الإجابة والتوبة، فكيف به، وماذا تراه يصنع بعد المعصية والذنب؟

ثانياً: أن هذه الخصال الثلاث كالمثال لأعظم إحسانهم يقول الطاهر بن عاشور:

«فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله، ابتغاء مرضاته، ببذل أشد ما يبذل على النفس، وهو شيئان: أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم بالليل، قد تعب

واشتد طلبه للراحة. وثانيهما: المال، الذي تشح به النفوس غالباً».(١)

ثالثاً: وهو معنى جميل وراء هذه الصفات، يؤكد قيمتها واستحقاق أهلها مرتبة التقوى العالية، وهو أن هذه الآيات تضمنت ما يطالب به الشرع من تكليفات تهدف إلى إصلاح النفس وإصلاح الناس، فإن صلاح النفس بتزكيتها ظاهراً وباطناً، وفى قيام الليل الإشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضا الله تعالى، وفى الاستغفار تزكية النفس بتنقيتها مما يغضب الله، وتهذيبها من ذلك، لتكون أقرب وأحب إلى مولاها، مع صعود الكلم الطيب من الاستغفار والتوبة الجالب لمرضاته.

وفى جعلهم الحق في أموالهم للسائل والمرحوم إصلاح للناس(٢)، فكان فيها قوام النفس والمجتمع، ألا يستحق أهلها وصفهم بالتقوى المحصلة لسعادة الدنيا والآخرة؟ وألا تستحق هذه الصفات المسارعة إلى الظفر بها ونيل مقصودها؟

ونعود إلى تفسير وتحليل تلك الآيات:

صورت الآيات الكريمات المتقين، وما أعد الله لهم من النعيم، وذلك في مقابلة المتخرصين الشاكين، وما أعد الله لهم من العذاب.

وكان مما ذكر الله - سبحانه وتعالى - من صفات المتقين أنهم ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾(٣)، وهى الأولى من حسناتهم وطاعاتهم، أنهم يكابدون

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٣٤٨).

(٢) المصدر السابق، (٢٦/ ٣٤٨).

(٣) (الهجوع): النوم الخفيف وهو الغرار. ﴿ قَلِيلاً ﴾: منصوب على الظرف، لأنه وصف بالزمان بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ والعامل فيه يهجعون. و﴿ مَا ﴾: زائدة للتأكيد وشاعت زيادة ﴿ مَا ﴾ بعد اسم قليل وكثير، وقل، وطلال. والمعنى: يهجعون زمناً قليلاً من الليل.

العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس، ولايستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً. قال الألوسى في «روح المعانى المعانى»: قال عبد الله بن رواحة ﷺ: «هجعوا قليلاً ثم قاموا»، فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام، يأنسون بربهم في جوف الليل، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام، يصفون له أقدامهم، يسبحونه ويدعونه ويتلون آياته، ويناجونه ويتملقونه، ويرفعون إليه حوائجهم، ويسألونه طلبتهم، ذلك نعيمهم، وتلك سعادتهم التي تخفف عليهم سهرهم وقيامهم، بل تلذذ لهم وقوفهم ونصبهم بين يدى محبوبهم - جل وعلا.

كل ذلك اقتداءً بأمر الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٢-٤] وقد مدح عباده المستجيبين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝٦٤﴾ [الفرقان: ٦٤]، وبقوله - جل ذكره: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

وكانت سيرته ﷺ مصداق ذلك، ففى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكورا؟»[(١)].

وساعات قيامهم هى التي تكون قبل استغفارهم بالسحر - وهو الثلث

=
وذكر الألوسى وغيره أن ﴿مَا﴾ يمكن أن تكون نافية، نقلاً عن بعضهم وقد ذكر اثر ابن رواحه، انظر «روح المعانى»، (١٣/١٥)، والزمخشرى ينفى ذلك من قبل. انظر الزمخشرى «الكشاف» (٤/ ٢٨).

(١) رواه البخارى (٤٨٣٧)، وانظر: ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٨/ ٥٨٤). ورواه مسلم (٢٨٢٠)، انظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٧٨).

الأخير من الليل - وهو ذلك الوقت المشهود الذي يقرب فيه المولى - سبحانه وتعالى - من عباده، وقد دل النبى ﷺ أهل الإيمان وأرشدهم للصلاة وذكر الله تعالى في تلك الساعة. روى الترمذى وصححه من حديث عمرو بن عَبَسَة ﷺ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في هذه الساعة فكن».

وكان من أول ما أمرهم به الرسول ﷺ عنده وصوله المدينة قيام الليل. يروى الترمذى وغيره عن عبد الله بن سلام ﷺ يقول: «أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، أى أسرعوا إليه ومضوا كلهم، قال: فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستثبته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وقد حث النبى ﷺ المؤمنين على قيام الليل، ومن ذلك ما رواه أبو أمامة وسلمان الفارسى - رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»، زاد حديث سلمان: «ومطردة للداء عن الجسد» رواه الترمذى والحاكم وصححه وغيرهما. ولذلك رأينا النبى ﷺ يرغب ترغيباً شديداً في قيام الليل، فيروى الطبرانى وأبو يعلى من قوله ﷺ: «لابد من صلاة بليل، ولو ركعة، ولو فواق حلب شاة».

يقول العلامة محمد السفارينى - رحمه الله - في كتابه شرح ثلاثيات مسند أحمد، «قال علماؤنا: كان قيام الليل واجباً على النبى ﷺ ولم ينسخ. قالوا: ولا ينبغى أن يقوم الإنسان كل الليل إلا ليلة عيد وقدر ونحوهما. قالوا: ويكره مداومة قيامه كله، ويستحب أن يكون له تطوعات يداوم عليها، وإذا فاتت يقضيها»، ثم أردف قائلاً: «وقد استحب الإمام أحمد ﷺ أن يكون له ركعات

معلومة من الليل والنهار، فإذا نشط طولها وإذا لم ينشط خففها»[١].

وللعلامة أبى الحسن الندوى كلام حسن في قيام الليل، وحرص الأئمة عليه، في كتابه «تأملات في القرآن الكريم»[٢] يحسن نقل شئ منه، يقول - حفظه الله: «إن أقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن (بطارية) القلب: قيام الليل، الذي أكثر القرآن من الحث عليه، والترغيب فيه، ومدح أصحابه، حتى كأنه ملحق بالفرائض وتابع لها، ولذلك سمى نافلة.»، إلى أن يقول: «ويعرف المتتبع لأخبار الصحابة ﷺ، والذي يتتبع دواوين الحديث وكتب السيرة والتاريخ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشراً فيهم، حتى أصبح شعاراً لهم، وقد وصفوا أمام «هرقل» وقادته بأنهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان».

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم، وزعماء الإصلاح والتجديد، ورجال التعليم والتربية، ومن نفع الله بنفوسهم وأنفاسهم، وكتب لمآثرهم وآثارهم الانتشار الواسع والبقاء الطويل، والقبول العظيم، والذكر الجميل، من أصحاب العبادة، والسهر في الليالى، والقيام بالأسحار، وأصحاب الصلة الروحية بالله تعالى، وهكذا كان وسيظل، فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود وخمود، ولا حياة من موت ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور»[٣].

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾: بعد أن وصف المولى - جل وعلا - المتقين بقلة الهجوع وكثرة التهجد، مادحاً لهم بذلك، وصفهم بوصف جديد من

---

(١) انظر لما سبق العلامة الشيخ / محمد السفارينى الحنبلى «نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، (١/٦٠٨)، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامى، بيروت.

(٢) انظر أبا الحسن الندوى «تأملات من القرآن الكريم»، دار دمشق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (ص٥٧) وما بعدها.

(٣) انظر الندوى «تأملات في القرآن الكريم»، (ص٥٧).

أوصاف المتقين، وهو أنهم إذا آذن الليل بالانصرام، وأصاب التعب قائم الليل، وكان النوم أحب إليه مما يعدل به، جلسوا يستغفرون الله تعالى في الأسحار، كأنهم أسلفوا الجرائم في ليلهم، ولم يتفرغوا فيه للعبادة. وذلك يشير إلى مزيد خشيتهم، وعدم اغترارهم بعبادتهم[١]، وهذه سيرة الكريم، يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر عن التقصير، واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ويمن به.

والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، وخص هذا الوقت بالاستغفار لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان، فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب منه في أجزاء الليل الأخرى. وجمع الأسحار باعتبار تكرار قيامهم في السحر ودوام الاستغفار فيه. وفى بناء الفعل «يستغفرون» على الضمير «هم»[٢] إشعار

---

(١) جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٢٨). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٤/ ٤٩٨). والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (١٥/ ١٣-١٤). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٣٥٠-٣٥١). وكذلك ذكر البيضاوى وأبو السعود وغيرهم.

(٢) يقول الفخر الرازى: «وقوله تعالى ﴿ هُمْ ﴾ غير خال عن فائدة:
قال الزمخشرى: فائدته انحصار المستغفرين، أى لكمالهم في الاستغفار، كأن غيرهم ليس بمستغفر، فهم المستغفرون لا غير، يقال: فلان هم العالم، لكماله كأنه تفرد به وهو جيد.
ولكن فيه فائدة أخرى، وهى أن الله تعالى لما عطف ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ على قوله تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ فلو لم يؤكد معنى إثبات بكلمة ﴿ هُمْ ﴾ يصلح أن يكون معناه: وبالأسحار قليلاً ما يستغفرون، تقول: فلان قليلاً ما يؤذى وإلى الناس يحسن، قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان، فإذا قلت: قليلاً ما يؤذى وهو يحسن، زال ذلك الفهم، وظهر فيه معنى قوله: قليل الإيذاء كثير الإحسان».
وقد راجعت تفسير الزمخشرى للآية مرة أخرى، لأنى أشرت إليه قبلاً، وكذلك مظان وجود هذا الكلام، فلم أجده بحروفه التي ذكرها الفخر الرازى، فلعله قالها فهماً من كلام الزمخشرى، ويكن التصدير بـ «قال الزمخشرى» يبعد هذا الاحتمال، فلعله قالها في مكان

بالاعتناء بهم، أي أنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به، لاستدامتهم له وإطنابهم فيه وكان يمكن أن يقال: وبالأسحار يستغفرون.

والاستغفار على حقيقته المشهورة هو طلب المغفرة من الله تعالى، وبذلك قال الحسن البصرى. أخرج الإمام ابن جرير في «جامع البيان» عن الحسن قال: «صلوا، فلما كان السحر استغفروا». وقيل: المراد طلبهم المغفرة بالصلاة، وعليه ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال: ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ يصلون.(1)

وللأسحار خصيصة أخرى لدى المتقين تحيا بها قلوبهم، وتقوى بها على تحمل النصب أبدانهم أفئدتهم، ويزيد فيها نعيم روحهم وسرور نفوسهم، ذلك قول النبى ﷺ: «إن الله يتنـزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، فيقول هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر.»

فهذا النـزول الإلهى - الذي لا يشبهه شئ - جعل تلك القلوب والأبدان تتحمل في سبيله كل مشقة وتعب، وتستهين بكل بذل وجهد، وتعلم جزاء ذلك وحسن عاقبته، فقل ليلة هجعوها إلى الصباح لم يأخذوا منها نصيباً.

وإذا كانت تلك الصفة الجليلة من صفات المتقين - وهى أنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون - صفة جديدة أضفناها بذلك إلى ما سبق من صفات المتقين، لتزداد صورتهم وضوحاً، فإن استغفارهم بالأسحار قد ورد شبيهه

=

آخر، وإن كان ذكره في هذا المكان لا يوهم بغير هذه الآية.

(1) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٢٧/ ١٢١-١٢٣). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٥/ ١٤). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥/ ١٧٥). وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٢٨).

من قبل في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾، وبالمقارنة بينهما نجد أن القرآن عبر هنا بصيغة اسم الفاعل للتناسب بينها، وبين ما قبلها من الصفات: الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار. وتبين الآية الكريمة أيضاً بهذا التعبير أن الاستغفار صار لهم عادة، وأنهم قد بلغوا فيه الغاية القصوى، وأن هناك إما أن يسبقه صلاة، أو يعبر به عن صلاة، كما ذكرنا أقوالاً في ذلك لأهل العلم. وأما الآية التي معنا فقد عبر فيها بالمضارع، ليبين تكرر ذلك منهم، مع اختصاصهم بذلك، وقدم الأسحار هنا للاهتمام بهذا الوقت، وفائدة الذكر فيه وظهور المقربين من النائمين، وتمايز درجات المحبين المتقين، خاصة وقد سبقه مكابدة للصلاة، ممدوحين بها، ومثنى عليهم بالمثابرة عليها.

﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾: فإذا كان ما سبق هو حالهم مع الله – جل وعلا – فإن هذه الآية الكريمة تبين حالهم مع الناس، ومع المال، فإذا بهم قد تخلصوا من أوضار الشح، وثقل الحرص والبخل، فقد حددوا في أموالهم -من غير أن يفرض عليهم- مقداراً معلوماً لا ينزلون عنه ولا يساومون عليه، أخرجوه طيبة به نفوسهم، من غير قسر ولا إكراه، وما ذلك إلا لشفافية نفوسهم، ورهافة إحساسهم، ونبل مشاعرهم، إذ كيف يكون من إخوانهم السائل المحتاج والمحروم المستحى المتعفف، وهم لا يبالون بذلك، ولا تتحرك له شعورهم، بل سارعوا لإعطاء السائل المتعرض وبحثوا عن الحييِّ المتعفف، الذي لا يفطن إليه، فيتصدق عليه. والحق أنهم ازدادوا على ذلك، فقد جعلوه حقاً لإخوانهم في أموالهم، وليس مجرد صدقة وعطية، إن شاءوا منحوها، وإن شاءوا منعوها، هؤلاء هم المتقون حقاً.

والسائل: هو الفقير المظهر فقره، فهو يسأل الناس، والمحروم[1]: الفقير

(١) يقول ابن عطية: وهو يشير إلى هذا المعنى: «واختلف الناس في ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ اختلافاً

الذي لا يعطى الصدقة، لظن الناس أنه غير محتاج من تعففه عن إظهار الفقر، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. ولما كان المحروم من سبق، كان إطلاق الاسم عليه ليس حقيقة، فهو لم يسأل وحرم، وإنما لما كان مآله إلى ما يؤول إليه المحروم أطلق عليه اللفظ. وفى اللفظ ترقيق لقلوب المؤمنين، وحث على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم حيث يحب الله تعالى.

وإذا كانت صفة الإنفاق من صفات المتقين قد أخذت تعبيرات متنوعة من قبل، لتفيد معان جمة وجميلة، فإن التعبير عنها هنا - بمقارنته بما سلف - يزيدنا معانى أخر من الحسن بمكان، رأينا قبل ذلك قوله - جل وعلا: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، و﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ في سورة البقرة، و﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في آل عمران، وقد أشرنا إلى معانيها وقمنا بالمقارنة بينها من قبل. أما هذا التعبير الدقيق فيرشدنا - علاوة على ما سبق - إلى أنهم لا ينفقون أى شئ، بل أنهم قد جعلوا من أموالهم حظاً وافراً معلوماً للسائل والمحروم، وهذا المعلوم قد ألزموا به أنفسهم تكافلاً مع إخوانهم ورحمة بهم وشفقة عليهم، بحيث لا يفرطون فيه تحت أى ظرف، إذ هم ممدوحون عليه، ولا يمدح المرء على القيام بالواجب، ومن ثم فهو ليس زكاة، على عكس ما ذهب إليه البعض. والتعبير بـ ﴿ٱلسَّآئِلِ﴾ وإن كان قد مر مثله، فإن التعبير بـ ﴿ٱلْمَحْرُومِ﴾ لم يسبق ذكره، وهو إشارة إلى أن المتقين مهتمون بالبحث عن أحوال المسلمين، والمشاركة في إصلاحها، إذ من

= هو عندى، تخليط من المتأخرين إذ المعنى واحد، وإنما عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات، فجعلها المتأخرون أقوالاً». انظر ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥/ ١٧٥).

لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وهم رأسهم والمقدمون فيهم، فكانت الصفة جديدة في التعبير عنها، جديدة في مدلولاتها ومعانيها.

وفى إضافة المال إليهم في الآية ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ مع أن القرآن الكريم أضافه إلى الله تعالى في غيرها من المواضع، كقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، إشارة إلى كرمهم وجودهم، إذ لما كان الحرص موجوداً، وكان الحث على الإنفاق مطلوباً، أمرهم أن ينفقوا من مال الله الذي ليس بمالهم على الحقيقة، حملاً على البذل والعطاء، لأنه ليس مالكم فتمسكوه،أما وقد أنفقوا من تلقاء أنفسهم بغير أمر ولا فرض، لم يكن للحث موضع، وكذلك فيه إشارة عظيمة المبالغة بمدحهم، لأنه لو قال: في أموال الله، لم يكن هناك مدح و لا ثناء، فلما أضاف الأموال إليهم كأنه يشير إلى حب المال وتملكه، والمحافظة عليه ونمائه وزيادته، الذي يمنع المرء من بذله وإخراجه لغيره، أى جعلوا في أموالهم التي يحبونها ويمتلكونها، وينبغى أن يكون همهم المحافظة عليها وزيادتها بعدم التفريط فيها لغيرهم، جعلوا منها حظاً وافراً، وحقاً معلوماً لغيرهم.

ونلخص ما ذكره الدكتور/ محمد أديب الصالح في معنى الآيات حيث يقول: إنها صفات تدل بسناها المشرق على أن هؤلاء البررة لا تنسيهم شدة حب المال أن ينفقوا في سبيل الله، ويدل على أن هؤلاء البررة الأصفياء ليسوا في عزلة عن المجتمع، ولكنهم فيه ومنه يخالطون الناس ويبعثون كوامن الخير في أنفسهم وفى الآخرين، مع التعاون على البر والتقوى، ومعاونة من هو بحاجة إلى المعاونة، إسهاماً في إحكام البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المسلم.(١)

---

(١) د. محمد الأديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص ٥٤٩).

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ١٧-٢١]:

وما زلنا في تحرير بقية صفات المتقين، حتى صادفتنا هذه الآيات الكريمات، لتعطينا توضيحاً لما سبق، ولتزداد صورة المتقين جلاءً وزهواً.

هذه الآيات الكريمات أشرقت علينا بصورة الأتقى، لا كما كانت تبين الآيات السابقة أوصاف المتقين فقط، مما يدعونا للنظر في سبب هذا التكريم البالغ لهؤلاء الأتقياء البررة، مع مقارنة ذلك بما سبق في الآيات، لتبرز لنا درجة التقوى العليا، ولنرى تلك القمم السامقة التي سمت إلى هذه المنازل العلا من منازلها، وليكون نبراساً يهتدى به السائرون من المصلحين، والهداة الداعين، والمرشدين المربين، إذ في مثل ذلك فليتنافس المتنافسون، وليتسابق المتسابقون، كيف لا، وعاقبته رضا الله الأكبر؟

ونلاحظ:

أولاً: أن الآيات قد أتت بصفة من صفات المتقين التي ذكرت من قبل، وهى صفة البذل والإنفاق، وإن كانت التعبيرات عنها قد تنوعت لتعطى معانى جديدة ومختلفة، وتوحى بإيحاءات أكثر جدة، كلما توغلنا مع الآيات كما أشرنا، إلا أنها لم تعط لنا كون المتصف بذلك هو الأتقى. وهنا لم تعبر الآيات بتلك التعبيرات الجميلة السابقة، ومع ذلك كان صاحبها هو الأتقى. والسر - والله أعلم - وراء ذلك أن التقوى درجات، وأن أعلاها هى درجة الأتقى، وصفة الأتقى أنه يؤتى ماله يتزكى، فكانت الفارق بين التقى والأتقى هو التزكى، أى أن يكون بفعله زاكياً عند ربه، فالتقى يؤتى ماله على الإخلاص والصدق، نعم يريد ما عند الله، والأتقى يؤتى ماله كذلك ولكنه يريد ربه ذاته، أن يكون زاكياً عنده، ولو كان يؤتى ماله فقط، لكان كمن سبق من المتقين بلا مزيد فضل، فكان

قوله ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ الحد الفاصل بين الوصفين والعاقبتين. لذلك كانت الجملة في محل حال من ضمير ﴿ يُؤْتِى ﴾ أى يؤتيه يتزكى، أى يريد به أن يكون زاكياً عند الله، لا يريد غير ذلك، ولم أر من أشار إلى شبيه هذا المعنى إلا العلامة أبا السعود، حيث ذكر درجة من درجات التقوى سماها التقوى عما سوى الله تعالى، ومن ثم كان قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، يعنى المتقى كريم، ولكن الأتقى أكرم، ولا شك أنهما مشتركان في التقوى وصفاتها، ولكن الأتقى يزيد كرماً عند الله بشيء آخر ظني هو ما ذكرت.[١]

ثانياً: وهى ملحوظة غريبة، أن الله تعالى لما ذكر جزاء المتقين في الآيات السالفة[٢] ذكر الجنات، وما أعد فيها لهم. وأما في هذه الآيات التي هى في ذكر الأتقى الأعلى منزلة ودرجة، فقد ذكر أول ما ذكر من أن جزاءهم الإبعاد عن النار التي تلظى، حيث أن معنى قوله ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ أى سيبعد عنها[٣]، فكيف تكون أول عاقبة الأتقى الأكرم تجنب النار، وعاقبة التقى دخول الجنة وبقية النعيم مع أنه الأدنى منـزلة؟

والجواب بتوفيق الله تعالى أن مفهوم ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ أن التقى لا يجنبها – أى النار – لأنه لما كانت التقوى درجات، دخل في التقوى من اتقى الشرك – مثلاً – ولم يتق المعاصى، فيجوز أن يدخلها ويعذب بها، ولكن لا يصلاها صلاء الأشقى، لأن الأشقى من كذب الحق وتولى معرضاً عن الطاعة، وهو الكافر. والأتقى – كما ذكرنا – سيبعد عنها فلا يدخلها أصلاً، فاتضح

---

(١) انظر العلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٣٣).

(٢) كقوله تعالى ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ ...﴾ وقوله جل وعلا: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

(٣) وإن كان قد ذكر في نهاية الآيات تتمة الجزاء، بقوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾.

بذلك علو درجة الأتقى. وظهرت دقة التعبير عن جزاء الأتقى في هذه الآية، في مقابلة جزاء المتقين في الآيات السابقة، خاصة وأن جزاء الأتقى - لا شك - الفردوس الأعلى، مع تجنب النار. وهذا يبين لنا قيمة الإخلاص، ولزوم أن يحرص المرء في أقواله وأفعاله، في ظاهر وباطنه عليه، وإلا تعرض للتمحيص في نار جهنم إذا شاب أقواله أو تصرفاته شئ لغير الله تعالى. كما ذكر النبى ﷺ في الحديث السابق.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾:

وهى الصفة التالية لهذا البار الأتقى، أنه يعطى ويبذل من ماله ابتغاء وجه ربه المتعالى - سبحانه، لا مكافأة على صنيع ولا رداً لجميل، ولا مقابلة لنعمة، بل لا يكون هو الأتقى حتى يكون كذلك، لا ينفق ويجود لنعمة يجازى بها، لا لأى نعمة كانت صغيرة أو كبيرة، وهو ما تقيده ﴿ مِن ﴾ المزيدة لتأكيد هذا النفى، ليدل على كل عمله يقصد به وجه الله تعالى، لا يشرك معه أحداً. ومن كان كذلك، دل سلوكه على شدة الخشية لربه، وكمال المراقبة له، بحيث لا يفرط منه عمل - وإن دق - لغير وجه الله يكون به غير مخلص لربه.

وتشير الآية إلى أن الأتقى دائماً هو المعطاء المتفضل، المكثر من الإنعام والإكرام المبتدئ بذلك، وأن يده هى اليد العليا دائماً، كما يحب الله تعالى، علاوة على أن ذلك كله ابتغاء وجهه - سبحانه، لا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً، إنما ينتظر ذلك من ربه الشكور أكرم الأكرمين - جل وعلا.

وكان أعظم مثال لتطبيق الآية بعد الرسول ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ حتى ادعى بعضهم كالفخر الرازى[1] الإجماع على أنها نزلت فيه ﷺ، وإن كانت

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٤٥٩)، أما سبب النزول فقد ذكر كغيره من المفسرين أن بلالاً ﷺ كان يعذب في الله على رمضاء مكة، يعذبه المشركون ليرجع عن

الآيات عامة في كل من اتصف بذلك، ولكنه ﷺ يعطينا الصورة الصادقة، التي يتطلع إليها الأتقياء البررة. يقول الإمام ابن كثير: «ولاشك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكونه مقدم الأمة وسابقها في جميع الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود الثقفى، وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾. وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير» فقال أبو بكر: يا رسول الله: ما على ما يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم

=

دينه، وهو يقول: أحد أحد، فمر به رسول الله ﷺ وهو يقول: أحد أحد، فقال: ينجيك أحد أحد، فأخبر أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله، ففهم أبو بكر مراد النبى ﷺ فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلالاً عنده، فنـزل: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وقال ابن الزبير، وهو على المنبر: كان أبو بكر يشترى الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ فقال: منع ظهرى أريد. انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٤٦١). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٥٢١). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ٢٧٤). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٠/ ٨٨).

وأرجو أن تكون منهم»[(١)].

فهذا المثل المشرق الوضيء لتلك النفوس الطاهرة التي بذلت لله وضحت له، فكان جزاؤها الرضا.

وننظر في كلام المفسرين للآيات:

وأول ما يصادفنا هو محاولة التوفيق بين قوله تعالى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾ وقوله - جل وعلا: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ إذ معنى ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾ الحصر الذي يفيد أن غير الأشقى لا يصلاها، أى لا يصلى المؤمن العاصى النار، وأن مفهوم ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ أن غير الأتقى لا يجنبها، بل يصلاها، فبين الحصر في الأولى والمفهوم في الثانية اختلاف.

ونلخص هنا كلام العلامة الألوسى، حيث كان أجمع من رأينا للأقوال في هذه المسألة. يقول - رحمه الله [(٢)]: «وأجيب بأن الصلى ليس مطلق مقاساة حرها، بل هو مقاساته على وجه الأشدية، فقد نقل ابن المنير عن أئمة اللغة أن الصلى أن يحفروا حفيرة، فيجمعوا فيها جمراً كثيراً ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسط أطباقه».

وبناء على هذا الكلام يكون المعنى أن الأشقى يعذب بين أطباقها، وأما الأتقى فيبعد عنها، فلا يصلاها رأساً. وأما غير الأشقى وغير الأتقى، وهو

---

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٥٢١).

(٢) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، كذلك إلى اختيار الزمخشرى «الكشاف»، وهو أن الآية واردة في الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر ﷺ واستحسن الألوسى هذا الكلام تبعاً لصاحب الكشاف بشرط ألا يقول بقول المعتزلة الباطل بتخليد عصاة المؤمنين في النار.

المؤمن العاصي، فلا يجنبها تجنب الأتقى، ولا يصلاها صلى الأشقى، فيجوز أن يعذب بعصيانه، ولكن لا يعذب عذاب الأشقى الكافر بين أطباقها، ولكن ورود على وجهها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ فالمؤمن الفائز يردها ولا يجد ألمها وعذابها، والعاصي يعذب وينجو بعد ذلك والأشقى بين أطباقها، وتلك عقيدة أهل السنة.

وذكر العلامة أبو السعود وتبعه الألوسى، في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾. أنه استئناف مقرر لمضمون ما سبق في قوله: ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

وبتدقيق النظر، يظهر أن المعنى الثانى غير المعنى الأول. إذ معنى الأولى أنه يؤتى ماله ليكون زاكياً عند الله، ومعنى الثانية أنه هو المبتدئ بالنعم والأفضال، بغير تقدم نعم من أحد إليه لتكون مكافئته عليها، بل ابتغاء لوجه ربه الأعلى، فيكون المعنى الثانى أن يريد أن يكون مخلصاً في عمله، والأول يريد أن يكون زاكياً عند ربه، وهو من باب تكثير المعانى في النظم المعجز.

فالأتقياء إذا ليس همهم العمل فقط، بقدر ما يهمهم أن يكونوا مخلصين فيه لله تعالى، ولا يهمهم ثناء الناس وثناؤهم، وإنما يهمهم أن يكونوا أزكياء عند ربهم.

لا جرم كانت هاتان الصفتان أهم صفات المتقين، التي إذا لم تتوافر مع بقية الصفات كانت عديمة الأثر، ليس أصحابها من المؤمنين الصالحين فضلاً عن كونهم أتقياء محسنين.

وهذه صفة جديدة من صفاتهم في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٤]:

والقرآن الكريم ما زال زاخراً بصفات المتقين، يمدنا بالواحدة تلو الأخرى، ليكتمل لنا الصورة المشرقة لهؤلاء الأتقياء، ولتنجذب إليها تلك القلوب المتلهفة على رضا الله تعالى، المتطلعة إلى قربه ومحبته، فتحذو حذوها، وتسلك سبيلها، وفي ذلك سعادتها في الدنيا والآخرة.

ومن تلك المناقب العظيمة - بل هى أولى مناقبهم - التي ينبنى عليها تحققهم ببقية صفات التقوى، وشعائر المتقين، هى تصديقهم بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى وحملهم هذا الصدق لغيرهم، وهو الحق والنور والخير، ليكونوا بذلك هداة مهتدين، يستحقون بذلك عظيم الجزاء عند ربهم.

وللعلماء آراء كثيرة في تعريف من جاء بالصدق وصدق به، يحسن أن نذكرها لننتخب الرأى المناسب للآيات من ناحية، ومن ناحية أخرى المناسب لصفات المتقين.

وقد جمع الإمام ابن جرير الطبرى -رحمه الله تعالى- تلك الأقوال بأسانيدها، وتبعه عليها جمع من المفسرين، نحن نلخصها للوصول إلى المقصود.

يقول الإمام ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي جاء بالصدق وصدق به. فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ. قالوا والصدق الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صدق به أيضاً هو رسول الله ﷺ. ثم ذكر أن الذي قال ذلك من أهل العلم هو الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما. واستطرد في ذكر بقية الأقوال، وهى أن آخرين قالوا: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدق به أبو بكر ﷺ. وهذا القول ينسبه إلى على بن أبى طالب ﷺ. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون، وهو قول قتادة. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق جبريل، والصدق القرآن الذي جاء به من عند الله، وصدق به رسول الله ﷺ، وهو قول السدى. وآخر قول ذكره عن مجاهد أن الذي جاء بالصدق المؤمنون، والصدق القرآن،

وهم المصدقون به، قال: الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة، فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا، فاتبعنا ما فيه.(١)

والناظر في هذه الأحوال يستبعد القول القائل بأن جبريل هو الذي جاء بالصدق، لأنه لا يستقيم وسياق الآيات بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ ، إذ لا يليق ذلك بجبريل عليه السلام إذا قلنا إن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ تعود على الذي جاء بالصدق وصدق به، لأنه سيدخل في قوله: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾، وكذلك لا يليق بالرسول ﷺ ، لأن هذا القول صاحبه يزعم أن الذي صدق به هو الرسول ﷺ فكيف ينطبق عليه، لهذا الدليل رددت هذا القول، وهو مردود حتى لو قلنا إن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تشمل الذي صدق به فقط، لأنها وإن أخرجت جبريل عليه السلام من هذا التأويل الباطل، فقد أدخلت فيه الرسول ﷺ على أنه الذي صدق به، وهو باطل لا يليق به ﷺ .

أما القول القائل بأنهم المؤمنون، فهو القول العام الذي تشير إليه الآيات، ويكون هذا القول هو الملائم، المتناسب معها، وبالتالي يجوز أن يكون الرسول ﷺ أحد أفراد هذا العام، بل هو الأعظم ﷺ، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه، بل هو أفضل المصدقين بالنبى ﷺ وأعلاهم درجة، وبذلك تجتمع هذه الأقوال.

وفى اختيار هذا القول العام يقول أيضاً الإمام ابن جرير ما حاصله(٢):

---

(١) الإمام محمد بن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١، (١٤/ ٣-٤).
وقد ذكر هذا الأقوال معظم المفسرين. انظر على سبيل المثال الزمخشرى «الكشاف»، (٣٦/ ٣٤٧). و محمود الألوسى، «روح المعانى»، (١٣/ ٤-٥). وأبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٩/ ٢٠٣-٢٠٤). وأبو الفرج ابن الجوزى «زاد المسير»، (٧/ ١٨٢).
(٢) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١، (٢٤/ ٤).

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره عنى بقوله، والذي جاء بالصدق وصدق به، كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله، والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ، وذلك يشمل الرسول ﷺ ومن قام بذلك من أتباعه، والصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائناً من كان، من نبى الله وأتباعه، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن قوله تعالى ذكره جاء بعد ذم المكذبين بالصدق، المفترين على الله، الجاحدين لوحدانيته. فالواجب أن يكون عقيب ذلك مدح لمن كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، والذين كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآية رسول الله ﷺ وأصحابه. ويدخل في جملة الآية القائمون بذلك بعدهم، لأن الله تعالى مدح على الاتصاف بهذه الصفات، فمن اتصف بها في أى زمان كان منهم، وذلك على ما ذهب إليه – رحمه الله تعالى – بقراءة ابن مسعود ﷺ: (وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدقِ وَصَدَّقُوا بِهِ)، وبما ذهب إليه بعض أهل العربية من البصريين، بأن الذي بمعنى الجمع، كما ورد قول من قال: إن الذي جاء بالصدق غير المصدق به، لأنه مخالف لمفهوم السياق، إذ المفهوم من الكلام أن الذي جاء بالصدق هو المصدق به، لا وجه للكلام غير ذلك، لأنه لو كان غيره لتكررت الذى، أى الذي جاء بالصدق والذي صدق به، وهو بعيد المفهوم كما أشار.(١)

وإذا كنا قد اعتمدنا قول الإمام ابن جرير بالعموم، لأنه لا يتعارض مع حمل الآية على الرسول ﷺ وأبى بكر، أو الرسول ﷺ والمؤمنين. فلابد أن نذكر أن قوله: «لا وجه للكلام غير ذلك» فيه نظر، لأن بعض أهل العلم، كالفخر الرازى والعلامة ابن عاشور، جعلا للكلام وجهاً غير ذلك، مقبولاً في رأيهما على الأقل، وهو أن قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ جملة الصلة لموصول محذوف

---

(١) انظر المصدر السابق، مجلد١١، (٢٤/ ٤).

الذى، ويكون الكلام: والذي جاء بالصدق والذي صدق به أولئك هم المتقون، وأن الحذف للإيجاز. ويكون الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ والذي صدق به المؤمنون. بل قد ذكر ذلك العلامة ابن عاشور وجهاً واحداً معتمداً عنده، وأن ﴿ ٱلَّذِى ﴾ هنا على معنى الجمع.(١)

ونلاحظ أن جملة ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ خبر عن اسم الموصول، والتعبير بـ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ لتمييزهم أشد التمييز. وما يكون ذلك إلا لأنهم قد تحققوا مما جاء به النبى ﷺ علماً وعملاً ودعوةً، إذ لا يعقل أن نشير إليهم بأنهم المتقون لا متقين غيرهم - وهو ما يفيده ضمير الفصل ﴿ هُمُ ﴾ من القصر عليهم - ويكون حظهم من ذلك مجرد التصديق، بل صدقوا بكل ما جاء به النبى ﷺ وآمنوا، وصدق فعلهم وسلوكهم إيمانهم وتصديقهم، ثم جاءوا غيرهم بهذا الهدى والنور ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وليس ذلك فقط، وإنما تنبئ الآية كذلك أنهم قد أخذوا الكتاب بقوة، حيث صدقوا به كله، وعملوا به كله، ودعوا إليه كله، لم يفرطوا في شئ، ولم يقصروا في شئ ظاهراً وباطناً، وإلا لما كانوا هم المتقين، الذين قصرت عليهم التقوى، ولما كانوا الممدوحين الأخيار، إذ كيف يكون تقياً ممدوحاً صالحاً من شك فيما جاء به الرسول الأعظم ﷺ، أو قصر في العمل، أو فرط في العمل، أو فرط في حمل

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٣/ ٤٤٠). وعنده أن أبا بكر هو الذي صدق به. والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤/ ٧-٨). وقد ذهب جملة من العلماء إلى أن حذف الموصول لا يجوز، فلعل هناك وجهاً أخذ به الفخر الرازى والعلامة ابن عاشور، خاصةً مع تيقن اطلاعهما عليه، إذ هو مذكور فيما ينقلان عنه من كتب التفسير والعربية. العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٣، (٢٤/ ٥).

مسؤولية تبليغه والدعوة إليه؟!

وذكرنا أن ضمير الفصل ﴿ هُمُ ﴾ يفيد القصر في قوله ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، أى هم لا أحد غيرهم، فيفيد قصر جنس المتقى على الذي جاء بالصدق وصدق به. ولم يكن يوم نزول الآية إلا النبى ﷺ وأصحابه، فيكون المعنى أنه لا متقى إلا الرسول ﷺ وأصحابه، وأن أصحابه كلهم متقون، فتكون الآية واضحة الدلالة على أن رتبة صحبة النبى ﷺ عظيمة، وأن منزلتهم في التقوى أعلى المنازل، فإنهم لما أشرقت على نفوسهم أنوار الرسول ﷺ فطهرت ضمائرهم مما كانوا فيه، وصاروا موصوفين من الله بالتقوى، وتحقق فيهم ما أريد من إنزال القرآن في قوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ في نفس السورة.

لذلك رأينا رسول الله ﷺ ينبه على مكانتهم ﷺ أجمعين بقوله: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[(١)].

وكأنه ﷺ يستشف الغيب ليرى أناساً منحرفين، يسيئون إلى الصحابة ﷺ حيث يراهم وقد طعنوا بذلك في القرآن الذي شرَّف قدرهم وأعلى منزلتهم، خالفوهم ووقعوا فيهم. والآيات والأحاديث غير ما ذكرنا كثيرة تدل على هذا المعنى.

لذلك أوصى أئمة السلف الصالح ألا يذكر أحدٌ من أصحاب النبى ﷺ إلا بأحسن الذكر، وبالإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس بأن يلتمس لهم أحسن المخارج فيما جرى بين بعضهم البعض، ويظن بهم أحسن المذاهب، فإنهم جميعاً قدوتنا، وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والطعن في بعضهم يفضى إلى الطعن

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٠). وانظر أبى زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٣٢).

في القرآن، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبى ﷺ، إذ هم المتقون البررة، أصحاب الرسول العظيم، الذي لم يكن الله -جل وعلا- ليختار له إلا أحسن الاختيار ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولما قصر القرآن الكريم على هؤلاء الأصفياء جنس المتقين، وأثنى بذلك عليهم هذا الثناء البالغ، كان يقتضى ذلك أن يسأل السامع عن جزاء هذه المزية العظيمة. ومعناها أن لهم كل ما يتمنون ويريدون في الجنة، وهو كناية عن سعة العطاء، الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١)، وهو كما يقول من أسديت إليه عملاً عظيماً: لك عندى ما تسأل، وأنت تريد غاية الإحسان إليه. والمؤمن خبير بعظم جزاء قد التزمه له ربه، وأى جزاء أعظم من أن يلتزم لهم بكل ما يشاءون، ومن أصدق من الله قيلاً؟ ومن أعظم منه عطاءً وكراماً؟ وقد أضيف إلى الربوبية لينوه بعظيم ما أعد لهم - جل وعلا، وبالعندية للتشريف لهم ورفع منـزلتهم.

ثم أشار إلى ما يشاءون باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لتضمنه كذلك تعظيم شأن المشار إليه.(٢)

لم يكن الغرض فيما سبق هو ذكر جزاء المتقين، فله فصل خاص، وإنما الوصول إلى تلك الصفة من صفات المتقين، التي وصفهم بها القرآن الكريم مع

---

(١) رواه البخارى (٣٢٤٤) وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى، «فتح الباري»، (٦/ ٣١٨). ورواه مسلم (٢٨٢٤). وانظر أبى زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٨١) كلاهما عن أبى هريرة ﷺ.

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤/ ٨).

التقوى في أكثر من موضع، وهى صفة الإحسان، كقوله في سورة آل عمران: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وقوله في سورة الذاريات: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ذلك جزاؤهم، فأظهر وصفهم في مقام الإضمار، وأظهره بالإحسان وليس بالتقوى، ليفيد الثناء عليهم بهذه الدرجة العليا من درجات الدين، وهى أن تعبد الله كأنك تراه، وهى كمال التقوى. فكل صفات التقوى السابقة لا يصل أهلها إلى ذروة سنامها إلا بالإحسان، وهم تبوءوا هذه المكانة وتلك القمة، فاستحقوا بذلك الثناء والجزاء.

فأى إحسان وأى تقوى أعظم من نبذ الصحابة ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحملهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم، تصديقاً للذى جاء بالصدق، وإيثاراً لرضا الله على شهوة النفس ورضا العشيرة.(١)

وإلى الموضع التالى من صفات المتقين حيث يقول الرب - جل وعلا:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل: ٣٠-٣٢]:

كانت الآيات السابقة تبين لنا ما اتصف به المتقون مما يحب الله تعالى من صفات. أما هذه الآيات الكريمة فهى توضح لنا هؤلاء المتقين، واعتقادهم فيما أنزل الله – جل وعلا، وما جاء به النبى ﷺ، وأنه اعتقاد جازم لاشك فيه ولا

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير، (٢٤/ ٩).

تردد مع الانشراح به والمحبة له، حيث لم يتلعثموا ولم يترددوا عندما سئلوا عما أنزل ربهم أن قالوا: أنزل خيراً في الدنيا والآخرة، خيراً تصلح به أحوال المرء والمجتمع والدنيا بأسرها، رحمة وبركة لمن تبعه في الأولى ويوم القيامة. فكانت إجابتهم مطابقة للسؤال سبكاً، ومطابقة للواقع مضموناً.

والآيات – كما نقرأ – معطوفة على ما قبلها، حيث ذكر القرآن الكريم صفات الظالمين الكافرين الجاحدين، الذين لما سئلوا نفس السؤال قالوا: أساطير الأولين «برفع أساطير»، أى هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء. وهو الفارق بين النصب في إجابة المتقين والرفع في إجابة الجاحدين.(١)

ذكر أهل التفسير أن هذه الآيات نزلت عندما وقف كفار مكة للمؤمنين بالإيذاء، فتنة لهم عن دينهم، وصداً لغيرهم عن الإيمان، حيث أرصدوا رجالهم ليعترضوا الوافدين إلى مكة المكرمة أيام الموسم، ليحذروهم من النبى ﷺ ومن الإيمان بما جاءهم به من عند الله، قائلين لهم: إنه مجنون وساحر، وما يتلوه أساطير الأولين، فيرجع الوافدون بذلك إلى أقوامهم. ومن حاول منهم أن يستطلع أمر النبى ﷺ والمؤمنين، وأن يسمع قولهم ويعلم شيئاً عن دينهم، حتى لا يكون شر وافد لقومه إذا رجع بغير مقابلة الرسول ﷺ والمؤمنين، فإنه يقابل المؤمنين ليسمع منهم، فإذا إجابتهم أن الله أنزل خيراً للناس في الدنيا والآخرة - إن هم أطاعوه واتبعوه - فيكون ذلك سبب إسلام بعضهم.(٢)

والذى يعنينا في هذا الخبر هو مدى تصديق المتقين الجازم بما أتاهم به النبى

---

(١) انظر جار الله الزمخشرى « الكشاف»، (٢/ ٣٢٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٤/ ١٤١). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٢٦٠). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٧، (١٤/ ٦٩)، وغيرها.

(٢) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٧، (١٤/ ٦٩).

ﷺ والتمسك به، والجهر به، وإعلانه في مثل تلك الظروف السيئة وتلك الأيام العصيبة، مع وصفهم إياه بأنه الخير الذي لا خير سواه، سواء في توحيدهم ونبذهم الأصنام، أو في عبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، وكذلك فيما ينتظرهم من الجزاء الذي هو من جنس اعتقادهم الجميل ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ﴾.

وأشارت الآية في جواب المؤمنين إلى معنى يهم كل أحد، وهو سؤاله عن دنياه وحاله فيها إذا هو آمن؟ فكان ردهم أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة.

وعبر بالإحسان- كما هو شأن القرآن الكريم كما أشرنا من قبل في الإشادة بالمتقين - إذ الإحسان أعلى درجات التقوى، وهو عمودها، والمهم فيها.

وحسنة الدنيا التي تهمهم تشمل كل ما تكون به حياتهم حسنة، أى تلك الحياة الطيبة الرضية مع ما يضيفه سبحانه إليها من نصر وفتح، أو من رزق ومتاع، أو من زوجة تقية وأولاد صالحين، أو رفعة وذكر حسن وثناء جميل.

فتلك حسنة المتقين في الدنيا، الذين حسن اعتقادهم فيما أنزل ربهم، وقابلوه بالطاعة والانقياد، والتسليم والرضا.

ولا يظنن ظان أن ذلك منهم كان مجرد التصديق بغير عمل التقوى، بل لو كان كذلك لكان المشركون أول الناس إنكاراً عليهم بقولهم: إذا كان ذلك خيراً فلم لا تعلمون به ولا تقومون عليه؟

ونلاحظ في الآية أيضاً أن السؤال كان للمؤمنين في مكة المكرمة: ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾، وإنما عبر القرآن الكريم بـ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾، ولم يقل للذين آمنوا مثلاً، لأن جوابهم هذا الجميل كان ناشئاً عن أعظم صفاتهم، وهى صفة التقوى. فكانت التقوى مصدر تسليمهم وإذعانهم وصبرهم ودعوتهم.

وهذا المعنى بمفهومه يجرنا إلى قضية مهمة وخطيرة هذه الأيام، وهى قضية الطعن في الشريعة والإسلام من المتسمين بأسماء إسلامية وتحت مسميات براقة: التنوير، وجعل الشريعة متوائمة مع العصر، وتأويل الأحكام التي لا تتفق مع

الحداثة، والعمل بروح الشرع، وفصل الدين عن الدنيا أو الدولة، والاعتراض على أحكام الدين اعتراضاً ظاهره الرحمة وباطنه الكفر، وكل ذلك ليس من استقبال ما أنزل الله وما جاء به رسوله ﷺ بالتسليم وبكونه خيراً في شيء، بل للأسف هو أشبه بقول الظلمة الجاحدين: أساطير الأولين، وذلك دلالة على أنهم ليسوا متقين، لأنا علمنا رأى المتقين فيما جاء به الرسول ﷺ، فمن قال فيه غير ذلك فليس من التقوى في شيء. فتيقنا بذلك أن هؤلاء ليسوا متقين مع حسن الظن بهم، فما بالك لو ذكرنا فيهم ما يستحقون، أقله العمالة الفكرية، وتنقص الشريعة، كأساتذتهم من المستشرقين والمستغربين، ليسوا كأسلافهم مؤمنين.

وأفادت الآيات علو مكانة الصحابة مرة أخرى عند الله – جل وعلا، لأن الآيات نزلت فيهم، فكان المعنى أن أصحاب النبى ﷺ هم الأتقياء المحسنون، الذين كانت عقيدتهم أن ما جاء به الرسول من عند الله تعالى هو الخير، وكذلك كان تطبيقهم لذلك الخير، حيث تمثلوه سلوكاً واقعاً، ونشروه علماً ودعوة، مع تحملهم في سبيل الله – سبحانه – كل أنواع الأذى، فصاروا بذلك قدوة المؤمنين المتقين، ومثلهم الأعلى المنشود.

ثم استطردت الآيات – بعد ذكر ما أعد الله للمتقين من ثواب، جنات لهم فيها ما يشاءون – إلى وصفٍ آخر من أوصاف المؤمنين المتقين، وهو أنهم تتوفاهم الملائكة طيبين، على عكس الظالمين الجاحدين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، فهم يخالفونهم عقيدةً وسلوكاً، وعاقبةً ووفاةً.

والطيب: بزنة (فَيْعِل)، مثل: قيِّم، وميِّت. وهو مبالغة في الاتصاف بالطيب، وهو حسن الرائحة. ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النفس، على وجه المجاز، فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى: ﴿ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨]، والمعانى والنفسيات، كقوله تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ ﴾ [الزمر:

٧٣]، وقولهم: طبت نفساً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا»[1]، أي: مالاً طيباً حلالاً.

فقوله تعالى هنا: ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ يجمع كل هذه المعاني، أي: تتوفاهم الملائكة منـزهين من الشرك والدنس ومن كل سوء، فرحين مطمئنين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، قد وصفوا اعتقاداً وعملاً وخلقاً ونفساً وظاهراً وباطناً بأحاسن الصفات وكريم السجايا.

وتشير الآية إلى الأهم في هذه الصفة وهي أن ما هم فيه من طهارة ظلوا عليه حتى وفاتهم، أي عاشوا دنياهم مطهرين من كل ما أشرنا، متصفين بكل ما ذكرنا، إلى أن جاءتهم ملائكة الموت يسلمون عليهم، ويبشرونهم برضا الله عنهم، وبدخولهم الجنة.

فكانت تلك البشريات لأهل الإيمان الأتقياء حثاً[2] للمؤمنين أن يتطهروا بالتقوى، وأن تطيب نفوسهم وأعمالهم، ثابتين على ذلك حتى الممات، عندما يقال له: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا ﴾ [الزمر: ٧٣].

فرأينا هذه الصفة الجديدة تضاف لصفات المتقين التي يجب أن يحرص عليها المؤمنون، أن تطيب جوارحهم وقلوبهم وأبدانهم بأعمال التقوى وأقوالها، واعتقاداتها وأخلاقها، لا أن يتصفوا بها فقط، وكذلك ألا يتململوا من حملها، بل يكونوا ثابتين عليها، متمسكين بها، إلى بشارة الملائكة لهم عند قبض أرواحهم: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

---

(١) الحديث رواه مسلم (١٠١٥). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٠٧). ورواه الترمذي (٢٩٨٩).

(٢) انظر العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٢٦١).

[فصلت: ٣٠].

يقول الإمام الفخر الرازى: «وقوله تعالى: ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة، مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية، متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها، ومن هذه حاله لا يتألم بالموت».(١)

وإلى موضع آخر من صفات المتقين وهو قوله تعالى:

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤٤]:

وجاء دور الجهاد بالمال والنفس، وهو ذروة سنام الإسلام، حيث نرى المتقين وقد تبوءوا الدرجة العالية منه، وحازوا فيه قصب السبق. وصفات المتقين السابقة كالتوطئة والتمهيد لهذه السجية الحسنة من سجاياهم، فإنه لا يستطيع المؤمن أن يجاهد عدوه الخارجى ويثبت له إلا أن يكون قد جاهد عدوه من داخله، نفسه وهواه وشيطانه، إذ كل أولئك من عوامل التثبيط والهزيمة والفرار أمام العدو الخارجى. فمتى انتصر المؤمن على هؤلاء الأعداء – بتحقيق صفات التقوى السابقة – فإنه جدير أن ينتصر على عدوه المتربص به أو الغازى له، لأنه إذا ما انهارت خطوط الدفاع الأولى بهبوط المعنويات، وتزلزل الإيمان، وضعف القوى الدافعة، فإن الهزيمة أقرب شيء لمثل هؤلاء، وإن نصر أعدائهم عليهم هو الراجح. وقد رأينا مصداق ذلك وبرهانه فيما وصل إليه حال

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٩/ ٥١٨).

المسلمين اليوم، لما فقدوا مقومات النصر - وهى ملخصة في قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ - خذلهم الله تعالى، وترك نصرهم، فتمكن منهم عدوهم.

إن بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى هو التجارة الرابحة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة: ١١١].

والمتقون لما علموا ذلك ضربوا في هذه التجارة بأوفر سهم، وإلا لم يستحقوا أن يكونوا هم المتقين، أولياء - جل وعلا، إذ لا يبخل عليه - سبحانه - بما وهب متقٍ أبداً، وهو بخل على نفسه وعلى نجاتها.

ونستطلع الآية الكريمة فإذا هى تبين أن المتقين على خلاف المنافقين، فإن المنافقين يستأذنون النبى ﷺ ليس ليجاهدوا بل ليتخلفوا عن الجهاد، وذلك دأبهم أبداً. أما المتقون فإنهم لا يستأذنون في الجهاد، ولا ينتظرون السماح لهم به، بل يخرجون زُرَافاتٍ ووحداناً بمجرد سماعهم «حى على الجهاد»، يطلبون إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة. ويكون معنى الآية على هذا التفسير: إن المتقين لا يستأذنون في أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل يبادرون إليه بدون توقف على الإذن، وأما التفسير الثانى فهو أن المتقين لا يستأذنون في التخلف وترك الجهاد، ويكون المعنى: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لئلا يجاهدوا، وذلك كقوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ ﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لئلا تضلوا، ودل على ذلك سياق الآيات من قبل ومن بعد، إذ هى في ذم التخلف.

والمعنيان حق، لأن المتقين لا يستأذنون في الجهاد، فضلاً عن الاستئذان

للتخلف ولا يتوقفون في بذل أنفسهم وأموالهم لله تعالى على إذن، بل يبادرون ويتسابقون ويسارعون. وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي ﷺ في الجهاد، فإن ربنا ندبنا إليه مرةً بعد أخرى، فأي فائدة في الاستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ بالقعود لشق عليهم ذلك. فهذا علي بن أبي طالب، لما أمره رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بأن يبقى في المدينة شق عليه ذلك، ولم يرض إلى أن قال له الرسول ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى».[1]

روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هَيْعة أو فزعاً طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مَظَانَّه».[2]

والآية الكريمة ابتدأت بنفي المضارع الدال على الاستمرار، فلا يبعد أن يكون المعنى أن تلك عادتهم في عدم الاستئذان، كما قال الحماسي:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً[3]

وأساس الجهاد والدافع له والحامل عليه أشار إليه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾، وهو كذلك ما جعل المنافقين لا يجاهدون لخلو قلوبهم منه. وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر من دون بقية عناصر الإيمان، لأنهما ركيزته وأصله الذي تنبنى عليه الطاعة والعمل الصالح، فإن الإيمان بالله يحث المرء على العمل محبةً لله تعالى، ورجاءً فيه، وخوفاً منه، وطلباً لرضاه،

---

(١) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ١٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٨٨٩)، وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٧/ ٤١).

(٣) انظر العلامة الألوسي «روح المعاني»، (٦/ ١٥٨-١٥٩). وكذا: الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٨/ ٢٣-٢٤).

والإيمان باليوم الآخر يسوق المؤمن إلى الطاعة والمسارعة إليها خشية العرض على الله تعالى، وخوفاً من الحساب والعقاب، وطمعاً في الأجر والثواب. علاوةً على أن العمل بسبب الإيمان بالله واليوم الآخر دليل الإخلاص، فإن المخلص يعمل يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة، وهى صفة مهمة كما ذكرنا من قبل في صفات المتقين، لا يقبل عمل بغيرها، بل على العكس إذا لم تتحقق فإن عقاب الله هو الجزاء حينئذ. وهى في الجهاد لابد أن تكون أشد وضوحاً: أن يجاهد المرء يريد الله تعالى والدار الآخرة، لا يريد بجهاده بنفسه وماله شيئاً آخر، كما سئل النبى ﷺ: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، أى ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله».[(١)] فكان التنصيص على الإيمان بالله واليوم الآخر لتلك المعانى، ولامتلاء قلوب المتقين منها.

ونعود إلى الكلام على المتقين، حيث نرى الآية وقد ختمت بقوله – جل شأنه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾، لتكون شهادة لأولئك السابقين بالتقوى، لوضع المظهر موضع المضمر، إذ السياق: والله عليم بهم، فلما قال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ دل على تلك المنقبة العظيمة لهم. وتحتمل الآية جنس المتقين، ويكون المذكورون داخلين فيهم دخولاً أولياً. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ عِدَةٌ لهم بالثواب الجزيل، فإن قولنا: «أحسنت إلى فأنا أعلم بالمحسن» وعدٌ بأجزل الثواب، و«أسأت إلى فأنا أعلم بالمسىء» وعيدٌ بأشد العقاب.

ويمكن أن نقول أيضاً: إن قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ تقرير لمضمون ما سبق، كأنه قيل: والله عليم بأنهم كذلك.[(٢)]

---

(١) الحديث رواه البخارى (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٩١٧)، والترمذى (١٦٤٦)، والنسائى (٦/ ٢٣)، وابن ماجه (٢٧٨٣).

(٢) انظر لما سبق العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد٦، (١٠/ ١٥٩-١٦٠).

وفيه أمر مهم ينبئ عن التقوى ذاتها وما يصدر عنها من خير، وهو أن ما صدر منهم من المسابقة إلى الجهاد وغيره إنما هو معلل بالتقوى[١]، بكونهم متقين. ويكون معناه أن تقواهم سبب تلك الأخلاق الفاضلة، والأعمال الجليلة، والصفات الحسنة التي رأيناها منهم.

ونلاحظ في الآية الكريمة أنها لم تذكر في صفات المتقين أنهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بل قالت: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾، وكأنه معلوم قصدهم ووجهتهم من أحوالهم الحسنة، أنهم لا يجاهدون إلا في سبيل الله تعالى، ليس لهم هدف إلا رضاه - جل وعلا. ويؤيد هذا أنهم لا يستأذنون، بل يسارعون بغير توقف على إذن إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم. ولا تكون المسارعة من هؤلاء الأتقياء إلا في سبيل الله تعالى، لا لشهوات النفس وحظوظها. فكان هذا الإضمار في غاية المدح لهم والثناء عليهم.

وهذا على عكس المنافقين، حيث صرح القرآن الكريم بكراهتهم للجهاد في سبيل الله، وليس للجهاد فقط، فقال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أى: كأنه يقول: وكرهوا أن يجاهدوا في أعظم سبيل وأشرفه وأكرمه. وهذا يبين لنا درجة المتقين وثناء الله عليهم وحسن عاقبتهم.

والموضع التالى من صفات المتقين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، (٦/ ١٥٩). وكذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٤١٢-٤١٣).

وإذا كان المتقون -كما ذكرنا من قبل- قد اتصفوا بتلك الصفات النبيلة والأعمال الحسنة، فإنهم في نفس الوقت ليسوا معصومين من الخطأ، ولا منزهين كمال التنزه من الوقوع في المخالفة، بمقتضى بشريتهم. ولكنهم لتقواهم ليسوا كغيرهم من البشر الخاطئين، ولا كغيرهم من المؤمنين المذنبين، سواء في وسوسة الشيطان لهم ومحاولة الإيقاع بهم، أو في استجابتهم لكيده ونزغه.

إن الآية الكريمة تبين لنا ذلك من خلال التقرير والتأكيد لقيمة التقوى، فالمتقون يطيف بهم الشيطان، يريد انتهاز الفرصة ليوقعهم في المعصية، يحاول جهده أن يصل إليهم، وإذا وصل فإنما هو مس لا يصل إلى درجة التمكن وحقيقة الهلاك. ومع ذلك لا يطول بهم مسه، إذ سرعان ما يتذكرون ربهم وأمره ونهيه، وجلاله وعظمته، وعذابه ونقمته، ليرجعوا إلى الله، فتزول عنهم تلك الغشاوة، وتنقشع عن بصائرهم هذه الظلمة، ليبصروا بسرعة طريق الله وسنة نبيه مرةً أخرى، فيزيحوا عنهم خواطر الشيطان ويرجعوا إلى سبيل ربهم، ويستعيذوا مما طاف بهم من وساوس الشيطان، ويتوبوا مما يكون قد مسهم من كيده لهم بالمعصية والمخالفة.

كل ذلك على خلاف غيرهم - الذين ذكرهم الله بعد ذلك - بأن الشياطين إخوانهم، أى ملازمون لهم لا ينفكون عنهم، لشدة تمكنهم منهم، يوقعونهم في الأهواء والمعاصى والشهوات، وفى نفس الوقت لا يبصرون ولا هم يذكرون ليرجعوا أو يتوبوا، بل كما ذكر الله تعالى: ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] وهذه الحالة ابتداءً وانتهاءً قد صورها القرآن الكريم في قوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

أما المتقون الخلص من عباد الرحمن، فقد ذكر المولى - سبحانه وتعالى - حسن حالهم على لسان الشيطان نفسه، فقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. وهذا يبين لنا بوضوح وجلاء قيمة التقوى في حفظ أهلها من نزغ الشيطان ووسوسته وإغوائه، وأنها الحصن الآمن لهم من ذلك، وفى نفس الوقت هى قوى الإيمان الكامنة في قلوبهم، التي سرعان ما تعود بهم إلى طريق الحق، وإبصار الصواب، والتحرز من مكايد الشيطان ومواطن الخطأ.

ويبين لنا صفة مهمةً من صفات المتقين، وهى سرعة تذكرهم وإبصارهم ورجوعهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

يقول صاحب «روح المعانى» العلامة محمود الألوسى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ استئناف مقرر لما قبله - أى في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ - من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين، والإخلال بها شنشنة الغاوين، أى إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا، أى لَمَّة منه - كما روى عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، والمراد وسوسة ما، وهو اسم فاعل من طاف بالشىء إذا دار حوله.

وجعل الوسوسة طائفاً للإيذان بأنها وإن مست لا تؤثر فيهم، فكأنها طافت حولهم ولم تصل إليهم. وجوز ان يكون من طاف طَيْف الخيال إذا أَلَمَّ في المنام، فالمراد به الخاطر «الشيطانى». وذهب غير واحد إلى أن المراد بالطائف الغضب.

والمراد بالشيطان الجنس، لا إبليس فقط، ولذا جمع ضميره فيما سيأتى. فإذا حدث لهم شئ مما سبق تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، أو الاستعاذة به تعالى والالتجاء إليه سبحانه، أو عداوة الشيطان وكيده، فإذا هم بسبب ذلك التذكر مبصرون مواقع الخطأ ومناهج الرشد، فيحترزون عما يخالف أمر الله، وينجون عما لا يرضيه سبحانه وتعالى.(١)

---

(١) انظر العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٦/ ٢١٥).

ونلاحظ على الآية:

أولاً: أن كلمة ﴿ إِذَا ﴾ من قوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ مع التعبير بفعل ﴿ مَسَّهُمْ ﴾ الدال على إصابة غير مكينة - كما ذكرنا - إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشيطان، عند إبتداء إلمام الخواطر الشيطانية بالنفس، لأن تلك الخواطر إذا أهملت أو أمهلت وتمادى معها المرء لم تلبث أن تصير عزماً ثم عملاً، لذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [البقرة: ١٦٨]، لأنه كل ما يقع المرء فيه من الموبقات مبتدأه الاسترسال مع تلك الخواطر الشيطانية، لأن الشيطان لا يأمر بالزنا والسرقة مباشرةً، ولكنه يوسوس ويزين خطوة خطوة، حتى يقع المرء في شركه وأذاه.

لذا كانت منقبة عظيمة من مناقب المتقين أن -رسوا خواطرهم، ولم يسترسلوا فيها مع الشيطان، بل لجأوا إلى الله تعالى، واعتصموا به عند أول كيد له وخواطر منه، وصدوا تلك الوساوس مبصرين مناهج الرشد ورضا الله تعالى، وهو ما ينبغى أن يقوم به المؤمن في تلك الأحوال.

ثانياً: أن الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ للتعقيب، وهى لتفريع الإبصار على التذكر. وقد أكد معناها بـ﴿ إِذَا ﴾ الفجائية الدالة على حصول جملتها دفعة بدون تريث، أى تذكروا تذكر ذوى عزم، فلم تتريث نفوسهم أن تبين لها الحق الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم.

ثالثاً: أن الإبصار هنا استعير للاهتداء، كما يستعار العمى- وهو ضده - للضلال، أى: فإذا هم مهتدون ناجون من تضليل الشيطان وغشاوته وإظلامه طريقهم، لأن الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك. ووصفه باسم الفاعل دون الفعل للدلالة على أن الإبصار ثابت لهم من قبل، وليس شيئاً متجدداً، ولذلك أخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، ويقوى هذا

المعنى قوله تعالى: ﴿ تَذَكَّرُواْ ﴾، والتذكر استحضار المعلوم السابق الذي يدل على تقواهم.(١)

فكانت الآية الكريمة دالة على عدة مناقب للمتقين المحسنين، تبين حسن صلتهم بالله تعالى، مع عناية الله - جل وعلا - بهم، بسبب ما قدموا من تقوى كانت السياج الواقي الذي كان لا يتمكن بسببه الشيطان منهم والنور الذي تنقشع به الظلمة، والبصيرة التي تزول بها الغشاوة عن عيونهم وقلوبهم.

وهاتان صفتان أخريان من صفات المتقين:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]:

ذكرت الآية الكريمة صفتين من صفات المتقين، وهي وإن نزلت في اليهود، فإن تقوى الله لا تختلف صفاتها، حيث هي دعوة الرسل جميعاً إلى الله تعالى، ومصداق ذلك من الآية الكريمة الأولى حيث وصفت التوراة بما وصف الله جل وعلا به القرآن الكريم من كونها فرقاناً وضياء وذكراً، وهي بعينها من أوصاف القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وهذا يدل على وحدة مصدر الرسالات الصحيحة إلى الإنسانية، وعلى أن هذه الرسالات كلها فرقان بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.

ونعود إلى ما ذكرت الآية من صفات المتقين ، فكانت الصفة الأولى لهم هي

---

(١) وانظر العلامة محمد طاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).

أنهم يخشون ربهم بالغيب، وإن قلنا إن هذه الصفة هى أعظم مناقب المتقين بعد الإيمان بالله لم نبعد، لكونها الحاملة لهم على كافة الصفات السابقة؛ فإن خشية الله تعالى تحمل على الصلاة والزكاة وآداء بقية أركان الدين، وكذلك تحمل على التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله -سبحانه وتعالى، كما تحمل بلا شك على الصدق والإخلاص وأداء الأمانة، وترك الغش والكذب والخديعة، وتحث على المعاملة الحسنة والأخلاق الراشدة إذ هى منبئة عن مراقبة الله – سبحانه وتعالى.

ونلاحظ أن الآية ذكرت خشية المتقين لله تعالى بالغيب، أى خوفهم منه، حيث لا يطلع عليهم أحد، إذ في عدم وجود الخلق يسهل ارتكاب المعصية، والوقوع فيما يغضب الله تعالى أو تحملهم خلوتهم على الكسل عن الطاعة والتفريط في أوامر الله، إذ المرء يخشى ذلك عند رؤية الناس له. فما بالك بخشيتهم لله تعالى في العلانية. فهم يخافون ربهم في خاصتهم، لا يريدون بذلك رياء، ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية، والمذمة عند الناس[1] فمن باب الأولى يخشون ربهم في علانيتهم.

هؤلاء المتقون إذن يكون القرآن الكريم لهم فرقاناً وضياء وذكراً فهم مختصون بذلك كما ذكرنا في سورة البقرة تخصيص المتقين بالهداية.

وأما الصفة الثانية لهم هنا فهى الإشفاق من الساعة، وهو الخوف والحذر منها، إذ هى الطامة الكبرى، التي لا يغنى فيها مولى عن مولى شيئاً، ولا يدفع فيها سلطان ولا جاه ولا مال، والتي لا يغنى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، بل على العكس يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وذلك لما يغشى الناس من الأهوال والكرب، ولا يدرى المرء أين يذهب به، المتقون تقوم بقلوبهم

---

(١) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ٩٠).

تلك الشواهد من شواهد الآخرة تدفعهم إلى دوام تذكر ذلك اليوم، الذي لا ينجِّي فيه إلا العمل الصالح وتقوى الله تعالى، فيبعثهم على الاستعداد له، وحسن الورود عليه بما يقيهم تلك الأهوال، وأن التقصير والتفريط، أو المعصية والمخالفة يزيد عليهم تلك الأهوال والكرب، التي لا قبل لأحد بشيء منها.

ونلاحظ في الآية استخدام المضارع ﴿ يَخْشَوْنَ ﴾ في الغيب، وهو يدل على تكرار ذلك منهم، فما يكونون في الغيب إلا وخشية الله تعالى تحوطهم، أى يخشونه في كل غيب.

وأما الإشفاق من الساعة فقد آثر القرآن الكريم الجملة الاسمية وذلك للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه، أى إن وصفهم الملازم لهم هو الخوف من القيامة، وهذا يبين تلك المنزلة الرفيعة التي لا يصل إليها إلا من وصل إلى درجة عالية من التقوى، بحيث لا تغيب الساعة عن خاطره، مما يدل على تمام التحرز وكمال الاستعداد، وهذا يدل على أن المتقين في واد والناس في واد آخر.

ونلاحظ أن الآية بعدما بينت خشيتهم على الإطلاق، خصصت الساعة بإشفاقهم، وفى ذلك يقول العلامة أبو السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم: «وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون»[1] ويقصد بـ«المستعجلون» الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [الشورى: ١٨]، والمستعجلون أى الذين يطلبون تعجيل قيام الساعة والإسراع بذلك من النبى ﷺ ليبين صدقه، وما قالوا ذلك إلا

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم» ، (٣/ ٥٢٢)، وكذلك الألوسى «روح المعانى» بنصوصه (١٧/ ٦٨).

تهكماً واستهزاء، وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلاً على عدم وقوعها وهم آيسون منها كما دل عليه القول المقابل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾: فكان ذلك برهان تقوى المؤمنين إيماناً وعملاً.

وهكذا ترى القرآن الكريم يسوق تلك الصفات كلها لتكون سبل أهل الإيمان ليتحلوا بها، وليجاهدوا أنفسهم على التخلق بتلك الأخلاق والاهتداء بذلك السلوك.

ونختم الفصل بهذا الدعاء: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٦٢]:

ويحق لنا أن نختم به ليبين أن المتقين همتهم أعلى من الوصول إلى التقوى، بل الوصول إلى الإمامة فيها وكذلك ليكون هذا الدعاء هجير المرء حال بحثه في التقوى وصفات المتقين.

وهذا الدعاء في سياق قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولتفسير الآية نسوق قول العلامة بن عاشور في « التحرير والتنوير»: «وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان أن يجعلهم قدوة يقتدى بهم المتقون».(١)

وهذا يعنى أن المتقين بعد إيمانهم يطلبون من الله تعالى أن يوفقهم لأعلى درجات العلم النافع والعمل الصالح، التي يصلون بها إلى درجة القدوة والأسوة.

وكذلك يطلبون من الله تعالى أن يكونوا دعاة إلى الخير هادين لغيرهم لأن القدوة من يقتدى به الناس ويرغبون بسببه في الدخول إلى الإسلام، أو الرقى في درجات الإيمان.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ٨٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الآية قد أفردت لفظ ﴿ إِمَامًا ﴾، والمعنى: واجعل كل واحد منا إماماً يقتدى به ويمكن أن يكون على إرادة الجنس. يقول العلامة أبو السعود في تلك المعانى ما ملخصه: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم وتوفيق العمل وتوحيده للدلالة على الجنس كقوله: ﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج: ٥]، وكقوله - سبحانه: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦]، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقهم واتفاق كلمتهم، وقيل إمام جمع آم كصيام[(١)].

ورأينا إعادة الموصول في الآيات (والذين و... والذين)، مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول، للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات كقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ... وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ إنه وصف جليل على حياله، له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل شيء عن ذلك تتمة لغيره.[(٢)]

وهذا يدل على خطر طلب التقوى وعلو شأنه حتى يدعو المرء بهذا الدعاء، مع إفادة المضارع يقولون لتكرار ذلك منهم، واستمرارهم عليه.

انتهى بذلك الفصل الرابع.

---

(١) ضعف ابن القيم القول الأخير سواء كان جمع آم أو مصدراً واحتج بالآية «إنا رسول رب العالمين» وقول الشاعر:

يا عاذلاتى لا تزرن ملامتى إن العواذل لسن لى بأمير

وكلامه أقرب للدليل، انظر ابن القيم «رسالة إلى كل مسلم»، دار الفتح، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، راجعها وعلق عليها د. أسامة عبد العظيم، (ص١٣-١٥).

(٢) انظر العلامة أبى السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٥١). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١١ (ص٧٨-٧٩).

الفصل الخامس

عاقبة التقوى

ولما كانت التقوى ملاك كل خير، جعل الله - عز ذكره - العاقبة في الدين والدنيا والآخرة للتقوى والمتقين. وهذا حصر لهذه الآيات المشيرة لذلك الموضحة له تمهيداً لتفسيرها وتحليلها:

آيات ثمرة التقوى في الدنيا:

١. ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. ﴿ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٣. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤. ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

٥. ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل: ٥٣].

٦. ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

٧. ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٨. ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

عاقبة التقوى في الآخرة:

١. ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

٢. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [المائدة: ٦٥].

٣. ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

٤. ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

٥. ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧].

٦. ﴿ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٧. ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

٨. ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧٢].

٩. ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

١٠. ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٥].

١١. ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

١٢. ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الطور: ١٧-١٩].

١٣. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

١٤. ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

عاقبة التقوى على دين المؤمن:

فإذا كان للتقوى عاقبتها الحسنة للمتقين في آخرتهم، فإن لها كذلك العاقبة الحسنة على دين المرء، ليزداد بذلك قرباً إلى الله ، وبصيرة بدينه. وهذه هي الآيات التي تشير إلى ذلك:

١. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

[الأنفال: ٢٩].

٣. ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٨].

٤. ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: ١-٢].

٥. ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٦٦].

٦. ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقبل البدء في تحليل الآيات وتفسيرها لابد من النظر في آيات أخرى - لم نذكرها فيما سبق - تتعلق بأهم عواقب التقوى وثمرها، والتي تظهر بوضوح أهمية التقوى، لأنها تتعلق بالله وما يقبل به على المتقين، وفيما يغدق عليه من محبته، ويشملهم بمعيته وولايته، وهذه هي:

١. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

٢. ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٣. ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤].

٤. ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

٥. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨].

٦. ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩].

وهذا أوان وقت الشروع في المقصود، ونبدأ بذكر المحبة، أي محبة الله للمتقين، إذ هي الثمرة العظمى للتقوى، والغاية التي انتهى إليها المؤمنون، وقبل الخوض في حديث المحبة فإننا نذكر بأننا سنورد زبدة كلام معظم من تكلم في موضوع المحبة، وليس هذا خروجاً عن الموضوع، بل هو لب الموضوع، وجوهر البحث.

لقد انقسم الناس في إثبات محبة الرب لعبده أو محبة العبد لربه. فمنهم[1] من أثبت ذلك، إذ لله تعالى أهلٌ يحبهم ويحبونه، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة «لا إله إلا الله». وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وبره وإحسانه أتم نصيب.

وعكس هؤلاء - وهم الجهمية المعطلة - فعندهم أنه - سبحانه - لا يُحِب ولا يُحَب. ولما لم يمكنهم تكذيب النصوص أوّلوا محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب، وكذلك أوّلوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب، وربما أوّلوها بثنائه عليهم ومدحه لهم.

وجميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياساً واعتباراً وذوقاً ووجداً - تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده.

أما أدلة القرآن الكريم على المحبة فأولها: قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر - سبحانه - أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، وهذا ندٌّ في المحبة، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾، وفى تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

الثاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسطٍ منها.

---

(١) انظر: الإمام محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، (٣/ ٦) وما بعدها.

وأما الدليل الثانى فقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهى التي تسمى آية المحبة. يقول الإمام ابن القيم: «قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾».(١)

وهذه الآية الكريمة ردت على مدعى محبة الله تعالى، الذين إذا نصحت أحدهم باتباع السنة أو التزام ظواهر الشرع ادعى بأن قلبه عامر بينه وبين الله تعالى، مع أن طريق المحبة الحقيقية لله تعالى هى التزام سنة النبى ﷺ، فقوله تعالى: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية. ولذلك رد الله على من ادعى أنه حبيب الله بقوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨].

الدليل الثالث: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

أوضحت الآية الكريمة أن هناك قوماً يحبهم - سبحانه - ويحبونه، هم الذين يأتى بهم - جل وعلا - في الوقت الذي ينكص فيه على عقبه أقوام ما استشعروا محبة الله، فارتدوا عن دينه، إذ العناية محض فضل الله ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾.

فأثبتت الآية الكريمة محبة الله تعالى، وأنها سابقة لهم على محبتهم، إذ بها أحبوا ربهم وأقبلوا عليه، وضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيله - سبحانه وتعالى.

---

(١) الإمام ابن القيم «مدارج السالكين»، (٣/ ٢٢).

ثم ذكر لهم - سبحانه - أربع علامات: أنهم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، أى رحماء أرقاء مشفقين على بعضهم البعض، في الوقت الذي هم فيه أشداء البأس على الكافرين. ولعل وجه الربط بين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وبين ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنه لما كان المؤمنون محبوبين من الله تعالى أحبوهم، فكان من آثار المحبة الذلة للمحبوب، ولما كان الكفار مبغوضين منه - سبحانه - أبغضوهم، وظهر ذلك في الشدة عليهم، وتلك من أوصاف المحبين.

وأما الوصف الثالث، وهو من أوضح أدلة المحبة، فهو كونهم يجاهدون في سبيل الله، يبذلون أموالهم وأنفسهم ويفتدون محبوبهم بكل ما يملكون، وإلا كانت المحبة ناقصة.

أما العلامة الرابعة: فهى أنهم لا يخافون لومة لائم في محبتهم لربهم.

والقرآن الكريم مملوٌّ من ذكر من يحبه الله - سبحانه - من عباده المؤمنين، وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، كقوله - سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، و﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

ولقائل أن يقول في الآيات السابقة التي ذكرت: وردت محبة الله تعالى لموصوفين بصفات أخرى غير التقوى، فلم تكن محبة الله مقصورة إذن على المتقين، فليس ثم مزية زائدة لهم أو فضل.

والجواب: أن هذه الصفات - كما ذكرنا هى صفات المتقين أنفسهم، فكأن الله - سبحانه - قد جعل محبته جزاءً لمن اتصف بشىء من صفات المتقين، وحسب التقوى شرفاً إذاً أن تكون بعض صفاتها جالبة لمحبة الله تعالى، فكيف إذا اجتمعت معظم صفاتها في بعضهم؟

والدليل: أن قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ من صفات المتقين، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٦]، وكذلك قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فإنها من صفاتهم، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد جاءت السنة المشرفة بذكر ما يحب الله تعالى من الأقوال والأفعال والأشخاص، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحبَّ إلى من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه».(١)

والحديث يثبت محبة الله لمن سلك طريقها، وكذلك يبين ثمرة هذه المحبة من أن العبد بربه، يسمع و به يبصر.. الخ، مع إجابة سؤاله وإعاذته إذا ما استعاذ به.

يقول الإمام أبو حامد الغزالى، في إحياء علوم الدين: «وقال زيد بن أسلم: إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اعمل ما شئت فقد غفرت لك».(٢)

---

(١) حديث: «من عادى لى وليا..» رواه البخارى (٦٥٠٢). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (١١/ ٣٤٠-٣٤١).

(٢) حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى «إحياء علوم الدين»، (١٤/ ٢٦٢٦)، ط. دار الشعب.

ومصداق هذا الكلام فيما ورد في أصحاب بدر، حيث قال النبى ﷺ فيهم: «لعل الله اطّلع على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم».(١)

ويكثر في الأحاديث قوله – عليه الصلاة والسلام: «أحب الأعمال إلى الله..» كذا وكذا؛ «أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»(٢)، وقوله: «أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور»، وكقوله: «أحب الدين إلى الله: ما داوم عليه صاحبه».(٣)

تعريف المحبة:

سبق أن رأينا من أنكروا المحبة لله أو محبة الرب لعبده، وأوّلوا النصوص الواردة لذلك، ورأينا من أثبت المحبة وجعلها حقيقة الإسلام، كما ذكرنا، ومن ثم ذهبت آراءهم شتى في تعريف المحبة، خاصةً محبة الرب لعبده.

وإن كان الإمام ابن القيم، في كتابه مدارج السالكين، يرى أنها: «لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من (المحبة)».(٤)

ثم قال: «وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها

---

(١) رواه البخارى (٣٠٠٧)، وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (٦/ ١٤٣).

(٢) رواه البخارى (٥٢٧). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (٢/ ٩). ورواه مسلم (٨٥). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١/ ٣٥٠-٣٥١).

(٣) الحديث رواه البخارى (٤٣)، وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١/ ١٠١).

(٤) الإمام ابن القيم «مدارج السالكين»، (٣/ ١٠). وانظر الإمام الغزالى «إحياء علوم الدين»، مجلد٤، (١٤/ ٢٥٧٤) وما بعدها، حيث أفاض حجة الإسلام في شرح ذلك على ما ذهب إليه في بحث طويل. وذكره في الشفا عند الكلام على محبة الرسول ﷺ القاضى عياض اليحصبى، (١/ ٤٣) وما بعدها.

وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة». (١)

وآن لنا أن نذكر الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى.

أسعد الناس حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوق وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ولا مكدر، ومن غير رقيب ومزاحم، ومن غير خوف انقطاع، إلا إن هذا النعيم على قدر قوة الحب، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة. (٢)

ولحجة الإسلام كلام قوى ونفيس في الأسباب المقوية لمحبة الله تعالى ينبغى مطالعته، نلخص عيونه، مع التذكر الدائم أن كل ذلك إنما هو متحقق في صفات المتقين، كل ذلك لهم.

يقول الإمام أبو حامد الغزالى ما ملخصه: إن أصل المحبة لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة. أى لابد أن توجد محبة لله تعالى يصح بها الإيمان، وإلا فإن الإنسان يظل كافراً بالله العظيم، أما قوة المحبة واستيلاؤها فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب.

وكمال الحب في أن يحب الله ﷻ بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره.

فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب، قوة حب الدنيا، ومنه حب

---

(١) الإمام ابن القيم «مدارج السالكين»، (٣/ ١٠).

(٢) انظر الغزالى «إحياء علوم الدين»، (١٤/ ٢٦٠٦ وما بعدها.

الأهل والمال والولد والأقارب، والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات، وكل ذلك متعرض لنقصان حب الله بسببه.

وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء.

فما ذكر من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركنى المحبة، وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر، والجنة والنار، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما، ثم يبحر ذلك إلى الزهد في الدنيا، وفى المال والجاه، وكل حظوظ الدنيا، حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه، فكل ذلك من مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركنى المحبة، وإليه الإشارة بقوله – عليه الصلاة والسلام: «الطهور شطر الإيمان»(١).

الثاني: قوة معرفة الله تعالى واتساعها، واستيلائها على القلب، وهو يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش.

ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة - ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد قطع شواغل الدنيا من القلب - إلا الفكر الصافى، والذكر الدائم، والجد البالغ في الطلب، والنظر المستمر في الله تعالى وصفاته، وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته.

ونشير إلى مجمل ما يترتب على محبة الله للمتقين، لنختم به هذا الموجز من عاقبة التقوى، وبه يعرف العبد أنه حبيب الله من ذلك. وعلامته أن الله تعالى يُوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره، ويجعل له واعظاً من نفسه، وزاجراً من

---

(١) رواه مسلم، من حديث أبى مالك الأشعرى (٢٢٣).

قلبه، يأمره وينهاه، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ.[(١)]

وكذلك إذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه، وإنما عدوه نفسه وشهواته. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ۝٤٥﴾ [النساء: ٤٥].

من هذه العلامات محبة لقاء الحبيب في دار السلام، فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه. قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[(٢)]، وقال حذيفة ﷺ عند الموت: «حبيبٌ جاء على فاقة». وقد شرط الله – سبحانه – لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله، حيث قالوا: إنا نحب الله، فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ [الصف: ٤]، وقال معها: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

ومنها – أي علامات المحبة – أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله، ومتقرباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزيد الدرجات.

ومنها – أي علامات المحبة – دوام ذكره لله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره.

وقال ابن مسعود ﷺ: «لا ينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن

---

(١) روى أبو منصور الديلمى في «مسند الفردوس» من حديث أم سلمة بإسناد حسن عن النبى ﷺ: «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعل له واعظاً من نفسه.. الحديث». وانظر تخريج الإحياء، (٢٦٢٩/١٤).

(٢) متفق عليه، من حديث أبى هريرة وعائشة ﷺ. سبق تخريجه.

كان يحب القرآن فهو يحب الله ﷻ، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله».

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق.

ومنها ألا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله ﷻ ويعظم تأسفه على كل ساعة خلت عن ذكر الله وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة.

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، بل يسقط عنه تعبها، وقال الجنيد[1]: علامة المحب دوام النشاط والدؤوب بشهوة، يفتر بدنه ولا يفتر قلبه.

ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقترف شيئاً مما يكرهه، كما قال - سبحانه وتعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، وبذلك وصف الله تعالى أحباءه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥].

هذه بعض علامات المحبة، اختصرناها - كما وعدنا في بداية الكلام - من أقوال أهل العلم.

ننتقل إلى المسألة التالية من ثمرات التقوى وعاقبتها، وهى معية الله تعالى للمتقين.

ومعية الله للمتقين من أعظم المواهب والمنن والعطايا التي تحفل بها هذه اللفظة، إذ من كان الله معه فمن يكون عليه؟ وقبل النظر في معنى هذه المعية المباركة نشير إلى:

---

(١) الجنيد سيد الطائفة.

أولاً: أن هذه المعية للمتقين جاءت في أربعة مواضع من القرآن الكريم، ثلاثة منها بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، والموضع الرابع بقوله – جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ثانياً: نلاحظ أن المواضع الثلاثة الأولى كانت جميعها في قتال الكفار ورد الاعتداء، فالآية الأولى هي قوله – سبحانه وتعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]. والثانية: قوله – تباركت أسماؤه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، والموضع الثالث قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

أما المواضع الرابع والأخير فعلى عكس ما سبق، فإنه يحض على الصبر وترك المعاقبة. قال – جل شأنه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

ثالثاً: رأينا المواضع الثلاثة في الأمر بالقتال ورد الاعتداء تنتهي بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، مع زيادة في آية البقرة – وهي الأولى – بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ﴾.

أما الموضع الرابع وهو تفضيل الصبر وترك المعاقبة، فهي تختم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾، وزادت قوله: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

ونبدأ في النظر في تفسير تلك المواضع بعون الله تعالى.

بدايةً نقول: إن المعية في كتاب الله تعالى على نوعين:

الأولى: معية عامة، وهى أن الله مع كل أحد، ولا يخفى عليه شىء في السموات ولا في الأرض، ولا في السر ولا أخفى، وهذه المعية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة: ٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.(١) وهى مما نؤمن بها كما جاءت.

أما الذي يهمنا هنا فهو ما يترتب على هذه المعية من آثار. يقول الحافظ ابن رجب في شرح جامع العلوم والحكم: «فإن هذه المعية تقتضى علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم».(٢)

أما المعية الأخرى -وهى التي يطلق عليها المعية الخاصة- فهي المذكورة في قوله تعالى في قصة الغار حال هجرة النبى ﷺ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، وذلك لما قال أبوبكر الصديق ﷺ للنبى ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، وقد قال له المصطفى ﷺ رداً على ذلك: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما».(٣)

وكذلك قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، وكذلك قوله - جل شأنه - عن موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وهذه المعية الخاصة تقتضى النصر والتأييد والحفظ والإعانة.

---

(١) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (جـ٤).
(٢) انظر الحافظ ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٧١).
(٣) الحديث رواه البخارى (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

نعود إلى الآيات وتحليلها مرة أخرى.

ونلاحظ أن الآيات الثلاث الأولى بدأت بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾، وفيه إشارة إلى أنه لا حاجة إلى النظر وإعمال الفكر، فهى مقطوع بوجودها على وجه لا يقبل الاحتمال، والعلم بذلك يقينى.

وتفيد هذه الكلمة من ثم الاهتمام بما تتضمنه الجملة، وحث المخاطبين على التأمل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البليغ أن يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب فهم بـ«اعلم» أو «تعلم» لفتاً للذهن.

وفى التعبير بـ«اعلم»[1] تعريض غالباً بغفلة المخاطب عن أمر مهم، فمن المعروف أن المخبر أو الطالب ما يريد إلا علم المخاطب، فالتصريح بالفعل الدال على طلب العلم مقصود للاهتمام. من ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة: ٩٨].[2]

وكأن هؤلاء المتقين قد ساورهم هاجس الضعف أو التردد أمام عدوهم الأكثر عدداً وعدة، وغفلوا عن عوامل النصر المؤكد، وهو كون الله تعالى مع المتقين، فتأتى ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ لتثبِّت أقدامهم بعد أخذهم كذلك بكافة الأسباب المادية المطلوبة.

---

(١) وقوله: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ ...﴾. وفى الحديث أن النبى ﷺ قال لأبى مسعود الأنصارى: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»، لما رآه يضرب غلاماً له. وقد يفتتحون بـ«تعلم» أو «تعلمن». قال زهير:

قلت تعلم أن للصيد غرة وإلا تضيعها فإنك قاتله

و«أن» بعد هذا الفعل مفتوحة الهمزة حيثما وقعت، والمصدر المؤول يسد مسد مفعولى «علم» مع إفادة «أن» للتأكيد.

(٢) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٣١٤).

ونلاحظ في الآية الأولى - آية البقرة - أن ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾ مسبوقة بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

ولها مناسبة حسنة، وهى أن الله ﷻ لما أمر برد الاعتداء بالمثل، قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، حيث لا يؤمن على المرء أن يزيد في اعتدائه، خاصة وقد تمكن من عدوه، فجاء التوجيه القرآنى بالأمر ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، حتى لا يجوروا ولا يعتدوا في حقهم وقصاصهم.

وقد تدفع النفس المرء في مثل هذه الظروف إلى أن يكسر عدوه، حتى لا تقوم له قائمة، خشية أن يعاوده القتال، وأن يتجهز له بما يبيد شأفته، وأنه يمكن ألا يستطيع بعد ذلك له رداً ولا دفعاً، فجاء قوله: «واعلموا» ليزيل هذه الغفلة بقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، فمتى لزموا حدود الله وأقاموا أوامره وانتهوا عن نواهيه وكانت تقوى الله شعارهم ودثارهم، فلا يخافوا حينئذ أحداً، ولا يهابوا الدنيا بأسرها، لأن مالكها ومصرفها معهم - سبحانه وتعالى.

ومن الجدير تسجيله هنا أن ذكر المتقين في هذه الآيات، عند رد الاعتداء، أو مقاتلة المشركين كافة كما يقاتلون المسلمين كافة، أو مقاتلة الكفار والإغلاظ لهم ممن يلي المسلمين، مؤذن بضرورة القتال بنية صحيحة حسنة، لا رياء فيها ولا سمعة، ولا طلب مغنم عاجل أو ثناؤ فارغ، أو غير ذلك من النوايا التي لا تليق بالتقوى وأهلها.

قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: «ثم قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لينبه على أن يكون الحامل على القتال ووجود الغلظة إنما هو تقوى الله تعالى، ومن اتقى الله كان الله معه بالنصر والتأييد، ولا يقصد بقتاله الغنيمة ولا الفخر ولا إظهار البسالة».(١)

---

(١) انظر أبا حيان الغرناطى «البحر المحيط»، (٥/ ١١٥). والدكتور/ محمد أديب الصالح «التقوى»، (١/ ٢٨٦) ما قبلها وما بعدها.

أما آية النحل، وهى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾، فهى كما نرى مؤكدة بحرف التوكيد لتأكيد معية الله – جل شأنه – مع الذين اتقوا، وهى مناسبة كل المناسبة لما قبلها من الآيات، حيث أمر الله المؤمنين بأن يعاقبوا بمثل ما عوقبوا به، وأن الصبر وترك المعاقبة خير، بهذا التعبير الجميل، فالصبر وترك المعاقبة من أعمال التقوى، فلم يكونوا بحاجة إلى تنبيههم إلى معية الله للمتقين، إذ هم ما فعلوا، بل ما يفعل ذلك إلا الأتقياء، فكان التأكيد على معية الله لأولئك الذين اتقوا هو المناسب.

ونلاحظ أن الآية زادت: ﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾، وهو من عطف الخاص على العام، تنبيهاً على ميزة الخاص والاهتمام به في هذا المكان وهذا السياق، وهو ما يتسق أشد الاتساق مع ما سبق من الآيات، فلما حضهم على الصبر وترك المعاقبة، وهو عفو وإعراض، فإن الدرجة الأعلى من درجات المتقين – والتي طالما نبه على وجودها فيهم – هى درجة الإحسان، فأكد على معية الله لمن هو أعلى من الصابرين، حضاً لأهل التقوى على ألا ينسوا أهم صفاتهم، وهى الإحسان، ولو لمن أساء إليهم، فإن ذلك أجمل في هدايته، ورجوعه عن غيه وظلمه، وهو من مقاصد الشرع الذي لا تقوى عليه إلا قلوب أهل التقوى فعجل لهم هذه العاقبة، مع ما ينتظرهم من ظفرهم وفوزهم في الآخرة.

العاقبة التالية لما ذكرنا من المحبة والمعية للمتقين هى الولاية.

بمعنى أن المؤمنين متى ما تحققت فيهم تقوى الله تعالى صاروا أولياءه – جل وعلا، وصار هو – سبحانه – وليهم، والولاية من أعظم ما يتطلع إليه المرء المؤمن، ولفهم ذلك ومعرفته نطالع هذه الآيات الكريمات التي اشتملت على ولاية الله تعالى للمتقين، وعلى حسن عاقبة ذلك وعظيم مآله. هذه الآيات هى:

الآية الأولى: قوله – سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ

يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩].

ونبدأ بالآية الثانية، لأنها بينت أن المتقين هم أولياء الله تعالى، وزادت فأثبتت ما لهم عند الله تعالى من عظيم الأجر.

وأول ما يصادفنا في الآية أنها عرفت الأولياء، وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، والإيمان شرط لصحة أى عمل، فأوضحت الآية أن الأولياء هم المتقون، وينبغى ألا يغيب عن الذهن أن التقوى درجات، والولاية من أعظم ثمرات التقوى، ومن ثم فإن الأولياء في المنـزلة العليا من التقوى، وأن الأولياء - الذين هم في الدرجة العليا - هم خلاصة المؤمنين الصادقين، وزبدة الطائعين المخلصين.

وقد افتتحت الآية بـ﴿ أَلَآ ﴾، وهى أداة التنبيه، إيماءً إلى أهمية شأن هذا الكلام ليكون التنبيه حاثاً لهم على التفكر في هذا الكلام، ثم العمل بمقتضاه، ليفوزوا بالبشريات التي حملتها الآية لهم.

والأولياء جمع «ولى»، وهو المُوالى، أى: المحالف والمناصر، وكلها ترجع إلى معنى الوَلْى «بسكون اللام»، وهو القرب، وهو مجاز في معنى الوَلِى، وهو قرب من الجانبين، وعلى ذلك يكون تفسيره: الذي يتولى الله تعالى بالطاعة، ويتولاه الله تعالى بالكرامة.(١) يقول الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير» ما

---

(١) يقول القاضى عبد الحق بن غالب بن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»، (٣/ ١٢٨): «وأولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يعطى ظاهرها أن

ملخصه: وقد بين أولياء الله في هذا الآية بأنهم الذين آمنوا واتقوا، فاسم الموصول وصلته خبر، وما بينهما اعتراض، أو يجعل جملة ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ خبر ﴿ إِنَّ ﴾، ويجعل اسم الموصول خبر مبتدأ محذوف حذفاً جارياً على الاستعمال. كما سماه السكاكى في حذف المسند إليه. وأياً ما كان، فهذا الخبر يفيد أن يعرف السامع كنه معنى ﴿ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ اعتناءً بهم.(١)

وأما قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فيبين:

أولاً: أن التقوى ملازمة لهم أخذاً من صيغة ﴿ كَانُواْ ﴾، وأن التقوى متجددة منهم، بما يدل عليه المضارع في قوله ﴿ يَتَّقُونَ ﴾، ومن ثم كانت الآية الكريمة الأساس الذي يبين حقيقة الولى شرعاً، إذ لما كانت الولاية هى الغاية القصوى التي ترنو إليها أفئدة المؤمنين وجوارحهم، فلا شك أنها لا تحصل إلا بملازمة التقوى وتجددها في كل حين، أى هى حية في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم وعباداتهم ومعاملاتهم في الظاهر والباطن، لا ينفكون عنها، ولذا لا يمكن القول عن شخص إنه ولى لله تعالى وهو غير ملازم للتقوى، فضلاً عن الوقوع في المعاصى، فضلاً عن سقوط التكليف إذا بلغوا اليقين، كما يزعم بعض الصوفية.

=

من آمن واتقى فهو داخل في أولياء الله، وهذا النص تقتضيه الشريعة في الولى، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الوصفية، وبعض الملحدين في الولي». يقول أبوحيان في تفسيره «البحر المحيط» موضحاً هذا القول: «وإنما قال حذراً من بعض الصوفيه (صحة اللفظ)، لأن بعضهم نقل عنه أن الولى أفضل من النبى، وهذا لا يكاد يخطر في قلب مسلم. ولابن العربى الطائى كلام في الولى وغيره نعوذ بالله منه». أبوحيان «البحر المحيط»، (٦/ ٨١).

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ٢١٨).

ثانياً: أن اختيار لفظ التقوى في هذا السياق اختيار قرآنى دقيق، فبدلاً من «المحسنين» مثلاً أو غير ذلك من صفات المؤمنين كان اختيار التقوى للولاية، ليبين - سبحانه - أن الأولياء ملازمون لأوامر الشرع ومنتهون بنواهيه، وأنهم كذلك تاركون للمكروهات، محافظون على المستحبات، متجنبون للشبهات، يتركون ما لا بأس به حذراً مما به بأس، مع تمام المحافظة على ذلك.

والجدير بالإضافة - لما سبق - هو الإشارة إلى الحديث القدسى الخاص بالولى، لأنه بوضعه مع الآية الكريمة تتضح حقيقة الولاية. ولفظ الحديث، وهو عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، وإن استعاذنى أعذته، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره إساءته».

بدأ الحديث بذكر صنيع الله للولى، وإحسان المولى - سبحانه وتعالى - إليه، وذلك بقوله أنه يعلن بالحرب من حارب ولياً لله تعالى أو عاداه، وكفى الأولياء بذلك شرفاً ومفخرة في الأولى والآخرة، وكفى من يحاربه الله بذلك ذلاً وخزياً وهواناً وانكساراً في الأولى والآخرة إذا لم يتوبوا ويطلبوا الصفح من أوليائه - سبحانه. وهذا ينبهنا إلى احترام أوليائه، وإنزالهم المنـزلة اللائقة بهم والتي أنزلهموها مولاهم - جل وعلا[1] - والتحسب لذلك أشد التحسب.

ونختصر شيئاً مما ذكره الإمام محمد بن على الشوكانى عن الولى، فقد أفرد

(١) ويستثنى ما إذا كانت الحال تقتضى نزاعاً بين وليين في مخاصمة أو محاكمة ترجع إلى استخراج حق أو كشف غامض، كما جرى بين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما. انظر ابن حجر «فتح البارى شرح صحيح البخارى»، (١١/ ٣٤٢)، ط. السلفية.

حديث الولى بالشرح في مصنف مستقل. يقول ما ملخصه: فأولياء الله هم خلص عباده، القائمون بطاعته، المخلصون له. وأفضل الأولياء هم أنبياء الله، وأفضل الأنبياء هم المرسلون، وأفضل الرسل هم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأفضل أولى العزم هو نبينا محمد ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، فجعل - سبحانه - صدق محبة الله ﷻ متوقفة على اتباعه، وجعل اتباعه سبب حصول المحبة من الله - سبحانه.

ثم ينقل عن الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية في «طبقات الأولياء» قوله - من كتابه «الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» - ما حاصله أن أولياء الله على طبقتين: سابقون مقربون وأبرار أصحاب يمين مقتصدون.

ولكن الأولياء غير معصومين، بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين، لكنهم صاروا في رتبة رفيعة ومنـزلة علية، فقل أن يقع منهم ما يخالف الصواب أو ينافى الحق، فإذا وقع ذلك فلا يخرجهم عن كونهم أولياء لله، كما يجوز أن يخطئ المجتهد وهو مأجور على خطئه حسب الحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر». وقد تجاوز الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان.

وهذا يعود بنا إلى آية الولاية التي معنا، لنستكمل النظر فيما أعد الله تعالى من الكرامة لأوليائه المتقين، حيث يقول - جل شأنه: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾، وذلك بعد البشارة الاعتراضية في الآية، وهى قوله: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

يقول الإمام ابن جرير، في قوله تعالى: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: «ألا إن أنصار الله لا خوفٌ عليهم في الآخرة من عقاب الله؛ لأن

الله رضى عليهم فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا».
وبمثل ذلك قال الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم.[(١)]

وهذا إيجاز لطيف لفهم الآيات والأساليب القرآنية، ولكن المحققين والمهتمين بالأسلوب العربى للقرآن الكريم زادوا في البحث عن هذا التفسير.
يقول الفخر الرازى في «التفسير الكبير»:

«قال بعض المحققين: إن نفى الحزن والخوف إما أن يحصل للأولياء حال كونهم في الدنيا، أو حال انتقالهم إلى الآخرة.

والأول باطل من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا لا يحصل في دار الدنيا، لأنها دار خوف وحزن، والمؤمن خصوصاً لا يخلو من ذلك، على ما قاله الرسول ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، وعلى ما قال: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

والوجه الثانى: أن المؤمن - وإن صفا عيشه في الدنيا - لا يخلو من هم بأمر الآخرة شديد، وحزن على ما يفوته من القيام بطاعة الله تعالى.

وإذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على أمر الآخرة، فهذا كلام محقق».[(٢)]

ولكن العلامة أبا السعود، في «إرشاد العقل السليم»، ونقله بنصه عنه في «روح المعاني» العلامة محمود الألوسى، يقرر نفس الأدلة، ولكن النتيجة أن ذلك لهم في الدارين، يقول - رحمه الله تعالى:

---

(١) الإمام محمد بن جرير الطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، (١١/ ٩١). وانظر الإمام إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢/ ٤٢٢).

(٢) فخر الدين محمد بن عمر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ٤٠١-٤٠٢).

«لا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من فوات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعتريهم، لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلاً، بل يستمرون على النشاط والسرور، كيف لا واستشعار الخوف والخشية لجلال الله - سبحانه - وهيبته، واستقصاراً للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين. والمراد بيان دوام انتفائهما، لا بيان انتفاء دوامهما، كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً، لما مر مراراً من أن النفي - وإن دخل على نفس المضارع - يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام، وإنما لا يعتريهم ذلك؛ لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله، ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى، وذلك مما لا ريب في حصوله، ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة إليه تعالى.

وأما ما عدا ذلك من الأمور الدنيوية بين الحصول والفوات، فهي بمعزل عن الانتظام في سلك مقصدهم وجوداً أو عدماً، حتى يخافوا من حصول ضارها، أو يحزنوا بفوات نافعها».(١)

ويتوسط العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير»، ليجمع بين الأقاويل، ويبعد عن التأويلات البعيدة؛ حلاً لما رأى من التفسيرات التي لا تلائم العربية - من وجهة نظره - فيقول - رحمه الله - ما حاصله: والخوف توقع حصول المكروه للمتوقع، فيتعدى بنفسه، فيقال: خاف الشيء، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾، وإذا كان توقع حصول المكروه للغير يقال: خاف عليه، كقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

وقد اقتضى نظم الكلام القرآني نفي جنس الخوف - لأن «لا» نافية للجنس

---

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٥٠٩). والعلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، مجلد٧)، (١١/ ٢١٤-٢١٥).

- هنا، وقد دخلت على النكرة، فمعنى ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أنهم بحيث لا يخاف عليهم خائف[(١)]؛ لأن الخوف - وهو مصدر في الآية - يقدر مضافاً إلى فاعله، وهو غيرهم لا محالة، أي: هم بمأمن من أن يصيبهم مكروه يخاف من إصابة مثله، فهم -وإن كانوا يهجس في نفوسهم الخوف- جبلة، لكن غيرهم ممن يعلم حالهم لا يخاف عليهم؛ لأنه ينظر إلى الأحوال نظراً سليماً من التأثر بالمظاهر. وهم أنفسهم إذا اعتراهم الخوف لا يلبث أن ينقشع، وتحل محله السكينة، كما قال تعالى: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧]. وكان النبي ﷺ يوم بدر يدعو الله بالنصر، ويكثر من الدعاء، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد في الأرض بعد اليوم»، ثم خرج وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾.[(٢)]

ولهذا المعنى تغير الأسلوب في قوله: ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عن قوله: ﴿ لَا خَوْفٌ ﴾، فأسند فيه الحزن المنفى إلى ضمير ﴿ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ مع الابتداء به، وإيراد الفعل بعده مسنداً مفيداً تقوى الحكم، لأن الحزن هو انكسار النفس من حصول أثر المكروه عندها، ولا يوجد إلا بعد حصول حقيقته، ثم هم وإن كانوا يحزنون كقول النبي ﷺ: «وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون»، فذلك حزن وجداني

---

(١) قال العلامة محمود الألوسى في «روح المعاني»، مجلد٧، (١١/ ٢١٥): «ذهب بعض الجلة إلى أنه - الخوف - مسند إلى غيرهم، أى غيرهم لا يخاف عليهم، ولا يلزم من ذلك أنهم لا يخافون، ليجيء حديث لزوم الأمن، أى لو لم يخافوا لأمنوا، وهو منفى كذلك عنهم، وجعل ذلك نكتة اختلاف أسلوب الجملتين». إلى أن قال: «والأوجه عندى ما نقل عن بعض الجلة من أن معنى ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾: لا يخاف عليهم».

(٢) حديث قصة بدر، انظر المباركفورى «الرحيق المختوم»، (ص٢٤٢).

لا يستقر، بل يزول بالصبر، ولكنهم لا يلحقهم الحزن الدائم، وهو حزن المذلة، وغلبة العدو عليهم، وزوال دينهم وسلطانهم، والمعنى لا يحصل لهم حزن دائم متمكن ثابت يبقى فيهم، ولا يحدث له تخلصاً.

أما بقية ما ذكرته الآيات من كرامات المتقين الأولياء، فهو قوله ﷻ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

والبشرى تعريف الجنس، فهو صادق ببشارات كثيرة، والبشارة خبر سار يظهر أثره في بشرة الوجه، والمعنى: أنهم يبشرون بخيرات قبل حصولها: في الدنيا بما يتكرر من البشارات الواردة في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وفى الآخرة بما يتلقوه من الملائكة، حيث يتلقونه ويسلمون عليهم كما ذكر الله تعالى، ويسمعونهم كلام الله بالأمر بهم إلى النعيم المقيم، كقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥].(١)

ويحسن بنا أن نذكر تفصيل هذا الكلام، حيث فصل أهل التفسير في هذه البشارات. وقد جمع الرازى أقوال هذا التفسير، ثم ذكر أن ما كان متعلقاً من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل في قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾. وسنزيد من كلام غيره ما يكون توضيحاً لهذه الأوجه.

الوجه الأول: أن البشرى هى الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تُرى له. قالﷺ: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، وعنه: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة». ومن ثم إذا حملنا قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ على الرؤيا الصادقة، فظاهر هذا أنها لا تكون إلا للأولياء المتقين، والعقل يدل عليه

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ٢١٩).

أيضاً، وذلك لأن ولى الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله، ومن كان كذلك فلا يبقى عند النوم في روحه إلا معرفة الله، ومعلومٌ أن معرفة الله ونور جلاله لا يفيده إلا الحق والصدق، أما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم، فإذا نام يبقى كذلك، فلا جرم لا اعتماد على رؤياه، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ على سبيل الحصر والتخصيص.

الثانى: أنها عبارة عن محبة الناس له، وعن ذكرهم إياه بالثناء الحسن؛ عن أبى ذرﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إن الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن».(١)

واعلم أن المباحث العقلية تقوى هذا المعنى، وذلك أن الكمال محبوب لذاته، ومن اتصف بصفته من صفات الكمال، صار محبوباً لكل أحد، ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله، مستغرق اللسان بذكره، مستغرق الجوارح بعبوديته، فإذا ظهر عليه أمر من هذا الباب صارت الألسنة جارية بمدحه، والقلوب مجبولة على حبه.

الثالث: بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالرحمة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، وفى حديث البراء ﷺ أن المؤمن إذا حضره ا لموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجى أيتها الروح الطيبة، إلى روحٍ وريحانٍ وربٍ راضٍ غير غضبان، فتخرج من فمه كما تخرج القطرة من فم السقاء.

وأما بشراهم في الآخرة فأمنهم من الفزع، وسلام الملائكة عليهم: قال

---

(١) الحديث رواه مسلم.

تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وسلام الله عليهم: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨ ﴾ [يس: ٥٨]، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ ﴾ [الحديد: ١٢].

ويندرج في هذا الباب ما ذكره الله في هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم، وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وما يقرأونه فيها من الأحوال السارة.

الرابع: أن ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين - في كتابه وعلى ألسنة رسله - من جنته وكريم ثوابه، ودليله قوله تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ ﴾ [التوبة: ٢١].

وختمت الآيات بقوله ﷻ : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٤]. وجملة ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ مبينة لمعنى تأكيد الوعد الذي تضمنه قوله ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾، تذكيراً لهم بأن ما وعدهم الله به من البشائر -مثل النصر و حسن العاقبة - أمر ثابت لا يتخلف؛ لأنه من كلمات الله التي هى الأقوال التي أوحى الله بها إلى رسوله ﷺ في الوعد المشار إليه، والتي لا تغيير لها ولا إبطال.

وجملة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾، ومقررة لمضمونها، فلذلك فصلت ولم تعطف. والإشارة بـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى المذكور من مضمون الجمل المتقدمة. وذكر ضمير الفصل ﴿ هُوَ ﴾ بعده؛ لزيادة التأكيد ولإفادة القصر، أى: هو الفوز العظيم لا غيره ما يتقلب فيه المشركون في الحياة الدنيا من الرزق والمنعة والقوة؛ لأن ذلك لا يعد فوزاً، إذ عاقبته المذلة والإهانة

في الدنيا، وبعده العذاب الخالد في الآخرة، كما أشار إليه قوله - سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٧].(١)

ونعود إلى الآيتين الباقيتين في ولاية المتقين لله تعالى، وهما ذواتا نسب أصيل بما مر بنا، لنربط بينهم على وجه السرعة.

أولاً: قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

وهذه الآية الكريمة تؤكد بما سبق من أن أولياء الله ليسوا إلا المتقين، بهذا الأسلوب من أساليب القصر، الذي يقصر ولاية الله تعالى على أهل التقوى، لا غيرهم. يقول الزمخشري في «الكشاف»: «﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ من المسلمين، ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح أن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً».(٢)

فلا طريق إذاً لهذه الدرجات العلا من الولاية، مع ما يترتب على ذلك من الثواب والأجر إلا التقوى، لينغلق الباب بذلك على الأدعياء.

ولابد من الإشارة إلى أن الآية لها معنى آخر، وهو ولاية البيت الحرام، إذ سياق الآية في هذا المعنى بقوله تعالى عن المشركين: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ٢٢٥). وانظر لما سبق التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، (٨/ ٤٠٣-٤٠٥). والحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢/ ٤٢٢-٤٢٤). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٧، (١١/ ٩١-٩٧). وجار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ١٩٥-١٩٦). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٥٠٨-٥١٢). والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٧/ ٢١٤-٢٢٢).

(٢) جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ١٢٥).

ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وذلك حين قال المشركون ما قالوا من أنهم أولياء البيت الحرام، يُدخلون من شاءوا ويمنعون من شاءوا، فرد عليهم القرآن بذمهم بأن أولياءه هم المتقون، وأنتم لستم كذلك، فلا ولاية لكم عليه لشرككم وظلمكم وفسقكم، والمتقون أولياء الله وأهل طاعته، فهم أولى بولاية البيت، بل هم أولياؤه حقاً.

وإن كان هذا التفسير يعود في مآله إلى التفسير الأول، لأن ولاية المسجد الحرام لا تكون إلا تبعاً لولاية الله تعالى، لذا نفى ولاية المشركين عن المسجد الحرام، لأنهم ليسوا أولياء الله - جل وعلا.

والآية الثالثة والأخيرة هي قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾، وبهذا التقرير وذلك الفصل حسم القرآن الكريم قضية ولاية الله للمتقين، فذكر بهذا الأسلوب الذي لا ريب فيه ولا تردد أن الله ولي المتقين لا يتولى أحداً غيرهم، وهو ما يبينه السياق، إذ تقول الآية: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾، فوضحت وأشارت إلى أكثر من معنى.

الأول: وهو المحسوم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

الثاني: لا ولاية من الله تعالى للظالمين، فكل ولاية لغير المتقين مقطوعة.

الثالث: أن الله - جل وعلا - بذلك جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ومنع كذلك بالتالي ولاية المؤمنين لغيرهم، فضلاً عن الظالمين. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال - جل وعلا: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ

وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وهكذا بينت آيات الولاية للمتقين هذه كل ما يتعلق بموضوعها من الولاية وطريقها، وبين من تكون، وعواقبها الحسنة، وكل ذلك للمتقين.

المطلب الأول : آثار التقوى على دين المؤمن.

المطلب الثانى : عاقبة التقوى في الدنيا.

المطلب الثالث : عاقبة التقوى في الآخرة.

المطلب الأول
آثار التقوى على دين المؤمن

ذكرنا عاقبة التقوى في الآخرة والأولى، وجاء وقت الكلام عن أثرها على دين المؤمن، وزيادة يقينه، وحسن توكله على الله تعالى.

وقد أحصينا الآيات الدالة على ذلك في أول الفصل، ونبدأ بـ:

أ . التقوى والفرقان.

ب. التقوى سبب الهداية.

ج. الانتفاع بالآيات المتلوة والمشاهدة لأهل التقوى.

أ . التقوى والفرقان :

وتحته قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ونقتصر هنا على قوله تعالى: ﴿ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ حيث سيأتى الكلام على بقية الآية في موضعه.

نقل الحافظ ابن كثير وغيره(١)، عن أئمة التفاسير كابن عباس وعكرمة وغيرهم، أن معنى الفرقان هو النجاة والنصر والمخرج في الدنيا والآخرة.

فمن اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة.»(٢)

---

(١) يقول العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٩/ ٣٢٦): «الفرقان أصله مصدر كالشكران والغفران والبهتان، وهو ما يفرق أى يميز بين شيئين متشابهين، وقد أطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة، فأطلق على النصر، لأنه يرق بين حالين كانا محتلين قبل ظهور النصر، ولقب القرآن بالفرقان لأنه فرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ ﴾» ا.هـ. وانظر مختار الصحاح، مادة فرق.

(٢) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢/ ٣٠١-٣٠٢).

فالفرقان إذن من أعظم أجزية التقوى التي يهبها الله - جل وعلا - وذلك لخيرها في نفسها، ولعظم ما يترتب عليه، كما أشار الإمام ابن كثير. ويكفى المتقين أن لهم عند ارتباك الناس وتحيرهم، واشتداد ظلام الشبهات والشهوات حولهم نوراً يمشون به، يضيء لهم طريقهم، ويميز لهم الحق من الباطل، وقد فصل الإمام الرازى في ذلك تفصيلاً حسناً، ينبغى الإشارة إليه فقال - رحمه الله تعالى: «هذه القضية الشرطية شرطها شيء واحد، وهو تقوى الله تعالى.. »، إلى قوله: «وأما الجزاء المرتب على هذا الشرط فأمور ثلاثة»، نذكر الأول منها لأنه المتعلق بما نحن بصدده.

«الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾، والمعنى أنه تعالى يفرق بينكم وبين الكفار. ولما كان اللفظ مطلقاً وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين والكفار. فنقول: هذا الفرقان إما أن يعتبر في أحوال الدنيا، أو في أحوال الآخرة.

أما في أحوال الدنيا: فإما أن يعتبر في أحوال القلوب، وهى الأحوال الباطنة، أو الأحوال الظاهرة.

وأما في أحوال القلوب، فأمور: أحدها: أنه تعالى يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة. وثانيها: أنه يخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح، كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾. وثالثها: أنه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، ويزيل المكر والخداع من صدورهم، مع أن المنافق والكافر يكون قلبه مملوءاً من هذه الأحوال الخسيسة والأخلاق الذميمة.

والسبب في حصول هذه الأمور أن القلب إذا صار مشرقاً بطاعة الله تعالى زالت عنه كل هذه الظلمات، لأن معرفة الله نور، وهذه الأخلاق ظلمات، وإذا

ظهر النور فلابد من زوال الظلمة».[1]

وأما في الأحوال الظاهرة، فإن الله تعالى يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وكما قال تعالى: ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣].

ب. التقوى سبب الهداية : (الهداية والموعظة والتذكرة للمتقين)

من عواقب التقوى على دين المرء أن تكون سبباً لهدايته، ولما كانت الموعظة والتذكرة كذلك، لا ينتفع بها إلا المتقون. إذ هى من أسباب الهداية وتمامها. آثرت أن يكون الكلام على كل منها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآيات التالية، وهى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٦٦ ﴾ [البقرة: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٣٤ ﴾ [النور: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٨].

وأولى هذه الآيات الكريمات قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾، وقد ذكرنا شرحها في صفات المتقين.

وهذه الآية توضح قيمة التقوى في ثبات هداية أصحابها، وازديادهم من الهداية والنور، ومزيد انتفاعهم بآيات الله المتلوة، وأن ذلك شفاء لما في صدورهم من الشبهات والحيرة، أو من الأمراض التي تتمثل في الشهوات والأخلاق

---

(١) انظر الرازى «التفسير الكبير»، (٧/ ٤٨١-٤٨٢).

المذمومة والصفات المرذولة.

وفى نفس الوقت، فإن عدم التقوى يمنع الانتفاع بما في هذا القرآن الكريم من الهدى والنور، بل يزيد على ذلك أن يكون هذا القرآن عليهم عمى، وفى آذانهم وقر، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤٤].

ج. الانتفاع بالآيات المتلوة والمشاهدة لأهل التقوى:

الموعظة للمتقين:

لأنهم لا غيرهم كذلك يقبلون الموعظة، ويتأثرون بها. بل إن تأثرهم بالموعظة، وامتثالهم لها عامل من عوامل هدايتهم، وترقيهم في طريق الوصول إلى ربهم فلو قلنا: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾، فلا جرم لكونهم قبلوا المواعظ والتزموا بها، وأفادتهم بالتفكر وإمعان النظر فيها معرفة بالله تعالى، وتدبيره للكون، ولقضائه وقدره، ولأسمائه وصفاته، التي تظهر آثارها في الحياة والإنسان والكون، مما يزيد إيمانهم، وتسمو به تقواهم.

خاصةً إذا علمنا أن المواعظ إما متلوة في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ،وإما مواعظ مشاهدة، يراها المرء في نفسه وغيره من البشر، وفى الكون، والموت والحياة من حوله، تدعوه للتأثر والانفعال والمشاركة والتفكر.

وبقية الآيات الكريمات تجمع بين الموعظتين: المرئية، والمتلوة، ليكون للمتقين معينهم المستمر المتجدد من المواعظ التي تثبت أقدامهم على طريق الحق، وتمدهم بما يشرح صدورهم، وترق له قلوبهم، فيزدادون هداية، ومسارعة إلى الخير.(١)

---

(١) والموعظة مأخوذة من الوعظ والانزجار. والوعظ: التخويف، وهو ما يلين القلب، ثواباً كان أو عقاباً يحذر من لحاق ضر في العاقبة، أو التحريض على جلب نفع.. انظر

فالآية الأولى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦]. جاءت في سياق قصة القتيل في بنى إسرائيل، وأن موسى عليه السلام أمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها ليعرفوا القاتل، هذه المعجزة المشهورة ختمت القصة بكونها موعظة للمتقين في كل زمان.

يقول الإمام الرازى في «التفسير الكبير»: «أما قوله: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، ففيه وجهان: أحدهما: أن من عرف الأمر الذي نزل بهم يتعظ به، ويخاف إن فعل مثل فعلهم أن ينـزل به مثل ما نزل بهم، وإن لم ينزل عاجلاً فلابد من أن يخاف من العقاب الآجل، الذي هو أعظم وأدوم. وأما تخصيصه المتقين بالذكر، فكمثل ما بيناه في أول السورة عند قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، لأنهم إذا اختصوا بالاتعاظ والانزجار والانتفاع بذلك صلح أن يخصوا به، لأنه ليس بمنفعة لغيرهم. الثانى: أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أن يعظ المتقون بعضهم بعضاً، أى جعلناها نكالاً وليعظ به بعض المتقين بعضاً، فتكون الموعظة مضافة إلى المتقين، على معنى أنهم يتعظون بها، وهذا خاص لهم دون غير المتقين.»(١)

أما الآية الثانية فهى قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. يقول الزمخشرى في «الكشاف»: «﴿ هَـٰذَا

=

القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (١/ ٤٤٤). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٤٤٩). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٩٨). مختار الصحاح، مادة وعظ.

(١) محمد بن عمر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد٢، (٣/ ١٥٧-١٥٨). وانظر الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٤٤٩). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (١/ ٤٤٤). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ١٥٨).

بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من اكذب، يعنى حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم. ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى أنه مع كونه بياناً وتنبيهاً للمكذبين، فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين»(١).

ويبين الحافظ ابن كثير أن كون المراد بالبيان: القرآن الكريم، فيقول: «ثم قال تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾، يعنى: القرآن فيه بيان الأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم. ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى: القرآن فيه خبر ما قبلكم، وهدى لقلوبكم، وموعظة أى: زاجر عن المحارم والمآثم»(٢).

التذكرة للمتقين:

أى أن هذا القرآن الكريم هو التنبيه الذي يذكر المتقين ويُصم عنه غيرهم لذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، وقد جاءت هذه الآية بعد إبطال طعن المشركين في القرآن بأنه قول شاعر أو كاهن، لتبين شرفه ونفعه، إمعاناً في بطلان كلامهم، بالتفرقة بينه وبين شعر الشعراء وسجع الكهان وزمزمتهم، إذ هو تذكرة ولكن للمتقين، لا سواهم.

وقد توسع العلامة بن عاشور بعض الشيء في تفسير الآية عن غيره ممن رأينا، يقول - رحمه الله تعالى - مختصراً: والتذكرة اسم مصدر التذكير، وهو التنبيه إلى مغفول عنه، والإخبار بأنه تذكرة إخبار بالمصدر للمبالغة في الوصف. والمعنى أنه مذكر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله، وما يليق بجلاله، لينتشلهم من هوة التمادى في الغفلة حتى يفوت الفوت، فالقرآن في ذاته تذكرة

---

(١) جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٨).

(٢) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٠٨).

لمن يريد أن يتذكر، سواء تذكر أم لم يتذكر، وقد تقدم تسمية القرآن بالذكر والتذكير في آيات عديدة، منها قوله في سورة طه: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ في سورة الحجر.

والمراد بالمتقين المؤمنون، فإنهم المتصفون بتقوى الله، لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء، دون المشركين. فالقرآن كان هادياً إياهم للإيمان، كما قال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، وكلما نزل منه شيء أو تُلِيَ منه شيء ذكرهم بما علموا، لئلا تعتريهم غفلة أو نسيان. فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل، فإن الإخبار عنه باسم المصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة، إذ المصدر لا إشعار له بوقت، بخلاف الفعل. وإنما علق للمتقين بكونه تذكرة، لأن المتقين هم الذين أدركوا مزيته».[1]

وبقى عندنا موضعان. مر أحدهما في صفات المتقين، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وهو يوضح أثر التقوى، ولكونها سبباً في التذكر والرجوع إلى الله تعالى عند مس الشيطان.

أما الثاني: الباقي وهو ما نختم به عاقبة التقوى على دين المؤمن فهو قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهذه الآية الكريمة تنبئ عن أن للتقوى أثراً كبيراً في تحصيل وفهم علوم، لا يصل إلى مثل ذلك غير المتقين، مع ما يهب الله تعالى من بركة الحفظ والفهم، وتيسير سبل التعلم.

وقد وجدنا مصداق ذلك بين من يشتركون في علوم واحدة، كيف يفهم بعضهم وبسرعة ما لا يفهمه غيره مع التكرار، وكيف يطلع على أسرارٍ ومعانٍ تدق وتخفى على الكثير، وكيف يصير الصعب المستغلق عندهم سهلاً قريباً!

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٩/ ١٤٨-١٤٩).

وإن الله تعالى يتم رحمته للمتقين، فيفيض عليهم من كرمه وجوده ما يتيسر لهم به طريق العلم والفهم، وأن من اتقى عُلِّمَ الخير وأُلْهِمَه».[١]

ويقول العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره الآية، من «التحرير والتنوير»: «أمر بالتقوى لأنها ملاك الخير، وبها يكون ترك الفسوق. وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ تذكير بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة ونظام العالم، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعد بدوام ذلك،لأنه جيء فيه بالمضارع. وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل، وجعله بعضهم من معانى الواو، وليس بصحيح».[٢]

وهكذا تتبين قيمة التقوى على دين المرء، فهى تحافظ عليه وترقيه، وتزيده إيماناً، وتحفظه من كيد الشيطان، وترده إلى الحق. وهى الفرقان الذي يميز بين به الضلال من الحق، وهى سبب إفاضة العلوم عليه.

---

(١) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٣٨٥).

(٢) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣/ ١١٨).

المطلب الثاني
عاقبة التقوى في الدنيا

ونتكلم الآن في تحليل الآيات التي ذكر الله تعالى فيها ما أعده للمتقين في الدنيا، من جميل أثر وحسن عاقبة، ليوطن الناس أنفسهم على ذلك، وليتنافسوا فيه، خاصةً وأن موعود الله بذلك ظاهر الأثر، ملموس النتيجة، فتثبت به القلوب والأقدام، ويكون زاداً وعوناً لهم على مواصلة السير إلى الله تعالى، وأول ما نذكر من عواقب ذلك في الدنيا:

المخرج والرزق واليسر:

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

لا شك أن استقامة معيشة المرء في الدنيا، وزوال قلقه واضطرابه، يكون بتيسير أسباب رزقه، بحيث يستطيع أن يقوم على مصالح أهله وولده، آمناً في يومه، مطمئناً إن هو عاش إلى غده.

جعل الله تعالى التقوى من أعظم أسباب تحصيل الرزق الحلال المبارك فمتى حصل المرء التقوى فقد وفق لأبواب الرزق، وفتح الله عليه حسنة الدنيا على أحسن حال، وهو بعكس غير المتقين في تحصيل أرزاقهم وهم مقصرون، قائمون على معصية، لا يبالون بأى طريق حصلوا رزقهم.

وشدائد الدنيا وضيقها، ووجوه الأنكاد والآلام فيها غير منحصرة، تصيب المرء في نفسه وأهله وماله، وتكاد تسد الأبواب في وجهه، حتى تضيق عليه

الدنيا بما رحبت، ويود أن لو مات قبل حلول ما حل به، ويصل الحال بالبعض إلى أن ينهى حياته بيده هروباً من بؤسه، خروجاً من مأزقه.

وقد بين الله تعالى للمؤمنين به وبأقداره، أن تلك الامتحانات في الدنيا لها مخارج عند الله تعالى، وأنه بيده ملكوت كل شيء - سبحانه، فمن اتقاه جعل له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً. وقد حدث ذلك للأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، مما تنشرح به صدور المتقين، وتقوى هممهم وعزائمهم.

ولننظر في الآيات السابقة لنرى مصداق ذلك والدليل عليه، ولنبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.

وهو جزء من آية جاء في سياق الكلام على الطلاق وأحكامه، وأن من يتقى الله في ذلك كله رجالاً ونساءً يجعل لهم مخرجاً، ويرزقهم من حيث لا يدرون. ولكن التعبير القرآنى جاء عاماً في أن كل من يتقى الله تعالى ينتظر تلك العاقبة، وستقع له ولابد، لأن الله - سبحانه - لا يخلف وعده.

ونلاحظ أنه جاء بذكر المخرج، وهو يعنى أن المرء قد ضاقت عليه أموره واستحكمت، وأصبح يرى من حوله حائطاً مسدوداً لا مخرج منه. إذا بالتقوى تدرك صاحبها، فتفتح له باباً يخرج منه، ليعيد له روحه وحياته، ويخرجه إلى نسيم الحياة وروح العيش. تلكم التقوى.

وقد رأينا ما حدث للنبى ﷺ والصحابة من ذلك. وقصة هجرة للنبى ﷺ خير شاهد على هذا المعنى. وقد ذكر النبى ﷺ أيضاً قصة الثلاثة الذين خرجوا في يوم شات، فأووا إلى غار، فنزلت صخرة، فسدت عليهم باب الغار، حتى إذا أدركوا أنهم هلكى دعوا ربهم بسابق ما كان لهم من تقوى، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون.[1]

---

(١) الحديث رواه البخارى (٥٩٧٤). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١٠/ ٤٠٤).

وقد أورد معظم المفسرين - كابن جرير والزمخشرى وابن كثير والألوسى وصديق
خان - قصة عوف بن مالك وابنه في نزول هذه الآية الكريمة، وهى أن ابناً لعوف بن مالك أسره المشركون، فذهب يشتكى لرسول الله ﷺ فأمره أن يتق الله ويصبر، وأن يقول هو وامرأته: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فخرج ابنه من الأسر، فإذا هو بناقة للقوم فركبها، واستاق سرح القوم، فلم يحس أبوه إلا وهو يطرق عليهم الباب، فأخبره النبى ﷺ ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ ﴾(1).

لم تكتف الآية الكريمة بذكر المخرج من الضيق بتقوى الله تعالى، بل زادت بأن الله يرزقه من حيث لا يخطر بباله، وفى ظلام المادية الدامس هذا، يحتاج الناس إلى قوة اليقين في الله تعالى وقدرته، وإلى برد التوكل عليه واللجوء إليه، حتى يثقوا في رزق الله لهم، وأنه يأتيهم من وجوه لا يعلمونها، ولم تخطر ببالهم، فتهدأ نفوسهم بركونها إلى القوى القادر، فينطلقوا في دنياهم وأخراهم بقلوبٍ لا تعرف الخوف من الغد، ولا الحزن على فوت الرزق.

والآية التالية، وهى قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝ ﴾ [طه: ١٣٢]، تؤكد هذا المعنى، وهو أن يستعين المرء على خصاصته، أو ما ينـزل به بتقوى الله تعالى، ومن أهمها الصلاة يفرج الله عليه بها، ويفيض عليه من رزقه.

---

(١) وانظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد ١٢)، (٢٨/ ٩٠). جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ١٠٩). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣٨٠). وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٩/ ٤٥٩). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (٢٩/ ٢٠٠-٢٠١).

يذكر الإمام ابن كثير في تفسيره: «﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ...﴾، إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾. وروى ابن أبى حاتم عن ثابت قال: كان النبى ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه، صلوا صلوا»، قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة».(1)

﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢ ﴾ : أى أن التقوى تجىء نهايتها عواقب خير الدنيا والآخرة، لأنه ينتظر من فضل الله تعالى لمن اتقاه الخير والمخرج، حيث وعد - سبحانه - بذلك.

وإذا كان ذلك في خاصة كل أحد، فإن الله وعد عموم الناس إن هم آمنوا واتقوا بأكثر من ذلك وأعم، وذلك قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وإن كانت الآية الكريمة في ذكر المكذبين من الأمم السابقين، إلا أن عاقبتها في عمومها باقية لكل أمة

---

(1) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣/ ١٧١). قال صديق خان: «الحديث أخرجه أحمد والبيهقى وغيرهما وأضاف: وعن عبد الله بن سلام: - قال السيوطى: بسند صحيح - قال: كان النبى ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وقرأ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ...﴾ الآية)»، صديق خان «فتح البيان»، (٦/ ١٣٣). قال العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: «وأمر الله ورسوله بما هو أعظم مما يأمر به أهله، وهو أن يصطبر على الصلاة، وهو مستعمل مجازاً في إكثاره من الصلاة في النوافل. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الآيات، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾»، الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣٤٢- ٣٤٣).

ومجتمع يتقى الله، أن تحل عليهم بركاته من السماء والأرض، فيرتفع عنهم بذلك ما هم فيه من ضيق ومحن ومصائب في اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم ومالهم، وكل ما يتعلق بكونهم مجتمعاً راقياً.

تيسير الأمور:

وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٤]، والآية الكريمة - كأختها - وإن كانت واردة في أحكام الطلاق، وما يتعلق بتقوى المرء في ذلك، فهى عامة لكل متقٍ لله تعالى.

وتقدير الآية: أن من يتق الله يجعل له من أمره المتعسر عليه يسراً، فإذا كان في الآية الأولى يجعل له من كل ضيق فرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فإنه ها هنا له عند الله عاقبة أخرى حسنة، فإنه إذا تسرت أموره وتعقدت أحواله، وبات لا ينتظر في الصباح حلاً لما هو فيه، فإن في التقوى تيسير ذلك كله من حيث لا يتوقع، فيطمئن باله، وتهدأ نفسه.

وكذلك ييسر الله على المتقين كل أمر عسير يمكن أن ينزل بهم في حال نزول الموت عليهم، وكذا ييسر لهم الطاعات، ويوفقهم إليها ويعينهم عليها.[1]

النجاة من العذاب في الدنيا:

(إذا نزل بالأمم الظالمة والمجتمعات الفاسقة الخارجة عن أمر الله تعالى المكذبة لرسله).

بين المولى - سبحانه وتعالى - أن العذاب إذا أنزله في الدنيا، فإنه ينجى - سبحانه - المتقين. قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى

---

(١) وانظر صديق خان «فتح البيان»، (٩/ ٤٦٣).

ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥١-٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [فصلت: ١٨].

هذه الآيات ختمت بها قصة ثمود، وقد أشرنا إلى طرف منها في فصل «التقوى دعوة الرسل»، حيث كذبوا رسولهم صالح ﷺ حينما دعاهم للإيمان والتقوى، ولجوا في طغيانهم وبغيهم وظلمهم، ولم يترجزوا بآيات الله ولا تخويف رسولهم، فأخذهم الله تعالى كما ذكرت الآيات: ﴿ دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾، فتلك بيوتهم خاوية إلى يوم الناس هذا مزاراً للمعتبرين.

وكانت النجاة نصيب أهل الإيمان والتقوى، والآية وإن تحدثت في ثمود، فإنها عامة لأهل التقوى في كل زمان ومكان.

نزول الملائكة:

مما خص به أهل التقوى نزول الملائكة لتثبيتهم والربط على قلوبهم في المواقف العصيبة، والأحوال الشديدة التي تزلزل قلوب الأبطال، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران ١٢٥]، ومعنى الآية أن المتحققين بصفات التقوى وأهمها الصبر، ينـزل الله عليهم الملائكة لتثبتهم وتدفع عنهم وذلك في كل وقت وفى كل مكان، وهو ما يفيده أسلوب الشرط، ومصداق ذلك ما يحدث كثيراً من أن أعداداً قليلة من المؤمنين ضعيفة العدة والسلاح هزمت قوات كبيرة، وما ذلك إلا بتأييد الملائكة.

بل قد ذكرت آيات أخر – في غزوة بدر – أن الملائكة قاتلت مع المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ

وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

وعليه فإن المسلمين لا ينقصهم - لكى يهزموا أعداءهم ويرتفع لواؤهم فتكون لهم حينئذ قيمة بين الأمم - إلا أن يرتفع لواء التقوى، وينضووا جميعاً تحته حكاماً ومحكومين، وعندئذ يكرمهم ربهم بنصره، لأنهم نصروه - سبحانه، ووعده الذي لا يخلف: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧]، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فلا تحزنهم لذلك قلتهم ولا ضعف عددهم، ولا يفت في عضدهم قوة عدوهم ولا كثرة سلاحهم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].(١)

الحفظ والحراسة من الأعداء:

وهو آخر ما نختم به أثر التقوى وعاقبتها في الدنيا، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾، وهى تكملة قوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ ﴾.

وإذا كان الله تعالى قد ضمن للمتقين النصر وتأييد الملائكة لهم، فإنه - سبحانه - قد بشرهم كذلك وأيدهم بحفظه من كيد أعدائهم جزاءً لهم على حسن صبرهم وعظيم تقواهم.

ولتتضح قيمة ما أعد الله - سبحانه وتعالى - للمتقين في هذه الآية الكريمة، فإنه يحسن الاطلاع سريعاً على الآيات السابقة لها، حيث صور القرآن الكريم شيئاً من أحوال المنافقين، وموقفهم من المؤمنين، وما ينبغى أن يكون موقف المتقين من هؤلاء المجرمين، ثم ختم ذلك بهذه العاقبة الحسنة.

---

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٠٠-٤٠١).

صور القرآن الكريم هؤلاء الأشرار بأنهم لا يقصرون في بذل أى جهد يكون خبالاً للمؤمنين، ويتمنون لهم من كل قلوبهم الأذى والمصائب، والمؤمنون طيبون حسنو النية، وقد جاء أمر الله لهم في أول الآيات بأن لا يتخذوا بطانة من هؤلاء المجرمين، لأنهم: (إن تمسسكم حسنة)، والتعبير بالمس يعنى مهما كانت قليلة مجرد مس، (تسؤهم) وتنكد عليهم عيشهم لأنهم يريدون لكم الأذى، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها.

فى هذا الخضم جاءت بشارة الله لهم بالحفظ التأييد والحراسة من أصعب فئة وأشدها ضرراً بقوله إن كيدهم ذلك كله - مع الصبر والتقوى - هباء لا يؤثر - بقوة الله وقدرته وفضله - على المؤمنين المتقين الصابرين تأثيراً يذكر.

يقول الإمام الفخر الرازى في «التفسير الكبير»: معنى الآية أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى، واتقى كل ما نهى عنه، كان في حفظ الله، فلا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين. وتحقيق الكلام في ذلك هو أنه - سبحانه - إنما خلق الخلق للعبودية، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فمن وفى بعهد العبودية في ذلك فالله - سبحانه - أكرم من أن لا يفى بعهد الربوبية في حفظه عن الآفات والمخالفات.(١) وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ ﴾ [الطلاق: ٢].

وهكذا تظهر آثار التقوى جلية.

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٢٦).

المطلب الثالث
عاقبة التقوى في الآخرة

أما شرف أهل التقوى السامق في الآخرة - أي فيما يتعلق بأمورها - وما أعد الله لهم فيها من حسن الجزاء وجميل العاقبة، فهذا أعظم فضله عليهم وأكرم ما يسديه إليهم، إذ ليس بعد سعادتهم في الآخرة من سعادة، وليس بعد فوزهم من فوز، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن هذه العواقب الواردة في ذلك:

أولاً: نزول الملائكة عليهم:

ذكرنا في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] أن المتقين لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة وكربها، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا من أهل ومال وولد وغيره.

وأن أمنهم هذا الذي ذكرته الآيات، وعدم خوفهم أو حزنهم، مع تلك البشارات في الدنيا بينته آيات أخرى. نقصد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فتبشيرهم بعدم الخوف وبعدم الحزن إنما تنـزلت به الملائكة لهؤلاء المتقين، وهو تنويه بشأنهم إذ ينـزل الملائكة من علوياتهم لأجلهم.

وحاصل كلام أهل العلم أن الملائكة تتنـزل عليهم في ثلاثة مواضع: في الدنيا حال الموت، وفي القبر، وعند الخروج للحساب، في كل ذلك تثبتهم

وتطمئن قلوبهم، ثم تبشرهم برحمة الله وجنته، إكمالاً لسرورهم، وتتميماً لنعيمهم، حتى يصلوا بهم إلى جنة الخلد.

الموضع الأول: أن الملائكة تتنزل عليهم في المحشر يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أى أبشروا بالجنة، فإن ذلك يثبت كرامة لأهل التقوى.

والموضع الثانى: القبر، يثبتونهم عند السؤال، ويؤنسون وحشتهم، حيث من المقرر في عقيدة أهل السنة أن المرء يمتحن في قبره، فإن كان مؤمناً ثبته الله تعالى في الامتحان، فيجيب: ربى الله ودينى الإسلام ورسولى محمد ﷺ ، وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ذكر الإمام ابن جرير ما يؤيد هذا الكلام ويشهد له - وهو أن الله يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في قبورهم - بأحاديث كثيرة، وأشهرها حديث البراء بن عازب، يقول - رحمه الله - إن رسول الله ﷺ قال، وذكر قبض روح المؤمن، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه - يعنى في قبره - فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول دينى الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان: ما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادى منادٍ من السماء أن صدق عبدى. قال: فذلك قول الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وأما الظالمون فمصيرهم الهلاك .يقولون: لا ندرى .

أما المقام الثالث الذي تتنزل الملائكة فيه على المؤمنين المتقين فهو عند الاحتضار، وهو موقف من أصعب المواقف على المؤمن، فضلاً عن غيره، لأن

سكرات الموت وشدته شيء لا يوصف كرباً وهولاً وألماً، حتى إن رسول الله ﷺ كان يقول عند الموت: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات»(١)، علاوةً على مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الروع والخوف منه على القلب، مع مشاهدة العصاة مواضعهم في النار، وخوفهم قبل المشاهدة، فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم، واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين، إما: أبشر يا عدو الله بالنار، أو: أبشر يا ولى الله بالجنة.(٢)

والأكثر من ذلك أن بعض أهل العلم قد ذهب إلى جواز تنـزل الملائكة على المتقين في الدنيا، علاوة على تلك المواطن الثلاثة السابقة، وذلك لأن الآية عامة شاملة لتلك المواطن وغيرها، وهذا ما ذهب إليه العلامة الألوسى وغيره، حيث يقول، في تفسيره روح المعانى:

«وقيل: تتنـزل عليهم، يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم،...إلخ.(٣)

النجـاة من النار:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

عندما يقوم الناس من قبورهم إلى الحشر، وإلى فصل القضاء، يغشاهم من

---

(١) رواه البخارى من حديث عائشة - رضى الله عنها - (٦٥١٠). وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١١/ ٣٦١).

(٢) انظر الإمام الغزالى «إحياء علوم الدين»، مجلد٤، (١٥/ ٢٨٥٩).

(٣) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٣، (٢٤/ ١٨٦).

الهول والكرب شيء عظيم، ثم يساقون إلى النار جميعهم، فتأخذ أصحابها، وينجو أهل التقوى بتقواهم.

اختلف المفسرون في تأويل هذا الورود في الآية الكريمة، وها هو ذا اختصاره، مع الراجح منه:

ذهب جمع كثير من سلف المفسرين وأهل السنة إلى أنه الدخول، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٦]، وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عباس وخالد ابن معدن[١] وابن جريج[٢] وغيرهم. وهذا الدخول لا تعدو النار على المؤمنين، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم حقيقة ما نجوا منه.

يقول العلامة محمود الألوسى، في «روح المعانى»: «أخرج أحمد والحكيم والترمذى وابن المنذر والحاكم وصححه وجماعة عن أبى سمية، قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال آخر: يدخلونها جميعاً ثم ينجى الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله ﷺ فذكرت له، فقال، وأهوى إلى أذنيه: صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبق بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم ﵇، حتى إن للنار

---

(١) هو خالد بن معدان بن أبى كرب الكلاعى، تابعى ثقة، اشتهر بالعبادة، معدود في أئمة الفقه، ت ١٠٣هـ. انظر الذهبى «سير أعلام النبلاء»، (٤/ ٥٣٦).

(٢) هو عبد الله بن عبد العزيز بن جريج، من علماء مكة ومحدثيهم، وهو أول من صنف الكتب بالحجاز، ت ١٥٠هـ. انظر المسعودى «شذرات الذهب»، (١/ ٢٢٦).

ضجيجاً من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا»».[1]

وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب، كما تقول: وردت الماء إذا جئته، وليس يلزم أن تدخل فيه.

واحتج من قال بأن الورود ليس نفس الدخول كذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]، وإبعادهم المذكور يدل على عدم دخولهم فيها، فالورود غير الدخول.[2]

وقالت فرقة: إن الورود المذكور هو المرور على الصراط، وهو جسر مضروب على متن جهنم، وقد رُوى ذلك عن ابن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ : «إن الصراط مضروب على جسر جهنم، فيمر الناس كالبرق، وكالريح، وكالجواد من الخيل على مراتب، ثم يسقط الكفار في جهنم، وتأخذهم كلاليب».[3]

وآخر الأقوال في الورود، وقد نسبه القاضى ابن عطية في تفسير «المحرر الوجيز» لمجاهد[4] - ونحن نذكره لذكره في التفاسير فقط - وهو أن ورود المؤمنين هو الحمى التي تصيبهم في دار الدنيا. واحتج من قال هذا القول بحديث الرسول ﷺ : «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء»، وفى الحديث:

---

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد٩، (١٦/ ١٧٧).

(٢) انظر العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجنكى الشنقيطى «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، (٤/ ٣٤٩).

(٣) انظر ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٤/ ٢٧). وقد ورد عن ابن مسعود ﷺ كذلك أنهم يردون النار وهى خامدة، ثم تسوخ بأهلها، ويخرج المؤمنون فائزون. وروى عنه كذلك أنهم يدخلونها جميعاً، ثم يصدرون بحسب أعمالهم. نفس المصدر السابق، والشنقيطى «أضواء البيان»، (٤/ ٣٥٢).

(٤) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٤/ ٢٧).

«الحمى حظ كل مؤمن من النار».

أما الراجح فهو القول: بأن الورود هو الدخول، وذلك لما فيه من إظهار نجاة المتقين وفوزهم، مما يجعلهم مستعدين لهذا الموقف في الدنيا.

أما أدلة ترجيح هذا القول:

فالأول: ما احتج به الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - على نافع بن الأزرق بأن الورود هو الدخول.

الثاني: هو أن في الآية قرينة دالة على ذلك، وهى أنه تعالى لما خاطب جميع الناس، بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم، بقوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، بين مصيرهم ومآلهم بعد الورود المذكور بقوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]، أى نترك الظالمين فيها، وهو دليل على أن ورودهم لها دخول، إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ﴿ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا ﴾، بل يقول: وندخل الظالمين، وهو واضح. وكذلك قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ دليل على أنهم وقعوا فيما من شأنه أنه هلكة، ولذا عطف على قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾.(١)

وفى نهاية المسألة لابد من التنبيه على أن التقوى - وهى صاحبة الفضل في نجاة أصحابها - درجات، فليس المتقون في درجة واحدة، كما قال الله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.(٢) ومن ثم فإن خروجهم من النار ليس دفعة واحدة جميعاً، بل كل على حسب تقواه. ويحسن نقل قول العلامة الألوسى في ذلك.

---

(١) انظر الشنقيطى «أضواء البيان»، (٤/ ٣٥٠). والألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١٨٠). وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٦/ ٤٥-٤٧).

(٢) الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١٧٨)، الشنقيطى «أضواء البيان»، (٤/ ٣٥٢)، وغيرها.

يقول - رحمه الله: «والذى تقتضيه الآثار الواردة في عصاة المؤمنين أن يقال: إن التنجية المذكورة ليست دفعة، بل تحصل أولاً فأول، على حسب قوة التقوى وضعفها حتى يخرج من النار من كان في قلبه وزن ذرة من خير وذلك بعد العذاب حسب معصيته. وأما ظاهر من الأخبار كخبر جابر السابق أن المؤمن لا تضره النار مؤول بحمل المؤمن على المؤمن الكامل، لكثرة الأخبار الدالة على أن بعض المؤمنين يعذبون».(١)

يتضح بهذه المسالة – على أى حال – من الأخذ والرد فيها بهذا الاختصار الشديد قيمة التقوى وأهميتها، وما ينبغى على المؤمن من لزوم التزود منها ليوم معاده.

أما قول العلامة ابن عاشور في تفسير الآية - حيث يخالف ما سبق جميعاً - تركناه للهامش.(٢)

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

وهذه الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها من مناقب التقوى وأهلها، إذ تبين هيئة قدوم المتقين على ربهم، وهو قدوم مكرم، قدوم الوفود على الملوك، وإن كان قدوم الوفود على الملوك يعقبه انصراف، ولكن هذا القدوم على الله تعالى قدوم مقيم، كأنهم وفود مكرمة أبداً، لا ينالها إلا الكرامة وحسن الاستقبال الدائم،

---

(١) الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١٨٠).

(٢) ذهب العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير»، إلى خلاف ما ذكرنا من أقوال أهل التفسير، وملخص قوله: أن المتقين لا تنالهم النار أصلا، وأن الورود المذكور ليس الدخول، وإنما الدخول في الآية للكفرة وأن ما ذكره الفخر الرازى من فوائد لهذا الدخول لا اعتداد به. انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٤٧-١٥٢). ولم أر له - يرحمه الله - سلفاً فيما علمت إلا الإمام أبا حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٢٨٩).

وأنواع التحف وحسن الوفادة خالدين فيها أبداً.

وهذا قول أبي حيان كذلك، يقول أبو حيان في «البحر المحيط»، في تفسيره للآية: وعدى ﴿ نَحۡشُرُ ﴾ بـ﴿ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ تعظيماً لهم وتشريفاً.

ولكن ما زال فضل الله تعالى على أهل التقوى مبسوطاً، حيث ذكر بعض أهل العلم - كما مر آنفاً - أن المتقين يحشرون فور خروجهم من قبورهم وفداً إلى ربهم، وذكر فريق آخر أن ذلك بعد انقضاء الحساب، وذكر بعضهم أنه يمكن الجمع بين القولين السابقين، ولا يلزم تحقق أحدهما فقط، بل يمكن أن يتحققا معاً، وذلك بأن يقال إن أهل التقوى الكاملة -أي الكُمَّل من المتقين - يحشرون من ساعة خروجهم من قبورهم هذا الحشر المكرم.

وقد ذكر هذا القول العلامة الألوسي في «روح المعاني» حيث هو الذي فصل هذا القول.(١)

وعلى كل تلك الأقوال أو بعضها فإن المتقين يصلون الجنة ركباً وافدين مكرمين، على هيئة حسنة، وعلى منظر جميل حسن يليق بلقاء الله تعالى ومجاورته في جنته.

لا شك أن ما سبق مما ذكرنا من عاقبة التقوى هو الفلاح المبين، وقد تكرر قوله تعالى فيما أحصينا في أول الفصل: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ([البقرة: ١٨٩][آل عمران: ٢٠٠][المائدة: ٣٥])، ليدل على أن التقوى سبيل الفلاح، وهذا الفلاح في الدنيا والآخرة.

يقول الزمخشري في «الكشاف»: ومعنى التعريف في ﴿ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك عنهم أنهم يفلحون في الآخرة، كما

---

(١) انظر الألوسي «روح المعاني». والنيسابوري «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (١٦/ ٧٢)، على هامش تفسير ابن جرير الطبري.

إذا بلغك أن إنساناً قد ثاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو فقيل: زيد التائب، أى هو الذي أخبرت بتوبته، أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين، وتحققوا ما هم، وتصوروا بصورتهم الحقيقة، فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة، كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الأقدام؟ إن زيداً هو، فانظر كيف كرر الله التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى، وهى ذكر اسم الإشارة وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك، ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتمنى على الله لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته».(١)

وقد وردت الآيات على المتقين حين يقدمون على ربهم، يقدمون عليه وقد غفرت ذنوبهم وكفرت عنهم سيئاتهم.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وهذه الآية الكريمة من أشد الآيات وضوحاً في التدليل على ما نحن بصدد الكلام عليه من أن التقوى سبيل المؤمنين لتكفير سيئاتهم ومغفرة خطاياهم، وفضل الله أوسع من ذلك كذلك.

أما ما نحن بصدده الآن من المغفرة وتكفير السيئات فقد خاطب الله تعالى المؤمنين - في هذه الآية الكريمة - بوصف الإيمان، تذكيراً لهم بأهميته، وما يقتضيه من سرعة الإجابة وتمام الامتثال والدوام على الطاعة، وعقب ذلك بالترغيب في التقوى، تحذيراً من العصيان، وتنبيهاً على سوء عاقبته، مع بيان حسن عاقبة التقوى من الوعد بالنصر واستقامة الأحوال، وتكفير السيئات

---

(١) جار الله محمود بن عمر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٥).

وغفران الذنوب، إن هم داموا على ذلك.

يبين ذلك فعل الشرط فى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، لأن فعل الشرط المراد به الدوام، فكأنهم كانوا متقين، وبالتالى يكون المعنى تحذيراً لهم من الخيانة لله وللرسول - الواردة في سياق الآيات قبلها، وترغيباً في المداومة على التقوى، ثم ذكر عقيب ذلك عاقبة التقوى والمداومة عليها.

أما تكفير السيئات فهو سترها عليهم في الدنيا، وهى التي فرطت منهم وأعقبتها التقوى.

أما قوله: ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ ﴾ فهو محذوف المفعول، أى يغفر كل الذنوب.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ بعد تكفير السيئات وغفران الذنوب، بدل أن يقول - مثلاً: والله غفور رحيم؛ فليبين لهم أن كل ذلك تفضيل منه سبحانه.

على ما جاء عند العلامة الألوسى(١): «أن ذلك من عظيم فضله أن يتفضل من غير واسطة وبدون التماس عوض، ولا كذلك غيره - سبحانه».

ويرى العلامة الطاهر بن عاشور أن ذلك تذييل وتكميل، وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى.

والحاصل أن المقصود في الآيات الحث على التقوى، وتحقيق فائدتها، والتعريض من التفريط فيها، فلا يحصل التكفير ولا المغفرة بأى احتمال.(٢)

وهكذا نرى في بقية الآيات التي رتبت المغفرة وتكفير السيئات على التقوى، لتظهر أهمية التقوى، وعناية الله تعالى بأهلها، وتعجيل المثوبة لهم، مع ادخار

---

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد٦، (٩/ ٢٨٥). وهو بنصه من: أبى السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٣٥٧).

(٢) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٣٢٧).

جزاء ذلك في الآخرة، ليحوزه المرء أحوج ما يكون إليه، حيث لا ينفع المرء ولا ينجيه إلا تقوى الله تعالى.

تعظيم الثواب (إعظام الأجر):

فإذا كانت التقوى سبب تكفير السيئات، وغفران الذنوب، فإنها لا تقف عند هذا الحد فقط، بل تزيد عليه بإعظام الأجر وتكثير الثواب لأصحابها، مما يعنى رفع درجاتهم، وعلو مرتبتهم على حسب تقواهم، ويعنى كذلك أن باب المنافسة مفتوح لتحصيل أعظم الأجر، بتحصيل أعظم أسباب التقوى وصفاتها.

وفى ذلك يقول الحق - جل وعلا:

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [الطلاق: ٥].

وغيرها من الآيات التي أشارت إلى عظيم الثواب، وإن لم تنص عليه، كقوله تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٧].

أما الآيات الأولى في إعظام الأجر للمتقين فواضحة، حتى اختصر المفسرون الكلام فيها، فمثلاً يقول الإمام ابن كثير، في قوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾، «أى يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير».(١)

---

(١) ابن كثير « تفسير القرآن العظيم »، (٤/ ٣٨٢).

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٧]، فإن أفعل التفضيل يشر إلى أن أهل التقوى لهم أجر عظيم كذلك في الدنيا، بدليل ذكر أجر الآخرة، فإن الله تعالى من فضله يعجل لهم في حياتهم الأولى ثواباً وعطاءً، ولكنه ينبه في نفس الوقت على أن أجرهم في الآخرة خير، إذ لا قياس بين أجر الدنيا - مهما كان - وأجر الآخرة المقيم الدائم، مع عظم كنهه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كل ذلك لأهل التقوى في الدنيا. ولا شك أن تنكير الأجر وإبهامه مما يدل على عظمه، وأنه لا يدركه الخيال ولا يحيط به الفكر.

ويؤكد ذلك ويقويه أن الآية جاءت في سياق ما حدث لسيدنا يوسف عليه السلام، فبعدما جرى له من المحن المعلومة، كانت عاقبة التقوى أن مكنه الله تعالى في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ويحكم فيها بما يشاء، وهو من فضل الله تعالى لأهل التقوى في الدنيا، كما قال الحق - سبحانه - في الآية: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]. والآية عامة لأهل التقوى في كل زمان ومكان، وما حدث ليوسف عليه السلام جراء تقواه، لربه - سبحانه وتعالى، الدليل الحى والواقع الحادث، ويمكن أن يتكرر بتكرار أسباب التقوى، وقد تكرر كما قد علمنا مع المرسلين والصالحين من بعدهم. يقول الزمخشري في الكشاف: «﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ أن نأجرهم في الدنيا: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ لهم. قال سفيان بن عيينه: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية».(١)

---

(١) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤).

رفعتهم فوق غيرهم:

ومما يميز أهل التقوى يوم القيامة أنهم سيكونون في الدرجة العليا من بين المؤمنين، حيث يرون ساعتها العاقبة الحسنة للتقوى، مما يجعل الناس يغبطونهم على علو منـزلتهم ويتمنون أن لو أفنوا أعمارهم وجهدهم وأموالهم في تحصيل هذا النعيم المقيم والدرجة الرفيعة تلك.

وهذا بدوره يدفع المؤمنين المصدقين اليوم بموعد الله إلى التنافس في القرب العظيم من الله تعالى، وما يستتبعه ذلك من رضوان.

يقول تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

يقول أبو حيان في «البحر المحيط»: «وجاءت هذه الجملة مصدرة بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ ليظهر أن السعادة الكبرى لا تحصل إلا للمؤمن المتقى، ولتبعث المؤمن على التقوى».(١)

ويضيف العلامة صديق حسن خان، في تفسيره «فتح البيان»: «وفيه دلالة على أن فوقيتهم من أجل التقوى، وفيه تحريضهم على الاتصاف به إذا سمعوا ذلك، أو للإيذان بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها شاغلة عن جانب القدس».(٢)

وهذه الفوقية لأهل التقوى حقيقة ومجاز، لأن المتقين في أعلى علّيّين، وأن الكافرين في أسفل سافلين، أو أنهم في أوج الكرامة، وهم في حضيض الذل

---

(١) أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ٣٥٥). وهو بنصه فى: الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٦٨).

(٢) صديق حسن خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (١/ ٣٣٩).

والمهانة، أو أنهم يتطاولون عليهم في الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على دوام ذلك، مع تسلية المؤمنين بهذه المنـزلة عندما يحدث لهم من الكفار مثل تلك السخرية في الدنيا.(١)

وفي قوله - سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ٢١٢] أن المتقين لم يبلغوا هذه الدرجة من التقوى إلا بالزهد في الدنيا، وإخراجها من قلوبهم، وإن كانت في أيديهم، وإنها لم تكن بزهرتها ونضرتها لتشغلهم عن ربهم والاستعداد للقائه بما يبيض وجوههم، ويثقل موازينهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥]، وقد ذكرناها في صفات المتقين، فالذين اتقوا تطلعهم لأعلى من ذلك، وأبقى وأجل من هذا الخسيس القليل القصير الفانى.

الخلود في الجنة:

وجزاء المتقين بعد نجاتهم من أهوال القيامة ومن عذاب جهنم، أن يتفضل عليهم الله ﷻ بدخول جنته، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، حيث يحل عليهم رضوانه فلا يغضب عليهم أبداً. والمتقون في هذا النعيم درجات كما هم في درجات التقوى.

وقد أحصينا - في بداية هذا الفصل - الآيات التي بينت أن الجنة أعدت للمتقين، ولكننا نلاحظ:

أولاً: كثرة الآيات التي دلت على ذلك، بما يؤكد أهمية التقوى لتحصيل هذا

---

(١) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٦٨). و أبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ٣٥٤-٣٥٥)، ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٥١).

الثواب العظيم، وكذلك لتنشيط همم المؤمنين لسعى الصحيح إلى الآخرة.

ثانياً: تنويع أصناف النعيم المذكورة في القرآن الكريم وكثرتها، غير ما ادخر الله تعالى وخبأ لعباده المتقين، مما لا يحيط به إلا المولى الكريم - سبحانه وتعالى - كل ذلك ليتحقق للمتقين حسن نعيم الآخرة ودوامه فيسعون إليه، ويظهر لهم خسة نعيم الدنيا وقلته فلا يشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها.

ثالثاً: التكرار، فإن المطالع لهذه الآيات التي ذكرت جزاء المتقين يظن لأول وهلة أن ذكر النعيم والجزاء فيها مكرر. ولما كانت هذه دراسة نصية لآيات التقوى فقط، فسنذكر شيئاً من هذه الآيات ونحللها، لنظهر أن ليس ثم تكرار، وإنما تنوع النعيم كماً وكيفاً، وإعجاز القرآن في نظمه ومعناه وبلاغته.

وإليك هذه الآيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا
ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن
شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ
﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ
لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الطور: ١٧-٢٤].

الثالثة: قوله - جل وعلا: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

ونبدأ في تحليل هذه الآيات مع مقارنتها بعضها ببعض، وكذلك بغيرها مستعينين في ذلك باختصار ما ذكره أهل التفسير فيها. ونبدأ بآيات سورة الدخان، وهى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ... إلى آخر الآيات.

لما ذكر الله حال الأشقياء بقوله: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾، عطف بذكر السعداء فقال: إن المتقين لله تعالى في الدنيا في مقام أمين في الآخرة، وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب[(١)]. والأمين بمعنى الآمن، والمراد: الآمن ساكنه، فوصفه بـ(أمين) مجاز عقلى. والأمن أكبر شروط حسن المكان، لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن، وهو السلامة من المكاره والمخاوف، فإن كان آمناً في منـزله كان مطمئن البال شاعراً بالنعيم الذي يناله.[(٢)]

ثم قال تعالى: ﴿ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾، وهو بدل من ﴿ مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾، وأعيد حرف ﴿ فِى ﴾ مع البدل للتأكيد. وهو ليس أى مقام، بل هو مقام التنزه وطيب العيش والنعيم الدائم. ﴿ جَنَّـٰتٍ ﴾ جمعها باعتبار جمع المتقين، أى جنات

---

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٢٤١ – ٢٤٣).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥/ ٣١٧)، (٢٧/ ٣٤٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد ١٤/ ٥٦٩ وبعدها. وأبا حيان «البحر المحيط»، (٩/ ٤٠٩)، وقد نقل عن ابن عطية أن أمين بمعنى مأمون فيه يؤمن فيه من الغير. وابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥/ ٧٧). والزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٤٣٥). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (١٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

كثيرة، كما في الحديث: «إنها لجنان كثيرة وإنه لفى الفردوس»، ونُكِّرت ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ للتعظيم من شأنها.

كل ذلك نعيم مكانهم، ثم ثنى بوصف نعيم أجسادهم، حيث يلبسون السندس والإستبرق[١]، وبعد وصف نعيم مكانهم وأجسامهم وصف نعيم نفوسهم، بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله: ﴿ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ وقد أغنت هذه اللفظة الجميلة الواحدة بهذا الإيجاز البديع عن كونهم يجلسون على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره، وهو أدعى للمحبة وعدم الشعور بالدونية، مما يحدث الأنس وكمال المسرة، يتحدثون ويتفكهون، ويتسامرون على أحسن هيئة، وأحلى اجتماع، وهم متحابون يأنس بعضهم ببعض.

ثم انتقل القرآن الكريم إلى تكملة نعيمهم في هذه الآيات وهو استكمال الأنس الجسمانى والروحى بصحبة تلك النسوة الأطهار الجميلات، على المتعارف عليه في أنس الدنيا، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾، وهو اعتراض يبين أن هناك نعيماً أيضاً كالسابق زدناهم اياه، وهو تزويجهم بالحور العين، أى النساء البيض[٢] بضيضات الجلد واسعات العيون.

وهى صفة نساء أهل الجنة من نساء الدنيا، ومن النساء اللاتى يخلقهن الله لأهل التقوى في الآخرة، وهذا من فضل الله على النساء الصالحات في الجنة أن يكن على أحسن صورة - إذ ليس في الجنة حزن ولا تنغيص ولا حسد ولا حقد أن يرين الحور العين أجمل أو أفضل منهن - وكذلك تلحق المرأة بزوجها وإن

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥/ ٣١٧). وأشار إلى أن الأكثر على السندس والإستبرق معرب من الفارسية.

(٢) وقيل: الحور شدة بياض العين مع شدة سوادها، وقيل غير ذلك. انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥/ ٣١٨). ومحمد بن أبى بكر الرازى «مختار الصحاح»، عنى بترتيبه محمود خاطر بك، ط. دار المعارف:١٩٢٢م/ ١٣٤٠ هـ.

كانت أقل في العمل، وكذلك الرجال إزالة للوحشة وإتماماً للنعيم.

ويزداد نعيمهم وأنسهم وسرورهم بتفكههم بجميع أنواع الفاكهة، لا بتخصيص شيء منها بمكان ولا زمان، وإنما يأمرون بإحضار كافة ما يتلذذ بطعمه من الثمار، فيكون حاضراً بين أيديهم، فـ (كل) في قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ﴾ مستعملة في الكثرة الشديدة لكل منهم، أو الإحاطة بكل صنف من أصناف الفاكهة، ليحلوا لهم سمرهم وأنسهم.

وختم تلذذهم بتلك الفاكهة بقوله: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾، أي من كل ضرر، وهو أمن غير الأول المذكور في قوله: ﴿ مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ ﴾، متعلق بأكلهم، إذ هو ليس كأكل وتلذذ أهل الدنيا، الزيادة فيه والتوسع منه يؤدى إلى التخمة والضرر والآلام، بل هو تلذذ مهما أكثر منه لا غوائل ولا ألم له.

كذلك جاءتهم البشارة من الله تعالى بخلود ذلك النعيم، ودوام ذلك السرور وتلك البهجة بقوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾، أي لا يذوقون فيها الموت أبداً، من تأكيد الشيء بما يشبه الضد لزيادة توكيد انتفاء ذوقهم للموت.(١)

يقول الزمخشري، في الكشاف: «فإن قلت كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفى ذوقه فيها؟ قلت: أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتة، فوضع قوله ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ موضع ذلك، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمحال».(٢)

وقد ذكر هذا المعنى عن الرسول ﷺ فيما روى في البخارى ومسلم، قال

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥/ ٣١٩).

(٢) الزمخشري «الكشاف»، (٣/ ٤٣٥)، ونقل ذلك بنصه الألوسى في «روح المعانى»، مجلد١٤، (٢٥/ ٢٠٨)، وفصل فيها بعد. وكذلك ذكره الرازى في «التفسير الكبير» ولكن نسبه للزمخشرى، مجلد١٤.

«يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: «يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».[(١)]

﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ ﴾، وهى منة عظيمة على أهل التقوى، حين يرون أصحاب الجحيم وما هم فيه، ويرون نعيم أنفسهم، وما أنقذهم الله منه، فيرون كم هى نعمة جسيمة وفقهم الله تعالى لها، وذلك عطف على النعيم السابق، فكأنه من تمام نعيمهم سلامتهم مما ارتبك فيه غيرهم، وهذا مما يحمد الله - جل وعلا - عليه، كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافنى مما ابتلى به غيرى.[(٢)]

ثم ختمت الآيات بقوله تعالى: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾، أى إنما كان ذلك بفضله - سبحانه - عليهم، وإحسانه إليهم، إذ لا يساوى عملهم ذلك النعيم ولا يدانيه، ولو حاسبهم بعدله لعذبهم، ومن ثم كان ذلك فضلاً منه - سبحانه، وورد في الحديث ما يدل لذلك، فقال النبى ﷺ : «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بنعمة منه وفضل».[(٣)]

ولاحظنا في هذا الختام للآيات: أن قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ يبين أن الفوز العظيم هو الفوز بالمطالب والنجاة من المكاره، والإشارة في ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لتعظيم ذلك الفوز ببعد المرتبة. وكذلك يشير السياق إلى أن ذلك

---

(١) رواه البخارى (٤٧٣٠). وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (٨/ ٤٢٨). رواه مسلم (٢٨٤٩).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥/ ٣٢٠)، والحديث رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

(٣) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ١٤٧). والحديث رواه البخارى وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١٠/ ١٢٧) (٥٦٣٣).

الفوز الذي لا فوز غيره، حيث أفاد ذلك أسلوب القصر الناشئ عن الإتيان بضمير الفصل ﴿ هُوَ ﴾.(١)

ونشرع الآن في تحليل الآيات الثانية، وهو الموضع الثانى الذي ذكرناه في بداية الكلام، لنبين به جزاء المتقين، ولنقارن به بين الآيات. وهو في سورة الطور، من أول قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾...إلى آخر الآيات.

ونلاحظ في بداية الآيات هذا التناسب الجميل، حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ ﴾، فلما بدأ بقوله ﴿ جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ قال: (فاكهين)، وهو ما يقتضيه النعيم والفَكِه من طابت نفسه وسر وهم فاكهون.

ويقول الحق تعالى: ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾، فذكر أنهم فاكهون بما هم فيه من النعيم، واستحضر لفظ ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ ليظهر:

أولا: عظم تفكههم، لأنه منبن على أن ذلك مما آتاهم ربهم، فلما أضاف الإيتاء إليه دل على عظيم الإيتاء، لأنه على قدر المعطى يكون العطاء.

ثانيا: أن في إضافة الرب إلى ضميرهم ﴿ رَّبِّهِمْ ﴾ تقريباً لهم وتعظيماً، وأى حال أجل وأكمل من الإضافة إلى العظيم المتعال..؟

﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾: وهى مثل سابقتها في سورة الدخان، والمقصود من ذكر هذه الحالة: إظهار التباين بين حال المتقين وحال المكذبين، زيادة في الشعور بالمنة، فإن النعمة تزداد حسن وقع في النفس عند

---

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٥/ ٣٢٠). والألوسى «روح المعانى»، مجلد١٤، (٢٥/ ٢٠٩).

ملاحظة ضدها.[(١)]

وزاد في نعيمهم عن الآيات الأولى قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا مقول قول محذوف، يقال لهم من الله - جل وعلا - أو الملائكة، تلطفاً بهم، وزيادة إيناس.

وقد حذف مفعول الأمر في ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ليعم كل أكل وكل شرب، مما يشتهى لهم، لا يمنعون من شئ، ولا يفقدون مما يطلبون شيئاً.

وليس الأمر مقتصراً على أن يأكلوا ويشربوا كل ما يشتهون، بل أكل وشرب هنئ[(٢)]، فهو سالم من الكدر في كل ما يتعلق به.

ثم يزيد في إكرامهم بأن ما يأكلون وما يشربون وما يتنعمون، ذلك عوض ما قدموا من عمل صالح - وإن كان ذلك فضل الله كما تقدم في الآيات الأولى - لأن ذلك مما تشعر باء السببية كأنه يكرمهم ويعززهم، فيقول لهم: كلوا واشربوا فإنه ملككم ونتيجة أعمالكم.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: أى تلذذوا بأكلكم وشربكم حال كونكم على هيئة أهل الترف والرفاهية، إذ تلك هيئة ملوك الدنيا في أكلهم وشربهم من الأكاسرة و الأباطرة. يصف الأعشى ذلك فيقول:

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٨).

(٢) هنيئا وصف لمصدرى كلوا واشربوا، أى أكلا وشربا هنيئا. وجوز الزمخشرى أن الباء زائدة، و(ما) هى الفاعل في قوله (بما كنتم..)، كقول كثير:

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

أى هنؤا لعزة المستحيل من أعراضنا.

جار الله الزمخشرى «الكشاف» (٤/ ٣٤). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٧/ ٤٩).

نـــازعتهم قـــضب الريحـــان متكئـــاً وخمـــرة مـــزة راووقهـــا خـــضل

وهم ملوك الآخرة، كما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠].

وزيادة أنسهم أنهم مجتمعون كل سريرة مضطجعاً، كما ذكر الله تعالى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الصافات: ٤٤]، وذلك لمزيد البهجة وتمام اللذة، باجتماعهم على أكلهم وشربهم.

فزادت هذه الآيات على آيات الدخان لفظاً ومعنى، حيث ذكر هنالك (متقابلين)، وذكر هنا ما أشرنا إليه، مما يبين الفرق في الأسلوب، والزيادة في النعيم.

﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ : وإن كررت هنا، إلا أنها أشد مناسبة لما هنا، حيث جاءت بعد الأنس والأكل والشرب الهنئ، ليستكملوا بقية شهواتهم وتمام لذائذهم، إذ ذلك موضعه ثم.[1]

أما قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ فهو اعتراض بين ذكر كرامات المؤمنين في قوله السابق - سبحانه: ﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾، واللاحق في قوله - جل ذكره ﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾. والمطالع يظن أول وهلة أن لا علاقة للآية بنعيم المتقين، بل على العكس هى كرامة للمتقين ونعيم لهم، إذ هو نعمة جمع الله بها للمتقين أنواع المسرة، بسعادتهم بمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان، وباجتماع أولادهم ونسلهم معهم، لأنه كيف يتم نعيمه وقد حيل بينهم وبين أولادهم وذريتهم، ذلك تنغيص وهم وتشوف لا يليق بالجنة، التي لا يمسهم فيها سوء ولا هم يحزنون.

---

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٧).

ونبدأ بشيء من التفصيل:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ ﴾ : أى إكراماً لهؤلاء الآباء المؤمنين تلحق بهم ذريتهم ونرفعهم إلى درجة آبائهم، ما دامت الذرية مؤمنة بأى إيمان كان، وهو ما يفيده تنكير إيمان(١)، خاصة وأن إيمان الذرية سببه إيمان الآباء، لأنهم لا شك يلقنون أبناءهم الإيمان لوقايتهم من النار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦]، ولو كان إيمانهم كإيمان آبائهم فأى منة في رفعهم الى درجة آبائهم إذ هم فيها بغير منة.

وقد ورد في هذا حديث ذكره المفسرون. يقول الإمام القرطبى في تفسيره «الجامع لاحكام القرآن»: عن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كان لم يبلغها بعمله، لتقر بهم عينه» ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ ﴾ ...إلى آخر الآية.(٢)

وما ألتنا الآباء من ثوابهم شيئاً، أى وما أنقصناهم كما هو الحال في الدنيا، بل ثوابهم موفور كما هو، وإلحاق ذريتهم بهم ورفعهم إليهم، كرامة لهم، ومزيد نعيم يشملهم.

---

(١) في الآية كلام آخر أن التنكير للتعظيم، ويكون النعمة بجعلهم في مكان واحد، أو بسبب إيمان عظيم للآباء، ألحقنا بهم ذريتهم، وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم، وعلى آبائهم، ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم.

انظر الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥)، (٢٧/ ٥١)، وغيره: الزمخشرى، والقرطبى.

(٢) هذا كلام القرطبى بهذه الرواية، في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، مجلد٩، (١٧/ ٦٦).

وانظر الطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد١١، (٢٧/ ١٥). وتفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير، (٤/ ٢٤١-٢٤٢). والألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٧-٥٠). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٩).

ثم قال الحق تعالى: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾، وكأن الله – جل وعلا – يظهر فضله ومنته على المتقين، بأن كل أحد مرتهن بعمله، يأخذ درجته على قدره، إلا ذريات المتقين، فإنهم يلحقون بآبائهم، ولولا تلك الكرامة لكانوا كذلك كغيرهم، يأخذون ثوابهم على قدر عملهم، ولا يلحقون بآبائهم.

والآباء كذلك مع الأبناء، فإن الله تعالى يتفضل على الأبناء المتقين برفع آبائهم إليهم، وإن كان الآباء أقل درجة، وهذا مما تشمله الآية تكرماً منه – سبحانه. يقول صديق حسن خان في «فتح البيان»: «﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ : الذرية هنا تصدق على الآباء وعلى الأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله أكثر ألحق به من دونه في العمل، ابناً كان أو أباً. وهو منقول عن ابن عباس وغيره». إلى أن يقول: «وعنه أيضاً أن النبى ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يارب قد عملت لى ولهم. فيؤمر بإلحاقهم به»، أخرجه الطبرانى وابن مردويه».(١)

وهكذا تكون هذه الآيات في نعيم المتقين زائدة على ما في آيات سورة الدخان.

ونعيم جديد لم يذكر في الآيات الأولى – من سورة الدخان – تسوقه إلينا الآيات التالية، بقوله – جل وعلا: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

والمدد الزيادة فيما هم فيه من النعيم، يزدادون منه وقتاً بعد وقت مما تشتهيه أنفسهم، فواكه متنوعة، ولحوم يستطيبونها من فنون النعماء وأنواع الآلاء، وإن لم يقترحوا ولم يصرحوا بطلبه(٢)، ولكل منهم ما اشتهى.

---

(١) صديق حسن خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (٩/ ١٤٤).

(٢) انظر تفسير النسفى، المسمى«مدارك التنـزيل وحقائق التأويل»، (٣/ ١٤٥). وكذا هو

وخص الفاكهة واللحم تمهيداً لما يأتي في قوله: ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، حيث منحهم الله تعالى في الآخر لذة نشوة الخمر، والمنادمة على شربها، لأنها من أحسن اللذات فيما ألفته نفوسهم.

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ : يتعاطون فيها إناء الخمر مملوءاً[1]، وإن بعضهم يصب لبعض ويناوله على سبيل الإيثار والكرامة، وقيل: إن تنازعهم الكأس مجاذبة بعضهم كأس بعض إلى نفسه، على سبيل المداعبة، أنساً ومسرة.

وهذه الكأس التي يتناولونها لا يصاحبها لغو ولا تأثيم، إن كان المقصود بها الإناء، أما إن كان المراد بالكأس الخمر، فيكون لا لغو ولا تأثيم يصيبهم بسبب شربها. وعلى كلا الوجهين، فإنها لا يخالط شاربيها ما يصيب المتنادمين في الدنيا في الشراب في سفههم وعربدتهم، فلا يتكلمون بسقط الحديث مع الهذيان وما لا طائل تحته، وكذلك لا يفعلون ما يؤثم به فاعله من الكذب والشتم والفواحش.[2]

ثم بينت خاتمة الآيات من يقوم على خدمتهم، بقوله: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾. الغلمان هم خدمهم في الجنة، خلقهم الله

=

في الكشاف. وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٩/ ١٤٥). والألوسى «روح المعانى»، مجلد ١٥، (٢٧/ ٥٣).

(١) إناء الخمر مملوءا يسمى كأساً، فإذا فرغ لم يسم كأساً: الإمام القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٩)، (١٧/ ٦٨). وهى مؤنثة: مختار الصحاح، الرازى، باب الكاف.

(٢) انظر جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٣٧). والألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢٧/ ٥٣)، وهو نفسه كلام الزمخشرى. والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٥٢-٥٣).

تعالى لأجلهم.[١] قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴾. ومنظرهم وهيئتهم في الحسن والجمال والنظافة، كأنهم اللؤلؤ المصون لكمال حفظه ونفاسته، أو لارتفاع قيمته. نسارع فنقول: إذا كان الخدم على هذه الهيئة، فما بال المخدومين من أهل التقوى؟

يطوف هؤلاء الغلمان عليهم بأنواع الطعام والشراب، والفواكه والتحف، وإن كان يناسب ما قبله في قوله: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا ﴾، أى يدورون عليهم في مجالسهم يناولونهم الخمر وغيره.

وجئ بالطواف في صيغة المضارع:

أولاً: للدلالة على التجدد والتكرار الذي لا ينقطع، بخلاف لذات الدنـ فإنها تنتهى، فتكره الزيادة لأصحابها، لما يصاحبها من الغول والإطباق ووجع الأمعاء من الخمر أو الشبع مما يحيل اللذة ألماً.

ثانيا: أشعر تكرر الطواف بتكرر المناولة، لما فيه لذاتهم، فصار كل ذلك لا سآمة فيه ولا ملل كذلك.

ولم تبين الآية بأى شئ يطوف الغلمان ليتصور أنهم يطوفون عليهم بكل ما يخطر أو لا يخطر، فهم يطوفون عليهم بكل أصناف النعيم وبينت غيرها من

---

(١) ذكره الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٥٥). وقال الألوسى في «روح المعانى»: «غلمان لهم أى مماليك مختصون بهم، كما يؤذن به اللام، ولم يقل: غلمانهم، لئلا يتوهم أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا، فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة، فيحزن بكونه لا يزال تابعاً. وقيل: أولادهم الذين سبقوهم.. وكذا نسبة الخدم إلى الأولاد لا تناسب مقام الامتنان «روح المعاني»، (٢٧/ ٥٣). وقال القرطبى: «قيل: هم أولاد المشركين، وهم خدم أهل الجنة، وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر أنهم على نهاية النعيم، الإمام محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٩، (١٧/ ٦٩).

الآيات شيئاً مما يطوفون به - فأغنى عن ذكره هنا - كقوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١]، وكقوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٦] وكقوله - عز من قائل: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].

وقد يقال: لم استخدم الغلمان في ذلك، ولم يخدمهم الكبار؟

الغلام من هو في سن البلوغ أو يقاربه، وكانوا أكثر ما يتخذون خدمهم من الصغار، ولعدم الكلفة في حركاتهم، وعدم استثقال تكليفهم.(١)

بهذا يتبين ما كنا نطلب في بداية ذكر الآيات لجزاء المتقين في الآخرة، وظهر الفرق في الآيات، والزيادة في بعضها عن بعض. إلى غير ذلك مما ذكرنا من فوائد.

وأخيراً، ننظر في الموضع الثالث لآيات جزاء التقوى في الآخرة، وهى آيات سورة النبأ، من أول قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

«المتقين» هنا جاءت في الخبر المتقدم، وهذا للتنويه بشرفهم(٢) وأن هذا الفوز للمتقين، لا لغيرهم. وهذا من معنى اللام التي تفيد ملكهم لذلك، واختصاصهم به، مما يحث المؤمنين على التزام التقوى والمسارعة إليها. وزادنا هذا التعبير هذه المعاني الجديدة على ما في الآيات الأخر.

اختلف التعبير الخاص بالجنة عن الآيتين السابقتين، حيث الأولى: ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾، والثانية: ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ﴾،

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٥٥).

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٣).

وهنا جاء تعبير القرآن الكريم بقوله ﴿ مَفَازًا ﴾: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ۝٣٢ ﴾، فالمفاز هنا أعم من الجنات، فتكون الحدائق بدل بعض من كل، إذ الجنات ليست كل الفوز للمتقين، إذ هناك الكواعب الأتراب والكأس الدهاق... إلخ، فأضاف معنى جديداً، علاوة على أن التعبير بمفاز المنونة يفيد كونه مفازاً عظيماً، وهو مكان الفوز والظفر، أو الفوز والظفر نفسه[1] وكذلك النجاة.

فإذا أضفنا ذلك إلى ما سبق من الآيات التي ذكر الله تعالى فيها عاقبة الطاغين – حيث قال عز من قائل: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ ﴾ إلى آخر الآيات – اتسق الأسلوب، وتناسب أشد التناسب، ليبين منة الله تعالى على المؤمنين بما نجاهم منه من العذاب، ليستشعروا بذلك فضل الله عليهم، فيزداد بذلك إحساسهم بالنعمة السابغة والنعيم المقيم.

وفي الموضعين الأولين ذكر نعيمهم بالحور العين، بقوله: ﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾، أما في هذه الآيات فذكر الحق – سبحانه – أن من فوزهم الذي به فازوا ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ ليبين عظيم ما فازوا به جراء تزويجهم بالحور العين، ثم شيئا من جمالهن وحسنهن ومحاسنهن، فكان ذلك زيادة على الإجمال في قوله: ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾، أما الجمال والنفاسة ففي حور صغيرات كواعب، أي نهدت صدورهن، وذلك أحب إلى الرجال، وكذلك ﴿ أَتْرَابًا ﴾ متقاربات، لا بميل المرء إلى إحداهن أكثر فيسبب نكداً أو تنغيصاً مما تتنزه عنه الجنة، فيكون الاستمتاع على

---

(١) انظر الزمخشري «الكشاف»، (٤/ ١٧٩).والألوسي «روح المعاني»، مجلد١٦، (٣٠/ ٣٠). وغيرهما. وذلك على أن المفاز اسم مكان أو مصدر ميمي، والمفازة في الاصل: الفلاة التي قل ماؤها، أطلق عليها ذلك تفاؤلاً بالخلاص منها. وانظر القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد١٠، (١٩/ ١٨٣).

أحسن ما يكون بهن جميعا.

وأما التعبير عن مجالس الأنس والشرب، فقد قال - سبحانه - في الموضع الثاني:

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ بصيغة المضارع على ما أشرنا من المعنى، أما هنا فقال: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ ﴾، فبين بالعطف على بالجملة الاسمية بقاء هذه اللذة وذلك النعيم، لا ينفكون عنه أبدا، وهو ما تشير إليه لفظة ﴿ دِهَاقٗا ﴾، أى كأساً مترعة مملوءة أبداً، يتناولونها وقتا بعد وقت، هذا من يد هذا، لذة بعد لذة، كذا أبداً مجالس شربهم، لا يصيبهم ما يصيب أهل الدنيا من الأوجاع والسآمة أو الوقوع في سقط القول والهذيان والتأثيم.

وزاد هنا أيضا: ﴿ كِذَّٰبٗا ﴾ ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا ﴾ أى بسبب شربها إن كان المقصود الخمر، أو عندها إن كان المقصود الكأس، وزاد أنهم لا يكذب بعضهم بعضا كما يحدث في الدنيا، أو يسمعون فيها كذباً.

وقد ذكر كثير من المفسرين[1] أن الضمير فى: ﴿ فِيهَا ﴾ يمكن أن يعود إلى الجنة، وهو صحيح أيضا لا يسمعون في الجنة لغواً ولا كذاباً من أصله، فمن باب الأولى لا يسمعون عند شرابهم ذلك.

ورأينا قوله - سبحانه - في سورة الدخان: ﴿ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ﴾، أى كل ذلك تفضل وإكرام، أما في الطور فكان قوله: ﴿ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، وهنا اختلف، فقال - سبحانه وتعالى: ﴿ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ ﴾.

---

(١) انظر الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٦، (٣٠/ ٣١). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (١٩/ ١٨٤). والطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، مجلد١٢، (٢٠/ ١٤).

ومعنى الأولى - وهو ما أشرنا إليه في موضعه - أن ذلك فضل الله تعالى أن يدخلوا، أما الموضع الثانى فإن التمتع في الجنة والتفاوت في درجاتهم بحسب أعمالهم. أما الأخير، فقد جاء الأسلوب جديداً، وهو قوله: ﴿ جَزَآءً ﴾، والجزاء هو ما يجازى به، وكأنه أعطاه لهم بسبب حسن صنيعهم وقيامهم بأمر ربهم.

ثم وصف هذا الجزاء بالعطاء، وفيه إشارة إلى عكس معنى الجزاء، إذ العطاء يشعر أنه تفضل بدون عوض، وتفضل عظيم من ربك. ويكون المعنى أنهم جوزوا بسبب أعمالهم جزاء أعظم وأكمل وأفضل وأزيد مما عملوا.

وذلك ما تشير إليه لفظة ﴿ حِسَابًا ﴾، فإن من معانيها: الكفاية، أى أعطاهم حتى قالوا: حسبنا، أى أعطاهم عطاءً عظيماً كافياً. أو ﴿ حِسَابًا ﴾، أى مقدراً بالحساب العظيم من الله الكريم، المتفضل به، كمثل الحسنة بعشر أمثالها أو بسبعمائة ضعف.(١)

وهكذا رأينا من تلك الآيات كيف كانت الجنة جزاء التقوى، وعاقبتها في الآخرة مع الرضوان الأكبر عن الله تعالى، ومجاورته، والنظر إلى وجهه الكريم، وهو أعظم من كل النعيم الحسِّى المذكور.

الدار الآخرة للمتقين :

لاجرم بعد ذلك كله، أن تكون الدار الآخرة للمتقين، لا لغيرهم. وقد أحصينا آيات جزاء المتقين في الآخرة في أول الفصل، ولم يتبق سوى هذه الآيات، نستخرجها منها لننظر فيها، ونختم بها كما قلنا. وهذه الآيات هى:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ

---

(١) انظر الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى «التفسير الكبير»، مجلد١٦، (٣١/ ١٦١- ١٦٣). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣/ ٤٦). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٤٦٥).

لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

وقوله تعالى: ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٥].

ويلاحظ على هذه الآيات الكريمات أنها عبرت عن آخرة المتقين بأمرين: الأول: أن الآخرة لهم، في قوله: ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. والثانى: عبرت كذلك بالدار، أى الدار الآخرة، وهى كذلك لهم، وهو قوله – سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. فكانت الآخرة كلهم لهم، وإن فسر بعضهم الآخرة بالجنة، ولكن الآخرة أعم من الجنة، إذ الآخرة تشمل نجاتهم من أهوال الحشر: الميزان، والصحف، والصراط، وكذلك تشمل رضوان الله عليهم، وتبشير الملائكة إياهم، وغير ذلك. فكان التعبير بالآخرة أشمل من التعبير بالجنة،خاصة وقد ذكر القرآن الكريم الجنة في تلك المواضع

الكثيرة التي ذكرنا بأنها جزاء المتقين، فجاء التعبير بالآخرة - ولا شك - ليضيف معنى آخر غير الجنة.

وقد وصفت الدار الآخرة في الآيات كلها بأنها خير، وقد فسرت الدار بالجنة - كما في الآيات الكريمات - والمعنى أنها خير لهم من الدنيا.

أما التعبير بالدار، فهو تشريف للمؤمنين، حيث نزلوا في محل الرعاية وحسن الإقامة، في مقابل تحقير الكفار فلم تذكر لهم دار، بل ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾، أى مرصوصون فيها ينالهم جزاؤهم.

ويحسن أن نختتم بما فسر به العلامة الطاهر بن عاشور الآيتين في سورتى الأنعام والأعراف: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾، لما في الآيتين من تعظيم قدر التقوى وصنيع المتقين.

يقول - رحمه الله - في الآية الأولى - وهى قوله: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾: «وعقب بقوله: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ ﴾، فعلم منه أن أعمال المتقين في الدنيا هى ضد اللعب واللهو، لأنهم جعلت لهم دار أخرى هى خير، وقد علم أن الفوز فيها لا يكون إلا بعمل في الدنيا، فأنتج أن عملهم في اندنيا ليس اللهو واللعب، وأن حياة غيرهم هى المقصورة على اللهو واللعب». إلى أن يقول - رحمه الله: «وقوله: ﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ ﴾ تعريض بالمشركين بأنهم صائرون إلى الآخرة، لكنها ليست لهم بخير»[(١)].

ولما كان انشغال الناس بالدنيا هو الغالب على غير المتقين - فضلا عن المشركين - وكانت هى السبب في غفلتهم عن الآخرة، وعدم الاستعداد للقاء

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ١٩٤-١٩٥).

الله تعالى مع كونها نعيماً عاجلاً زائلاً يلحقه التنغيص، كان الانشغال بها عن الاخرة من قلة العقل، وضعف الفهم.

ولذا ختم القرآن الكريم الآية بقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾. يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «والاستفهام عن عدم عقلهم مستعمل في التوبيخ إن كان خطاباً للمشركين، أو في التحذير إن كان خطاباً للمؤمنين».[1]

أما آية الأعراف: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ فهذا التعقيب فيها قد جاء بعدما ذكر الله تعالى أولئك الذين أخذوا عرض الدنيا الزائل وانشغلوا به عن الباقى الدائم، مع قيام الحجة عليهم بدراسة ذلك وعلمه، مع ادعائهم الكاذب، وأمنيتهم الحمقى بأنهم سيغفر لهم. كيف أخذوا عرض هذا الأدنى وتركوا الحظ الباقى مع علو حسنه وشدة خيرته؟ لاشك أنهم لا يعقلون.

ذكر بعد ذلك قوله: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ ﴾. يقول العلامة الطاهر بن عاشور، في تفسيره «التحرير والتنوير»: «وفى قوله: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ ﴾ كناية عن كونهم خسروا خير الآخرة بأخذهم عرض الدنيا بتلك الكيفية، لأن كون الدار الآخرة خيراً مما أخذوه يستلزم أن يكون ما أخذوه قد أفات عليهم خير الآخرة.

وفى جعل الآخرة خيراً للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتقين، لأن الكناية عن خسرانهم خير الآخرة مع إثبات كون خير الآخرة للمتقين تستلزم أن الذين أضاعوا خير الآخرة ليسوا من المتقين، وهذه معان كثيرة جمعها قوله: ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ

---

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ١٩٥).

أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾، وهذا من حد إعجاز العجيب».[1]

ونختم بهذا - وإن كان على سبيل الاختصار الشديد للضرورة - عاقبة التقوى في الآخرة.

(١) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ١٦٤-١٦٥).

خاتمة

خاتمة

جاء ذكر التقوى بمشتقاتها المختلفة في القرآن الكريم في أكثر من مائتي موضع، مما يدل على اهتمام القرآن الكريم بها وأنها ملاك الأمر، ومن ثم وجدنا تنوع الأساليب التي جاءت فيها من أمر وتوصية بها، إلى ذكر صفات أهلها، إلى تبيين عاقبة أصحابها ومحبة الله لهم، ونجاتهم في الدنيا والآخرة إلى غير ذلك.

هذا ويمكن حصر أهم نتائج البحث فيما يلي:

*** مفهوم التقوى:**

فإن من ينظر إلى مفهوم التقوى في البحث يراه قد اتسع عما هو شائع ومألوف بين أهل العلم فضلاً عن غيرهم، ليشمل الإيمان وترك الشرك وامتثال الواجبات واجتناب المحرمات، والإتيان بالمستحبات وترك المكروهات وترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، مع اتقاء الشبهات والمبتدعات فكانت التقوى درجات، علاوة على تعريفات أخرى للتقوى يظهرها سياق الآيات كالخوف والإخلاص والتوبة وغيرها.

*** التقوى دعوة الرسل:**

وكانت النتيجة التالية للبحث أن التقوى دعوة الرسل، أي أن التقوى هي ترك الشرك والإيمان بالله، كما ذكر عن نوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب -عليهم السلام- كقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٠٦]، وهكذا عن بقية الرسل، ورأينا كذلك تدرج الرسل في دعوتهم إلى التقوى من الرفق إلى الإنكار مع ثباتهم على الدعوة في مختلف الأزمان والأحوال ولكل الطبقات، كما استخدم الرسل كافة الأساليب في حمل الناس على التقوى من الوعد والوعيد، والتحضيض والاعتبار بالأمم السابقة، والنظر في آيات الله الكونية وغير ذلك.

*** أساليب الدعوة إلى التقوى:**

وكان جديرًا في البحث تلك النتيجة المهمة، وهي أن القرآن الكريم ما ترك أسلوبًا قرأ عنه المرء ليحض الناس على تقوى الله إلا ذكره، وما ترك أحدًا إلا شمله بدعوة التقوى، فدعا الناس جميعًا بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، ودعا المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٨]، وفردًا: ﴿ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، والنبي نفسه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١].

وكذلك في معمولات التقوى، رأينا كذلك تعدد الأساليب الحاملة على التقوى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ ﴾، ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾، ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ .

بل زاد على ما سبق أن القرآن الكريم على ما لاحظه الباحث ورد فيه تذييل معظم أوامر التقوى بما يحمل عليها ويحض حضًا على الالتزام بها، كقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾، وقل أن يتكرر تذييل من هذه الأساليب، خاصة وقد رأينا متسقة تمام الاتساق مع بقية السياقات الواردة فيها، كل ذلك حملاً للناس على تقوى الله.

ثم يبين ذكر القرآن الكريم في مواطن كثيرة لعاقبة التقوى سواء كانت على دين المرء من زيادة إيمانه، وترقيه في درجاته إتيانه الفرقان، وفي الدنيا من نجاته وتيسير أوامره، وتفرغ همومه ورزقه.

وأما في الآخرة فتكفير السيئات والنجاة من النار، ودخول الجنة، وارتفاع أهل التقوى عن غيرهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ [البقرة: ٢١٢]

مع نزول الملائكة لتثبيتهم في الدنيا وفي القبر وحين يخرجون من قبورهم.

والأعلى من ذلك محبة الله لهم وولايته إياهم ومعيته معهم مع إقبال أعمالهم كل ذلك وأنه لا يقبل إلا منهم للحث على تقواه -سبحانه.

التقوى ونواقض الإيمان مما يذكر هنا أن البحث انتهى إلى أن نواقض التقوى هي نواقض الإيمان أو أن نواقض الإيمان في مقابل التقوى، وأن الكافرين في مقابل المتقين، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. إتحاف الأكابر بتهذيب كتاب الكبائر، شمس الدين الذهبي، تحقيق وتهذيب وترتيب د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة، دار الفتح، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٣. آثار التقوى في القرآن الكريم، راوية نور الدين عتر، دار المكتبي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٤. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الشعب، القاهرة.

٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد بن محمد بن مصطفى المعروف بأبي السعود، دار الفكر، بيروت.

٦. أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٨. إعراب القرآن الكريم، محيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٠. اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، د. عفت محمد الشرقاوي، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٠م.

١١. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٧٤م.
١٢. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
١٣. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
١٤. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ.
١٥. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، دار إحياء الكتب العربية، بيروت.
١٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام.
١٧. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
١٨. التفسير القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٩. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٢٠. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. محمد أحمد يوسف القاسم، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٢١. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٢٢. التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٢٣. التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٢٤. التقوى في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين، د. محمد أديب الصالح، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٢٥. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية.
٢٦. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٢٧. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، شهاب الدين بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.
٢٨. الدرر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار المعرفة، بيروت.
٢٩. الرحيق المختوم «بحث في السيرة النبوية»، صفي الدين المباركفوري، دار إحياء التراث.
٣٠. الرعاية لحقوق الله، أبو عبد الله الحارث المحاسبي، تحقيق الإمام عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة.
٣١. الزواجر عن اقتراف الكبائر، أحمد بن محمد بن علي بن حجر المكي الهيتمي، مطعبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
٣٢. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٣٣. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اللخمي،

تحقيق محمد أمين قرة وآخرون، مكتبة الفارابي، دمشق.
٣٤. الصلاة وحكم تاركها، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم، المكتبة القيمة.
٣٥. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٣٦. العبودية في الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، الدار السلفية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ.
٣٧. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق إرشاد الحق الأثري، دار الكتب الإسلامية، باكستان، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٣٨. الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى، تج الدين عمر بن علي الفاكهاني، تحقيق محي الدين بيدق، مؤسسة ريان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٣٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
٤٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٤١. المعجم المفهرس لألفاظ القرين الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار ومطابع الشعب.
٤٢. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الأصبهاني، مكتبة الأنجلو المصرية.
٤٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف النووي، تحقيق

عصام الصبابطي وغيره، دار الحديث، القاهرة.

٤٤. النكت والعيون، علي الماوردي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٥. الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق محمد علي أبو العباس، مكتبة القرآن، القاهرة.

٤٦. بدائع التفسير، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٤٧. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزآبادي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٤٨. بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى الحلبي، دمشق، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٤٩. تأملات في القرآن الكريم، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٥٠. تاريخ القرآن والتفسير، د. عبد الله محمود شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥١. تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلى وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبعة الشمرلي، ١٩٧٧م.

٥٢. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٥٣. تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، عبد الكريم بزهوزان النيسابوري القشيري، تحقيق سعيد قطيفة، المكتبة التوفيقية.

٥٤. تفسير المراغي، محمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

٥٥. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٦. جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، وعلى هامشه تفسير غرائب القرين ورغائب الفرقان، الحسن النيسابوري.

٥٧. جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.

٥٨. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، مطبعة السعادة.

٥٩. ديوان ابن المعتز، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

٦٠. ديوان الأعشى، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

٦١. ديوان الفرزدق، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

٦٢. ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

٦٣. ديوان جرير، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

٦٤. ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٦٥. رسالة إلى كل مسلم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق د. أسامة محمد عبد العظيم، دار الفتح، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٦٦. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٦٧. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الخير.

٦٨. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، أبو زكريا يحيى بن شرف

النووي، تحقيق حسان عبد المنان، المكتبة الإسلامية، عمان، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

٦٩. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٧٢هـ/ ١٩٨٧م.

٧٠. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٧٢. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار إحياء السنة النبوية.

٧٣. سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، رقمه ووضع فهارسه عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٧٤. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٧٥. شؤم المعصية وبركة التقوى، أحمد عز الدين البيانوني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٧٦. شرح الشفا، الملا علي القاري، دار الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت.

٧٧. شرح العقيدة الطحاوية، الطحاوي، تحقيق جماعة من العلماء، مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر.

٧٨. شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، نشره أحمد أمين، عبد السلام هارون،

لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م.
٧٩. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٨٠. ضعيف سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٨١. ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٨٢. طبقات الأولياء، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الحصري المعروف بابن الملقن، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٨٣. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي، تحقيق محمود محمد الطنامي، مطعبة عيسى الحلبي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
٨٤. عون المعبود شرح سنن أبي داود، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
٨٥. فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن باز، المكتبة السلفية، القاهرة.
٨٦. فتح البيان في مقاصد القرآن،، صديق حسن خان، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٩٦٥م.
٨٧. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، تحقيق سيد إبراهيم صادق، طبعة دار الحديث، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٨٨. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة

السابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٨٩. فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالي، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٩٠. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٩١. قصة التفسير أحمد الشرباصي، المكتبة الثقافية، ١٩٦٢م.

٩٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي المعروف بحاجي خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٩٣. كنز العمال في سنن الأفعال والأقوال، علاء الدين علي بن حسام الدين، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٩٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي المعروف بابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف، القاهرة.

٩٥. لطائف المعارف في مواسم العام من الوظائف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٩٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

٩٧. مجموع فتاوى شيخ الإسلامي ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، مكتبة ابن تيمية لإحياء كتب التراث الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٩٨. محاسن التأويل في التفسير، جمال الدين القاسمي، تصحيح محمد فؤاد

عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
٩٩. مختار الصحاح، الرازي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م.
١٠٠. مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨٩هـ.
١٠١. مدارج السالكين، بين منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزيه، دار غحياء الكتب العربية، بيروت.
١٠٢. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أحمد بن محمود النسفي، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٤٤هـ.
١٠٣. مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
١٠٤. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
١٠٥. مغني اللبيب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار إحياء الكتب العربية.
١٠٦. مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، دار الكتب السلفية، الطبعة الرابعة، ١٣٩٩هـ.
١٠٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، مكتبة ابن تيمية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
١٠٨. نفثات صدر المكمد، وقرة عين المسعد، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، العلامة الشيخ محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
١٠٩. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون،

إسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١١٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

١١١. ولاية الله والطريق إليها، دراسة وتحقيق لكتاب فطر الولي على حديث الولي لمحمد بن علي الشوكاني، إبراهيم إبراهيم هلال، دار الكتب الحديثة.

فهرس الموضوعات

مدخــل ١٣

المطلب الأول: اتجاهات التفسير ١٥

المطلب الثاني: التفسير الموضوعي ٢٢

۞ الفصل الأول: مفهوم التقوى........................ ٢٥

المطلب الأول: مادة التقوى ومعناها ٢٨

المطلب الثاني: ترتيب المادة إحصائياً ٣٠

المطلب الثالث: التقوى في كلام أهل الشرع........................ ٤٣

المطلب الرابع: ولكن يناله التقوى منكم ٥٧

المطلب الخامس: محل التقوى........................ ٦٣

المطلب السادس: لباس التقوى........................ ٧٥

المطلب السابع: كلمة التقوى ٨٢

المطلب الثامن: خير الزاد التقوى ٨٧

المطلب التاسع: بقية مواضع التقوى ٩٠

المطلب العاشر: التقوى أساس قبول العمل........................ ١٣٠

۞ الفصل الثاني: أساليب الأمر بالتقوى والحض عليها........................ ١٣٣

المطلب الأول: النصوص الواردة في الأمر بالتقوى ١٣٦

المطلب الثاني: أساليب الأمر بالتقوى ١٤١

المطلب الثالث: الأوامر المصاحبة للتقوى ١٦٤

۞ الفصل الثالث: التقوى دعوة الرسل ١٩٩
المطلب الأول: نصوص دعوة الرسل إلى التقوى ٢٠٣
المطلب الثاني: التكرار في الأمر بالتقوى ٢١٤
المطلب الثالث: تنوع أساليب دعوة الرسل إلى الله تعالى ٢١٩
المطلب الرابع: مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه
وأسباب ذلك ٢٥٠
۞ الفصل الرابع: أسباب التقوى ٢٦١
المطلب الأول: الإيمان ٢٦٥
المطلب الثاني: التقوى والعبادة ٢٧٣
المطلب الثالث: الأخلاق والسلوك ٢٨٠
المطلب الرابع: التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة ٢٨٢
المطلب الخامس: صفات المتقين ٢٨٤
۞ الفصل الخامس: عاقبة التقوى ٣٩١
المطلب الأول: آثار التقوى على دين المؤمن...................... ٤٢٧
المطلب الثاني: عاقبة التقوى في الدنيا ٤٣٥
المطلب الثالث: عاقبة التقوى في الآخرة.......................... ٤٤٣
خاتمة ٤٧٩
المراجع والمصادر ٤٨٥
فهرس الموضوعات ٤٩٦